

البدو فى الوطن العربى عبر العصور

(الجزء الأول)

تأليف

نخبة من الباحثين

المحرر

عُبادَةُ كُحَيْلَةَ «أبو أدهم»

تصدير

الدكتور: عادل غنيم





رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

البدو في الوطن العربي عبر العصور. تأليف : نخبة من
الباحثين؛ تحرير عبادة كحيلة "أبو آدهم"، تصدير: عادل
غنيم. - ط ١ - القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٥.

مج ١١ ٣٤ سم.

تدمك ٧ - ١٨٨٥ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - القبائل العربية
٢ - البدو.
(أ) كحيلة، عبادة (محرر)
(ب) العنوان.
ديوى ٩٢٩،١

١ / ٢٠١٣ / ١٣٧

رقم الإيداع ٥٢٧٢ / ٢٠١٥

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

**البدوى فى الوطن العربى
عبر العصور**

تصدير

لرئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الأساتذة الأفاضل،،، الزملاء الكرام،،، الأبناء الأعزاء،،،
أرحب بكم غاية الترحيب فى افتتاح الندوة السنوية للجمعية المصرية للدراسات
التاريخية والتي تقيمها بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة وموضوعها: «البدو فى
الوطن العربى عبر العصور».

ويلفت النظر فى هذه الندوة أمران:

الأول: هو الإقبال الكبير من الباحثين على المشاركة فى الندوة، حتى إننا لم نتمكن من
تلبية رغبات بعض الباحثين للمشاركة، فضلاً عن ازدحام الجلسات بالمتحدثين.

والثانى: أنها ربما كانت أول ندوة يشارك فيها باحثون عرب من تونس الخضراء
والمغرب العربى والخليج العربى وفلسطين.

ولا شك أن هناك عوامل مختلفة ساعدت على توفر الظروف المناسبة للإقبال على
المشاركة فى هذه الندوة. من أهمها موضوع الندوة فلقد كان للبدو دور مهم فى حركة التاريخ
فى وطننا العربى، منذ التاريخ القديم، مروراً بالتاريخ الوسيط وانتهاءً بالتاريخ الحديث
المعاصر، وترك هذا الدور - سواء كان مباشراً أم غير مباشر - آثاراً سياسية واقتصادية
 واجتماعية فى المجتمعات العربية المختلفة، وهو ما سنتضح تفاصيله من خلال البحوث
المقدمة من الأساتذة والباحثين.

ولكننى أعطى مثالا واحداً لدور البدو السياسى فى تاريخ فلسطين الحديث، فعندما
منع اليهود من دخول مدينة القدس أثناء الفترة الصليبية كانوا يُصلون عند الحائط الشرقى
للحرم القدسى الشريف، غير أن تغييراً حدث خلال الحكم المملوكى حيث كانت هجمات
البدو سبباً فى اتجاههم من الناحية الشرقية إلى مساحة قرب الحائط الغربى للحرم فأصدر
السلطان سليمان القانونى فرماًً يسمح لليهود بمكان محدد عند الحائط الغربى من قبيل
التسامح الدينى، ولم يكن المهندس التركى المسئول عن تحديد هذا المكان يعلم أن الحائط

الغربي للحرم القدسي الشريف هو الحائط الذي يطلق عليه المسلمون حائط البراق ، منذ
حادثة الإسراء والمعراج ، وسرعان ما روى اليهود أساطير كثيرة حول الحائط الذي أطلقوا
عليه فيما بعد وخلال العشرينيات من القرن العشرين «حائط المبكى».

فالعثمانيون في عهد سليمان القانوني هم الذين منحوا اليهود حق التعبد والصلاة
في مكان محدد عند حائط البراق أو الحرم القدسي بعد طردهم من إسبانيا أواخر القرن
الخامس عشر الميلادي ، ولم يكن المسئولون العثمانيون على قدر كاف من الوعي بقدسية
هذا المكان ، الذي شهد حادثة الإسراء والمعراج ، وكان أول قبلة للمسلمين . وهكذا يتضح
لنا أن هجمات البدو كانت سبباً في دفع اليهود إلى التوجه من الناحية الشرقية للحرم إلى
الناحية الغربية مما يسّر لهم تحديد مكان للصلاة قرب حائط البراق ، وهذا مثال لأهمية
دور البدو في حركة التاريخ.

الأساتذة الأفاضل ، ، الحضور الكرام

لايفوتني في ختام كلمتي أن أقدم جزيل الشكر للدكتور عماد أبو غازي الأمين العام
للمجلس الأعلى للثقافة على تعاونه الدائم مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في
أنشطتها الثقافية ، كما أعبر عن تقديري للأستاذ الدكتور عبادة كُحيلة مقرر الندوة ، والأستاذ
الدكتور أحمد الشربيني أمين الندوة على ما قاما به من أجل تنظيم الندوة ونجاحها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عادل غنيم



تقديم

أبو أدهم

فى زماننا المعاصر صارت الموضوعات البيئية ، أى الموضوعات التى ترتبط بأكثر من تخصص واحد، تحظى باهتمام الدوائر العلمية فى أقطار شتى، وهو ما دفع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لأن تجعل «البدو فى الوطن العربى عبر العصور» موضوع مؤتمرها لعام ٢٠١٠م.

والبدو Nomads مصطلح يعنى نمطا اجتماعيا، يغلب عليه الافتقار للإقامة والتوطن والاستقرار. وقد عرف وطننا العربى منذ أزمنة سحيقة جماعات بدوية تمارس مهنة أساسية هى الرعى، تجاورها فى بعض الأحيان مهن أخرى ثانوية، لم تكن لتحجب تلك المهنة الأساس أو الأم فى معظم مراحلها التاريخية.

بطبيعة الحال فإن هذه المهنة ستتترك أثرها فى الثقافة البدوية، ومن معالمها؛ التنظيم القبلى والسلطة الأبوية لشيخ القبيلة والعناية بالأنساب، والزواج الداخلى والأسرة الممتدة، والعزلة عن المجتمع وضعف الانتماء له والتصديق بالخوارق والكرامات، والحرص على الثأر والملكية العامة للأراضى والمراعى، ومن شأن ذلك كله أن يحول دون التكامل مع سائر فئات المجتمع ويضعف من فكرة المواطنة وسلطة الدولة.

ومنذ قديم كان للبدو حضور لافت فى أقطارنا العربية، وكان أهم مظهر لهذا الحضور هو الهجمات التى لا تنقطع على المستقرات الريفية والحضرية، وليست الغزوة (أو التغريبة) الهلالية التى أرخ لها ابن خلدون بغائبة عن أذهاننا وعندما نقلب فى كتب الحوليات لمؤرخين مثل المقرئى وابن إياس والجبرتى، نجد أنه قد لا تمر سنة واحدة دون أن ينوّهوا إلى غارة قام بها هؤلاء، وكيف أن الدولة كانت تتحسب لتلك الغارات على نحو أو آخر. من أجل ذلك برزت محاولات لتوطين هؤلاء البدو مثل محاولات الموحدىين فى بلاد المغرب فى القرن الثانى عشر، ومحاولة محمد على الكبير فى مصر فى الشطر الأول من القرن التاسع عشر، ومحاولة الملك عبد العزيز فى الجزيرة العربية فى الشطر الأول من

القرن العشرين وكان من شأن تلك المحاولات أن تحقق قدرًا من النجاحات، خصوصاً أنها أغرت هؤلاء البدو بتملك أراض زراعية (صار بعضهم في مصر من أصحاب الأبعديات) وإمدادهم بخدمات الدولة من صحة وتعليم وما إليه، مما كان له أثر واضح في الحد من عزلتهم، وإدماجهم على نحو ما في نسيج مجتمعاتهم.

فى الفترة ٥ - ٧ من أبريل (نيسان) ٢٠١٠م التأم عقد تلك الندوة التى دعت إليها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة، وكان اللافت للنظر تعدد المشاركات فيها وتطرق المشاركون إلى موضوعات شتى وليس موضوع التاريخ وحده، كما كان اللافت للنظر ذلك الحشد الغفير من جمهور كان حريصاً على حضور جلسات الندوة والمساهمة فى مداخلاتها مما أضفى عليها قدرًا وافرًا من الحيوية والتنوع والثراء.

بعد تأخر ليس لنا يد فيه اكتمل لدينا نحو عشرين مقالا وجدناها كافية لأن يتم ضمها بين دفتى كتاب.

لا يفوتنا فى هذه العجالة أن نشكر كل من أسدى إلينا يد العون من أجل إنجاز هذه الندوة، ومن أجل إصدار هذا الكتاب، ونخص بالذكر الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والأستاذ الدكتور أحمد الشربيني السيد أمين الندوة.

والله تعالى من وراء القصد وهو الموفق والمستعان.

غرة ذى الحجة ١٤٣٣هـ

السابع عشر من أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٢م

عن مفهوم «البداءة» عند ابن خلدون

مصطفى لبيب عبد الغنى^(١)

حفل «علم العمران» - المستحدث فى النسق الخلدونى - بطائفة من المفاهيم^(٢) والمسلمات والفروض الأساسية التى تأسست عليها إبداعات صاحبه النظرية. ودون التوقف عند إشكالية العلاقة بين «علم العمران» - المنبثق عند ابن خلدون من علم التاريخ - وبين علم التاريخ ذاته، وعن مدى أحقية ابن خلدون بأنه المؤسس لعلم «الاجتماع» - وهى الإشكالية التى شغلت الكثير من الباحثين - ننطلق هنا من تصور ابن خلدون المتميز للتاريخ بما هو خبير عن الاجتماع الإنسانى، الذى هو عمران العالم، ومن يقينه بأن «القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة بأن ننظر فى الاجتماع البشرى، الذى هو العمران» ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يُعتد به وما لا يمكن أن يعرض له^(٣). فعلم العمران يُعنى بفهم طبيعة التطور الاجتماعى والتبدل فى النظم والأحوال، أو بما يمكن تسميته بروح العصر الذى نُورِّخ له.

دراسة التاريخ - إذن - هى الإطار الأرحب للمنجزات الإنسانية، وهو إطار يستغرق جوانب شتى للعمران البشرى بما له من بُنى أساسية، وبحيث تتنوع مجالاته لتشمل التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ الدينى والتاريخ الفنى والتاريخ العلمى والتاريخ الأدبى، إلى غير ذلك من أقسام التاريخ.

ولعل أعمّ المفاهيم المستحدثة عند ابن خلدون، والتى يُعبّر كل مفهوم منها عن تصوره لمستوى بعينه من مستويات التحقق للعمران البشرى هى مفاهيم: «العمران» و«البداءة» و«العصبية» و«الوازع»، وكلها مفاهيم متضايقة ويفسّر بعضها بعضا، كما أنها - بما لها من دلالات محدّدة - تصبغ الخطاب الخلدونى بصبغة علمية اصطلاحية تبعد به عن اللغة الخطابية أو الأدبية عموما بما تزخر به من إichاءات واستتارات ومحسنات بديعية

(١) أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم، بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

(٢) نقصد بالمفاهيم «concepts» مجموع الصفات والخصائص الموضّحة لعنى كلى، وتقابلها «المصادقات» أى الموجودات العينية المتعدّدة - أفرادا كانت أو جماعات أو وقائع.

(٣) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٣٢٢، بتحقيق على عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠٤م.

وألفاظ مشتركة. ولهذه المفاهيم أطرٌ مرجعية تستند إليها - تاريخية وجغرافية (فى الزمان والمكان) - على نحو يكشف عن منهجه الواقعى الاستقرائى البعيد عن التجريد من ناحية وعن جودة تمثله لثقافة عصره وما تحتزنه من موروث إنسانى طويل، كما يكشف عن العلاقة المتوازنة عنده بين اللغة والفكر.

فى البداية، يطالعنا ابن خلدون، وهو يُعرِّف بدقة علمه الجديد ويحدِّد أقسامه، بوصف مورفولوجى يكشف عن طريقته فى التحليل البنائى الوظيفى فيقول: «ال عمران هو التساكن والتنازل فى مصر أو حِلَّةً للأُنس بالعشيرة واقتضاء الحاجات، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش... ومن هذا العمران ما يكون بدويًا، وهو الذى يكون فى الضواحي وفى الجبال وفى الحِللِ المنتَجعة فى القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريًا، وهو الذى بالأمصار والقُرى والمدن والمداشِر للاعتصام بها والتحصنُ بحدرانها.»^(١) وبلتفت ابن خلدون - وهو يُسَلِّم بالتلازم بين الأسباب والمسببات مبدأً حاكمًا للفكر والوجود - إلى أن تفاوت المجتمعات وتعدَّد مراتبها راجع إلى اختلاف أنماط الإنتاج، وفى ذلك يقول: «اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش. فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضرورى منه وبسيط قبل الحاجى والكمالى»^(٢). ولا شك أن «الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى» وسابق عليه. وكأن الضرورى أصل والكمالى فرع ناشئ عنه. وأول مطالب الإنسان الضرورى، ولا يُنتهى إلى الترف والكمال إلا إذا كان الضرورى حاصلًا^(٣).

مفهوم العمران، إذن، أوسع من مفهوم الحضارة أو التحضر، ويمكن اعتباره مساويا لمفهوم «الثقافة» - فى جانبها المعنوى والمادى - ومن هذا العمران ما هو بدوى ومنه ما هو حضرى. كما يتَّسع مفهوم «البداءة». كذلك - ليشمل العمران الريفى والبدوى معا فى مقابل مفهوم الحضارة أو التحضر: «فأهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الأنعام، وإنهم مقتصرون على الضرورى من الأقوات والملابس والكُنِّ وسائر الأحوال والعوائد ومُقَصِّرون عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو

(١) المصدر السابق، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧٢.

الشجر أو من الطين والحجارة غير مُتَجَدَّةٍ إنما هو قصد الاستغلال والكن لا ما وراءه؛ وقد يأوون إلى الغيران والكهوف. وأما أقواتهم فيتناولون بها يسير العلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسَّته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أوَّلَى من الظَّن، وهؤلاء هم سكان المدن والقُرى والجبال، وهم عامة البربر والأعاجم. ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعنٌ في الأغلب لارتعاد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويُسمَّون شايويةً، ومعناه القائمون على الشاء والبقر. ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترک وإخوانهم من التركمان والصقالبة. وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالاً، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الإبل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه المِلحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لما خض النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوانات فصلاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفء فأضطروا إلى إبعاد النجعة، وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً فأوغلوا في القفار نُفرةً عن الضعة منهم، فكانوا لذلك أشدَّ توحشا، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفترس من الحيوان العجم. وهؤلاء هم العرب، وفي معناتهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد، والتركمان بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نُجعةً وأشدُّ بداوةً لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط^(١). من هنا يتضح أن مفهوم «البداوة» يَجِبُ مفهوم «العرب» أو مفهوم «الأعراب» بتعبير أدق، وبدلالة وظيفية، وأن العلاقة بينهما هي علاقة تَضْمُن أو اشتمال.

وفي تأكيد ابن خلدون على الجانب الفني والمادى للحضارة في مقابل التوحش والامية في البداوة؛ وعلى صنوف الترف والكماليات لدى الحضرة مقابل الاقتصار على الضروريات والخشونة لدى البدو، يقول «الحَضْر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم زائدة» على الضروري، ومعاشهم على نسبة وُجْدِهِمْ^(٢).

وعن الحضارة يقول ابن خلدون إنها «التفنُّن في الترف واستجادة أحواله، والكَلف بالصنائع التي تُؤنَّق من أصنافه وسائر فنونه... وعلى قَدْر عُمران البلد تكون جودة

(١) المصدر السابق، ص ٤٦٩ - ٤٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦٨.

الصنائع للتأنيق فيها»^(١). فهو يعتبر التجارة والصناعة من مميزات الحضارة، ويدخل العلوم بأصنافها في مجموع الصنائع، أما مميزات البداوة فهي تربية الحيوان ورعيه، والفلاحة. والبداوة مرحلة طبيعية تسبق الحضارة وتنتهي بها، وهذا الانتقال يكون بالتمدُّن، ولذا نجد التمدُّن غايةً البدوى. وأحوال الحضارة ناشئة عن البداوة، والبداوة هى الأصل. وفي فصل من «المقدمة» بعنوان: «فى وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه» يقول ابن خلدون: «وأما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات [أى على الوجوه الأخرى الطبيعية للمعاش وهى الصناعة والتجارة] إذ هى بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم. وأما الصنائع فهى ثانيها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تُصَرَّف فيها الأفكار والأنظار ولهذا لا توجد غالبا إلا فى أهل الحضرة الذى هو متأخر عن البدو وثان له»^(٢). ولا يقصد ابن خلدون بكلمة البدو هنا مجرد أبناء البادية الرُّحَّل وإنما يستعملها للتعبير عن غير الحضريين من سكان المدن أيضا، أى البعيدين عن الأخذ بأسباب التحضر من علوم وصناعات، ولعل فى ذلك استباقا ملحوظا لبعض نظريات علم، الاجتماع الريفى المعاصر عن ظاهرة تريفيف الحضرة أو «العشوائيات» التى تنقل قيم الجماعات المهاجرة من الريف ومناطق البدو إلى المدن فتُغيِّر من بنيتها الاجتماعية؛ ذلك أن تطور المجتمعات - عنده - محكوم بطبيعة النشاط الاقتصادى السائد وبدرجة تركيبه أو تعقيده، وبما يُحقِّقه من وفرة فى الإنتاج، أى بأساليب التحضر، وبما يصاحب ذلك من منظومة للقيم وعوامل للضبط الاجتماعى.



إن مفهوم «البداوة» عند ابن خلدون - المؤمن بحتمية التغيير الدائم لأحوال العمران - مفهوم دينامى وليس سكونيا. كما يؤكد ابن خلدون على التضاييف بين هذا المفهوم ومفهوم «العصبية»، أو الانتماء المعبر عن «روح التضامن الجمعى»، والتى تلعب دورا حاسما إذ تقوم بمهمة القوة الموحدة للجماعة. فالعصبية خاصة جوهرية للقبيلة البدوية، وهى فى الوقت نفسه قاعدة نظامها ومصدر تقدُّمها. والبداوة تؤثر فى دور العصبية: فالصراع من أجل البقاء وأسلوب الحياة الخشنة يطبع العصبية بسمات ملائمة لهذه الظروف تتمثل فى

(١) المصدر السابق، ص ٨٥٧ - ٨٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣٦.

التحفُّز والدينامية والعنف. فللعصبية دور حيوى فى الدفاع والهجوم. ولسلطة العصبية دور فى تسوية العلاقات الداخلية وكبح جماح الخارجين على قيم الجماعة. وغاية العصبية - عند ابن خلدون - هى الملك. غير أن العصبية وحدها لا تكفى لأن تدفع القبيلة إلى نهاية تطورها الطبيعى إذ لابد من صفة أخرى هى شرط ضرورى وتلك هى الفضيلة أو الخلال، ويأتى فى المقدمة منها: العدل والجود. فالعصبية فى سعيها إلى إنشاء الملك والدولة تقوى بامتزاجها بالصفات الأخلاقية من شجاعة وبأس، كما هو الحال فى القبائل أهل العصبية من سكان البدو. وتقوى كذلك «بامتزاجها بدعوة دين، أو دعوة حق. وسرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف. وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلَّ الخلاف وحسُن التعاون والتعاوض واتسع نطاق الكلمة لذلك»^(١). ويضرب ابن خلدون على ذلك مثلاً قيام دولة الموحدين بالمغرب، حيث إن «الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة فلم يقف لهم شىء»^(٢)؛ ذلك أن «كل أمر تُحمَل عليه الكافة لابد له من العصبية»^(٣). وهنا يستدعى ابن خلدون الحديث النبوى الشريف: «ما بعث الله نبياً إلا فى منعة من قومه».

على أن ابن خلدون - بثقافته الإسلامية الراسخة - يردُّ وهم ثبات نقاء النسب ونبالة العرق، ويدحض دعاوى العنصرية البغيضة بمختلف صورها فنراه ينقد ذلك النمط من الحكم الذى أضع الخلال الحافظة للمجد واحتقرها وتوهَّم أن البنیان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو وجب منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال. كما يؤكد ابن خلدون على أن العناصر الغربية عن الجماعة يعتبرون بمرور الوقت أعضاء حقيقيين لأن المعنى الوحيد للانتماء إلى جماعة هو أن يُلبى الفرد حاجتها ويخضع لقوانينها، فيقول: «وإذا وُجدت ثمرات النسب فكأنه وُجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا بجريان أحكامها وأحوالهم عليه، وكأنه التحم بهم، ثم إنه قد يُتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر. وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب،

(١) المصدر السابق، ص ٥١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٢١.

ويلتحم قومٌ بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم»^(١). وينتهي ابن خلدون إلى تقرير أن «النسب أمرٌ وهميٌّ لا حقيقة، ونفعه إنما هو في الوصلة والالتحام»^(٢)؛ وأنه «من العوارض التي تعرض للآدميين، فهو كائن فاسد لا محالة. وليس يوجد لأحدٍ من أهل الخليقة شرف متصلٌ من آبائه من لدن آدم إليه»^(٣). ويصدق ذلك على المجتمع البدوي أو الحضري. وهنا يؤكد ابن خلدون على المبدأ الإنساني الرفيع وهو أن «قيمة المرء فيما يُحسّنه»، وتُسعفه في تقرير ذلك أيضا حاسته التاريخية ووعيه بالعوامل الموضوعية للنهضة وللانكسار^(٤).



ولا يغيب عن ابن خلدون تناول السيكلوجي للبداوة وللحضارة وبيان أثر البيئة البدوية والحضرية في طباع الناس وعقلياتهم. وفي استباق لما سيرده من بعد أمثال «جان جاك روسو» يقول ابن خلدون في فصل بعنوان «في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضَر»: «وسببه أن النفس إن كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر، وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلتين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه... وأهل الحضَر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوّثت أنفسهم بكثير من مذومات الخلق والشر، وبَعَدت عليهم طريق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد زهبت عنهم

(١) المصدر السابق، ص ٤٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٩١ - ٤٩٢.

(٤) خلاصة ما يراه ابن خلدون في هذا الشأن هو أن «الشرفَ والحَسَبَ إنما هو بالخلال»، (ص ٤٨٨) كما أنه «قد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة، ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك النسب يُعدّون به أنفسهم من أشراف البيوتات من أهل العصابات ولبسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة... وأكثر ما رَسَخَ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل: فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت؛ أولاً لما تعدّد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعته؛ ثم بالعصبية ثانياً وما أتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وكُتِبَ عليهم الجلاء في الأرض، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلاف من السنين. وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم... مع ذهاب العصبية ورسوخ الذلّ فيهم منذ أحقاب متطاولة. وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان». (ص ٤٨٩).

مذاهب الحشمة فى أحوالهم؛ فتجد الكثير منهم يُقَدِّعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم بين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدِّهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً. وأهل البدو إن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا إنه فى المقدار الضرورى لا فى الترف ولا فى شىء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم فى معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقلّ بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها، فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة، وهو ظاهرٌ. وقد يتوضَّح فيما بعد أن الحضارة هى نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرِّ والبعد عن الخير^(١).

وفى الفصل التالى - من المقدمة - وهو بعنوان: «فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة»، يعلل ابن خلدون ذلك قائلاً: «والسبب فى ذلك أن أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف. ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم، واستنموا إلى الأسوار التى تحيطهم والحرز الذى يحول دونهم، فلا تُهيِّجهم هيعةٌ ولا يُنْفِر لهم صيدٌ فهم غارون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزَّلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيالٌ على أبى مثوهم، حتى صار ذلك خلقاً يتنزَّل منزلة الطبيعة. وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم فى الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتبأهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكونونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح ويتلقَّتون عن كل جانب فى الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجَّسون للنبات والهيئات، ويتفرَّدون فى القفر والبيداء مُدَّيين ببأسهم؛ قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجيةً يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ. وأهل الحضرة مهما خالطوهم فى البادية أو صاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم. وذلك مشاهدٌ بالعيان حتى فى معرفة النواحي والجهات وموارد المياه

(١) المصدر السابق، ص ٤٧٣.

ومشارع السبل. وأصل ذلك أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذى ألفه فى الأحوال حتى صار خُلُقًا ومُلْكَةً تُنَزَّلُ منزلة الطبيعة والجِبَلَّةِ»^(١).

وفى بيان كيف أن شكل الحُكْم فى العمران الحضرى يُحدِّد سبيكولوجية الحضريين خلافا لما يُشاهد فى العمران البدوى يقول فى فصل بعنوان «فى أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مُفسِدةٌ للباس فىهم ذاهبةٌ بالمنعة منهم»: «وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه، إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم، فمن الغالب أن يكون الإنسان فى مُلْكَةٍ غيره ولا بد. فإذا كانت المُلْكَةُ رفيقةً وعادلة لا يُعانى منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مُدليين بما فى أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع، حتى صار الإدلال جِبَلَّةً لا يعرفون سواها. وأما إذا كانت المُلْكَةُ وأحكامها بالقهر والسيطرة والإضافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم، لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهدة... وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبةٌ للباس بالكلية، لأن وقوع العقاب ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التى تكسر من سورة بأسه بلاشك.

وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت فى ذلك بعض الشىء لرباه على المخافة والانقياد، فلا يكون مدلاً بآسه. ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشدَّ بأساً ممن تأخذهم الأحكام، ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام ومُلْكتهما من لَدُنْ مَرَبَاهم فى التأديب والتعليم فى الصنائع والعلوم والديانات يُنقص ذلك من بأسهم كثيراً، ولا يكادون يدافعون عن أنفسهم عاديةً بوجه من الوجوه»^(٢).

ولا يغيب عن فطنة ابن خلدون وهو يتحدث عن مساوئ الترف المصاحب لتعقد الحياة الحضرية أن يتوقف عند «اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم»^(٣)؛ فنجده يشير إلى أثر الغذاء والهواء فى تشكيل الطبائع، حتى إن «صناعة الطب محتاج إليها فى الحواضر والأمصار دون البادية»^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٩ - ٤٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٧٥ - ٨٧٨.

إن النظرة التكاملية تدفع بابن خلدون، وهو يدرك الصراع بين البداوة والحضارة، إلى اعتبار البداوة، على ما فيها من ميزات، عامل تخريب للمنجزات الحضارية. ولإيمانه برسالة الإسلام الحضارية نجده يُحذّر - فيما يقول ساطع الحصرى - من خطرين على المجتمع الإسلامى هما: البداوة من جهة، والاندفاع فى الترف وما يرافقه من وهن وتدهور من جهة أخرى. وإذا كان للبداوة محاسنها من الشجاعة والإباء والمروءة إلا أنها قرينةٌ للتوحُّش والتخريب والأُميَّة، وبعبدة عن مقتضيات العلم والفن والصناعة؛ ولئن يكن الحضر متصفين بالمكر والكذب والجبن والفحشاء إلا إنهم فى الوقت ذاته أهل علم وفن وصناعة.



وأخيراً، قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم، بعد استعراض هذه الفصول المتتابعة التى دَبَّجها يراع ابن خلدون فى «مقدمته» عن البداوة، هو ما سرُّ اهتمامه بهذه الظاهرة على الأصالة؟ ولعلَّ فيما أوضحه المؤرخ الكبير «أرنولد توينبى» إجابة عن ذلك. فقد اقتنع ابن خلدون بأن ما حدث فى المغرب العربى فى القرون الثلاثة الأخيرة - التى يسترجعها فى خاطره - وذلك التباين الملحوظ فى وطنه إفريقية بين الماضى والحاضر إنما هو من صنَّع قبائل العرب البدو، بنو هلال وبنو سُليم، الذين أطلقتهم الدولة الفاطمية فى مصر سنة ١٠٥١م نحو المغرب الثائر. و«هذه الفكرة التى كانت تختلج فى ذهنه من جرَّاء جزعه من العبث الذى قام به البدو، لم تقف جامدة، بل مضت قدما بحركة متزايدة، لتأمل الفرق بين طريقة الحياة فى البدو وفى الحضر، ولكى تحلَّ طبيعة كل منهما، وتدرس الجماعة، أو عاطفة الضمان الاجتماعى «العصبية»، التى هى رُدُّ البدوى النفسى على تحدَّى الحياة فى الصحراء، ولتجد رابطةً بين السبب والمسبب، بين العصبية وإنشاء الدولة، وبين إنشاء الدولة والدعوة الدينية، ومن ثمَّ يتسع نطاقها، حتى تحتضن أخيراً فى حلم رائع قيام الدولة وسقوطها، ونشوء الحضارات ونموها، وانهيائها وانحلالها»^(١). وهنا يُجسِّد ابن خلدون - بحق - ذلك المبدأ القائل: إن المفكر هو ابن عصره وربيب زمانه.

(١) نقلا عن: محمد عبد الله عنان: «ابن خلدون - حياته وتراثه الفكرى»، ص ٢٩١، الطبعة الرابعة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٦م.

الهكسوس

بين الحضارة والبداءة

فايز على^(١)

المقدمة:

يقابل الباحث فى تاريخ مصر عدة عقبات ليست حقبة الهكسوس بأهونها، وهى حقبة لا تزيد فى الغالب على مائة سنة إلا قليلاً، ولكنها فى غاية الأهمية إذ تأتى لاحقة للدولة الوسطى (٢١٣٤ ق. م - ١٧٧٨ ق. م) وسابقة الدولة المصرية الحديثة أو عصر الإمبراطورية (١٥٧٠ ق. م - ١٠٨٠ ق. م) ولكنها مليئة بالمبالغات والغموض أيضاً. والهكسوس ممن يُختلف فيهم: من هم، ومن أين جاءوا؟ وكَم مكثوا فى مصر؟ وكيف دخلوها؟ كما يختلف حول عدد ملوكهم، وهل هم أسرة واحدة وهى الأسرة الخامسة عشرة أم أكثر بحيث يضاف إليهم الأسرتان الرابعة عشرة والسادسة عشرة؟ وما علاقتهم بالأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة التاليتين مباشرة للأسرة الثانية عشرة العظيمة؟ وكذلك علاقتهم بالساميين عموماً وبنى إسرائيل خصوصاً (أو العبرانيين بالأحرى).

ولكن يكاد يكون من المتفق عليه أن أول ملوكهم هو ساليثيس، وأن عاصمتهم كانت فى أورابيس (حت وعرت) أو تل الضبعة الواقعة شرقى الدلتا، وقد أخرجوا من مصر فى السنة الثالثة لحكم أحمس (١٥٧٠ ق. م - ١٥٤٦ ق. م) أى سنة ١٥٦٧ ق. م وكان ذلك فى عهد ملكهم الكبير أبوفيس.

ثمة إذن حدان ثابتان: الأول هو سنة ١٧٧٨ ق. م، وهى نهاية الأسرة الثانية عشرة ومن ثم الدولة الوسطى، والثانى سنة ١٥٧٠ ق. م، وهى بداية الأسرة الثامنة عشرة التى أسسها أحمس قاهر الهكسوس، وبين هذين الحدين الزمنيين تقع فترة حكم الهكسوس طالت أو قصرت.

وإذا لم يكن ثمة عجب فى أن يحكم مصر فى عصور حديثة نسبية قوم أو أقوام جاءوا من آسيا مثل الفاطميين والأكراد والأيوبيين والمماليك ففيم العجب إذن أن يستولى

(١) كاتب وناقد ومترجم.

الهكسوس من قبل أولئك جميعا على مقاليد الأمور فى مصر قديما، وأن يصلوا إلى سدة الحكم فيها؟

من هم الهكسوس؟ اختلف أيضاً فى تفسير لفظة الهكسوس، ولكننا تحقيقاً لغرض البحث نقدم التعريف المعهود الذى يحظى بقبول عام، وهو أنها تصحيف للفظى: حكاو، خاسوت - حقاو أى أمراء، وخاسوت أى البلاد الأجنبية، فىكون المعنى: أمراء البلاد الأجنبية، وهو ما أطلقه المصريون على مشايخ البدو^(١). هبط الهكسوس أرض مصر واحتلوها بقيادة ساليتيس (الملك الكبير) حوالى سنة ١٦٧٥ ق.م وفق ما وصلنا عن مانيتون. وكل من قدم مصر من الآسيويين قبل ذلك كان يسمى مثلهم، فأبشاي قاد قافلة تجارية من الساميين خلدتها تصويرات مقبرة خنوم حتب فى بنى حسن، فهو وقافلته من الهكسوس أيضاً^(٢). وأما بريستد (١٩٣٥م ت) فيقول إن حق باللغة البربائية معناها حاكم، وسوس أى الأراضى، فهم إذن أى الهكسوس حكام الأراضى، فى إشارة إلى آسيا من حيث جاءوا. وينقل بريستد عن البعض أنهم فينيقيون أو عرب، وإن كان يفضل القول إنهم ساميون آسيويون^(٣). والواقع أن بريستد يؤكد رواية كل من يوسيفوس وأفريكانوس أن الهكسوس

(١) آلان جاردينر: مصر الفراعنة، ت. نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٧٧ - ١٨٧. قارن: الحسينى غنيم: الهكسوس، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥ وما بعدها، وتلك خلاصة ما أجمعت عليه المراجع التاريخية..

Hornung, E., Grundzuge der Agyptischen Geschichte, 2 Auf., WBG, Darmstadt 1978, S. 67.

Redford, D. A., «The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt», Oxford, Uni. Press (٢) 2001, vol. II, p. 136; Helck - otto - Westendorf, «Lexikon der Aegyptologie», Wiesbaden 1980, B. III, S. 94; Bevan, J.O., «Egypt and the Egyptians» G. Allen, London 1909, p. 147. وقارن فى ذلك رواية سفر التكوين: تك: ١٠: ١٢، بريستد: تاريخ: ١٢١: إذ يقول: «ويقودهم - أى القافلة،

حاكم أرض أبشا المعروفة عن العبرانيين بأبشاي».

(٣) بريستد (جيمس هنرى): تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح الفارسى، ت. حسن كمال، ط ١، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٩م، ص ١٤١. وقد أكد ردفورد ما ذكره علماء آثار آخرون أن أولئك القوم تكلموا لغات سامية غربية، وقد أطلق عليهم كذلك تسميات مثل: عامو - رتنو - ستيو - منتو ستيو (وأصولهم من بدو الجزيرة العربية الذين هاجروا شمالاً) والهكسوس عند نادفى ساميون جاءوا من الشرق، فهم فى تصوره عرب إذن وإن كانت لهم قيادة طورانية.. نادفى: التاريخ الجغرافى: ١٥٩ وما بعدها. وترجح كيبل أن المقصود تحديداً «حكام الأقطار أو البلاد» راجع: Quibell, op. cit., p. 72.

رعاة إخوان قدموا من فينيقيا، وأنهم برابرة أيضا. وقبل هؤلاء جميعا جاءنا صوت خيتي ملك إهناسيا (ح ٢٠٧٠ ق. م) لينبئه خليفته من خطر البدو الآسيويين^(١) على نحو ما سنوضح لاحقا.

وأما نادفي فيرى أنهم من أصل عربي، إذ معنى هك بالعربية ملك، وسوس أى راع، فهم ملوك رعاة إذن كما زعم يوسيفوس من قبل نقلا عن مانتيون^(٢). وفي تقديرنا أن صفة البداوة تعبر عن رغبة المصريين فى التهوين من شأن أولئك القوم، أو الأقوام الذين نقلوا فيما نقلوا أدوات الحضارة وطرز المدينة فيما نعتقد. فليس كل من قاد قافلة من الحمير وأطلق لحيته، وأرعى جلبابه بالبدوى فى تصورنا، ولكن مثل هذه السمات تشير إلى الأصل الكنعانى والعمورى المحتمل لأولئك التجار الذين ارتبطوا بمصر منذ الأزل. وقد كانت الجزيرة العربية المصدر الأول لتلك الهجرات البشرية التى رادت الأطراف الشمالية لها، وهم تحديدا الآراميون والكنعانيون والعموريون ونظراؤهم وفقا لما تطرحه بعض النظريات. ورب آيات يسيرة من سفر حزقيال تغنى عن مقالات مطولة فى وصف تجارة فينيقيا الزاهرة! «أخذوا أرزا من لبنان ليصنعوه لك (سوارى). صنعوا من بلوط باشان مجاديفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعم فى البقس من جزائر كتييم. كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية... جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك». (حزقيال ٢٧: ٥ - ٩). ولكن كل ما تقدم من حديث لا يفسر لنا ما حدث فى مصر آنذاك. ونحن نقدم تصورنا بإيجاز لا بد من العودة إلى لفظة هكسوس ذات المخصص الذى يشير إلى الأرض الأجنبية (الجبيلية تحديدا)، وهو يصور أرضا ذات نتوءات جبيلية ثلاثة. والشعوب التى أطلق عليها

(١) ترجع هذه التعاليم الحكيمة إلى العصر الإهناسى الذى سبق قيام الدولة الوسطى، وهى التعاليم التى لقنت للملك مري كا. رع. راجع مثلا: سليم حسن: الأدب المصرى القديم، كتاب أخبار اليوم، العدد ٢: ديسمبر ١٩٩٠م (ط ١: ١٩٤٥م)، ج ١، ص ٢٠٠. Brunner, H., «Altaegyptische Weisheit, WBG» Darmstadt 1988, S. S. 137 - 154.

(٢) سيد مظفر الدين نادفي: التاريخ الجغرافى للقرآن، ت. عبد الشافى غنيم عبد القادر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٤٩ - ١٦٢، حمزة على لقمان: أساطير من تاريخ اليمن، ط ٢، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٨م، ص ٣٨ وما بعدها، وينعتهم رو وجاردينر بأنهم مشايخ بدو فلسطينيون، ويرى الأول أنهم قاموا بغزو مصر نحو سنة ١٧٢٠ قبل الميلاد، راجع: جاردينر: مصر: ١٦٩، ١٧٩، Roux, G., «Ancient Iraq», Penguin pub., 229 - 216, 227 p. p. 1964, Australia وممن فند علاقة الهكسوس العرقية ببنى إسرائيل كيبيل: Quibell, A. A., «Egyptian History and Art», London, 1926, p. 72 ff.

شعوب الجبال هم الحوريون والكاشيون، إذ قدموا من الجبال الواقعة شمال شرقي العراق، وفق معلوماتنا التاريخية، ونزلوا أعالي دجلة والفرات (نهارين أو بلاد النهرين) منذ نحو سنة ٢٠٠٠ ق. م وفق ما يروى بصمجي، ونحو سنة ١٧٠٠ ق. م^(١) فسي تقدير آخر هو الأقرب إلى تاريخ الهكسوس في مصر، وعلى أية حال فالراجح - أو الثابت، أن الكاشيين أدخلوا الحصان إلى العراق، وكان يسمى حينذاك حمار بلاد الجبال، والحصان بعد هو أحد المجلوبات التي جاء بها الهكسوس إلى مصر. فما نجم حينئذ في منطقة نهرين؟

لا بد أن اضطراباً هائلاً نجم في المنطقة الآسيوية الممتدة من نهرين إلى البحر المتوسط وحدود مصر، وطبقاً للروايات المختلفة عن دخول الهكسوس مصر؛ فإنه من المتصور جداً أن قيادة آرية غازية - تكوّنت من صفوة الحوريين والكاشيين - قد جندت أقواماً من سكان منطقة سوريا وفلسطين، واستخدمتهم كقوة بشرية كاسحة لنزول مصر في هيئة أقرب إلى السيل الجارف العارم منها إلى الغزو العسكري المنظم. لعله غزو أجبر عليه قوم مكرهون أصحبوا في عداد الأسرى لبلد حبيب إلى نفوسهم منذ القدم!

نقول هذا لأن العلاقات بين مصر وآسيا الغربية (سوريا) وفلسطين كانت علاقات تجارية سليمة ذات طابع إنساني منذ حملة سنفرو (من الأسرة الرابعة) ذات الأربعين سفينة، بل منذ عهد خع سخم وى من الأسرة المصرية الثانية^(٢). علاقات هذه شأنها من المودة والصداقة باتت في مهب الريح. ولعل أقوام آسيا الغربية - وقد وقعوا تحت نفوذ

Von Soden, W., «Der Nahe Osten im Altertum, S. 46, in: Mann-Heuss, Weltgeschichte: (١) Eine Universalgeschichte, B. II, Prisma Verlag 1979: Roux, Op. cit., 144, 217, 227ff.

وقارن: فرج بصمجي: أقوام الشرق الأدنى القديم وهجراتهم، ص ٩٢ في: مجلة سومر، ج ٢، تموز ١٩٤٧م، مجلد ٣، مديرية الآثار القديمة، العراق، وكذا: أحمد فخري: مصر الفرعونية: ٢٤١ - ٢٤٣. وكونتنو: السابق: ٤٤١ وما بعدها. (٢) وقد أرخ حجر بالرمو لحملة سنفور إلى هناك:

Schaefer, H., Ein Bruchstueck altaegyptischer Annalen (Abhandlung der kgl. preuss. Akademie der Wissenschaften, 1902.

ويشمل البحث أهم القطع الكبيرة لوثيقة حجر بالرمو. وثمة مصنوعات مصرية وجدت في جيبيل تدل على قيام علاقات مصرية معها منذ حوالي ٣٠٠٠ ق. م.

Moscatti, S. (dir.), The Phoenicians, 1. ed., Bompiani Milan 1988, p. 522; Klengel, H., «Syria: 3000 to 300 B. C., A Handbook of Political History», Akademie Verl., 1992, p. p. 21, 32 - 40.

أهل الجبال - قد سخرروا واستخدموا كقوة ضاربة وما يشبهه الدروع البشرية رغما عنهم لتوطيد نفوذ أهل الجبال فى مصر.

وأما قول بروجش إن الهكسوس - يعنى الصفوة القائدة^(١) - قد جاءوا من أدوم موطنهم والأرض الجبلية المتاخمة له جنوب فلسطين فهو افتراض قائم، يعززه ما عاناه أولئك القوم من مجاعة دفعتهم إلى مصر حيث اتخذوا مركزا لهم فى شرق الدلتا هو Bailos أو بلبيس. ولكن هذا التصور لا يتفق مع التصور الذى نرجحه وفقا لما قدمناه من تفسيرات.

ما بعد الأسرة الثانية عشرة:

تعد سنة ١٧٧٨ ق. م، هى النهاية التقريبية للأسرة الثانية عشرة، والدولة الوسطى كلها (ح ٢٠٥٠ ق. م - ١٧٧٨ ق. م). وكانت التجارة مزدهرة بين مصر والمدن الفينيقية آنذاك، كما استعانت مصر بالبحارة الفينيقيين، ومنذ ذلك التاريخ تقريبا استهلكت فترة انتقالية تميزت بمزيد من المركزية إن أخذنا فى الحسبان درجة كبيرة من لا مركزية سياسية قد سادت إبان الدولة الوسطى نفسها. وشهد تل الضبعة (حوت أمنمحات) انطلاق بعثات المناجم التى ضمت جنودا آسيويين قادمهم أمراء مصريون سجلوا لنا أصلهم الآسيوى دون احتشام^(٢). وعلى ندرة الوثائق فإن ثمة أسرتين على الأقل قد حكمتا فى بعض مناطق مصر، وهما الأستران الثالثة عشرة والرابعة عشرة فى نفس الوقت منذ سنة ١٧٧٨ ق. م تقريبا. وربما بقى للعاصمة القديمة منف شىء من الرونق فاتخذها بعض الملوك المحليين مقرا لهم إبان الأسرة الثالثة عشرة. ولا جزم بأن أولئك الملوك كانوا مصريين خلص، كما عرفت حينئذ بيوت محلية قوية فى طيبة وقفت وأسيوط وشرق الدلتا وهلم جرا^(٣). وقد دل ذلك على حدوث انقسام فعلى داخلى فى عموم مصر. وثمة ما يشير إلى أن أحد ملوك تلك الأسرة الثالثة عشرة سمي نفسه بالآسيوى، الأمر الذى يرجح علو شأن الآسيويين الذين تزوجوا من نساء مصريات على ما تؤيده الشواهد.

(١) Brugsch, H., «Egypt under The Pharaohs, Spottiswoode & co., London 1879, I, p. 227 ff.

(٢) Bietak, M., «Avaris: The Capital of The Hyksos, Recent Excavations at Tell el - Daba' a», British Museum Press 1996, p. 19.

Redford. op. cit., . II: 138

(٣) وقد وجدت أسرات لم يرد لها ذكر فى الوثائق.

وثمة ملك آخر اسمه خنجر، وهو اسم آسيوى أيضا. وثالث اسمه نحسى (أى النوبى) الذى استقر كذلك فى حت وعرت (أواريس)، وامتد نفوذه إلى تل حبوة (ثارو) أو القنطرة، وقد ظهر انتماءه الآسيوى فى عبادته للإله هدد أو إله العواصف السورى بعل زافون، وقد أدمجه المصريون فى الإله ست المصرى. ولعل هذا ما دفع البعض إلى اعتبار نحسى ذا أصول آسيوية، وإن كان اسمه يقطع بأصله النوبى كما اتضح.

أما قصر تل الضبعة (من الأسرة الثالثة عشرة المبكرة) فثمة دلائل تشير إلى أنه هُجر فجأة، وهذا ما يفسره بيتاك بغضب ولى الأمر على ساكنه، الذى يبدو أنه تورط فى مناورات سياسية كانت ديدن ذلك الزمان الذى ساد مبدأ اغتصاب الملك. فها هو ذا حتب يب رع - من نفس الأسرة - يقفز إلى العرش بعد ما كان كبير حجابى الملكة الشرعية أو خدمها، ويبسط نفوذه بعد وفاتها. وقد يسر - وفقا لأصله الآسيوى المرجح - إقامة محلات للآسيويين بتل الضبعة، وقوى علاقات تجارية مع سوريا الشمالية، فتبدلت فى عهده الهدايا مع Ebla، ووجدت مقتنيات عاجية مصرية هناك^(١).

وإن كان أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد حمل اسم: أمنمحات سوبك حتب، فلقد ظهر لنا أن مصر كانت حينذاك مفككة، ولا غرو أن يكون بعض الآسيويين أو الموالين لهم قد صاروا حكاما محليين فى مقاطعات شبه مستقلة إذ ظهرت مستعمرات مدنية غلب فيها الجنود ذوو الأصول الآسيوية الذين استقدموا عائلاتهم، وخيلهم وعرباتهم وأغنامهم ذات الأصواف. أما الأسرة الرابعة عشرة فقد عدها جمهور المؤرخين وفق ما ورد عن مانيتون - أسرة قوية استقلت بغرب الدلتا، واتخذت سخا Xoïs عاصمة، وعمرت طويلا (ح ١٧٧٨ ق. م - ١٥٩٤ ق. م) وإن رجح البعض قيامها حينما بدأت الأسرة الثالثة عشرة تنهوى، أى بعد سنة ١٧٧٨ ق. م بمدة طويلة وفقا لبعض التقديرات. وهذا التصور لا يتفق فى رأينا مع ما ساد البلاد آنذاك من انتشار لنفوذ الأجانب. فلا يستقيم مع الشواهد التاريخية إلا أن تكون الأسرة الرابعة عشرة هكسوسية التكوين أو هكسوسية الانتماء والولاء. ولكن يبدو أن الأمر ألبس عليهم، فقرئت لفظة خاسوت (خاسو) وتعنى الهكسوس - خويس (سخا) على سبيل الخلط لا أكثر، وهى اللفظة التى أطلقها مانيتون على ملوك الأسرة الرابعة عشرة

Bietak, op. cit, p. p. 25 - 30.

(١)

وذلك دليل على عدم استقرار الأوضاع السياسية. عن الأسرة ١٣ راجع أيضا: Hornung, op. cit., 65 - 66

أيضا. وهذا ما أوضحه رد فورد مصححا ما شاع من أن الأسرة الرابعة عشرة قد قامت في سخا. وذلك أنه لا توجد ثمة مؤشرات على أن سخا كانت تتمتع بأى نوع من الاستقلال آنذاك^(١). من هنا وجب مراجعة التأريخ لتلك الفترة بإجمالها.

وكان من الطبيعي في ظل التشرذم الداخلي أن تخف قبضة مصر على رأس شمرا (أوجاريت) وجبله (بيبلوس) وصور (دير) وصيدا (صيدون) وغيرها من الإمارات في الساحل الفينيقي.

وأيا كان الأمر، فما يكاد يمر قرن على نهاية الدولة الوسطى حتى تظهر في مصر ثلاث أسرات أخرى (١٥، ١٦، ١٧) نحو سنة ١٦٧٥، ١٦٧٠، ١٦٦٠ قبل الميلاد على التوالي - في ظل وجود الأسرتين السابقتين (١٣، ١٤) أيضا.. وكان ذلك متأنيا مع ضغط الهجرات الآسيوية المستمر، وتنامى نفوذ الصفوة الآسيوية التي وضعت يدها على مقاليد الأمور في مصر أو كادت. تلك أسرات خمس إذن عرفنا أنها كانت تحكم في نفس الوقت، ولكن في أقاليم مختلفة، ولا بأس من تصور آحاد أو عشرات من أسرات أخرى مجهولة. أليس من المنطقي أن الدولة الواحدة تتفتت في عدد من الدويلات يصعب حصره إذا وضعنا في الحسبان أن نموذج دولة المدينة كان النموذج المفضل للقادمين الجدد في ذلك الزمان^(٢).

إننا لا ندهش إذن أن ضعف العاصمة أو زوال سلطانها نهائيا كان السمة العامة لتلك الفترة الانتقالية، إذ تحولت مدن كثيرة إلى عواصم جديدة، تولى إدارتها أمراء وقادة جند شقوا عصا الطاعة على العاصمة. وإن كان ظهور الهكسوس مستترا في صدر الفترة الانتقالية هذه، فلقد تأكد حكمهم مصر في منتصفها إبان الأسرة الخامسة عشرة، تلك التي تضم

Redford, op. cit., II: 138.

(١)

وهذا الرأي مخالف لكل ما ذكرته المراجع التاريخية، راجع مثلا: بريستد: تاريخ: ١٣٩ جاردينر: مصر: ١٦٩. Hornung, op. cit., 66.

(٢) الحديث هنا عن الأسرات الموثقة أي التي ورد ذكر لها في وثائق ذلك الزمان، وهي في بعض الأحيان مجرد شذرات أو إشارات غير متكاملة وبالطبع فهناك أسرات لم يأتنا عنها ذكر. راجع:

edford, op. cit., II: 138; Edwards, I. E. S (Editor), The Cambridge History, 3d Edition, at Uni. Press, Cambridge 1973, vol. II, p. I.

وثمة تفصيلات تاريخية هامة عن تلك الفترة لم نعرضها لضيق المقام عنها. راجع أيضا: أحمد فخرى: مصر:

٢٣٤ - ٢٤٠، زايد: مصر الخالدة: ١ : ٥٦٢... جاردينر: مصر الفراغة: ١٦٩.. بريستيد: ١٣٩ وما بعدها.

سنة ملوك كبار هكسوسيين، أولهم سالييتيس، ولعل أشهرهم أبو فيس. واسم سالييتيس سامى غربى. فالهكسوس عند فصيل من المؤرخين العرب هم العرب العاربة، الذين قدموا مصر من شمال الحجاز وأرجاء سيناء، طمعا فيها حين صارت النساء تحكمنها، ويستدلون أحيانا بأن اسم سالييتيس بالسامية يعنى سلطان، ويقابله شداد وشديد وهما ابنا عاد، وبهذا يردون أصلهم إلى إرم «إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ^(١)» (سورة الفجر ٦ : ٨).

توطد الهكسوس

لقد كان مجيء الهكسوس إلى مصر ضربة أملت بالبلاد كما يروى عن مانيتون - فذبخوا وحرقوا وخربوا وقتلوا كثيرا من الرجال، وسبوا النساء والأطفال. ولكننا نخطفى خطأ منهجيا بليغا إن أقمنا تقييما لفترة حكم الهكسوس على أساس ذلك الحكم وحده، وهو حكم ينطبق - فى كل الأحوال - على النخبة القائدة للهجرات الآسيوية دون سائر القوم. والجيد أن ثمة اتفاقا بين الرواية عن مانيتون وما ورد فى بردية تورين بشأن الأسرة ١٥، التى تعتبر الأسرة الهكسوسية الأم إن لم تكن الوحيدة. اتفاق شبه تام بينهما. وملوك تلك الأسرة ستة هم وفق أفريكانوس: سالييتيس (١٩ سنة)، بنون (٤٤ سنة)، أبخنان (٦١ سنة)، ستآن (٥٠ سنة)، أرخليس (٤٩ سنة)، أبوفيس (٦١ سنة). وتنسب لهم مجتمعين بردية تورين مدة حكم بلغت مائة وثمانية من الأعوام كما تقدم^(٢)، وأما حكام الأسرتين ١٦، ١٧ فعدّهم أفريكانوس من الهكسوس، ولكن يوزيببوس اعتبرهم تبعا للهكسوس،

(١) هذا مجمل ما ذهب إليه المؤرخون العرب مثل ابن عبد الحكم: فتسوح مصر وأخبارها، ت. محمد صبيح، دار التعاون، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٢٠ - ٢١. ويحدد ابن عبد الحكم الريان بن الوليد من العماليق، فيجعله فرعون الذى استوزر يوسف! فالهكسوس إذن هم العماليق فى زعمه. ولكن ابن خلدون العظيم (ت ١٤٠٦م) فند مزاعم أولئك المؤرخين، وعين منهم الطبرى والثعلبى والزمخشري، ودحض المبالغات فى شأن إرم ذات العماد: ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة ب. ت، ص ١٥ - ١٦ كما يرفض نادفى الخلط بين العرب وبنى إسرائيل فى: التاريخ الجغرافى: ١٥٨.

(٢) يرجع إلى تاريخ هؤلاء الملوك - وهو نزر يسير من الأخبار فى:

Edwards, op. cit., p. p. 59 - 63; Redford, op. cit., II: 13; Hornung, op. cit. S. S 67 - 70.

بريستد: تاريخ: ١٤٣. جاردينر: مصر الفراعنة: ١٧٧، زايد: مصر الخالدة: ١: ٥٨٧ - ٥٩٣، فخرى: مصر الفرعونية: ٢٤٩، سليم حسن: مصر القديمة. وكلهم راجع إلى بردية تورين: Canon Tourin، ويرى البعض أن يوسف الصديق قدم مصر فى عهد Apepa II، راجع:

Bevan, op. cit., p. 148; al - Ayedi, Abdul Rahman, «The Liberation War: The Expulsion of the Hyksos from Egypt», Obelisk Pub., Egypt 2008, p. p. 32 - 37.

وإن كنا نميل إلى أنهم على خلاف في الدرجة كانوا يدينون للهكسوس... والطريف أن ساليتيس (سلاطين) رأس الأسرة ١٥ الذي حكم نحو تسعة عشر عاما قد اتخذ لنفسه ألقابا مصرية (الاسم الحورى مدمر، ونبتى أى الإلهتان الحاميتان للوجهين هو: المقيد لأقطار القوس، واسم حور الذهبى هو الحامى لتخوم مملكته، وثمة لقب هكسوسى، وهو ذكر حر - سكر حادد أى ذاكرة الإله هدد Hadad^(١). إله العواصف السورى. وذلك أول تقليد من عهد الهكسوس يسير وفق التقليد المصرى (الألقاب الخمسة)^(٢). ويتجه الرأى إلى أن ساليتيس هو شالك (شارك) المذكور فى متون أنساب الكهنة بسقارة. وقد بقيت فى تل الضبعة بقايا قلعة الهكسوس ذات الجدر السميقة، التى كانت تضم حديقة غناء فيها قصر الملك، وهى فى الغالب تلك الحديقة التى أشار إليها الملك أبوفيس فيما يعرف بلوحة كامس^(٣). وأبو فيس عاش جيلا بعد شالك.

أما أباخنان (خيان: سووسر رع) فقد وجد اسمه منقوشا على بقايا منشآت بالجبلين التى كانت تعدّ من المراكز الحصينة، التى شادها الهكسوس فى الجنوب، وعلى آنية حجرية فى كنوسوس وبوغازكوى، وتماثيل اغتصبها من ملوك الدولة الوسطى. وجاردينر مثلا يعتبر أنه من المحتمل اعتبار ياناس أو Iannis لدى مانيتون - هو خيان الذى أخذ لقب رئيس البلاد الأجنبية فى عدد من العجول التذكارية، كما حمل تارة لقب الإله الطيب وأخرى لقب ابن الشمس: ساوسران رع على غطاء إناء مرمرى وجد

Bietak, Avaris, p. 60 ff; Redford, op. cit., II, p. 139.

(١)

وعن حدد إله سوريا والرافدين: كونتنو: الحضارة الفينيقية: ١١٧ وما بعدها.

(٢) والألقاب الخمسة لرعون هى: اللقب الحورى (نسبة للإله حور)، وحور الذهبى (المنتصر على ست)، ونبتى

(المنتمى للربيتين)، وسارع (ابن الشمس)، نسوييتى (ملك الأرضين). راجع:

Barker, D. D., «Encyclopedia of the Pharaohs», vol. I, AUC, Cairo 2008, p. 511.

(٣) Bietak, op. cit., p. 65. ولعل اسم ياناس قريب من يونس (يونا/ يونان). وثمة لوحتان: لوحة كامس

الأولى - أو لوحة كارنارفون - التى كشف عنها سنة ١٩٠٨م فى طيبة، وتحكى عن دوافع الحرب التى خاضها كامس ضد الهكسوس. وأما لوحة كامس الثانية فكشف عنها سنة ١٩٥٤م عند مدخل بهو الأساطين بالكرنك، وهى تستكمل الرواية حيث توقفت اللوحة الأولى. وقد صورت اللوحتان شجاعة ملكنا كامس فى تعبيرات بلاغية فريدة. كذلك نعلم أن السنة الحادية عشرة لحكم خامودى بن أبوفيس قد وافقت السنة الثالثة من حكم كامس. راجع:

Redford, op. cit., p. 140; al - Ayedi, op. cit., p. 67 ff.

في كنوسوس بجزيرة كريت^(١). وقد عثر في تل الضبعة على لوحة باسم خيان (Janassi عند شنايدر)، وأصل اسمه كما يقول بيتاك Jinassi - Ad ويعنى في السامية الغربية الذى رفعه الأب، ولعله هو نفسه Jannas وفق رواية مانيتون^(٢). وقد كشف أخيراً فى قصره عن خاتم طينى ذى كتابات مسمارية، وهو يرجع إلى عصر حمورابى (١٧٩٢ ق. م - ١٧٥٠ ق. م). ويستدل بيتاك بهذا الكشف على متانة العلاقات التجارية لمصر آنذاك. وأما أسيس (عزير) أو أرخليس Arkhles، فقد وجد اسمه منقوشاً على مسلة فى سان الحجر، وهو يعد خاتم الأسرة الهكسوسية الخامسة عشرة^(٣).

كما تقدم لنا آثار تل الضبعة وغيرها حطاما أثريا يحمل أسماء وألقابا أمكن مضاهاة بعضها بأولئك الملوك الستة، وأما البعض الآخر فيرجح أن يكونوا ملوكا مدعين أو ملوكا فرعيين، منهم مثلاً يعقوب حر وعنات حر، وهما يحملان قرابة واضحة للبرانيين، وينتسبان للإله إيل (حر) إله البرانيين.

حلقة الانتقال: لم يكن النفوذ الآسيوى طارئاً إذن حين قرر الهكسوس تأسيس أسرتههم. بل ظل ذلك النفوذ يتنامى عبر عقود بل قرون، ويحضرنا هنا دليل من مقابر بنى حسن التى ترجع لعصر الدولة الوسطى، إذ تصور لنا جدرانها جنوداً آسيويين (من البدو) بأسلحتهم وهم يتدربون، وسواهم من التجار والصناع وبناة السفن الآسيوية^(٤). والسؤال ملحّ إذن عن حلقة الانتقال تلك، التى تبدو مفاجئة، ولكنها فى الواقع ليست كذلك بالنظر إلى سياقها. لقد كان تغلغل النفوذ الآسيوى فى شرق الدلتا وزحفه تجاه منف (العاصمة القديمة) ويتى تاوى - قرب الفيوم - وهى عاصمة الدولة الوسطى الزائلة، أمراً حاسماً فى ظهور الهكسوس كقوة حاكمة، وثمة دلائل فى أرشيف اللاهون على تشييد محلات

(١) جاردينر: مصر الفراغة: ١٨٠ ونعتبر هذه اللقى شاهداً على ازدهار فنى ولو بدرجة ما، برغم هذا فالشائع أن عصر الهكسوس كان عصر تدهور ثقافى وفنى على نحو ما نجده عند ولدننج مثلاً: Woldering, I. «The Arts of Egypt», Thames & Hudson, London 1967, p. p. 114 - 115.

ويلاحظ زيادة عدد الكنعانيين المتجهين إلى الدلتا للإقامة بها إبان تسلل الهكسوس إليها، وهم أمراء البلاد الأجنبية: The Phoenicians, p. 524.

Bietak, op. cit., p. 65 - 76 comp. (٢)

Edwards, op. cit p 63.... ويأتى خامودى - بدلا من عزير - فى بعض الوثائق، وهى مختلفة. (٣)

Bietak, op. cit. (٤)

آسيوية حول العاصمة يتى تاوى فى عهد أمنمحات الثالث نفسه ، وأن عمال المناجم فى عهده كانوا من الرتنو (سكان سوريا وفلسطين)^(٥).

فالم تصور إذن أن أصحاب النفوذ من الآسيويين وأتباعهم فى شرق الدلتا قد اتحدوا سويا ليعلنوا سيادتهم على نطاق واسع مع قرب مجيء الغازى سالييتيس (حوالى سنة ١٦٧٥ ق. م). كما أنه من غير المستبعد أن يقوم سالييتيس بمهاجمة منف واحتلالها، ولا غرو فهى عاصمة الأسرات المصرية الأولى، ورمز مصر كلها، ولا يستبعد أنه كان ثمة جماعات وطنية ضمت المصريين وغيرهم قد قامت بالتصدى للمحتل ومقاومته. وإلا ففيم رواية يوسيفوس أن سالييتيس قاد نحو ٢٤٠ ألف جندى^(٦)!

ولا يستبعد أيضا أن يقوم سالييتيس، وقد احتل منف، بمواصلة المسير إلى يتى تاوى ليخضعها لنفوذه هى الأخرى. وإن تصورنا حدوث الأمرين كليهما نحو سنة ١٦٧٥ ق. م فهذا لم يمنع بقاء أسرات أخرى (١٣ و ١٤) وقيام أسرات أخرى (مثل الأستين ١٦، ١٧ بعد قليل)، بيد أن تلك الأسرات جميعا كان عليها أن تتعايش مع الأوضاع الجديدة بشكل أو بآخر، وإن انتقص ذلك من سيادتها وهى سيادة نسبية فى كل الأحوال إذ لم تكن أى من تلك الأسرات لتتطلع إلى حكم مصر كلها.

ولعل ملوك الأسرة الثالثة عشرة - وهم ملوك دويلات كما تقدم - صانعو القادم الجديد أعنى سالييتيس، أو دانوا له بالولاء. بل لعلهم مثلوا طليعة له وقاموا بدور المتآمر معه لتيسير مهمته. كل هذه ترجيحات قائمة. وربما ارتد ملوك الأسرة ١٣ على أعقابهم هاربين إلى الصعيد ليتركوا الدلتا ويتى تاوى وجوارهما مجالا لنفوذ الهكسوس الجدد^(٧). وإن كان

Bietak, op. cit., p. p. 19 - 20.

(٥)

برغم ذلك فالشواهد تظهر استمرار النفوذ المصرى فى النوبة إبان الأسرة ١٣... راجع تفصيلا: وولتر إيمرى: مصر وبلاد النوبة، ت. تحفة هندوسة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٧٣.

(٦) كان مقدم الهكسوس فيما يرويه يوسيفوس عن مانيتون - ضربة أملت بالبلاد «والضربة» وإن ذكرتنا بالضربات العشر التوراتية تنم عن اعتقاد فى القدرية بمعنى أن ثمة قوة غيبية ذات أثر فى التاريخ. وقد وضحت كيبيل هذه النظرية فى الربط بين الهكسوس وبنى إسرائيل وفندتها: Quibell, op. cit, p. p 72 - 75 وقارن: زايد: مصر: ١: ٥٨٢. ونرى أن تعداد الجيش على هذا النحو أمر مبالغ فيه جدا.

(٧) نفوذ الهكسوس توطد فى الدلتا، وكان لهم نقاط ارتكاز على امتداد النيل، مما دلت عليه الآثار، ومنها الجبلين الواقعة جنوبى طيبة ونفروسى، وثمة إشارات إلى أن نفوذ سلاطيس قد امتد جنوبا حتى كرما (الجندل الثالث بالنوبة العليا). راجع: نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية، ب. ت، ج ١، ص ١٣٨، ١٤٣، إيمرى: مصر ١٧٧: ١٧٨.

الملوك الهاربون أنفسهم يمكن أن يسموا بالهكسوس وفق التصور المصرى فكيف إذن يهرب هؤلاء من أولئك؟ مردّ الأمر إلى اتفاق الغرض أو اختلافه. فمن المحتمل جدا أن مصلحة ملوك الأسرة ١٣ كانت غير موافقة لمرامى سالييتيس وتطلعاته. من الصعب إذن الحكم على ملوك الأسرة ١٣ جميعا بأنهم كانوا متعاونين مع الغزاة.

متى قَدِمُوا؟

من الثابت أن النجاح فى طرد الهكسوس قد تم فى السنة الثالثة لحكم أحمس: ح ١٥٦٧ ق. م، الذى اعتبره مانتيون عن حق مؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الثامنة عشرة، وإن كان ابن الملك الشهيد سقن رع الذى قضى نحبه فى الحرب ضد الهكسوس، كما كان أبا كامس الذى واصل الكفاح حتى لقي بارتئيه.

فإذا اتفقنا على تقدير مدة حكم الهكسوس بمائة من السنوات، فإن بداية حكمهم يجب أن تقع نحو ١٦٧٥ ق. م. فهل هذا ما تؤكده كذلك لوحة الأربعمئة الشهيرة؟ وهى لوحة كشف عنها مارييت فى تانيس فى شرق الدلتا؟^(١) تحمل اللوحة تصويرا لرئيس الثانى وهو يقدم القربان للإله ست، وأما سىتى والد رمسيس - الذى كان وزيرا وقائدا حربيا للملك حور محب - فيروى النص عنه أنه جاء فى السنة الأربعمئة لبناء معبد الإله ست الذى أقامه الهكسوس فى حت وعرت، ليقدم له الولاء. ولما كانت سنة ١٣٣٠ ق. م ملائمة لتلك الزيارة التى قام بها سىتى فى عهد حور محب؛ فإنه بإضافة أربعمئة سنة يتحدد مقدم الهكسوس نحو سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد، إذ من المتصور أن يسارعوا بتأسيس معبد إلههم فور مجيئهم إلى البلاد.

والتاريخان مقبولان دون الخوض فى تفاصيل كثيرة، من الممكن أن سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد تحدد وقت بناء معبد الإله (بعل) أو ست من قبل الأقوام الآسيويين. بينما تشير سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد - أو نحو ذلك إلى الضربة التى أملت بالبلاد على حد تعبير مانتيون.

(١) راجع تفصيلا: سليم حسن: مصر القديمة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م، ج ١٠، ص ٢٣١، أحمد فخرى: السابق: ٢٤٨. نجيب إبراهيم: مصر: ١٤٢ - ١٤٣. بيكى (جميس): الآثار المصرية فى وادى النيل، ت. لبيب حبشى - فريد، دار الكرنك، القاهرة، ب. ت. ج ١، ص ٦٧. وعثر بترى أيضا فى معبد تانيس الذى شاده رمسيس ٢ على تماثيل ضخمة بهيئة أبى الهول اغتصب بعضها أبو فيس، وهى ترجع لعهد الأسرة ١٣ (مرامشع وسبك حتب ٤: نفسه: ١: ٦٨). ولكن محرم كمال: الفن المصرى: ١٢٧ يرجعها إلى عصر أمنمحات ٣.

وإذا كان الهكسوس قد سيطروا سيطرة فعلية على الدلتا ومصر الوسطى حتى القوصية، فقد سيطرت الأسرة الطيبية على المسافة الممتدة من القوصية شمالا حتى إليفانتين (الجدل الأول) جنوبا على نحو ما تصفه الوثائق. وأما المنطقة الواقعة جنوب إليفانتين فخضعت لنفوذ النوبة. وقد دان الملوك الطيبيون لنفوذ الهكسوس، فكانوا يؤدون لهم الجزية.

جدل الحضارة والبداءة:

من الجائز لدينا أن يكون الهكسوس قد قادوا شعوبا قدم بعضها، من مناطق بدوية من الجزيرة العربية، ولكن لا شك أن الأصل البدوي لا يعنى البقاء أبدا على حال البداءة، فقد جلب القوم معهم تقنية حربية متقدمة تمثلت فى القوس المركب والخنجر والسيوف البرونزية، جلبوها معهم فيما يشبه المفاجأة المذهلة^(١). هذه العناصر الشعبوية التى يغلب عليها فى ظننا الأصل السامى شكلت تحديا لوادى النيل وحضارته المستقرة فى مصر والنوبة. التغيير جاء فى مواجهة الثبات، والحركة أمام السكون، والتعدد أمام الوحدة، فحدث ما يمكن تسميته بالصدمة الحضارية. فمما لا شك فيه أن خبرة الترحال والعمل بالتجارة وغيرها من الحرف لدى تلك الشعوب أكسبتها قدرة على الجلال والتحدى فضلا عن روح المغامرة التى تصل أحيانا إلى حد الطمع، وقد تتجاوز العمل المشروع بالتجارة إلى القرصنة غير المشروعة^(٢). وإن كان العقل لا يسبغ دائما ما يروى من مبالغات.

وفى تصورنا أن هذه العناصر المغيرة ذات الأصل البدوي كانت محملة بعناصر حضارية انصهرت فى بوتقة آسيا الغربية. أما مصر آنذاك فقد ظلت على حالها المعهودة: حضارة زراعية مستقرّة، ولكننا إذا رجعنا إلى عصر الانتقال الأول؛ لأمكننا أن نطالع فى تعاليم خيتى صورة نمطية للبدوى القادم من آسيا مهددا وادى النيل الآمن. إذ يحض هذا الملك العظيم خليفته على وجوب اليقظة تجاه البدو، قائلًا إن البدوى آسيوى شريد غير مستقر، اعتاد على مغادرة بلاده ذات المسالك الجبلية الوعرة، ولا شىء يحد من حركته الدائبة

(١) شكلت العربية الحربية سلاح المدرعات فى جيوش ذلك الزمان. وتقوم الشواهد على أن الحصان عرف فى النوبة قبل عصر الهكسوس راجع التعليق رقم (٤٢) كذلك كشوف إيمرى فى بلانه وقسطل وبوهن - فى: مصر وبلاد النوبة: ص ٨٢ - ٩٠.

(٢) ثمة روايات شهيرة عن أعمال القرصنة التى نسبت إلى التجار الفينيقيين وقد تشوبها المبالغات والتهويل. راجع: ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ت. محمد عبد الهادى شعيرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣٦٠ وما بعدها.

منذ الأزل، وهو مجبول على خوض الحروب. «إن ذلك الآسيوى تعس نظرا لحال البلاد التي جاء منها - فهو ما انفك عطشان يبحث عن الماء، متربصا مختفيا وراء أجمة من الأشجار، إن سبله وعرة تقع في الجبال، وهو لا يطيق الاستقرار في مكان بعينه، إذ تدفعه فطرته إلى أن يطلق ساقية في حركة دائمة. وإنه اعتاد الحرب منذ عهد حور (منذ الأزل) وإذا كان لا ينتصر فإنه كذلك لا ينهزم أبدا. وهو لا يعلن عن ميعاد هجومه كاللص الخليع»^(١).

ليس هذا وحسب، بل إن التحذيرات الشهيرة التي تنسب إلى إيبيور - من عصر الانتقال الأول - تقدم تحذيرات واضحة لفرعون - الذي نجهل بالطبع هويته من انتفاضة مزعجة. والبعض يرى أن هذى التحذيرات كانت من عصر الهكسوس، وهكذا يرون أن إيبيور قد عاصر عصر الانتقال الثاني وليس الأول.

وبناء على ذلك فإن عصر الهكسوس لم يكن شرا كله، فلا ننسى أيضا أنهم قدموا من مناطق زراعية وإن اعتمدت زراعتهم على الأمطار والأنهار الصغيرة فيما اعتمدنا نحن في زراعتنا على النيل بالأساس^(٢). وكان ديدهم حسن استغلال المساحة المنزرعة إلى أقصى حد. إن تباين نمطى الزراعة قد يعنى اختلافا حضاريا، ولكن هل يجوز اعتباره فيصلا بين البداوة والحضارة؟ لا نعتقد هذا.

ولقد عرفت مصر المركزية الراسخة في العصر العتيق (الأسرتين الأوليين) ومستهل الدولة القديمة (الأسرات من الثالثة إلى السادسة)، ولكن تراخى قبضة العاصمة وازدياد شأن الأقاليم بدا من ملامح الإدارة في مصر بعد ذلك العصر نظرا لتطورات حدثت داخل مصر، قامت بتعزيزها ظروف خارجية. إذ ساد الشرق القديم كله حركات هجرة واسعة جاءت إلينا بالهكسوس، الذين اعتبروا ضربة ألت بالبلاد، وأنهم دمروا وذبحوا، وهدموا معابدنا واشتتوا في معاملة السكان، فقتلوا وأسروا. ولكن من قال إن أهل الحضارات لا يقترفون كل هذه الأفعال؟ إن حركة الأقوام الذين قادم الهكسوس إلى مصر جلبت معها

(١) فايز على: تعاليم الملك الفيلسوف، القاهرة ٢٠٠٥م مخطوط، وقارن: 16 - 12 p. cit., al - Ayedi, op.

جاردنر: مصر الفرعونية: ٥٤. والمقصود بالخليع أى المخلوع الذى خلعه قومه لسوء سلوكه.

(٢) راجع: كونتنو: الحضارة الفينيقية: ٣٤٢ ومن ثم نعارض ما ذهب إليه أستاذنا أحمد فخرى من أن فترة حكم الهكسوس لم تترك أى أثر حسن فى الفن المصرى أو الفخار أو حتى فى الديانة.. راجع: مصر الفرعونية: ٢٤٧ - ٢٤٨، وهذا ما يقوله أيضا، وولدرينج.

أشتاتا من أفكار ومنتجات حضارية على نحو يبدو غير مسبوق. ولا نعتقد أن هذه كانت الغزوة الآسيوية الأولى، ولكن لعلها كانت الأهم، ونستأنس هنا برأى مؤرخنا الكبير شفيق غربال أن اليهود (بنى إسرائيل) زادوا في مصر إبان حكم الهكسوس عددا واثرا، وحذقوا الفنون كأعمال المعادن والنسيج ولم يؤثروا البقاء بعد رحيل الهكسوس، فرحلوا على حد قوله رحيلا عسكريا حاشدا (غربال: تكوين مصر - النهضة المصرية - ص ٥١).

ونحن - في غمرة الحماس الوطني - نسقط عمدا أو سهوا ما خلفته فترة الهكسوس من تراث ضاع معظمه كما يحدث عادة في فترات الانتقال. من ذلك بردية ريند الشهيرة التي تقدم معارف رياضية مهمة عن كيفية حساب مساحة الأشكال الهندسية كالدائرة والمثلث وحجم الهرم الناقص.. يضاف لذلك برديات طيبة مهمة. وبردية وستكار الأدبية الشهيرة يرجعها البعض مثل ردفورد إلى عصر الهكسوس أيضا.

هل كونوا امبراطورية؟

انقسم المؤرخون بين مؤيد لفكرة امبراطورية هكسوسية، ومعارض. والأدلة الأثرية التي يسوقها المؤيدون ومنها الفخار - قابلة للدحض كما سنرى. وبريستد على رأس القائلين إن الهكسوس أسسوا امبراطورية شملت الفرات وآسيا الغربية ومصر وجزر المتوسط، وكانت قادش في وسط سوريا عاصمتها. وقول بريستد بالأصل الفينيقي - والآسيوي على الأرجح للهكسوس، يتسق مع هذه الفكرة. ولذلك في رأيه ارتد الهكسوس تلقائيا إلى آسيا الغربية لما طردوا من مصر^(١). وبالرجوع إلى المذبح الذي أقامه أبوفيس، وكرسه للإله سوتبخ (ست)، وهو موجود الآن في متحف القاهرة نجد عليه نصا يذكر أبوفيس باعتباره حاكم عدة أقطار منها مصر، ولما كان فرس النهر هو الحيوان المقدس للإله ست؛ فإنه من المنطقي أن يبعث أبوفيس برسائلته المعبرة إلى سفن رع بخصوص تعذيب أفراس النهر في طيبة، وهي الرسالة التي سنشير إليها لاحقا. وأما خيان أو ياناس خليفة أبوفيس فقد حمل لقب حاكم الأقطار أيضا، مما يشير إلى إمباطورية شاسعة تبودلت فيها منتجات الحضارة من فخار وآنية سيراميكية وجعول

(١) ولعلنا نلاحظ في مقابر بني حسن وهي مقابر نبلاء الدولة الوسطى ما ظل يتمتع به حكام الأقاليم المصرية من نفوذ في مقابل سلطة العاصمة، وذلك يدل على أن نصيب النظام المصري من المركزية كان متغيرا بحسب الأحوال، راجع دراستنا: في فلسفة تاريخ مصر، ج ٢، ص ٧٢. وهكذا نعارض ما ذهب إليه العلامة جمال حمدان من القول بمركزية الإدارة في مصر (الفرعونية) بإطلاقها.

وحلى وأختام، وتمائم وتمائيل. ولعله هو نفسه ياناس (Jannis) عند ردفورد، (Staan عند أفريكانوس) الذى وجدت آثاره فى كريت وبغداد ومصر، وهو شبيه يونس عندنا. والبعض يعتبره هو خايان. إن رأى بريستد لا يعوزه الدليل، ولكن لا بد لنا من أن نوفق بينه وبين ما عهد عن الآسيويين من نظام حكم لا مركزى قوامه دولة المدينة. ولعل الأدلة الأثرية تؤيد هذا الرأى الأخير. وعلى هذا النحو يكون الهكسوس قد أسهموا من حيث أرادوا أو لم يريدوا فى تطوير النظم الإدارية فى مصر والشرق الأدنى.

وما يقال عن فخار تل اليهودية داخل فى هذا الباب أيضا، فتل اليهودية موقع أثري هام يقع بالقرب من حت وعرت فى شرق الدلتا، وقد وجدت فيه آنية فخارية ذات طراز أجنبى ينتمى لشمال فلسطين وشمال سوريا كما يذهب بيتاك. وقد ذهب البعض إلى أن الكشف عن ذلك الطراز من الفخار فى مصر يعد دليلا على أن الهكسوس هم الذين اخترعوه، ومن ثم فإن مصر كانت جزءا من إمبراطوريتهم التى شملت بطبيعة الحال سوريا وفلسطين فيما شملت^(١). ولكن بيتاك يفند هذا الزعم، ذاهبا إلى أن ذلك الطراز من الفخار الآسيوى كان من الشائع استيراده إلى تل الضبعة أثناء الأسرة الثالثة عشرة، أى قبل حكم الهكسوس أنفسهم^(٢). فوجوده خارج آسيا إذن راجع إلى التجارة، ولا يقوم دليلا على قيام نظام سياسى معين أو توسع إمبراطورى بالأحرى. وهذا رأى فيه كثير من المنطق.

ومن الجعول الكثيرة التى خلفها حكم الهكسوس وجدناها وقد تكرر على بعضها نقش باسم «إيمى إرختمت» أى (خار) بالسامية الغربية، وهى لفظة معناها مستشار. ولهذا يذهب

(١) بريستد: تاريخ: ١٤١ وما بعدها، وفى تنفيذ هذه النظرية ودحضها يراجع: جاردينر: مصر: ١٨٠. ويصدد كيفية خروج الهكسوس فإن الدلائل الأثرية وفقا لبيتاك - تشير إلى أن معظم أحياء أواريس أفلت من التدمير بينما تعرضت قلعته لتدمير عنيف، الأمر الذى يستنتج منه أن المدينة هجرت، وهذا ما يوافق الرواية المانيتونية عن صلح تم عقده، وتم بمقتضاه جلاء الهكسوس مع توقف الحرب، راجع: Redford, op. cit., II: 141، نادفى: التاريخ الجغرافى: ١٥٧. عن طرد الهكسوس قارن: بريستد: تاريخ: ١٤٦، 73 - 69، Hornung, op. cit., S. S. ومن الدراسات الحديثة عن طرد الهكسوس دراسة العايدى المشار إليها آنفا.

Bietak, op. cit.

(٢)

كما أورد إيمرى دلائل على تخريب قام به الهكسوس فى قلاع النوبة السفلى (الشمالية) قبل أن يستولى عليها الكوشيون: إيمرى: مصر: ١٧٤. وكشف بترى فى ١٩٠٦م فى تل اليهودية عن معسكر فسيح للهكسوس اعتقد أنه معسكرهم الأساسى. والآن كشف بيتاك عن قلعته فى أواريس. راجع: بيكى: ١: ٦٢ عن أواريس، كذا: al - Ayedi, op. cit. 42 - 46.

ردفوردي إلى أن إدارة الهكسوس لم تعرف منصب الوزير^(١)، وهو منصب معروف كانت له أهميته في الإدارة المصرية منذ القدم، وأنه استعيض عنه بالمستشار. ولعل الفرق الحاسم - في تصورنا - أن النظام المركزي اعتمد منصب الوزير، بينما كان النظام القائم على الاستشارة بطبيعته نظاما غير مركزي. ولعلنا نذكر بأن الإدارة في مصر إبان الدولة الوسطى نفسها قد اتسمت بدرجة من اللامركزية.

ولا نظن أن ملوك الهكسوس الكبار كانوا يتدخلون كثيرا في شؤون الإدارة، إذ عادة ما وكلوها إلى شيوخ القبائل التابعة لهم، فأولئك الشيوخ (أمراء أو ملوك صغار) كانوا أدرى بشؤون المناطق التي أصبحت في عهدهم. ولعل نموذج إدارة الدولة العثمانية يحضرنا في هذا الصدد للمقارنة^(٢).

وأما آثار الدمار التي تدل عليها الحفائر في تل الضبعة، وأشار إليها المؤرخون القدامى، فمن المتصور أن تكون قد نتجت عن غزو الهكسوس مصر، وعادة ما تكون أشد أيام الدمار خلال مدة الغزو الأولى أو أيام حرب التحرير التي خر فيها صريعا ملك شجاع هو سقن رع ولعله أول ملك شهيد في تاريخنا^(٣).

Bietak, op. cit., p. 55.

(١)

ويفنده كذلك أحمد فخري: مصر الفرعونية: ٢٤٦ لكن سليم حسن يقطع بأن معظم حكام الهكسوس الكبار بسطوا نفوذهم على مصر كلها والنوبة السفلى: سليم حسن: مصر القديمة: ١٠ : ٢٢٩ - ٢٣٠.

Redford, op. cit., II: 138.

(٢)

ويذهب أستاذنا سليم حسن إلى أن حار معناها شريف، مقدما رؤية أخرى للموضوع، راجع تفصيلا: سليم حسن: مصر القديمة: ١٠ : ٢٣٣. ويترجمها زايد بمعنى خازن: زايد: مصر الخالدة: ١ : ٥٨٦.

(٣) استوحى أديبنا نجيب محفوظ ذلك التاريخ المجيد في قصته التاريخية «كفاح طيبة» وإن كان جاردينر لا يرى دليلا على أنه قتل في معركة: مصر الفرعونية: ١٨٦، وقد رد عليه أستاذنا أحمد فخري: مصر: ٢٥٣. Redford, op. cit., II: 140. وموميأوه التي كشف عنها في خبيثة الدير البحري تظهر ضربات فؤوس القتال، وتقلصات عضلات الوجه والشفقتين إثر معاناة أليمة، وخمسة جروح مخيفة.

Adams, B., «Egyptian Mummies», Shire Pub., Uk 1984, p. p. 35 - 36; Kamal, H., Dictionary of «Pharaonic Medicine», 1St Ed., National pub. House, Cairo 1967, p. p. 313 - 314.

وقد كشف وينلوك عن المومياء بالدير البحري - راجع وصف المومياء في:

Lecca, A. - P. «The Cult of the Immortal», Paladin, Granada pub., New York 1979, p. p. 205, 260 - 261.

وعن ذلك الملك وكفاحه راجع: al Ayedi, op. cit., p. 58ff وسليم حسن: مصر: ١٠ : ٢٣٤ وما بعدها.

ونجيب إبراهيم: مصر: ١٤٦. وزايد: مصر: ١ : ٦١٠ وما بعدها.

ولكن من الممكن أيضا أن يتخلف الدمار عن معارك كانت تدور بين الحكام الصغار، بين الولايات أو في داخلها، الأمر الذى كان يعود بالويل والثبور على الأهلين فى المقام الأول. وبناء على ما تقدم فإنه ليس من الآمن القول أو القطع بأن الهكسوس غزوا مصر غزوا صريحا كما أشرنا من قبل.

يرى بعض المؤرخين، بل غالبيتهم، إذن أن فترة الهكسوس كانت فترة مظلمة أدت إلى تغيير جذرى فى منطقة سوريا وفلسطين وفى مصر. وربما كانت مظلمة كذلك لغيبة الوثائق أو ندرتها أو سوء حالتها التى وجدت عليها. وبعض هذا صحيح، ولكن الرؤية التاريخية المنصفة قد تكشف لنا أنها كانت حقبة وصل لا فصل وقطع فى التاريخ المصرى. وبهذا تصير الدولة الحديثة حقبة جمع وتركيب لفترتى الهكسوس والدولة الوسطى جميعا.

وإن يكن القول الفصل بعيد المنال فالراجح عندنا أنه كان هناك خط ينتظم عدة ممالك هكسوسية انتشرت فى مصر وآسيا الغربية، وذلك كان النظام المرعى للممالك العمورية فى سوريا القديمة. هذا التصور لعله أدنى إلى الصواب من تصور قيام إمبراطورية هكسوسية بمعنى الكلمة. عبادة الهكسوس وآلهتهم: بعد طرد الهكسوس وتأسيس الدولة الحديثة عرفت فى مصر مجموعة من آلهة آسيوية دمجت فى اللاهوت المصرى. ومن التسرع والخطأ القول إنها كانت آلهة شريرة أو هدامة، وإن اتسمت ظاهريا بالجهامة. وكان الهكسوس - والشعوب الآتية معهم - مصدرا هاما لجلب مظاهر العبادة الآسيوية والآلهة الأجنبية إلى مصر. ولكن الملاحظ أن عبادة أوزيريس التى احتفل بها المصرى القديم منذ الأزل لم تكن لها معادل واضح لدى الهكسوس مما أثار حتما حفيظة المصرى المحافظ. ولعل المدخل الطبيعى هنا هو رسالة أبوفيس ملك الهكسوس إلى سقنن رع أمير طيبة وأحد ملوك الأسرة الطيبية السابعة عشرة، تلك الرسالة التى يقول فيها أبوفيس: «إن أصوات أفراس النهر فى طيبة تفرغ منامى فى أواريس^(١). وفى الرسالة أحجية اختلف فى تفسيرها.

فقد فسرت هذه الرسالة على أنها تحمل نبرة التهديد والوعيد للأمير الطيبى الذى كان يتحدى نفوذ الهكسوس، ويهين فرس النهر رمز إلههم سوتبخ، وهو فى الأصل إله بابلى

(١) جاردينر: مصر: ١٨٦. والرسالة تحيلنا إلى فقرات بليغة سترد فى لوحة كامس على لسانه متوعدا ملك الهكسوس: سوف أشرب الخمر من حقل عنبك، تلك التى سيعصرها لى أسراى من الآسيويين، وسأدمر قصرك، وأجتث أشجارك: Bietak, op. cit., 65

مقابل للإله ست عند المصريين ، وقد شاع على نحو غير دقيق أن ست إله الشر ، بينما كان يرمز إلى الصحراء والعواصف والفيضات عند المصريين قديماً^(١) . ووجود الإله ست - فى كل الأحوال - كان ضرورياً فى إطار الرؤية الثنائية الميتافيزيقية بمعنى أن وجود كل من ست وأوزيريس ضرورى لنشأة الحياة واستمرارها .

ولكننا لا نرى على أية حال فى رسالة أبو فيس غير نعمة تودد إلى سقن رع ومملكته ، فكأنه يعتبر عليه هذا المسلك الذى يخالف روح المودة ، تلك التى أكدتها المعاهدات السياسية بين الطرفين . وكثير من مراسلات ملوك الهكسوس تنحو هذا النحو إذ عادة ما ينادون أتباعهم بأخى وابنى وحبيبى .

عبد الهكسوس كذلك الإله بعل والإله إيل^(٢) ، وهما إلهان ساميان غربيان ، وهما يحملان الطابع الجبلى والسمة الحربية ، ولذا فلا غرابة أن يدمجا فيما بعد مع الإله ست المصرى ، فهو الأقرب إليهما . وإيل كان إله البرق والصواعق والأمطار والجبال ، لذا لا غرابة فى أنه صور كرجل غاضب ، وكان إيل إله العبرانيين ذا الطبيعة البركانية كما يرى بريستد . وربما ارتبط ذلك الإله بمفهوم الشر لأن البرق والصواعق التى يسببها تعتبر من علامات التهلكة . هذا ما يبدو صحيحاً فى ظاهر الأمر . ولكن الصحيح أيضاً أن البرق مجلبة للأمطار والسيل الجارف ، الذى وإن بدا مهلكاً فهو مصدر النعمة أيضاً - خاصة بالنسبة للبدو الراتعين فى الصحراء المهلكة . فهل ثمة من منجاة لمن يجوب الصحراء القاحلة غير أن يشيم البرق راجياً المطر (الغيث)؟ فلولا الماء النازل من السماء لكان الموت والتهلكة ! هكذا قد يأتى الخير من حيث يتوقع المرء الشر .

ولماذا ننظر إلى البرق والصواعق على أنها علامات غضب الإله على البشر جميعاً؟ أو ليست هذه أدوات لإرهاب قوى الشر فى الطبيعة؟ أليس السيل العادى - كما صور امرؤ

(١) Budge, E. A. W., «The Gods of The Egyptians», Dover Publications, New York 1969, vol. I, p. p. 60, 82, 109,....

Redford, D. B. (Editor), «The Ancient Gods Speak - A Guide to Egyptian Religion», Oxford Uni. Press 2002. p. p. 331 - 334..

(٢) وهما من آلهة الكنعانيين كذلك . كما كانت بعلة - زوجة بعل ربه جيلة (ببيلوس) وسميت بعلة جبل . راجع :

كونتنو: الحضارة الفينيقية : ٢٠٠ - ٢٠١ وكذا :

Moscatti, op. cit. p. p. 35, 105 - 108, 111,...., al Ayedi, op. cit. p. p. 50 - 52.

القيس وشعراء الجاهلية هو الذى يستنزل الوحوش والسباع والذئب من مكامنها بالجبال ليحملها جثثا هامة، ويقتلها كما تقتلع أنابيش العنصل أى سيقان البصل الغضة؟ هكذا يكون السيل أداة للدمار ولكن للشر والأشرار، فيصبح نصيرا وبركة للخير والأخيار^(١). وتضحى هذه السمات الخيرة عنصر تقريب بين تلك الآلهة وأوزيريس المصرى. وهل ننكر أن السيل هو أداة تعمير الصحراء بما ينبته من نباتات مزهرة تؤنس وحشة البدوى؟ وتحيل الجرداء القاحلة إلى بساط أخضر موشى بشتى الزخارف ذات الألوان الزاهية.

ولماذا نستبعد ما للماء من رمزية هامة لحياة البدوى (البدائى) ألا يرتبط الماء السماوى بمفاهيم أساسية مثل التطهر والنقاء والميلاد الجديد؟ هذه كلها يحملها إليه المطر، وهى مفاهيم خيرة لا علاقة لها بالشر والدمار. فإذا أردنا الحقيقة كان علينا ألا نعول على المظاهر وحدها.

وإذا كان النيل الأرضى، والنيل السماوى (ورنيس) فى نظر المصريين مقدسين لمثل ما تقدم ذكره من الأسباب، فلماذا ننكر على أولئك الآسيويين أن يبحثوا عن مظاهر التقديس فى إله المطر والبرق فى غياب الأنهار الكبيرة التى كان عند المصريين أكبرها وهو نهر النيل؟ هل يعيدنا هذا السؤال مرة أخرى إلى جدل الحضارة والبدواة؟ نعم. لا شك أن مقدم الهكسوس إلى مصر - كما يذهب موسكاتى - أحدث شرخا فى العلاقات التجارية التى ظلت مزدهرة بين مصر والساحل الفينيقي منذ فجر الحضارة، ولكنها عادت للازدهار مرة أخرى مع فراغنة الدولة الحديثة.

إن الإله بعل قُدس فى هيئة الحمار، لذلك فلا غرابة فى أن يكشف عن جبانة الحمير فى تل الضبعة عاصمة الهكسوس. فالحمار كان بمثابة حيوان مقدس هناك^(٢). والطريف أن من جلب عبادة الحمار كان هو المنسوب إليه استقدام الحصان إلى مصر ليستخدم فى حمل

(١) هذا ما أوضحنه تفصيلا فى دراستنا: الرمزية والرومانسية فى الشعر العربى، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١١٢ وما بعدها.
(٢) الحسينى غنيم: الهكسوس. ويرى أستاذنا زايد أن أمراء آسيويين تابعيين للهكسوس قد اتخذوا لقب: عا قن، أى الحمار القوى، والحمار هنا رمز الإله. زايد: مصر: ١: ٥٨١. وإن كان هذا التفسير لا يحظى بقبول واسع، وثمة آلهة آسيوية ذات طبيعة إشكالية تجمع بين الموت والميلاد يعيننا منها بعل، أدونيس (سامى غربى) وتموز (سومرى).. وقد شاع ارتباطهما بسيت المصرى وتحديدًا بطبيعته الشريرة بدون دقة، وإنما هى جميعا آلهة خصوبة وميلاد، مما يرجح قرنهما بأوزير. راجع: كلارك (راندل): الرمز والأسطورة فى مصر القديمة، ت. أحمد صليحة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٩٧، وما بعدها.

الأشخاص والبضائع وجرّ العربات. وإن كان هذا الحكم يحتاج إلى تدقيق^(١). ولكن ربما يزول العجب أو يقل حين نعلم أن الحصان عرف في بلاد الرافدين بحمار بلاد الجبال، إذ يقال إن الكاشيين جلبوه معهم إلى هناك، وقد قدم الكاشيون من الجبال. الحمار في الحاليين إذن كان وسيلة الانتقال إلى بلدان جديدة وكشف غوامضها، والإلف بحضاراتها. والفرق واضح بين الترحال والسكون.

هذا فضلا عن المهام الجلييلة التي كان ست يقوم بها، ومنها الدفاع عن الحدود وتعليم فراغنة مصر الرماية بالقوس والنبل^(٢). وهذا الدور سيصير مميزا له في عصر الدولة المصرية الحديثة خصوصا، وهي التالية لعصر الهكسوس، فإذا بذلك الإله يبلغ شأوا كبيرا حتى انتسب له واحد من فراغنة مصر العظام - على الأقل - وهو سیتی: من ماعت رع. وإذا كان بعل نظير ست عند الساميين الغربيين، الذين شكلوا مع غيرهم ربما قوة الهكسوس المتحركة، فإن أش هو الإله الليبي المناظر له أيضا^(٣). وقد كان الأثر الليبي حاضرا ولكنه جاء من الغرب. كما كان تيشوب Teshub الإله الحيثي المناظر، فلا غرو إذن أن ثمة تصورا جامعاً لعوادي الطبيعة - وليس الشر بالضرورة - في كل حضارة. لا نخصّ منها حضارة مصر. والإله رشب Reshep والأفضل إرشوب إله ذو هيئة بشرية ولحية آسيوية، وقد صور ممسكا بحربة في يمينه، ولا غرو فهو إله حرب، وقد لقب بسيد الأبدية وأمير الخلود في المتون المصرية الحديثة^(٤). وعادة ما تظهر معه الإلهة قادش في هيئة امرأة جميلة عارية،

(١) يشير علماء الآثار عادة إلى كشف أثرى في غاية الأهمية إذ كشف في حصن بوهن بالنوبة عن الحصان، وهو يرجع إلى الدولة الوسطى، أي قبل مجيء الهكسوس، كما أن كلمتي عربية وحصان مصريتان أصيلتان، مما يدل على المعرفة بهما: الحسيني: الهكسوس: ١٣ وقارن:

Al - Ayedi, op. cit., p.158 - 164.

ويقرر جاردينر أن الحصان لم يظهر في مصر حتى عهد الهكسوس: جاردينر: مصر: ٥٧، وهذا أمر فيه جدل. (٢) ثمة تصوير شهير للقاتح العظيم تحتتمس الثالث (ح ١٤٩٠) حيث يظهر معه الإله ست وهو يعلمه الرماية بالنبل. ولعلنا نذكر أن سیتی مرتبتاح - من ماعت رع (أبا رمسيس الثاني) يعنى اسمه المنسوب إلى سیت، وهو ثاني ملوك الأسرة ١٩، راجع عنهما: بريستد: تاريخ مصر: ص ١٨٧، ٢٧٣ وما بعدها.

Helck, W., Religion und Kultur der Alten Mittelmeerwelt in Parallelforschungen, (٣) «R. Oldenbourgen, Muenchen, Wien 1971, B. 2, S. 149 ff; Hart, G.,» A Dictionary of Gods and Goddesses, London 1986, p. 33. Egyptian.

(٤) Hart, Ibid., p. 186.. وقارن: كونتنو: الحضارة الفينيقية: ١٧٣ - ١٧٤.

وقد امتطت ظهر وحش. وقد انتشرت عبادته في شرق الدلتا وتخوم مصر الشرقية كما يقول بادج^(١)، الأمر الذى يدل أيضا على متانة العلاقة بين مصر وآسيا. وسيصبح إرشوب قريبا من بتاح المصرى، فيحمل لقب المنصت إلى الصلوات إبان الدولة الحديثة.

ومن الأمور اللافتة تلك الجعول الأثرية الكثيرة التى كشف عنها فى زمان الهكسوس سواء فى تل الضبعة أو شرق الدلتا أو فى أرجاء الشرق الأدنى، وهى تحمل عادة زخارف حلزونية مميزة، ونقوشا هيروغليفية وأخرى شبيهة بها. وأيا كان الغرض الذى من أجله صنعت تلك الجعول؛ فإن الجعل كان يرمز إلى الشمس رع منذ فجر الحضارة المصرية^(٢). وكان الجعل مصنوع من مواد مختلفة سهل التداول، فصار رسولا لنقل الإبداع الفنى والحضارى.

فهل كان الحكام الأجانب إذن على وعى بما لتلك الجعول من دلالة وأهمية فى وعى المصريين، فحرصوا على إنتاجها بغزارة وتداولها لتغضى أجزاء مملكتهم؟ لعلمهم اتخذوا الجعل تميمة يتيمنون بها، ويستجلبون الحظ الحسن. يؤكد هذا أن ملوكهم انتسبوا إلى رع أيضا، فهذا خيان يحمل لقب: سو وسر رع - مثلا. وثمة ثلاثة ألقاب أخرى اختلف حولها وهى: عاقن رع، عاوسر رع، نب خبش رع، هل كانت تلك ألقابا ثلاثة للملك أبوفيس، أم أننا بصدد ثلاثة ملوك مختلفين؟... وهكذا دواليك.. وكل هذا يؤكد أن الانتساب إلى رع إله الشمس صار أمرا محببا عند ملوك الهكسوس لا سيما المتأخرين منهم. لقد أشرقت شمس مصر على القادمين إليها.

والخلاف حول هوية أولئك الملوك قد يطول، ولكنه يؤكد أنهم كانوا حريصين على الانتساب إلى رع أحد أهم الآلهة المصرية. قد يدل هذا على ذكاء سياسى كما قدمنا، ولكنه لا يستبعد وعيا دينيا تتمتع به ملوك الهكسوس. ومن الخطأ إصدار أحكام متسرعة عليهم بناء على كونهم أعداء مصر. يبدو أن عقيدة الشمس المصرية احتوت الهكسوس كما سنها تأثر بعد قرون - فى فكر فلاسفة اليونان الذين زاروا مصر مثل طاليس (القرن السادس قبل الميلاد) وأفلاطون (فى القرن الرابع قبل الميلاد). شمس مصر إذن ظلت مشرقة حيث ظهر أنها قد أفلت.

Budge, op. cit., II, p. 280.

(١)

(٢) فى التعميزة رقم ٣٤٦ من متون الأهرام يناجى الملك المتوفى الجعل قائلا: إنه (الجعل) حى والناس سعداء مطالبا القضايين بتجهيز وجبة له..

Faulkner, R. O., «The Ancient Egyptian Pyramid Texts», Oxford, at the Clarendon Press, 1969, p. 111.

ثمة أيضا إلهتان هما عنات وعشتار. أما عشتار فصورت كامرأة عارية تتقاطع ذراعاها على صدرها، وهي من آلهة الإخصاب مثل عنات^(١). نقول هذا لتعديل ما رسخ في الأذهان من أن كل تلك الآلهة كانت آلهة حرب، وقد عبدها العموريون - البدو - الذين لم يطوروا لاهوتا خاصا بهم في تصور هلك. وقد سماهم أهل النهرين بالعموريين أى القادمين فى الغرب^(٢). والطبيعة الحربية لعشتار مهمة، فهى تعرف بربة الخيل وسيدة العجلة الحربية، وتصور أحيانا راكبة عربية تجرها الخيول، وقد صورت كامرأة برأس لبؤة (مثل سخمت المصرية). ويتسق مع كل هذا ما قيل من أن الحصان قد جاء به الساميون إلى مصر عبر الصحراء الشرقية، واستخدم فى الحمل وجر العربات الحربية، وذلك حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد كما يقول بادج^(٣).

وأما عنات فذات سمة حربية أيضا، إذ تمسك فى يسراها بدبوس القتال وتقبض بيمنها على حربة ودرع، وهى تذكرنا حينئذ بالآلهة نيت إلهة الصيد الصاوية (فى الدلتا) ذات الأصل الليبى. وعنات ذات أصل سورى أيضا، وفوق ما تقدم فهى تحمل ألقابا مثل ربة السماء وسيدة الآلهة^(٤). وستصبح عنات فى الدولة الحديثة (١٥٧٠ ق. م - ١٠٨٠ قبل الميلاد) هى وآلهة آسيوية أخرى من بنات رع إله الشمس المصرى.

وستحمل عنات وقادش وعشتارت لقب سيدة السماء وسيدة الآلهة أيضًا. هل يدل هذا الأمر على اتجاه لتسييد العنصر اللاهوتى الآسيوى؟ ولعل هذا كان انعكاسا لتوجه حضارى طاغ نحو آسيا؟ هذان وغيرهما أسئلة على الباحث أن يطرحها ولو لم يتسع المقام للإجابة عنها.

Hart, op. cit. p. 17, 35, Moscatti, op. cit. 35, 105, 108, 124.

(١)

وعنات كانت إلهة حرب فى أوجاريت (رأس شمرا).

(٢) لفظة أمورو تعنى الغرب، وقد استقروا فى نهرين، وأقاموا ملكهم، واتخذوا بابل عاصمتهم فسموا بالبابليين، وكان أشهرهم حمورابى (١٧٩٢ ق. م - ١٧٥٠ ق. م) المشرع العظيم. نقول هذا نظرا لأثرهم القوى فى سوريا وفلسطين، وهما المصدر القريب للهكسوس، الذين هبطوا مصر غالبا بعد نحو قرن من وفاة حمورابى. عن العموريين راجع: Roux, Ancient Iraq, p. 164 ff فالأموريون إذن بدو ساميون دأبوا على الرحيل فى الوادى الخصيب (العراق - سوريا - فلسطين) واستوطنوه بل حكموه من سنة ٢٢٠٠ ق. م إلى ١٧٠٠ قبل الميلاد، وقد كشف أرشيف مبرى (تل الحريرى) فى الفرات الأوسط عن مهاراتهم الفنية والمعمارية والإدارية. راجع: كوتريل، ل (محرر): الموسوعة الأثرية العالمية، ت. محمد عبد القادر - زكى سكندر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٧٢.

Budge, op. cit. II, p. 278.

(٣)

Budge, op. cit. II, p. 277, Hart, Op. cit. p. 17.

(٤)

وفى النهاية ألا يحق لنا أن نتساءل - ونحن نتأمل بعض ما يقوله هذا الرائد العبقري - هل من سبيل للوصول إلى مركب يجمع بين النقيضين: البداوة والحضارة (البكارة والنضج) تجاوزاً للصدام بينهما ووصولاً بال عمران البشرى إلى وَضْع أمثل وإلى قِيم أنفع؟



طبائع البدو وآداب الإسلام

محمود عرفة محمود^(١)

كلية الآداب - جامعة القاهرة

اشتهر العرب قبل الإسلام بالصفات والخلال الكريمة التي كان للطبيعة الصحراوية وشدة الجذب وقسوة الحياة أثرها في تطبيعهم بها وغرسها في نفوسهم. وصارت وفرة الفضائل وتنوع المآثر من سمات التميز التي اصطبغت بها فطرتهم.

خلال البدو السامية:

كان من أهم صفاتهم الجليلة التي تغنى بها الأدباء والشعراء على مر الزمان؛ المروءة وعلو الهمة والوفاء بالعهود والشجاعة والفروسية والكرم الخيالي. فلم تكن خصلة عندهم تفوق الكرم وإغاثة البائس الفقير^(٢). وكان الكرم اللامحدود يمثل إحدى مفاخرهم التي يحرصون عليها. فكانوا يتباهون بكثرة الأضياف وذبح الإبل وإطعامها المحتاج، لأن الميل الفطري للبقاء هو من أهم سمات سحاء العرب المشهورة، والكرم عندهم هو من أعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية. فلما سئل قيس بن سعد: «هل لقيت أكرم منك؟ فأجاب: أجل؛ لأن المنح لا يستحق الثناء إذا كان المرء موفور النعمة، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله». لقد وجد العرب في فعل الخير شرفاً يخلد على مر العصور، يتضح ذلك من رد حسان بن سهل على من قال له: «لا خير في الإسراف»، فقال حسان: لا إسراف في الخير». ولما وجه الحسين بن علي بن أبي طالب اللوم لعبد الله بن جعفر على إسرافه في البذل قال: «لقد عودني الله أن يغمرنى، وعودته أن أغدق نعمه على خلقه، وإنني لأخشى إذا أنا هجرت عادتي، أن يهجر الله عادته». ولقد أقر الإسلام أخلاق الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٣).

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ١٠.

(٣) القرآن الكريم، سورة الإنسان: الآية ٨.

الواقع أن إيواء الغرباء وإطعامهم بلا مقابل وهو ما يُعرف بالقري، يرجع إلى عادة قديمة وتقاليد جلييلة تنسب إلى النبي إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولقد ذكر القرآن الكريم ما قام به النبي إبراهيم لإكرام ضيفه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾. وقد احتذى العرب هذا المثل الكريم عن جدهم، وصار عندهم كرم الضيافة يضرب به الأمثال بعد أن انتشر في جميع أرجاء الجزيرة العربية. وكان من أشهر من اتصف بالكرم من رجالات العرب كعب بن مناة، وقيس بن سعد، وأوس بن حارثة، وعبد الله بن حبيب العنبري، وهرم بن سنان^(٢)، وحاتم الطائي - الذي قال لخيطته «ماوية» في معنى الكرم^(٣):

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنا عن طلابكم العذر
أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
قال فى موضع آخر :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويسا وما فى إلا تلك من شيمة العبد^(٤)
كان من مظاهر كرمهم إيقاد النيران ليلاً لتمكين الغرباء من الاهتداء إلى الأماكن التى يقطنونها، وكانت النيران توقد على المرتفعات. وقد بالغ بعضهم فى الكرم فكانوا يستخدمون المندلى الرطب - وهى أعواد من العطر - حتى يهتدى بها العميان^(٥). وعن إشعال النيران على المرتفعات يقول الشاعر:

له نار تشب على يفاع إذا النيران ألبست قناعا
ولم يك أكثر الفتیان مالا ولكن كان أرحبهم ذراعاً

وفضلاً عن ذلك كانوا يجتذبون الغرباء إلى مواضعهم بنباح الكلاب^(٦)، وكانت عادة معروفة عند العرب، فينبح الشخص الذى ضل طريقه، فتنبح الكلاب على نباحه فيهتدى

(١) القرآن الكريم، سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٧.

(٢) ابن عبدربه: العقد الفريد، القاهرة، ١٩٢٨م، ج ١، ص ٣٣٥.

(٣) الألوسى: بلوغ الأرب، ١٣١٤ هـ، ج ١، ص ٤١٦.

(٤) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٣٣٥.

(٥) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ١، ص ٤١٦.

(٦) الألوسى: المرجع السابق، ج ١، ص ٥١.

إلى مكان الضيف، وفي ذلك يقول نابغة بن جعدة^(١):

عودى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبىح كلب أو لفرع قوم
فجاوبه متممع الصوت للقرى له عند إتيان الملمين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف للقرى يكلمه من حبه وهو أعجم

ولقد حرص الإسلام على هذه الخصلة الكريمة، فقال النبي (ﷺ) مرشداً المؤمنين إلى حب الخير: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٢).

كانت الشجاعة والفروسية من المثل العليا عند العرب؛ ذلك أن حياتهم الرعوية البسيطة وقسوة الصحراء فرضت عليهم سمو الخلقى فصاروا يستهينون بالموت إلا تحت ظلال السيوف، يقول السموأل بن عاديا:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الطباة نفوسنا وليست على غير الطباة تسيل

لما كانت حماية الضعيف والدفاع عنه هي شرع الفروسية؛ لذلك تنافس الفرسان فى مساعدة النساء والأرامل والأيتام والمغلوبين على أمرهم، وجعل كل منهم سيفه فى خدمة الحق والانتصاف للمظلوم من الظالم. ولقد استخدم فرسان العرب شجاعتهم أنبل استخدام فصارت رهن إشارة البائسين، ولم يكن من بينهم من يرفض حماية ضعيف أو الدفاع عن مظلوم استنجد به. وكان الضعيف إذا احتمى بالقوى ضمن له الحماية والأمان من نفسه، ومن أهله وعشيرته فى حياته وبعد مماته، وكان العرب يتباهون بكثرة من يلوذ بهم ويطلب حمايتهم. وكانت القاعدة عندهم حماية الجار بريئاً كان أم آثماً حماية كاملة ضد الجميع مما أدى إلى تحملهم مسئوليات جسيمة، وجر عليهم مشاكل عديدة. وكان امتداد الحماية واتساع نطاقها يعنى المزيد من السمو وعلو القدر والمنزلة. فلما أقبل الشاعر الأعشى يوماً على علقمة بن علان سائلاً أن يكون فى حماه قبل أن يحميه من الإنس والجن، فطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضاً فاعتذر. فقصد الأعشى الشاعر، عامر بن طفيل، وسأله الحماية الكاملة، فوعد بأن يحميه ولو من الموت. فسأله الأعشى: وكيف أنت فاعل؟ قال:

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٤.

إذا أتاك الموت وأنت في حماى دفعت لأهلك ديتك. فأعجب الأعشى من هذا الجواب وأنشد يمدح عامراً ويهجو علقمة.

ومما يجدر ذكره أن المرء إذا لم يجد فى طريقه رجلاً قوياً يحتمى به، كان يستجير بأى اسم، فلما أوشك بنو الحارث أن يقتلوا رجلاً يدعى خالدا، استجار بواحد منهم هو قس ابن الصمة، لكن قسا كان غائباً ولم يفد ذلك خالدا، فلما عاد قس بعد فوات الأوان، غضب وعاب على أهله ما ألحقوه به من الهوان، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا أيديهم على من احتمى باسمه^(١). وكان الرجل إذا ما تخلى عن حماية الضعيف لحق به العار وصار رمزاً للمذلة والهوان - اللذين كانا يأنفهما العربى الحر.

قال المتلمس:

إن الهوان حمار الهل يعرفه والحر ينكره والرسالة الأجد

كان من أشهر فرسان العرب، خالد بن جعفر بن كلاب العامرى، وعتيبة بن الحارث، وعامر بن الطفيل، وقيس بن معد يكرب، وعمرو بن كلثوم، وعترة بن شداد، وقد وصف الأعشى شجاعة قيس بن معد يكرب بالبسالة والجرأة فى ميادين الحرب حيث كان يقاتل بدون ترس، وذلك أنه كان يقيناً أن الإنسان سيموت حتماً فلكل امرئ أجل محتوم فقال^(٢):

كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها
وعلمت أن النفس تلقى حتفها ما كان خالقها المليك قضى لها

ولقد أقر الإسلام الشجاعة والإقدام وجعلهما من صفات المؤمن بعد أن هذبهما وجعلهما فى خدمة الحق ودفع العدوان فقال تعالى: ﴿يَتَّيِّهُا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤٥)، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْرَابِهِ وَتَقْتُلُونَ رُسُلَهُمْ أَنْ يَنفَخُوا إِلَيْهِمُ الرِّيحَ بِرُوحِهِمْ فَنُفِثُوا فِيهَا فَاَنْجَبُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا وَكَرِهُوا إِذْ يُسْقَرُونَ بِحَيْثُ يَسْقَوْنَ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْرَابُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ بَصِيرًا﴾^(٤٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِرْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَنِ امْنُوتُوا بِرُوحِهِمْ فَنُفِثُوا فِيهَا فَاَنْجَبُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا وَكَرِهُوا إِذْ يُسْقَرُونَ بِحَيْثُ يَسْقَوْنَ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْرَابُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ بَصِيرًا﴾^(٤٧)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِرْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَنِ امْنُوتُوا بِرُوحِهِمْ فَنُفِثُوا فِيهَا فَاَنْجَبُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا وَكَرِهُوا إِذْ يُسْقَرُونَ بِحَيْثُ يَسْقَوْنَ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْرَابُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ بَصِيرًا﴾^(٤٨).

(١) الأصفهاني: كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، القاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٨.

(٢) شوق ضيف: العصر الجاهلى، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٣٤٩.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأنفال: الآية ٤٥.

(٤) القرآن الكريم، سورة الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦.

وتتجلى فروسية العرب ونبذهم للهوان والضميم فيما عرف عندهم بالاعتضاد، وهو أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتى الموت جوعاً، فكان يسترخص الحياة، ويقبل على الموت مترفعاً عن الدنيا والخساسة في طلب الرزق، فإذا ضاق على أحدهم رزقه، حمل أهل بيته إلى موضع فُضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يلقوا جميعاً مصيرهم^(١).

كان الحلم من أجل الصفات التي تدل على مكانة الفضيلة بين العرب، وهي تعنى الصفح والمغفرة عند المقدرة، فكان الحليم يستطيع التغلب على نفسه عندما يتغلب على عدوه. وبلغ من انتشار هذه الصفة الحميدة أن انتشرت بين العرب الأمثلة التي تؤكدتها وتشجع على الأخذ بها فقالوا: «الكريم من يغفر الذنوب ويستر العيوب» و«إذا غلبت فكن عفواً» و«لا عظمة مع الحقد»، وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤكد هذه الصفة الحميدة ويعضدها فقال الله تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

كما كان التسامى عن الدنيا والنقائص يُعد من صفات العزة والكرامة ويتجلى في الغض عن العورات، قال عنتر بن شداد:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إني امرؤٌ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

كانت عفة العربي هي شرفه، الذي يموت دونه وهمته التي تضطرم بين جنبه، فقد عرف عندهم أن الرجل الذي يتأثر بالنساء في مسيرهن ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن جبان، ساقط الهمة، مغمور العرض؛ لأن مغالبة النفس وقمع الهوى أدل على الشجاعة، وكانوا يقولون: «ليس سيِّداً من غلبته شهوته»^(٢).

ولقد نمت هذه الصفة الحميدة في ظل الإسلام وارتقت، فجاء في قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (٤)

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٤٣ - ٤٦.

(٢) القرآن الكريم، سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٣) عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مصر، ١٣٤٠هـ، ج ١، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) القرآن الكريم، سورة النور: الآيات ٣٠، ٣١.

على أن الوفاء بالعهود وكراهة الغدر كانت من أعظم الصفات الملازمة للعربي، وكانوا يشهرون بمن يغدر منهم في المجتمعات العامة والأسواق الكبرى، حتى يلحقوا بخائن العهد العار. ولعل وفاء ابن زهير المازني الذي قتل أخاه لغدره بجار له من أشهر قصص الوفاء عند العرب قبل الإسلام، لذلك ارتفع الوفاء بالعهد إلى قدسية الدين، وبات من يحنث بوعده آثمًا يتعرض لازدراء الناس ولعنة الله. ومن أجمل مظاهر التمسك بالعهود أن الحروب المشتعلة بين عشائر العرب وقبائلهم، كانت تخمد عندما يهل شهر الهدنة وذلك بلا رقيب أو حاكم، فيعم الأمان أرجاء القرى والبيوادي وتنقل السلع دون خوف أو حذر. فالعهد في الصحراء كان يعنى النجاة، وكلمة الوفاء كانت تعنى الفخر والنبيل والجلال. ولعل من أنبل صور الوفاء بالعهد حفظ السمؤال بن عاديأ أمانة امرئ القيس التي أودعها لديه، فلما أتاه الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذ منه أدرع امرئ القيس امتنع السمؤال، فأخذ الحارث ابنا له غلاما، وقال: إما أن سلمت الأدرع إلى وإما قتلت ابنك.

فأبى السمؤال أن يخون أمانته، فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه قطعتين، فقال السمؤال في ذلك^(١):

وفيت بذمة الكندي إنى إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عاديأ يوما بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
بني لى عاديأ حصنًا حصينا وبثرا كلما شئت استقيت

ولقد أوصى الإسلام بالوفاء بالعهود وشدد على الحفاظ عليها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢).

وقصارى القول: إن الخلق العربي الأصيل قد حظى من الإسلام بكل التشجيع والمؤازرة بعد أن رضيه الله تبارك وتعالى دينًا للمؤمنين وأساسًا للسلوك الاجتماعي الإنساني، وقد أحله الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه محلاً سامياً رفيعاً فقال: «بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فاستمر الخلق العربي الراقى شرفاً يتوج المؤمنين، فلم يكن ثمة تعارض بين ما كان عليه العرب وما جاء به الإسلام إلا فيما يتعلق بالعصبية التي عرفها الإسلام بحمية الجاهلية الأولى. وقد شهد لوبون بذلك حين قال: «إن أخلاق العرب في الأدوار الأولى من

(١) الأصفهان: كتاب الأغاني، ج ٢٠، ص ١٣٤.

(٢) القرآن الكريم، سورة النحل: الآية ٩١.

الإسلام أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم، ورأفتهم وتسامحهم، ووفائهم بعهودهم ونبيل طبائعهم، مما يستوقف النظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى»^(١).

العادات الاجتماعية والإسلام:

ارتبطت أهم العادات الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام بمعتقداتهم الدينية متأثرين في ذلك بالطبيعة الصحراوية الموحشة، التي جعلتهم يؤمنون بوجود قوى خفية خارقة لها أثرها في حياة الناس، ومقدراتهم وما يتعرضون له من خير وشر، ولذلك عمدوا إلى التقرب منها بالزيارات والقرابين والتضرع والتوسل والأدعية والصلوات التي تقام في مناسبات مختلفة.

كان لهذا الاعتقاد الديني أثره الروحي العميق في نفوسهم مما جعلهم يؤمنون بقدرة المنجمين والسحرة على إمكانية السيطرة على هذه القوى الخفية وتوجيهها طبقاً لرغبات أصحاب الحاجات، لأن هذه القوى متغلغلة في أجسامهم ومحيطه بهم في كل مكان، وأنها ذات طبيعة نافعة ضارة تبعاً لتوجيه السحرة، ومما زاد من تأثر الناس بها أنها خفية غير مرئية، وأنها تستطيع إلحاق الأذى والضرر بالإنسان في كل مكان وزمان، ولا سبيل لاتقاء شرها سوى بمحاولة التقرب والتودد إليها عن طريق أولئك السحرة والمنجمين، بوسائط من الجن الذين يعيشون في الظلام مستقرين، واسترضائهم لازماً لدفع الأذى والضرر عن الإنسان فتجلب له الخير والسلام. ويتجلى هذا الاعتقاد في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾^(١٥٨) ﴿٢﴾، ذلك أن قريشاً جعلت بين الآلهة وبين الجن والوسطاء قرابة، وأنها تشارك الله جل جلاله قدراته، سبحانه وتعالى عما يشركون: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(١٠٠) ﴿٣﴾.

كان من عاداتهم التي ارتبطت بالجن، ضرب الثور، الذي يركب الجن قرنيه ليقتمحم الماء عندما يمتنع البقر عن شرب الماء. وذلك لاعتقادهم أن الجن تصدت للبقر فتقحمها الشيطان - أخطب أنواع الجن - الذي ركب قرني الثور^(٤).

(١) لوبون: حضارة العرب، عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٤م، ص ٤٥٣.

(٢) القرآن الكريم، سورة الصافات: الآية ١٥٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

(٤) الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٠٣.

كما اتخذوا وسائل من الأرواح التي تسكن أجساد أصنامهم - على زعمهم - لتوصيل رغباتهم إلى الآلهة، وذلك لاعتقادهم أن لها قدرات خارقة على إحلال الخير ودفء الأذى والضر عن الإنسان فضلاً عن توجيه الشر إلى أعدائهم، وكان الكاهن ذو القدرات والمواهب الخاصة هو الذى يستطيع القيام بذلك، فيتصل بها ويؤثر فيها حتى يستشف منها مستقبل الإنسان وما تخبئه له الأقدار. وكان السحر والكهانة منتشرين بين غالبية العرب فى قبائلهم وعشائرتهم، مدنهم وباديتهم، وكان الكاهن يستقى الأخبار ويعرف المغيبات ويقراً المستقبل بوسيط من الأرواح يعرف بالتابع، الذى كان يسترق السمع وينقل للكاهن ما سمعه^(١)، ولقد سخر جهم الهذلى من هذا الاعتقاد فقال:

يظنان ظنا مرة يخطئانه وأخرى على بعض الذى يضعان
قضى الله أن يعلم الغيب غيره ففى أى أمر الله يمتريان

كان العربى يعتقد أن للكهنة أذهاناً حادة ونفوساً شريرة وطباعاً نارية هى التى جعلت الشياطين تأنس لهم وتساعدهم بكل ما تصل قدراتهم إليه، لذلك كان للكهانة شأن عظيم فى حياة الناس، وصارت جزءاً من حياتهم اليومية لا يستطيع المرء أن يتحرك أو يقدم على عمل إلا بعد الرجوع إليها. ولما سئل النبى (ﷺ) عن الكهان؟ قال: «ليسوا بشيء». قالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقاً. فأخبرهم الرسول (ﷺ): «ذلك من جهة الشياطين يلقون إليهم الكلمة فتكون حقاً فيزيدون هم معها مائة كذبة»^(٢).

كان لكل قبيلة كاهن أو عدة كهان يرجع إليهم أفرادها لاستشارتهم فى كل أمر عظيم يقدمون عليه أو لمعرفة أسباب الكوارث التى تعرضوا لها، وكان الكاهن يتفق مع أصحاب الحاجات المتلهفين على قراءة المستقبل، على الحلوان، وهو المقابل الذى يتناوله الكاهن، ويعطيه للتابع لأن الحاجة تظل معلقة لا تتحقق إلا بدفع الحلوان، وقد نهى الرسول (ﷺ) عن «ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن»^(٣). على أن بعض الكهان كانوا قد ودعوا تابعيهم من الجن وآثروا إعداد قبائلهم للدخول فى الإسلام^(٤).

(١) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، العراق، ١٩٥١م - ١٩٦١م، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) العينى عمدة القارئ، ج ٧، ص ٣٥، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج ٤، ص ٣٥٤.

(٣) القسطلانى: إرشاد السارى، مصر، ١٢٨٥هـ، ج ٨، ص ٤٠.

(٤) السهيلي: الروض الأنف، مصر، ١٩١٤م، ج ١، ص ١٣٧.

لم تقتصر الكهانة على معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل عن طريق تابع، بل استخدم الكهان وسائل أخرى فمنها العرافة والقيافة والزجر والطيرة والعيافة والأحلام والاستقسام بالأزلام وطرق الحصى والخط على الرمال والتفرس في ملاحظة بعض أجزاء أجسام الحيوان أو الإنسان، فضلاً عن التنجيم.

ويختلف الكاهن عن العراف، فالكاهن يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الأزمان ويدعى معرفة الأسرار عن طريق التابع، أما العراف فهو الذى يدعى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة وذلك عن طريق دراسة مقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها، ويرادف معنى العرافة التنجيم^(١). وكان العراف يتمتع بالذكاء والتفرس فى الأمور والتجارب وله ملكات ومواهب خاصة، يقضى ويتنبأ للناس بالملاحظة والاستنتاج بمراقبة الأشياء، ومن العرافين رباح بن عجلة - عراف اليمامة، والأبلىق الأسدى - عراف نجد.

أما القيافة فيقصد بها التنبؤ والإخبار عن شىء بتتبع الأثر والشبه، وتنطوى فى بابها قيافة آثار الأقدام والأخفاف وحوافر الحيوان والطيور للاستدلال على أصحابها، وقد اشتهر بنو مدلب وبنو لهب بالقيافة^(٢).

كما كانت الفراسة من أنواع الكهانة التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله على صفاته وطبائعه. والعيافة هى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها وقراءة بعض أحشائها. ولذلك أطلق على العائف اسم الشاق، لأنه يشق بطون الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف. واشتهر بنو أسد بالعيافة، وكذلك بنو لهب - وهم حى من الأزد، منهم لهب بن أحجم بن كعب وهو الذى تكهن بمقتل عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام^(٣). وقد أجمل ابن خلدون تعريف الكهان بصنوفهم المختلفة بقوله: «هم الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان»^(٤).

(١) الزبيدى: تاج العروس، مصر، ١٣٠٦هـ، ج ٦، ص ١٩٣.

(٢) ابن دريد: الاشتقاق، طبعة جوتنجن، ١٨٥٤م، ص ٢٨٨.

(٣) السهيلي: الروض الأنف، ج ١، ص ١١٨.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠٧.

يعد الاستقسام بالأزلام^(١) - الذى عرف طريقه إلى عادات الناس الاجتماعية - إحدى طرق التنبؤ، وكان يتم ذلك أمام الأصنام حتى يكون تعبيراً عن مشيئة الآلهة وإرادتها، كما أن بعض الكهان كانوا يحملون الأزلام على أكتافهم يستقسمون بها فى الأسواق والمجتمعات العامة خاصة أيام الأعياد. وكان القائم بالاستقسام يتقاضى أجراً معلوماً يصل إلى مائة درهم عند سدنة هبل^(٢). وكان الناس يتفائلون بالأزلام، وصارت جزءاً من حياتهم اليومية فكانوا يرجعون إليها فى حالات السفر أو العمل أو الزواج أو دفع الديات فضلاً عن التثبيت فى الأنساب المشكوك فيها، وقد ورد ذكرها وتحريمها فى القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

كان الطرق - وهو الضرب بالحصى - من عاداتهم الاجتماعية، وكان يقوم به الطارق من الرجال والنساء للكشف عن المستقبل، وذلك بأن يخط الطارق خطوطاً كثيرة بسرعة على الأرض ثم يمحو على مهل خطين خطين، فإن بقى خطان فهما علامة الرضى والنجاح، وإن بقى خط واحد فهو علامة الهيبة. ومنهم من كان يخط ثلاثة خطوط ثم يضرب عليها بشعير أو نوى، ويتمتم بحاجة المرید، فإن أصيب خط واحد وبقى خطان كان الفلاح، وإن أصيب خطان وبقى خط واحد فهو علامة الفشل والتشاؤم. وقد سخر أحد الشعراء من الطرق بالحصى وهو لبيد بن ربيعة فقال^(٤):

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
أما الزجر فهو رمى الطيور بحصاة ثم يصيح الرامى ليفزعها ويزجرها وعندئذ يراقب
حركات طيرانها؛ فإن تيامنت - أى اتجهت يميناً - تفاعل وخرج لقضاء حاجته، وإن

(١) الأزلام: هى أسهم مكتوب على بعضها افعل والباقي لا تفعل، فإذا جاء أحد يريد الاستقسام أجال السادان الأزلام فما يخرج يعمل به.

(٢) ابن الكلبي: الأصنام، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م، ص ٢٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة المائدة: الآية ٣.

(٤) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ١، ص ٣٣٠.

تياسرت - أي اتجهت يسارًا - تشاءم به. وقد عرف الزجر بالطيرة وذلك لاعتماد الزاجر على الطيور في زجرهم^(١). وقد انتشر التطير في حياة الناس فصار يشمل الحيوان والأسماء والكلمات والأعداد، كما تطير البعض بذوى العاهات وذوى القبح الشديد، واعتبروهم نذير شؤم فكانوا يتجنبون الالتقاء بهم. يقول الجاحظ: «حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتز زجروا عند ذلك وتطيروا عندها. كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال»^(٢). ويعلق على ذلك بقوله: «وأن التطير من الطير إذا مر بارحا (ميامنا) وسانحا (مياسرا) أو رآه يتفلى أو ينتف، فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء... فسمت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا البصير والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم»^(٣)، وقد سخر العقلاء من التطير كما جاء في قول النابغة:

تعلم إنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بل شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطه كثير
وقول المرقش:

ولقد غدوت وكننت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من، والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم

وقد نهى الرسول (ﷺ) عن التطير بقوله: «اقروا الطير على مكنتها، لا تطيروها ولا تزجروها»^(٤).

كذلك تطير العرب بقراءة أحشاء الحيوانات، وبخاصة الكبد، لأنه في نظرهم موطن العداوة ومقر الحقد، فكان يقال للأعداء سود الأكباد لأن الحقد أحرق أكبادهم حتى أسودت^(٥).

(١) الزبيدي: تاج العروس، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان، القاهرة، ١٩٣٨م، ج ٣، ص ٤٣٧.

(٣) الجاحظ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٨.

(٤) الجزري: جامع الأصول، ج ٨، ص ٤٥٢.

(٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٧٨.

واشتهر عند العرب التطير بالمرأة، ف قيل: «لا عدوى ولا طيرة، إنما الشؤم في ثلاث، في (الفرس والمرأة والدار)»^(١).

وكانوا في اعتقادهم يتغلبون على شؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح، فمن تقاليدهم ذبح عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى زوجها ووصولها إلى عتبة الدار طردًا للأرواح الشريرة وإرضاء لها، وكان من عاداتهم أيضا الذبح على عتبة الدار الجديدة، وتعرف هذه الذبائح بذبائح الجان^(٢).

كان العرب يتشاءمون أيضا من بعض الطيور والحيوانات ومن أهمها البوم والغراب، والحيوانات ذات العاهات، فكانوا يقولون ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه. وغالبيتهم يتطير إذا صاح الغراب صيحة واحدة، إلا إذا ثنى تفاءلوا. وعند غيرهم إذا صاح صيحتين فهو شر، وإذا صاح ثلاث مرات فهو الخير^(٣). وقد اشتقوا من اسمه الاغتراب والغربة والغريب لتشاؤمهم منه، واعتبروا أكل لحمة عارا لأنه يأكل الجيف والقاذورات^(٤). وأشد ما يتشاءمون بالغراب إذا ولاهم ظهره أو شماله^(٥)، أو أبصروه يتفلى وينتف، كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد، ولأنه مختلف الألوان فهو عندهم كحوادث الزمان^(٦).

أما البوم فكان من أسباب التشاؤم بها منظرها الكئيب وصوتها الحزين وظهورها في الليل، وقد وصفوها بأمر الخرائب^(٧)، ولذلك اعتقدوا أن روح الميت المرفرفة على القبر هي البوم.

وكانوا يتطيرون من الثور الأغضب (المكسور القرن) ومن الحية والثعلب، فلحركات هذه الحيوانات ولأصواتها أثر في التنبيه بوقوع الشر^(٨).

(١) العيني: عمدة القارئ، ج ٢١، ص ٢٨٩.

(٢) الزبيدي: تاج العروس، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٤) الجاحظ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٥) ابن سيده: المخصص، ج ١٣، ص ٢٤.

(٦) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ١٣٦.

(٧) الدميري: حياة الحيوان، ج ١، ص ١٨١.

(٨) الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٣٨.

ومن ناحية أخرى كان العرب يتفاءلون بالهدهد فهو عندهم آية اليمين وسبيل الهداية. وكانوا يعتقدون أنه كان يدل النبي سليمان - عليه السلام - على مواضع الماء في أعماق الأرض^(١). على أن العرب بصفة عامة كانوا يعتقدون أن الطيرة والفأل مكتوبان على الإنسان، وأن حياته ومصيره مقرران^(٢).

لاشك أن البيئة الصحراوية القاسية هي المؤثر الحقيقي في تطيرهم، لأنهم كانوا كثيراً ما يتعرضون للكوارث ويبتلون الناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل والافتراس، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف الجاني والجرح والقاتل وكيفية الطلب والهرب^(٣).

كذلك تعلق الناس بالسحر والسحرة لاعتقادهم بقدرتهم على القوى الخفية لتجنب الأذى وتحقيق الخير، وصار السحرة مكانة كبيرة بين الناس وبخاصة النساء، فاستعانت المرأة بالحسد للتأثير في قلب الرجل والاستئثار به دون باقي زوجاته، واستعانت المرأة للتفريق بين الرجل وزوجته حتى تحصل عليه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَرُونَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيَسْ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

قسم ابن خلدون السحر إلى ثلاثة أنواع فقال: «السحر بالمعنى المفهوم عند الفلاسفة هو: التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين، والطمسات وهي التأثير بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر أو خواص الأعداد، والشعبذة والشعوذة وتكون بالتأثير في القوى المتخيلة، والتصرف فيها بقوة نفس الساحر المؤثرة، حتى يرى الرائي شيئاً في الخارج وليس هناك شيء»^(٥).

(١) الجاحظ: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٣٣٤.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج ٦، ص ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٥) انظر: المقدمة، ص ١٠٨.

كان السحرة يستخدمون بعض النباتات والأعشاب لاستخلاص المادة الخاصة بعملهم، أو الاستعانة ببعض الجمرات ووضعها في طريق مرور الشخص المراد التأثير فيه، وذلك بعد القراءة عليها، كما استعملوا السلوانة وهي عبارة عن مسحوق يتخذ من تراب قبر أو خرز يقرأ عليه ثم يغتسل به الإنسان، وقيل: إنه يطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى. قال الشاعر^(١):

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا بها سقياني

كذلك استخدموا السحر في الاستمطار، وذلك لأهمية الماء في جزيرة العرب القاحلة. وقد أبطل الإسلام عادة الاستمطار وأحل محلها صلاة الاستسقاء^(٢).

أما استخدام السحر في الأذى، فكان يتم بالنفث في العقد، الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة الفلق قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾^(٣). وكانت المرأة تأتي بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئاً مبهم القول، وبينما هي تتمتم تعقد العقدة^(٤). ويرى المفسرون أن لبيد بن أعصم اليهودي كان يستخدم بناته الساحرات في النفث في العقد، وكانت بناته بعد أن يتم لهن النفث في العقد يقمن بدس الخيط في بئر بني زريق، وهي بئر ذروان تحت حجر أسفل البئر، وكانت عاداتهم دفن السحر في معطن من الأرض، فلا تزال الجن موكلة بإذن المسحور به مادام الخيط في موطنه^(٥). فلما استخرجوا السحر من بئر ذروان وجدوا مشاطة رأس، وأسنان مشطية، وإذا فيه خيط معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر.

كذلك كان السحرة يستخدمون أوراق بعض النباتات وخلطها مع الملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات ثم حرقها وإذابتها في الماء أو دفنها، وفضلاً عن ذلك كانوا

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٣٤٠.

(٢) العيني: عمدة القارئ، ج ٧، ص ٢٤.

(٣) سورة الفلق.

(٤) القسطلاني: إرشاد الساري، ج ٧، ص ١٤.

(٥)

يعمدون إلى التنفير وذلك باستخدام كل ما ينفر ويفرز لطرد الأرواح الشريرة من الأماكن والأشخاص، ومن ذلك استخدام عظام الموتى وبعض أجزاء من عظم الحيوانات أو مخالب الطيور، التي كانوا يتشاءمون منها. ومن ناحية أخرى ينصحون روادهم بحمل الحمائل وتعليقها في الجبهة للحماية ودفع الأذى أو لمنح البركة والتوفيق والنصر في الحرب، وكانت الحمائل على صنفين؛ الطبيعي ومنها أنواع معينة من الأحجار أو النباتات أو المعادن النادرة وقد يكون جزءاً من إنسان أو حيوان. والصنف الآخر معمول وهو الحمائل المكتوبة أو المنقوشة أو المصورة، وهي التي كتبت أو نقشت بأسلوب خاص يمتاز بالغرابة والغموض مع تزييلها بأجزاء من الكتب المقدسة أو الأدعية أو أسماء الآلهة أو الجن أو الملائكة. والحمائل هي ما كان يعرف عند العرب بالتمائم.

وكانت الرقية من أشهر عاداتهم الاجتماعية في مداواة بعض الأمراض المستعصية، وخاصة فيما يتعلق منها بالعصبية مثل الحمى، والصرع، ولدغات العقارب والحيات، ويتم ذلك بقراءة شيء على المريض ثم النفث عليه. فضلاً عن ذلك استعملتها المرأة العربية بكثرة، لاعتقادها أن الخرز له أثر في إصلاح أمرها من اجتلاب خير أو دفع مكروه، وكانت تقرأ عليها كلمات أعدها السحرة لهن، ومن أنواع الخرزات الهنّمة^(١)، والدرديس^(٢)، وكرار^(٣)، والقبلة^(٤)، والصفرة^(٥)، والعطفة^(٦)، والينجلب^(٧)، وكان رقاهن لتأليف القلوب هواية. هواية البرق والسحابة أخذته بمركن فحبه تمكن. أخذته بإبرة فلا يزل في عبرة. جلبته باشفى قلبه لا يهدأ. جلبته بمبرد فقلبه لا يبرد.

كذلك كانت المرأة العانس تقوم ببعض العادات من أجل إيجاد خطيب لها، فمن ذلك نشر جانب من شعرها وتكحيل إحدى عينيها وتكحيل إحدى رجليها على أن يكون ذلك

(١) الهنّمة: خرزة تجتذب بها المرأة قلب زوجها. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٧١٢.

(٢) الدرديس: خرزة سوداء تتحبب بها المرأة إلى زوجها.

(٣) كرار، خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٣٨٥٢.

(٤) القبلة: خرزة نساء الأعراب ورقبتها، يا قبلة أقبله.

(٥) الصفرة: خرزة يصرفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٦) العطفة: خرزة يعطفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٧) الينجلب: خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب. الألوسى: بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٧٠٦.

ليلاً، ثم تقول: يالكاح، أبغى النكاح قبل الصباح. وكان يجب عليها أن تلبس خرزة القرزحلة^(١)، وقد سخر منها أحد الشعراء بقوله:

لا تنفع القرزحلة العجائزا إذا قطعنا دونها المفاوزا

ومن عاداتهم الاجتماعية أن يعقد الرجل طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر لقياس حفظ امرأته لنفسها وعدم خيانتها. ومن ذلك أيضاً أن أحدهم إذا أراد دخول قرية واتقاء وتجنب وبائها، فعليه أن يقف على بابها ثم ينهق نهقة الحمار، ثم يعلق عليه كعب أرنب، ثم يدخل الموضع المراد دون حذر^(٢)؛ وذلك لاعتقادهم أن كعب الأرنب ينفى جنان الدار وشيطان الحماطة^(٣) وغول القفر. كما استملوا سن الثعلب، فمن ذلك أن جنية أرادت صبياً فلم تقدر عليه، فلما سئلت أمه عن ذلك، قالت: كانت عليه نفرة ثعالب وهررة. تلك كانت أهم طبائع البدو وتقاليدهم السامية التي تعرض لها البحث، فضلاً عن مثالب العادات الاجتماعية وتبيان أثر الإسلام في الإبقاء على الخلال الكريمة والقضاء على ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية.



(١) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، ١٣٠٠هـ - ١٣٠٧هـ، ج ٥، ص ٣٥٨٤.

(٢) الألوسى: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) الحماطة: شجرة شبيهة بالتين تأوى إليها الحيات.

البدو وقافلة الحج المصرية خلال العصر العثماني

حسام محمد عبد المعطى^(١)

كان الحج فى كل عام مناسبة تنتهزها الدولة العثمانية لتأكيد سلطتها الدنيوية ودورها باعتبارها أكبر قوة إسلامية، حيث كان السلاطين العثمانيون المسيطرون على الحجاز يحرصون أشد الحرص على الاهتمام بتأمين وصول الحجيج لأداء مناسكهم، وتعد مشكلة هجمات القبائل العربية المنتشرة على طول طريق الحج الذى تسلكه القافلة واحدة من أكبر المشكلات التى كان على الدولة العثمانية وأمراء الحج المصرى التصدى لها لضمان أمن موكب الحج. فقد ظل العربان عقبة كبيرة فى وصول وعودة الحج سالما فى كل عام، وتسعى هذه الدراسة إلى التعرف على ماهية العوامل التى كانت تدفع العربان لمهاجمة قوافل الحج، وما هى القبائل العربية التى كانت تتعرض لقوافل الحج؟، وكيف استطاع أمراء الحج حماية هذه القوافل؟، وما هى الطرق والأدوات التى حاولت الدولة العثمانية من خلالها التصدى لاعتداءات العربان على هذه القوافل؟.

لقد درجت المصادر والمراجع على وصف العربان بالفاسدين والمفسدين، الخارجين دائما على الأعراف والقوانين^(٢)، الذين يقومون بمهاجمة القرى الآمنة، وقد انساقت أغلب الدراسات الحديثة وراء هذه الأيديولوجية دون دراسة العوامل والأسباب التى كانت تدفع العربان لذلك السلوك^(٣)، كما لم تنظر أغلب هذه الدراسات لعلاقة هذه القبائل بالسلطة السياسية ما قبل عصر محمد على، مشيرةً إلى أن هذه العلاقة كانت دائما علاقة صراع وتهميش وإقصاء من قبل السلطة لهؤلاء العربان^(٤)، وتسعى هذه الدراسة إلى البعد عن هذه

(١) أستاذ التاريخ - الحديث والمعاصر - المساعد كلية الآداب - جامعة بنى سويف.

(٢) صلاح أحمد هريدى، فصول من تاريخ المدن المصرية خلال العصر العثمانى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٨٦.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٥٤.

(٤) إيمان محمد عامر، العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٣.

الأيدولوجية وعدم الوقوع تحت تأثيرها ودراسة الدور الذى كانت تلعبه هذه القبائل فى نجاح مواسم الحج، والعوامل التى كانت تدفع هذه القبائل للتمرد والخروج على القوانين ومهاجمة قوافل الحج، فقد كانت القبيلة العربية بلا شك جزءاً أصيلاً من مفردات الدولة فى المنطقة العربية ما قبل ظهور الدولة المركزية فى العصر الحديث، وقد اعتمدت الدولة العثمانية على هذه القبائل فى الالتزام بالقيام بمهام محددة فى نظير مبالغ مالية وحبوب عينية سنوية، وطالما ظلت هذه القبائل تقوم بالمهام المنوطة بها فقد ظلت جزءاً مهماً من بنية الدولة العثمانية، وعندما كانت تتمرد على هذه المهام وتقوم بمهاجمة القوافل أو مهاجمة القرى فإنها تخرج عن الشرعية، وبالتالي كان ذلك يستلزم إرسال الحملات العسكرية التى تعيدها إلى سيرتها الأولى فى القيام بمهامها وليس من أجل إبادتها.

أهمية قافلة الحج:

لم يكن الحج فقط مراسم وشعائر دينية فقد أعطى الحج فرصة كبيرة للدولة العثمانية لفرض سيادتها على المسلمين فى أنحاء العالم، فقد كان الحج فى كل عام مناسبة تنتهزها الدولة العثمانية لتأكيد سلطتها الدنيوية ودورها باعتبارها أكبر قوة إسلامية^(١)، وبالتالي فقد كان الحكام العثمانيون يبدون دائما اهتماما بتأمين وحسن وانتظام سير الحج، وكان من ضمن الألقاب التى حرص عليها السلطان سليم الأول فى أعقاب ضم مصر للسيادة العثمانية «خادم الحرمين الشريفين»^(٢).

ولأن قافلة الحج لم تكن فقط من أجل المناسك فقد كانت تلعب دورا كبيرا فى تفعيل التجارة داخل بنية الدولة العثمانية بل والعالم الإسلامى كله، فقد كانت مسألة تأمين القافلة من هجمات العربان مسألة ضرورية للغاية، وكان للقاهرة بوصفها واحدة من أهم نقاط تجمع الحجيج لوصولهم إلى مقصدهم فى مكة والمدينة دورا حيويا فى إعطاء هذه التجارة حيوية وفاعلية كبيرة^(٣)؛ فمع بداية شهر شوال من كل عام كان يتجمع فى القاهرة حوالى

(١) محمد عبد اللطيف هريدى، شئون الحرمين الشريفين فى العهد العثمانى فى ضوء الوثائق التركية العثمانية، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٤٠.

(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربى (١٥١٤م - ١٩١٤م)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٥.

(٣) آندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر العربى للدراسات والنشر والتوزيع،

القاهرة، ١٩٩٤م.

أربعين ألفا من الحجيج والتجار قاصدين مكة ليس فقط من أجل إتمام مناسك الحج ، بل من أجل عقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب إفريقيا^(١) ، وكان كل ذلك يستلزم تأمين هذه القوافل بشكل كاف يضمن سيرها بأمان وراحة ، ومن أجل ذلك فقد كان أمير الحج المصرى^(٢) أحد أهم الشخصيات المصرية ، كما كان تمويل هذه القافلة يمثل أحد البنود الرئيسية فى ميزانية البلاد ، وعند نهاية القرن الثامن عشر كان ينفق على هذه القافلة ١٢ مليون وخمسمائة ألف بارة من أجل ضمان أمن وسلامة الحجيج^(٣) .

فقد لعبت قافلة الحج دورا كبيرا فى تفعيل التجارة داخل بنيان الدولة العثمانية ، بل والعالم الإسلامى كله ، وقد كان للقاهرة بوصفها واحدة من أهم نقاط تجمع الحجيج لوصولهم إلى مقصدهم فى مكة والمدينة دورا حيويا فى إعطاء هذه التجارة حيوية وفاعلية كبيرة ؛ فمع بداية شهر شوال من كل عام كان يتجمع فى القاهرة حوالى أربعين ألفا من الحجيج والتجار قاصدين مكة ليس فقط من أجل إتمام مناسك الحج ، بل وأيضا من أجل عقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب إفريقيا ، فإلى مكة كان يتم نقل البضائع الهندية والإفريقية واليمنية ، حيث يعقد أكبر سوق إسلامى يؤتى إليه بجميع بضائع الشرق ؛ فالمر والبخور والعقاقير الطبية والأقمشة

(١) سليمان محمد حسين حسانين ، تجار القاهرة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٢١١ .

(٢) درج سلاطين آل عثمان على تعيين أمير لقيادة قافلة الحج السنوية التى تخرج من القاهرة ، وذلك بمقتضى أمر سلاطنتى (خط شريف) يسلمه رئيس حرس باب الديوان الحكومى (قابجى باشى) أو أحد فتيان القصر السلطانى ، (جوخدار باشى) أو أحد الأغوات ، إلى الباشا ويقرأ كاتب الديوان الخط الشريف على الأغوات والصناجق واختيارية السبع أوجاقات وأمير الحج وطائفته الحاضرين فى ديوان القاهرة ، بجلسة الوالى الذى يقوم بالخلع على أمير الحج ، بقطان أميرية الحج ، وكانت عملية الخلع هذه تتم عادة فى يوم مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) الموفق ١٢ ربيع الأول ، وكانت هذه الخلعة عبارة عن قفطان من المخمل المذهب ، ويخرج أمير الحج من القلعة فى موكب عظيم عائدا إلى منزله لكى يستعد للخروج بالموكب ، وقد عرف خلال العشر سنوات الأولى من الحكم العثمانى لمصر باسم (أمير ركب المحمل) ثم اصطلح على تسميته (أمير الحج) أو (مير لواء الحج) وكان يلى الباشا والقائمقام ، والدفتردار فى الأهمية داخل ولاية مصر العثمانية ، غير أن أهمية أمير الحج تراجعت خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

(٣) آندرسه ريمون ، الولايات العربية فى العصر العثمانى ، ضمن كتاب ، تاريخ الدولة العثمانية ، تحرير روبري مانتران ، ترجمة بشير السباعى ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ص ٥٦٢ .

الهندية والحريير الفارسي والخزفيات الصينية والبن اليمنى وغيرها الكثير^(١)، كانت كلها تنقل إلى مكة استعدادا لوصول الحجيج، حيث تشهد مكة أكبر حركة تبادل تجارى بين منتجات الشرق والسلع الغربية من المرجان والرصاص والزرجاج والحديد والنحاس والأسلحة النارية وغيرها. لقد كانت مكة تبدو أثناء الحج أثرى سوق فى العالم؛ فما من سلعة فى ناحية من نواحي العالم إلا وجدت بها، وعلى الرغم من صعوبة تحديد عدد التجار فى قافلة الحج، فلا شك أن كل حاج حرص على شراء عدد من السلع كهدايا، أو للتجارة بهدف تعويض ما أنفقه خلال رحلة الحج، ولم تكن السلع التى يحملها الحجيج من مكة أو إليها معفية من الجمارك فحسب، بل لم تخضع لأى تفتيش جمركى، وقد أسهم التجار بالدور كبير فى قافلة الحج المصرية^(٢)، ويرجع ذلك إلى أن عددا كبيرا من التجار المقيمين فى القاهرة حرصوا على السفر فى صحبة قافلة الحج فى كل عام^(٣) بأنفسهم فالجبرتى مثلا عند ترجمته لشهبندر التجار أحمد بن عبد السلام يقول: «وصار يسافر إلى الحجاز فى كل سنة مقوما مثل أبيه»^(٤).

من أجل كل ذلك فقد أولت الدولة العثمانية جل اهتمامها بالحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ وأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وأصبحت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التى كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة فى مواعيد محددة كل عام، ولما كانت رحلة الحج تستغرق ما يقارب من الثلاثة أشهر ذهابا وإيابا، وكانت رحلة شاقة للغاية عبر الصحراء لذلك فقد كانت مهمة أمير الحج الأساسية توفير أسباب الراحة للحجاج، وتسهيل سفرهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم سالمين إلى بلادهم، لقد أسهم الحج فى الوحدة المعنوية والمادية للدولة العثمانية ومن أجل ذلك أولت الدولة مسألة تأمين الحج أولوية قصوى.

(١) القسمة العسكرية، س ١٠٥، ص ٣٩٢، م ٤١٥ بتاريخ ١١٢٦هـ.

(٢) القسمة العسكرية، س ١٠٥، ص ٢٠٦، م ٢٣٤، بتاريخ ١١٢٦هـ.

(٣) سجلات محكمة بولاق الشرعية، س ٦٥، ص ٢١، م ٦٢، بتاريخ ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م.

(٤) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم،

الجزء الثالث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

دور العربان فى تأمين قافلة الحج:

درج عدد ليس بالقليل من المؤرخين على التأكيد على أن دور العربان كان دائماً سلبياً فى رحلة الحج، وقد انساق هؤلاء المؤرخون وراء المصادر التى أعطت صورة سلبية لهجمات العربان على قوافل الحج دون بحث عن عوامل ذلك، ودون دراسة لعدد حالات الاعتداءات التى حدثت لهذه القوافل^(١)، والواقع أن هؤلاء العربان لعبوا دوراً مهماً للغاية فى دعم ونجاح حركة قوافل الحج، وبدون وجود هؤلاء العربان حول الممرات الصحراوية كانت رحلة الحج سوف تكون أصعب بكل تأكيد، فما هو الدور الإيجابى الذى لعبه هؤلاء فى عملية نجاح قوافل الحج.

أولاً: حمل الحجاج وبضائعهم على الجمال، فقد كان العربان يوفرون الجمال لنقل الحجاج، حيث كان الجمل الحيوان الرئيسى الذى استخدم فى السفر عبر الدروب الصحراوية الشاقة، وتوضح وثائق أرشيف المحاكم الشرعية آلاف الحجج التى تتعلق بتعاقدات تتم بين الحجاج والعربان لحملهم على جمالهم والعودة بهم إلى القاهرة مرة أخرى، فقد كون العربان شركات متخصصة فى نقل الحجاج، وفروا فيها الجمال والهداج وكل ما يحتاجه الحجاج فى سفرهم الشاق^(٢)، وليس ثمة شك فى أن ذلك وفر للعربان مصدر دخل مهم، وظل موسم عمل ينتظره العربان طوال العام، فمثلاً فى العام ١١٤٤هـ/ تعاقد اثنان من العربان مع حاجين من الحجاج المغاربة لنقلهم من القاهرة والعودة بهم مع أحمالهم فى مقابل مائة دينار ذهب زنجرى^(٣)، وهو ما يعكس المكاسب التى كان يجنيها العربان من موسم الحج^(٤).

(١) سعد بدير الحلوانى، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد خلال القرن ١٩، ط ١، القاهرة، ص ١٣.

(٢) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامى وأهميتها فى العصر العثمانى، ضمن كتاب، بحوث فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لبلاد الشام فى العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٢٠١.

(٣) زنجرى لفظ فارسى يعنى السلسلة، وهو دينار ذهب عثمانى ضرب فى عهد السلطان أحمد الثالث وقد أخذ الدينار هذه التسمية نتيجة للدوائر الصغيرة التى كانت تشكل زخرفة إطاره كما كان يعرف بالمحبيب نتيجة لبروز حوافه، وكان سعره يتراوح بين ١٠٧، ٢٠٠ بارة، أحمد الصاوى، النقود المتداولة فى مصر العثمانية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٥٢.

(٤) الصالحية النجمية، س ٥١٦، ص ٢٠٠، م ٤٤١ بتاريخ ١١٤٤هـ.

كما كانوا يقومون بنقل الغلال والحبوب التي يرسلها الحجاج إلى منازل الحج المختلفة، فعند وصفه لسوق الرميلة فى القاهرة يقول الوريثانى: «ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم ويعمرونه هناك فى غرائهم ويمكنونه للجمالين فيذهبون به فلا يراه صاحبه إلا فى المكان المشترط معهم وهو المويلح فى الغالب»^(١). هكذا فقد أسهم العربان فى توفير احتياجات الحجاج بنقلها من بولاق والرميلى إلى القلاع المنتشرة على طول طريق الحج. كما كان أمير الحج يستخدم العربان فى عمليات شحن القلاع الممتدة على طول طريق الحج بالحبوب والغلال المختلفة التى تحتاجها القافلة، وقد دفع كل ذلك العربان للعمل على الحفاظ استمرار قافلة الحج، ولم تكن القبائل العربية تتحرك للعمل ضد القافلة إلا إذا تم حرمانها من مخصصاتها أو حرمت من خدمات الحجيج.

ثانياً: حمل سحابات الحج، فقد أوقف العديد من السلاطين والبشوات والأمراء سحابات لرعاية فقراء الحجاج، والسحابات هى خيام ومظلات كبيرة كان الحجاج يستظلون بظلها وتقدم لهم من خلالها الأطعمة والأشربة، وكان على نظار أوقاف الأمراء والسلاطين أن يتعاقدوا فى كل عام مع عدد من مشايخ العربان من أجل حمل ونصب وإعداد هذه السحابات والمخيمات التى كانت معدة خصيصاً للفقراء من الحجاج، فقد أوقف السلطان مراد الثالث سحابة ضخمة ورصد للأنفاق عليها العديد من القرى، كما رصد مبالغ مالية لخدمات الحجاج فى هذه السحابة، ومن بينها تخصيص أموال للعربان لحمل وإعداد هذه الخيام الكبيرة^(٢)، كما أوقف أحمد باشا حافظ^(٣) سحابة للفقراء لحمل الماء اللازم للحجاج وحمل فقراء الحجاج إلى الحرميين، وكان العربان هم الذين يقومون بعمل هذه الخدمات فى مقابل الحصول على الأموال، مثل حمل المياه أو تمهيد الطرق وغير ذلك من الأعمال.

ثالثاً: حراسة درب الحج، فقد سارت الدولة العثمانية على نفس نهج الدولة المملوكية فى دفع شرور البدو عن طريق منحهم حق حراسة طريق درب الحج، وذلك فى مقابل منحهم الرواتب السنوية التى كان يحملها لهم أمراء الحج، وذلك لكسب ولائهم للدولة

(١) الوريثانى، نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، مطبعة ببيروفنتانا الشرقية الجزائر، ١٩٠٨م، ص ٢٦٥.

(٢) قطب الدين النهروانى: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، ص ٢٢٥.

(٣) تولى ولاية مصر خلال الفترة (١٥٨٣م - ١٥٨٤م).

من أجل المحافظة على أمن وراحة الحجيج^(١)، وقد توزعت خفارتهم على طريق الحج^(٢) على النحو التالي:

الربع الأول من الطريق آلت خفارته لأقوى قبائل البدو قبيلة العائد، فقد تركزت خفارة المنطقة الممتدة من أول صحراء القاهرة حتى سطح العقبة في أيدي عربان العائد^(٣)، أما منطقة درك النقب فقد آلت خفارتها لأربع قبائل من العربان حيث كانت تنقسم إلى أربعة أقسام القسم الأول منها كان لعربان الوحيدات، والقسم الثاني لعربان المساعيد، والثالث لعربان الرتيمات، والقسم الأخير لعربان الترابين، أما منطقة المناخ حتى العقبة فألت خفارتها لعربان بنى شاكر أولاد راشد وشاركهم في خفارة هذه المنطقة جزء من عربان بنى عطية^(٤)، وقد حدث في ولاية أمير الحج جانم بن قصوصه عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م، أن نما أمر الحويطات^(٥) من بنى عطية واشتهروا بالفساد والأذى وانتهزوا فرصة عجز بنى شاكر في

(١) أحمد باشا الجزائر، نظامامة مصر عن كيفية إعادة مصر إلى سلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥م، منشور ضمن كتاب عبد الوهاب بكر، الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٨٦.

(٢) الواقع إن هذا النظام كان متبعاً في العديد من الأنشطة المختلفة، فقد كان حفظ السفن في النيل يخضع لمشايخ القرى الواقعة على جانبي النهر في مقابل بعض المخصصات المالية، وخضعت أغلب الطرق للترام مشايخ العربان القاطنين على جانب هذه الطرق، عبد الحميد حامد سليمان، الملاحه النيلية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٦٧.

(٣) تنتشر قبيلة العائد في جنوب سيناء، وسكنت فروع منهم بلبيس، والصالحية، وهي بطن من طى أصلها اليمن نزحت إلى الحجاز عقب انتشار الإسلام واستوطنت نجدا حتى القرن السادس الهجري ثم قدمت إلى مصر في القرن السابع حيث استقدمها الظاهر بيبرس وعهد إليها بخفارة جزء من درب المحمل الشريف وحماية الحجاج، وكان دراك العائد يمتد من بركة الحج حتى قلعة نخل، إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق، ص ٦٣.

(٤) قبيلة بنى عطية من القبائل العربية الكبيرة، وقد انتشرت في شمال الحجاز والأردن ومصر، ويعرفون في مصر بالمعازة، وفي الأردن بالعطونة، وفي المملكة السعودية ببني عطية، وقد نزحت فروع عديدة من بنى عطية إلى مصر قبل خمسة قرون واستمروا في النزوح إلى مصر حتى أوائل القرن العشرين، ومن أشهر فروعهم السليمات، والخمايسة، والمصابحة، والعقيلات، حمود بن ضاوى القشامى، معجم المواضع والقبائل، ج ٢، دار العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٣٣٠.

(٥) قبيلة الحويطات من أكبر القبائل الموجودة في الشمال الغربي للجزيرة العربية، نزلت حول خليج العقبة تضم معها العمارنة (العمران)، وتوسعوا غرباً حتى وصل بعضهم إلى القليوبية بمصر، وكانت لها السيادة حول خليج العقبة منذ القرن السادس عشر، سميرة فهمي عمر، دور عربان الوجه البحرى في مصر العثمانية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٦٦.

القيام بالحراسة واستولوا على درك المناخ وحصلوا على العوائد التي كانت تمنح لبني شاعر وقدرها ٨١٥ نصف فضة بالإضافة إلى الحبوب والهدايا من الجوخ والشاشات والأقمشة المختلفة التي كان يخلعها عليهم أمير الحج في كل عام^(١)، وقد أحل أمير الحج أيدين في العام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م الحويطات محل بني شاعر ومنحهم نصف عوائد بني شاعر، وعندما تولى الأمير حسين أباطة أمير الحج في العام التالي هاجم منازل عربان الحويطات وأحرقها وقطع رؤوس بعضهم وحبس البعض الآخر، غير أن عربان الحويطات سرعان ما استطاعوا السيطرة على هذه الدرك، وبالتالي ظلوا مسيطرين على تأمينه طوال العصر العثماني.

أما الربع الثاني من طريق الحج فكان به دركان وجزء من الدرك الثالث فكان الدرك الأول لعرب الرشيدات من بني عطية وأولة من البويب وآخره المحل الذي يسمى عند العرب كبيدة وبآخرة مغارة شعيب، والدرك الثاني لبني عطية أما الربع الثالث من طريق الحج فكانت خفارتة في أيدي عرب الأحامدة من قبيلة بلي^(٢)، وبنو حسان من جهينة وغيرهما من بطون قبيلتي بلي وجهينة، أما الربع الأخير فقد آلت حراسته في بداية السيطرة العثمانية لبني حرب^(٣)، وعنزة^(٤)، كما منحتهم حق نقل الغلال الواردة من مصر من ميناء ينبع إلى المدينة المنورة، مما ترتب عليه هدوء في هذه المنطقة خاصة وأن شريف مكة تمتع بنفوذ كبير على العربان المقيمين في هذه المنطقة^(٥)، ولم تصبح هذه المنطقة

(١) سميرة فهمي عمر، إمارة الحج في العصر العثماني، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٢) قبيلة بلي من أكبر القبائل العربية. وقد توافدت فروع عديدة من بلي على مصر منذ الفتح الإسلامي لها، ومن أشهر هذه الفروع، الأحامدة والمطرفة والعرادات والمعاقلة، حيث نزل أغلبهم في سيناء والشرقية، محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ٢٨٩.

(٣) ينتهي نسب قبيلة حرب إلى خولان القحطانية من اليمن، وكان بدو بني حرب يتألفون من عشر قبائل يبلغ تعداد أصغرها ٥٠٠ نسمة، وأكبرها ٣٠٠٠ نسمة، وتنتشر هذه القبائل حول ينبع والمدينة، وكانت قبائل بني حرب مكلفة من قبل الدولة بنقل غلال أهالي المدينة، كان القائمون بهذه المهمة يسمون «صاحبى درك أى حماة المرور» وكان عليهم تقديم خدمات أمنية للحجاج، وفي مقابل ذلك خصصت الدولة لهذه القبائل صرة نقدية وكميات من الحبوب، ورغم أن أمير الحج المصرى كان هو الذى يدفع أموال الدرك، إلا أن شريف مكة كان صاحب نفوذ وهيبة كبيرة على عربان بني حرب، وغالبا عندما كانت تهاجم قافلة الحج خلال هذه المرحلة كان شريف مكة مسئول مسئولية مباشرة عن القضاء على تمرد العربان خلالها. إسماعيل حتى أوزون، المرجع السابق، ص ٨٢.

(٤) عنزة أحد بطون ربيعة كانت منازلهم خيبر من ضواحي المدينة فكانت تمتد حدودهم من الجهة القبيلية إلى المدينة المنورة وحتى جبل مفرح.

(٥) إسماعيل حتى أوزون، المرجع السابق، ص ٨١.

ذات خطر كبير على الحج إلا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما تأخرت مخصصات البدو^(١).

وتشير دفاتر الصرة الرومية التي خصصها السلاطين لأهالي الحرمين إلى تخصيص مبلغ ١٤٢١٠٢ بارة في كل عام للقبائل التي تقوم بحراسة أدراك الحج^(٢) كما كان هؤلاء يتلقون كميات كبيرة من الحبوب من شون القلاع التي كان عليهم تأمينها مع الحاميات العسكرية المخصصة لذلك، وبالإضافة لذلك فقد كانت القبائل العربية تتقاضى مبالغ أخرى من أمير الحج، وكميات كبيرة من الملابس وقطع الأقمشة الجوخية والقطنية فيما كان يسمى بالخلع التي يمنحها لهم أمير الحج، حيث كان يستهلك سبعون بالة في عمل ملابس توزع على البدو وأهالي مكة والمدينة^(٣).

وعندما تزايدت الاحتياجات المالية لدعم قافلة الحج خلال القرن الثامن عشر نتيجة لتراجع قيمة البارة، حمل الأمراء المماليك الخزينة الإرسالية نفقات إصلاح القلاع والصحاريج والمباني العامة على طول طريق الحج، وكذلك المكافآت السنوية الخاصة التي كانت ترسل لأمير ينبع ولشيخ الحرم النبوي في مكة، وكذلك للعربان الضاربين على طول الطرق^(٤)، وبالتالي فقد ارتفعت هذه النفقات التي كانت تخصم من الخزينة الإرسالية لتصل إلى مليون بارة^(٥).

رابعاً: توفير احتياجات الحجاج من الطعام في منازل الحج المختلفة، ففور نزول الحجيج في أحد المحطات كان العربان يحضرون حوله ببضائعهم المختلفة من الحيوانات التي أخذوا في تربيتها طوال العام انتظاراً لموسم الحج مثل الأغنام والماعز والجمال،

(١) أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مطبعة الكليات الأزهرية، مصر، ١٣٠٥هـ، ص ٢١٣.

(٢) دفتر صرة رومية أهالي حرمين شريفين مكة المكرمة ومدينة منورة شرفهما الله تعالى إلى يوم الدين، واجب سنة ١٢٠٠، رقم ١١٦، نوعي ٥٤٩، مخزن تركي ١.

(٣) كارستين نيبور، رحلة إلى بلاد العرب وما حولها (١٧٦١/١٧٦٧)، الجزء الأول، ترجمة مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، ١٩٧٧م، ص ٢٦٣.

(٤) سجلات الديوان العالي، الديوان، س ٢، ص ٢٩٧، م ٤٦٣، بتاريخ ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م.

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة في مصر في العصر العثماني، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨م،

بالإضافة لمنتجات الحيوانات المختلفة مثل الجبن والسمن والزبد^(١)، كما عملوا على توفير المياه والعشب للدواب والحيوانات التي يصطحبها الحجاج، وغير ذلك من المواد التي يستطيعون توفيرها، فيقول العياشى متعجبا «ولقد شاهدنا فى أيام المواسم بالحرمين العجب فما يباع فيهما من القشيم اليابس وكثرته مع غلاء الأسعار، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب الألف فى كل يوم فلا يمشى شىء من ذلك وشاهدنا حمل جمل يباع بدينار ذهب وأخبرت أن العرب يستعدون لذلك من أول السنة فيمهدونه فى البادية إبان الربيع ويبيسونه وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتى الركبان فيتجمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم^(٢)، هكذا كانت المنفعة متبادلة بين قوافل الحج والعربان، فبدون توفير هذه السلع البسيطة التى يوفرها العربان كانت رحلة الحج ستكون صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة، وكانت كل محطات طريق الحج تزدهر وتتحول إلى أسواق كبيرة بمجرد وصول موكب الحج إليها^(٣)، كما أسهمت قوافل الحج فى إيجاد مصادر دخل للقبائل العربية الضاربة على طول طريق الحج، ووفرت لهم فرصة كبيرة لتصريف إنتاجهم من الحيوانات والأعشاب المختلفة.

العربان وعمليات سلب قوافل الحج:

وقد ظلت مشكلة هجمات القبائل البدوية المنتشرة على طول طريق الحج الذى تسلكه القافلة من أكبر المشكلات التى كان على أمراء الحج وأمراء مكة والإدارة فى مصر التصدى لها لضمان أمن وسلامة موكب الحج، وإلا تعرض كل هؤلاء لغضب وعقاب الإدارة فى إسطنبول، والواقع أنه كانت هناك العديد من العوامل التى تدفع العربان لمهاجمة هذه القوافل فما هى هذه العوامل التى كانت تدفع العربان لمهاجمة قوافل الحج؟.

أولا: فقد كان للبيئة التى يعيش فيها هؤلاء أثر كبير فى تنشئتهم على نهب الحجيج، فقد ألفت هؤلاء منذ القدم أن يعيشوا على ما يقدم لهم على أيدى الحجاج، بل أحل هؤلاء نهب الحجيج وسلب ما معهم فالطفل منهم منذ مولده ترقصه أمه بقولها:

(١) أبو العباس بن ناصر الدرعى، رحلة إلى بلاد المناسك، جزآن فى مجلد، مطبعة حجر، بخط مغربى، د/ت،

ص ١٣٤.

(٢) أبو سالم بن عبد الله العياشى، ماء الموائد المعروف باسم الرحلة العياشية، جزآن فى مجلد، طبع حجر، فاس،

بخط مغربى، ١٨٩٨م، ص ٣٠٠.

(٣) عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصارى الجزيرى، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المكرمة،

مخطوط دار الكتب القومية، تاريخ رقم ١٥٧٠، ص ٥٥.

أبو عيون لجلاج تكبر وتسرق الحج!!

ومثلهم يقول: رزقنا على الحاج ورزق الحاج على الله!!!

وبالتالى فقد كانت البيئة التى ينشأ بها الطفل البدوى منذ البداية تؤهله لأن يعتاد على سلب الحجيج كما كانت تبيح له أموال الحجاج لأنهم مصدر رزقهم، ويشير الورتيلانى إلى ذلك بقوله: «ثم سرنا فى تلك المضائق إلى الوادى المسمى الآن بوادى العقيق بل تسميته بوادى العقوق أولى لتلصص أعرابه وجرأتهم على الناس بالسرقة»^(١).

ثانياً: ضعف الإدارة العثمانية، فقد ارتبطت اعتداءات البدو إلى حدا كبير بضعف الإدارة العثمانية فى القرن الثامن عشر، فلم يكن البكوات المالك هم سكان مصر الوحيدين الذين استفادوا من اضمحلال السيطرة والإدارة العثمانية فى مصر فى هذا القرن، بل استفاد البدو بشكل كبير من ذلك أيضاً، وظهر العربان مسيطرين على مناطق كبيرة من مصر، ولعل الهوارة^(٢)، وأولاد حبيب^(٣) خير مثال على ذلك، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل العربان يستطيعون فى كثير من الأحيان أن يتحدوا محاولات الحكام فى إيقاف أعمال التخريب التى كانوا يقومون بها خلال القرن الثامن عشر، بخاصة وأن بعض الحكام والأمراء كانوا يشركونهم فى صراعاتهم السياسية مما أتاح لهم الفرصة للقيام بأعمال السلب والنهب مثلما حدث فى عام ١١٣٢هـ / ١٧٢٠م.

ثالثاً: الامتناع عن دفع المقررات السنوية التى خصصتها الدولة للبدو فى مقابل خفارة رب الحج، وكان ذلك من أقوى الأسباب التى أدت إلى إثارة البدو ودفعتهم لنهب الحجاج لتعويض ذلك، فقد كان لامتناع أمراء الحج عن دفع مخصصات البدو نظير خفارتهم للطريق، وقيادتهم للحجيج فى الطريق الصحراوى، أثر كبير فى إثارة القبائل العربية ويرجع عدم دفع أمراء الحج لأموال العربان إما لعدم توفر الأموال فى الخزانة نتيجة للأزمات الاقتصادية أو نتيجة لجشع وطمع أمراء الحج فى استقطاع هذه الأموال لحسابهم. وفى العام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م كانت أولى حوادث الاعتداء على قوافل الحج من قبل

(١) الورتيلانى، المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هوارة يمكن مراجعة، ليلي عبد اللطيف أحمد، شيخ العرب همام وحكم ولاية جرجا،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن أولاد حبيب يمكن مراجعة عبد الحميد سليمان.

البدو في العصر العثماني ، ففي هذا العام منع العرب مبشر الحج من الدخول إلى القاهرة مما ترتب عليه عدم معرفة أخبار الحجيج وكان سبب الاعتداء في هذا العام أسر عبد الدائم ابن بقر بالإضافة إلى امتناع أمير الحج عن دفع الأموال المخصصة لعربان بنى بقر، وفي سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، اجتمع أمير الحج المصرى وبدوى بن عيد شيخ عربان بنى بقر، وفي مجلس الشريف سرور أمير مكة، فتناول بدوى على أمير الحج وهدده بالهجوم على موكب الحج بسبب تأخر مستحقاتهم المالية، مما جعل الشريف سرور يأمر بالقبض عليه وسجنه حتى وفاته في السجن، لذلك فقد تم نهب موكب الحج في العام التالي، وظل بنو حرب في حالة تمرد دائم حتى عام ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م عندما نجح الشريف سرور أمير مكة في القضاء على تمردهم، مع وعدهم بتسديد مستحقاتهم المالية^(١).

رابعاً: الصراع القبلي على خفارة أدراك الحج، فكثيراً ما حدثت تغيرات اثنوجرافية لمناطق تركز وسيطرة القبائل العربية، كأن تنقسم القبيلة ويسيطر أحد الفروع على حراسة درك الحج دون الفرع الأخر مما كان يدفع الفرع الأخر على الثورة والتمرد ضد الدولة، أو أحد فروع القبائل ينمو ليتحول إلى قبيلة كبيرة ومن ثم يسعى إلى الاستحواذ على خفارة أحد الأدراك من الدولة العثمانية، ولكي يثبت قدرته على ذلك كان يبحث عن أضعف القبائل التي تحرس الأدراك ويعمل على مهاجمتها ومن ثمة تلجأ إليه الدولة من أجل حماية هذا الدرك، فمثلاً في ولاية أمير الحج جانم بن قصره عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، نما أمر الحويطات من بنى عطية واشتهروا بالفساد والأذى وانتهزوا فرصة عجز بنى شاکر عن القيام بالخفارة واستولوا على درك المناخ وحصلوا على العوائد التي كانت تمنح لبنى شاکر وقدرها ٨١٥ نصف فضة بالإضافة إلى الهدايا من الجوخ والشاشات والأقمشة المختلفة التي كان يخلعها عليهم أمير الحج في كل عام، ولكي يتفادى أمير الحج أذاهم فقد أعطاهم الأمان ورتب لهم من ماله زيادة عما كان باسم بنى شاکر ٢٠٠٠ نصف فضة، وعشرين جوخة إضافة إلى عدد من البرانس المغربية، وعندما تولى الأمير أيدين إمارة الحج عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م منحهم نصف العوائد السابقة فقط، ثم قطع عنهم تلك العوائد الأمير حسين أباطة أمير الحج عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، وقد تمكن هذا الأمير من الهجوم على منازل الحويطات وأحرقها وقطع رؤوس بعضهم وحبس البعض الآخر.

(١) أحمد بن زيني دحلان، ص ٢٢١.

على العموم فقد كانت أكثر مناطق البدو فسادا المنطقة الممتدة من مغاير شعيب حتى العقبة وذلك لوعورة تلك المنطقة، فقد كانت هضبة العقبة أكثر المناطق التي تعرضت فيها قافلة الحج للنهب، فمن بين أربعة وعشرين حالة اعتداء بارزة على قافلة الحج خلال العصر العثماني (١٥١٧م - ١٧٩٨م) كان منها أحد عشر اعتداء تم في منطقة العقبة، فقد كان العربان ينتظرون صعود الحجاج للهضبة واقتربهم من قلعتها وعند إنزالهم حوأنهم للراحة بها يبدأ العربان بالهجوم حيث يكونون مختفين على أطراف الهضبة فمثلا في العام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م، هاجم العربان في العقبة قافلة الحج وكان ذلك بسبب ما حدث في العام السابق، فقد حدث أن خرج أحد العربان المدعو قطيفان ومعه بعض البدو على أمير الحج محمد بك قطامش أثناء عودته بالحجاج في العام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م، وتمكن أمير الحج من أسرهم ومعه عشرة آخرون من البدو، وعاد بهم إلى مصر، وقد أثار هذا البدو، وأرسلوا يهددون محمد بك أمير الحج، فغضب الأخير وقتل قطيفان وسبعة من الأسرى، مما أغضب البدو، وجعلهم يتربصون لأمير الحج، عند وصوله للعقبة بالحجاج، فتقاتل معهم أمير الحج وقتل عددا كبيرا منهم، ثم واصل السير بالقافلة إلى مكة، وقد أرسل أمير الحج إلى الديوان في القاهرة يخبره بما حدث ويطلب إليه إرسال حملة لدعم قوة موكب الحج عند عودته، وبالفعل فقد استجاب الديوان في القاهرة لطلب أمير الحج فأرسل حملة عسكرية على رأسها صالح بك ومملوكة حسين بك الخشاب، وقد ألتفت الحملة من خلف هضبة العقبة وفاجأت العربان من طريق لم يكن يتوقعونه، وأطلقوا نيران المدافع عليهم مما كبدهم خسائر جسيمة، وبذلك نجحت الحملة في القضاء على خطر العربان وعاد الحج سالما^(١).

خامسا: تراجع أهمية منصب أمير الحج خلال القرن الثامن عشر مع بروز منصب شيخ البلد الذي أصبح محل تطلع القيادات المملوكية، وبالتالي فقد غابت الشخصيات الكبيرة التي كانت تتولى إمارة الحج، مثل رضوان بك وذو الفقار بك وإسماعيل بك بن عوض^(٢)، عن تولى هذا المنصب وحلت محلها أسماء أقل قوة، وبالتالي أقل حكمة على حل المشكلات

(١) أحمد الدمرداش كتخدا عزبان: الدررة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق دانيال كريسيوليوس، عبد الوهاب بكر،

١٩٩٢م، ص ١٩٩.

(٢) أحمد الرشيدى.

التي تواجه الحج، ويمكننا تحديد عام ١١٣٦هـ كبداية لتراجع قوة الأمراء الذين تولوا إمارة الحج، وتراجع هيبة أمير الحج^(١)، ورغم زيادة المخصصات النقدية التي كانت تخصص له^(٢)، إلا أن احتياجات تأمين القافلة كانت تتزايد بشكل كبير، وبالتالي فقد عجز أمير الحج عن الوفاء بالتزاماته تجاه العربان، وتجاه تأمين القافلة.

فليس ثمة شك في أن شخصية أمير الحج وهيئته لعبت دورا كبيرا في حماية الحجيج من اعتداءات العربان، فشجاعة أمير الحج وإقدامه على قيادة فرسان القافلة ومطاردته للبدو، فكان أمير الحج يضبط أطراف القافلة ونواحيها، بجماعة من العسكر على خيولهم، ويقوم بالمرور عليهم دوريا هو ورجاله^(٣)، ففي عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م تمكن أمير الحج جانم السيفي بن دولاب باي أحد أمراء الجراكسة وكاشف الجسور السلطانية، من التغلب على سلامة بن فواز شيخ بنى لام المفارجة المعروف بجغيمان من عربان بنى عقبة، عندما تعرض لقافلة الحج ومعه عدد كبير من العربان يصل لعشرة آلاف نفر، في وادي سماوة بالقرب من الأزلم، وبرغم ذلك فقد نجح في النجاة بالحجيج ولم يصب الحجاج بأذى، ويرجع ذلك إلى شجاعته وبأسه وإقدامه، ومن الأمراء الذين اشتهروا بالقوة والإقدام وحسن التدبير في قيادة قافلة الحج، ذو الفقار بك، وإسماعيل بك بن عوض، وحسين بك كشكش.

وفي العام ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م، تولى الأمير حسين بك كشكش إمارة الحج، وكان من الأمراء الحكماء الأقوياء، وعندما وقف له العربان في مضائق الطرق، وحاولوا التعرض للحجاج، استطاع بشجاعته وحسن تدبيره التغلب عليهم، بل لقد بلغت شجاعة هذا الأمير أنه أصر على الخروج بالحجاج في العام التالي عندما لاهه على بك الكبير على ما فعله مع العربان^(٤)، وقد تصدى العربان لموكب الحج مرة ثانية انتقاما لما فعله معهم حسين بك فوقفوا له في المضائق وعلى رؤوس الجبال وتربصوا به في كل مكان، وقد

(١) تعرض موكب الحج في هذا العام قبل خروجه لسرقة متعلقات أمير الحج شخصيا مما كان يوضح مدى تراجع قوة وهيبة أمير الحج، أحمد شلبي عبد الغني، المصدر السابق.

(٢) The financial and administrative organisation and development of Ottoman Egypt. (٢) 1517 – 1798. Princeton university press, Princeton, 1962.

(٣) جابر سلامة المصري، الحجيج المصري في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد الثلاثون، ١٩٨٥م، ص ١٤٥.

(٤) سميرة فهمي عمر، إمارة الحج، المرجع السابق، ص ٢٨١.

تمكن حسين بك كشكش من قتل عدد منهم وتشريد العدد الأكبر، ولم يستطع العربان بعد ذلك التعرض لقافلة الحج طالما ظل حسين بك أميراً عليها، حتى إن الجبرتي يشير إلى أن العربان كانوا يخوفون أبناءهم بذكر اسمه «وأخافهم وهابوه حتى كانوا يخوفون به أطفالهم»^(١).

بيد أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت سنوات عجاف بالنسبة لقافلة الحج بسبب ضعف ورعونة أمراء الحج وبخاصة مراد بك ومماليكه، وكثيراً ما تسبب طمع أمير الحج في عوائد العربان إلى تقصيره في حق الحجاج وحرمانهم من رغبتهم في زيارة المدينة المنورة، وأصبح ذلك واضحاً في أواخر القرن الثامن عشر، ففي عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م، لم يزر الحجاج المصريون المدينة، وذلك لعدم دفع أمير الحج العوائد للعربان الموجودين على طريق المدينة^(٢)، وأيضاً عدم دفع الأموال المخصصة لأهالي المدينة المنورة، والواقع أن السبب وراء ذلك كان يرجع إلى استبدال وجشع الأمراء المماليك المسيطرين على السلطة في مصر، حيث دفعهم الجشع إلى الاستيلاء على أموال قافلة الحج، مما كان يضطر أمير الحج إلى التقصير في دفع عوائد العربان والأموال المخصصة لأهالي الحرمين^(٣)، مما عرض أمير الحج وقافلة الحج المصرية إلى المهانة والمظهر السيئ عند نهاية القرن الثامن عشر^(٤)، ويعلق الجبرتي على موكب الحج في عام ١١٩٨هـ فيقول «كان خروج المحمل بصحبة أمير الحج مصطفى بيك الكبير في موكب حقيير جداً بالنسبة للمواكب المتقدمة»^(٥).

سادساً: الصراع السياسي في القاهرة:

فيشير الجبرتي إلى أن هذه الواقعة حدثت نتيجة للصراع الفقاري القاسمي حيث تولى الفقارية بشكل دائم هذا المنصب المهم، ولما يتمتع به إبراهيم بك أبو شنب من نفوذ كبير في داخل مصر، وبالفعل فقد تم تنحية إبراهيم بك وإعفائه من منصب أمير الحج، ولم يكتف العربان بهذا بل تعرضوا للحاج في السنة التالية ١١٠٠هـ/ ١٦٨٧م، في محطة

(١) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٤.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

(٣) سميرة فهمي عمر، إمارة الحج، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٤) أحمد الرشيدى، المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٨.

الشرفة ، وقتلوا من الحجاج عددا كبيرا ومنهم خليل أغا كتحدا الحاج وأسروا بعضهم كما نهبوا من الحاج نحو ألف جمل بأحمالها ، وعندما علم الباشا فى القاهرة بذلك أمر بتجهيز حملة عسكرية تعدادها ألف وخمسمائة جندى من العساكر السباهية ، وعلى رأسها خمسة صناجق لمساندة الحجاج فى الطريق وقد استقر معظم أفراد الحملة فى عجرود بينما خرجت طائفة منهم تحت قيادة درويش بك لمقابلة الحجاج فى العقبة ، حيث يوجد أمير الحج ، وبوصول درويش بك إلى العقبة هرب العربان وتفرق جمعهم ، وعاد الحجاج سالمين .

سابعا : ثراء قافلة الحج فقد كانت قافلة الحج واحدة من أثرى القوافل مما كان يسيل لعاب البدو الذين كانوا يعيشون حياة قاسية فقيرة لذلك فقد كانوا ينتظرون مرور القافلة فى كل عام لأخذ ما يستطيعون أخذه منها ليساعدهم ذلك على الحياة بقية العام .

فى العام ١١٣٨هـ / ١٧٢٥م كلف محمد بك عرب شديد وفزاع بنقل باكير باشا حاكم جدة إلى مكة ، مما أغضب العربان الآخرين وجعلهم يقطعون الطريق على قافلة الحج ، فاستولوا على العقبة وعملوا على التحصن بها لقطع الطريق على موكب الحج ، كما منعوا دخول باش الأزم من العقبة لملاقاة الحجاج مما ترتب عليه أن أصبح الحجاج فى خطر كبير ، وهو الأمر الذى دفع أمير الحج إلى إرسال رسول للعربان للتعرف إلى مطالبهم فطلبوا عشرة أكياس (٢٥٠,٠٠٠ بارة) وعشرة أحمال قماش ، وعشرة أحمال بن ، فعرض أمير الحج عليهم ألف زنجرى فرفضوا وأصروا على مطالبهم ، ولذلك لم يجد أمير الحج أمامه إلا الاستعانة بشديد وفزاع ليرشدها إلى طريق آخر فعرضا عليه الاتجاه من خلف العقبة وإن كان هذا الطريق يزيد فى سلوكه عن الطريق المعتاد ثلاثة أيام ، كما كان عسيرا وقليل الماء ، إلا أن أمير الحج وافق عليه لتجنب البدو وبرغم هذا تمكن بدو العقبة من نهب مؤخرة الحج ، وسرقوا تسعة عشر حملا من الأقمشة للتجار وهلكت معظم الجمال^(١) .

وسائل حماية قوافل الحج من هجمات العربان:

فى الواقع أن الدولة العثمانية عملت على حماية أمن قافلة الحج المصرى من هجمات البدو من خلال العديد من الآليات ، فما هى الوسائل التى حاولت الدولة من خلالها التصدى لاعتداءات العربان على قافلة الحج؟ .

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المصدر السابق .

أولاً: إرسال حامية عسكرية تكون مصاحبة لقافلة الحج، حيث تقوم بحراسة القافلة، ولم يكن أمير الحج هو المسئول الوحيد عن هذه الحماية ولا هو الممول الوحيد لتكالييفها، بل شاركه في ذلك أمراء مصر من ناحية، حيث كان كل أمير يحوز رتبة الصنجدية مسئول عن إرسال ما بين ثلاثة وعشرة جنود على أن يتحمل مصاريهم ونفقتهم، كما كان أمير الحج يصطحب معه أكبر عدد من مماليكه، وبالإضافة إلي ذلك كانت على الفرق العثمانية السبعة تقديم خمسمائة جندي للقيام بعمليات حراسة القافلة، وقد كانت الفرق العسكرية السبع تعين سبعة سرادرة، كان كل واحد منهم يسمى سردار قطار الحج، وكان سردار القافلة أو قافلة باشى هو سردار الإنكشارية، ومنذ منتصف القرن السادس عشر ألزمت الدولة العثمانية جنود حامية جدة البالغ عددهم خمسمائة جندي بالسفر في صحبة قافلة الحج من أجل زيادة تأمين قافلة الحج وقد تم تخصيص راتب سنوي لهم مقدار ٣٦٦.٨١٤ بارة، وعلاوة على الجند السابقين كان يصحب قافلة الحج بعض الجنود المغاربة، كان أمير الحج يختارهم لمرافقة الحجيج وحراسته، وذلك لما عرف عنهم من الأمانة والبسالة، وكذلك معرفتهم الجيدة باستخدام الأسلحة النارية.

ثانياً: ترميم وإنشاء القلاع على طول طريق الحج:

فقد حشدت الدولة عددا كبيرا من الجنود والقلاع العسكرية على طول الطريق بين مصر ومكة، كما اهتم السلاطين وباشوات مصر بتعمير وترميم السواقي والآبار المقامة في محطات الحج، كما حرص أمراء الحج من المماليك على متابعة سياسة السلاطين والباشوات فعملوا دائما على الاهتمام بشئون الحجيج والعمل علي راحتهم وإقامة المنشآت والمباني وحفر الآبار وتمهيد الطريق للتخفيف من مشاق الرحلة وتوفير الراحة للحجيج، فقد امتدت على طول طريق الحج قلاع السويس، وعجروود، والطور، ونخل، والعقبة، والمويلح، والأزم، والوجه، والينبع، فمثلا قام داود باشا(تولى حكم مصر ٩٤٥هـ - ٩٥٦هـ / ١٥٣٨م - ١٥٤٩م) بتشبيد قلعة المويلح التي تعتبر من أضخم المنشآت المعمارية الدفاعية الحصينة بدرج الحج المصري، وذلك من أجل راحة الحجيج وتخزين الغلال، وتوفير الحماية للحجاج من هجمات العربان^(١)، فكانت الحامية العسكرية بقلعة المويلح تتقاضى في كل عام ١٨٠٤٤٠

(١) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٤.

بارة^(١)، وكانت بهذه القلاع أبار للمياه وخانات وأماكن لراحة الحجاج، كما أنشأ دواد باشا أيضا قلعة الأزلم لتكون محطة وسط حيث كان الحجاج يخزنون بها أمتعتهم ومؤونتهم^(٢). كما أمر السلطان مراد الثالث بترميم وتجديد قلعة العقبة بعد أن تعرضت للهدم على أثر زلزال ضرب مصر خلال عهد أويس باشا (٩٩٤هـ - ٩٩٩هـ / ١٥٨٦م - ١٥٩١م)، كما أمر السلطان مراد بتجديد قلعة نخل في العام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م، وقد وفرت الدولة الجنود لهذه القلاع وزودتهم بكل احتياجاتهم^(٣) من أجل حماية الحجاج من هجمات البدو حيث كانت مهمة هذه الحاميات العسكرية الأساسية الدفاع عن الحجيج، كما كانت استراحات مؤمنة للحجيج.

ثالثا: إرسال الحملات لملاقة الحجاج:

فلما كانت رحلة العودة دائما أصعب من الذهاب بسبب هجمات العربان على الموكب فعملت الإدارة في مصر على مد قافلة الحج بمزيد من القوات والمواد الغذائية والمؤون، فخصصت مصر كل عام حملتين لتعزيز الحراسة للموكب في عودته فكانت أحدهما تذهب إلى الأزلم، وقوامها ثلاثمائة رجل يستدعون من أمراء أوجاق المتفرقة والجراكسة^(٤)، وكانت هذه الحملة تحمل كميات من المؤون الطازجة والحلويات قيمتها ٦٩٧٠ بارة، كما كانت تخرج حملة مماثلة لمقابلة الحجيج في العقبة، وتتكون عادة من ألف جندي يقودهم سردار العقبة الذي كان يحمل حلويات ومؤون طازجة للحجاج بما قيمته ١٠٦٢٣ بارة، وكان يرافق الحملتين عدد كبير من التجار الذين يحضرون بضائعهم للبيع وكانت الخزينة تتحمل نفقات سفر الحملتين بما قيمته ١٩٣٥٣٠ بارة، لتأجير الجمال والإمدادات الأخرى للحملتين. وليس ثمة شك في أن بعثنا ملاقات الحجاج أسهمت بدور كبير في إمداد قافلة الحج بمتطلباتها من المؤون والملابس والمشروبات فضلا عن حمل احتياجات الحجاج التي يرسلها

(١) النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، الجزء الخامس من وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، الخانجى، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٥٧.

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق/ عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) محسن شومان، المقاطعات الحضارية، ص ٢٩٦.

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة عين شمس، ص ٢١٥.

أهلهم وذووهم من القاهرة، بالإضافة إلى مؤازرة الفرق العسكرية المصاحبة لهم، ومن ثم فقد كانت هذه البعثات من محاسن ما اهتم به من أمور الحج، ومن أسباب عودته سالما لما كان يحدث للجمال والرجال من إرهاق ومشقة وفناء للماء والزاد وهو ما كانت توفره هذه البعثات^(١).

وقد بدأ تعيين الملاقاة الأزلمية في الدولة العثمانية منذ عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، وكان يرأسها سردار برتبة بك غالبا ما كان يسمى باشى الأزلم، وكان قوام هذه الملاقاة يتراوح بين ألف وثلاثة آلاف جندي، من الأوجاقات العسكرية السبعة، ويرافقها عادة أقارب الحجاج والتجار لبيع متاجرهم للحجاج العائدين، وكانت البعثة تغادر القاهرة في احتفال كبير، وتصل في الأسبوع الثالث أو الرابع من شهر محرم، قبل وصول الحجيج إلى الأزلم بنحو يومين، وطوال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، كان باشى الأزلم يتجه بعسكره إلى أكره بعد أن يضع أحماله وعتاده في قلعة الأزلم، ومع بداية القرن السابع عشر تقرر أن تكون الوجهة هي المحطة التي يقابل فيها باشى الأزلم قافلة الحج، أما بعثة العقبة فقد كانت تتكون من ألف جندي، وتغادر القاهرة في احتفال كبير أيضا، وكانت تحمل كميات كبيرة من المياه والمؤن والطعام.

وغالبا ما نجحت قافلتي الأزلم والعقبة في دعم قوة قافلة الحج ونجحت في مساندة القافلة وعودتها سالمة، وعندما كانت تصل أخبار أكثر خطورة عن تعرض القافلة لأخطار أكبر كانت الإدارة في القاهرة تبادر بإرسال حملات عسكرية تحت قيادة كبار البكوات الماليك، فمثلا في العام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م وعند عودة موكب الحج تصدى العريان لموكب الحج عند عودته في العقبة، غير أن وصول ذو الفقار بك على رأس حملة عسكرية كبيرة أنقذ الحجيج من النهب، وقد كافأ الباشا في القاهرة ذو الفقار بك على ذلك بمنحه التزام وحكم جرجا، وفي العام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م تريض عرب ظهر الحمار المشهورون بالعمارنة بموكب الحج عند عودته، ونتيجة لضخامة أعداد العريان فلم يستطع أزلم باشى التصدى لهم لذلك فقد أرسل الباشا في القاهرة حملة عسكرية من ثلاثمائة جندي تحت قيادة على بك الصغير تابع ذو الفقار بك، وقد نجحت الحملة في محاربة العريان وتفريق شملهم

(١) The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, Princeton university press, Princeton, 1962.

وفر أغلبهم إلى الجبال، وقد منح نظير ذلك كشوفية جرجا، ومنفلوط والمنيا، وفي العام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م سيطر العربان على العقبة ولم يستطع باش الأزم دخولها، فأرسل إلى الباشا في مصر طالبا إرسال حملة عسكرية، وبالفعل تم تجهيز حملة عسكرية من خمسمائة جندي تحت قيادة على بك الدمياطي، وقد كلفت هذه الحملة الخزينة الإرسالية مليوني بارة، وعندما وصل على بك الدمياطي بحملته إلى العقبة وجد قافلتي الأزم والعقبة قد حملتا الأحمال والدواب متوجهين إلى هضبة العقبة، فالتقى بهما على بك وحاول دخول العقبة، وكانت المفاجأة التي قابلت على بك ومن معه، هي خلو العقبة من العربان، وكان العربان قد أقاموا كمين للحملة حيث اختفوا على أطراف هضبة العقبة ريثما تسمح لهم الظروف بمهاجمة الحملة، وبالفعل فاجأ العربان الحملة بالهجوم من جميع الجوانب ونهبوا المأوى والخيام والدواب التي كانت بصحبة الحملة، غير أن أمير الحج استغل الصراع والمركة ونجح في الالتفاف حول هضبة العقبة ولم يصب أحد من الحجاج بسوء^(١).

حوادث اعتداء العربان على قافلة الحج:

كانت حوادث اعتداء العربان على قوافل الحج أكثر بروزا خلال القرن الثامن عشر، فخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت هناك ست حالات بارزة لاعتداء البدو فيها على القافلة، بيد أن القرن الثامن عشر شهد أكثر من ثمانية عشر اعتداء من قبل البدو على قافلة الحج، كان منها أربع حالات فقط خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، بينما كان هناك أربع عشرة حالة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مما يؤكد ضعف الإدارة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كما يؤكد ضعف شخصية أمراء الحج خلال القرن الثامن عشر عنه عما قبل، فقد نجح بعض أمراء الحج بحسن سياستهم تجاه العربان وشدة بأسهم في توفير الأمن للموكب ويعود هذا النجاح إلى الكفاءة الفردية التي تتوفر في شخصية أمير الحج، ومن هؤلاء الأمراء إسماعيل بك بن عوض وزين الفقار بك، وحسين بك كشكش، بيد أن الاعتداءات من جانب العربان أصبحت أكثر تأكدا إبان النصف الثاني من القرن الثامن عشر، خاصة مع ضعف الموارد المالية المخصصة لأمير الحج مع تراجع القيمة النقدية للنصف فضة، وكذلك مع ضعف شخصية أمراء الحج

(١) أحمد شلبي عبد الغنى، المصدر السابق.

وتخليهم عن مهام عملهم ومحاولتهم الحصول على مكاسب مالية أكبر، بحجهم دفع المقررات السنوية للعربان، وتهورهم ويكفي التذكير بمراد بك ومماليكه.

وتتجلى قدرة أمير الحج في التصدي للعربان وإخافتهم من خلال انتقام أمير الحج ذو الفقار بك من عربان العقبة، في عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م لما سبوه من متاعب لقافلة الحج في العام السابق، فقتل الكثير منهم عند قلعة نخل، كما قتل شيخ عربان العقبة وأسر ابنه وأخاه وقادهما معه إلى مكة، وكان لهذه المواقف القوية دورها في إعادة هيبة أمراء الحج في نفوس العربان.

وفى عام ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م تعرض عربان العقبة لقافلة الحج أثناء ذهابها وكانت بقيادة الأمير ذو الفقار بك الذى تمكن من أسر سبعة أفراد من هؤلاء البدو مما أدى إلى محاصرة البدو لجبل العقبة أثناء عودة القافلة، الأمر الذى أعاق باشى الأزلم من دخول العقبة والوصول إلى الأزلم لاستقبال القافلة، وعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة بما حدث من العربان أرسل الباشا حملة عسكرية قوامها خمسمائة جندي من رجال الأوجاقات العسكرية وعلى رأسها يوسف بك سردارا قائدا لها لإنقاذ الحجاج في العقبة ولكن يبدو أن العرب شعروا بقدوم الحملة ورحلوا قبل وصولها فعندما وصل يوسف بك السردار إلى العقبة لم يجد منهم أحدا، وعاد بحملته مع الحجاج، وفى العام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م تعرض العربان لبعثة الأزلم ونهبوها بمنطقة عش الغراب، وكان ذلك انتقاما لما فعله إبراهيم بك ذو الفقار مع العربان فى عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م حيث دارت بينهم معركة كبيرة خلف جبل الجيوشى، وقتل خلالها إبراهيم بك ورجاله عددا كبيرا من العربان، على العموم فقد كانت تلك أهم حوادث اعتداء البدو على قافلة الحج خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وهى حوادث قليلة على أية حال إذا قورنت باعتداءات البدو خلال القرن الثامن عشر.

حوادث اعتداء العربان على قافلة الحج خلال القرن الثامن عشر:

وتبدأ أحداث اعتداءات البدو على قافلة الحج فى القرن الثامن عشر بإعاقه العربان الطريق أمام الحجاج فى العقبة فى عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م، وقد تمكن أمير الحج من دخول العقبة بعد إرضاء العربان ببعض الهدايا ومر الحج بسلام، وفى عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م سبب البدو عناء شديدا للحجاج كما أصابوا قافلة العقبة بأذى شديد ولم يسلم منها إلا الهجان، وأصابوا أيضا أغا الوجه، وفى أواخر هذا العام وفى أثناء خروج الحجاج إلى مكة

تربص العربان للحجاج فى منطقة التيه بالعقبة ، وقتلوا عددا كبيرا من الحجيج ، ولخشية إسماعيل بك أمير الحج على الحجاج فى العودة من العرب المحاصرين للعقبة ، أرسل طلب العون من رجب باشا فى القاهرة ، وقد تعددت اعتداءات العربان على قافلة الحج فى منطقة العقبة ففى عام ١١٣٧هـ / ١٧٢٤م تعرض عربان الترابين^(١) لباشى العقبة ومن معه ومنعوه من الاتجاه إلى العقبة فتحصن بقلعة نخل إلى حين وصول الحملة التى أرسلها الباشا لمساعدته وقد مكنته الحملة من الوصول للعقبة.

ونتيجة لما حدث من بدو العقبة فى العام السابق ، إلى تهديد الشيخ محمود شيخ عرب العقبة للأمير ذو الفقار حين جاء إلى مصر أصر الأخير على الانتقام من عرب العقبة ، وتم له ذلك فى العام التالى ١١٣٩هـ / ١٧٢٦م ، حين خرج بالحجاج فقد تمكن الأمير ذو الفقار أمير الحج من قتل الشيخ محمود المذكور ، وأسر ابنه وأخاه ، وسار بهما إلى مكة وفى عودته وقف له البدو فى العقبة مطالبين بالأسرى ، فوافق أمير الحج على طلبهم مشترطا إعادة ما نهبوه من الحج فى العام السابق ، فما كان من البدو إلا إنكار ما سلبوه وغضبوا على أمير الحج وحاولوا أسر جاويش الحاج كرهينة يخلصون بها أتباعهم من الأسرى ، ولكن باءت محاولتهم بالفشل ، كما يجب أن نشير إلى أن القبائل الحجازية القاطنة فى المنطقة بين المدينة والمويبح لم تقم بدور كبير فى عمليات الاعتداء على قافلة الحج إلا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، عندما توقف الأمراء المماليك عن دفع عوائدهم المالية ، كما أن المماليك فى مصر امتنعوا أيضا عن إرسال غلال الحرمين خلال هذه الفترة ، وكانت قبائل هذه المنطقة تقوم بعمليات نقل الغلال من ينبع إلى المدينة ، كما كانت تحصل على جزء من هذه الغلال ، وقد دفعها كل ذلك إلى سلب ونهب موكب الحج عند عودته .

ومن أجل كل ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر سنوات عجاف بالنسبة لقافلة الحج نتيجة لتردى الأوضاع الاقتصادية والأمنية فى مصر ، وكذلك بسبب ضعف ورعونة أمراء الحج وبخاصة مراد بك ومماليكه ، ففى عام ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م تصدى عربان بنى حرب وجهينة لقافلة الحج عند الصفراء والجديدة ، عند عودة القافلة تحت

(١) عربان الترابين كانوا يقطنون وادى العقبة وضواحي غزة وخاصة منطقة دير التين ، وهم أحد القبائل التى عانت من غضب على بك الكبير عندما عزم على التخلص من سيطرة العربان على قطاعات كبيرة من مصر.

قيادة مراد بك «ومات كثير من الناس والغز والأجناد، ونهبت بضائع وأحمال كثيرة»^(١)، وفى العام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م تعرض بدو بنى حرب للحج أثناء عودته، بسبب عوائدهم المتأخرة والجديدة، ولم يتمكن الحجاج من زيارة المدينة، ووقفت العربان للحجاج المغاربة فى سطح العقبة، وحصروهم ونهبوهم وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا نحو عشرة أنفار^(٢).

وفى العام ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م تعرض الحج لواحدة من أشد اعتداءات البدو على موكب الحج، برغم أنه دفع لهم جزء من أموالهم ومخصصاتهم وقسط الباقي على السنة القادمة، وبرغم ذلك لم يسلم الحجاج من اعتداءات البدو، وذلك بسبب سوء تصرف أمير الحج وروعنته، إذ إنه بعد أن دفع مخصصات وأموال العربان، أسر أربعة من عربان بنى حرب وأخذهم كرهائن، وكوهم بالنار فى وجوههم، فقد اعتقد أمير الحج أنه بهذا العمل يمكن تجنب البدو الباقين، وإرغامهم على عدم التعدى على القافلة ولكن ما حدث هو العكس إذ ثارالبدو على أمير الحج، وقتلوه قتالا مريرا اضطره إلى الفرار والاختفاء عن الحجاج ثلاثة أيام، مما أتاح الفرصة للبدو لنهب جميع أحمال الحجاج والتجار، كما أسروا عددا كبيرا من النساء، وأمام ذلك فقد استعان الحجاج بأمير الحج الشامى أحمد باشا الجزار ليتوسط لدى البدو لإطلاق سراح الأسرى من النساء، فأحضرهن عرايا ليس عليهن إلا القمصان، كما نهب العربان محمل الحج ورفضوا إرجاعه^(٣)، مما اضطر أمير الحج إلى استخدام محمل قديم مزور عند دخوله القاهرة، ولكن شريف مكة سرور بن مساعد تمكن عند صراعه مع العربان من بنى حرب أن يسترد المحمل ومن ثم أرسله إلى القاهرة^(٤).

وفى العام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م تعرض العربان (من سائر النواحي) لقافلة الحج فى منطقة مغاير شعيب، ونهبوا الحجاج، وقتلوا عددا كبيرا منهم، وحطموا المحمل وأحرقوه، وأخذوا أحمالهم وجمالهم، كما أسروا عددا من النساء، وأصيب أمير الحج واختفى عن الحج ثلاثة أيام ثم أحضره البدو مجردا من الملابس وعندما وصلت الأخبار إلى مصر بما

(١) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٤) أحمد بن زيني دحلان.

حدث للحجاج أرسلت مجموعة من الجنود لإنقاذ الحجيج وفي يوم خروجها عاد بعض الحجاج في حالة سيئة من الجوع والتعب، وتلاقت الحملة مع بقية الحجاج في نخل، وعادت بهم إلى مصر دون أمير الحج الذى هرب وفى صحبته بعض الجنود والحجاج إلى غزة^(١).

يتبين لنا مما سبق أن القبائل البدوية، التي كانت تسكن بالقرب من طريق الحج المصرى، خلال القرن الثامن عشر، سواء كانت قبائل مصرية أم حجازية، اهتمت بموسم الحج، وأولت القافلة حرصا كبيرا للاستفادة من مردودها المالى، الذى كان ينعكس على البدو بشكل عام، سواء الذى كانوا يتقاضونه من مال الصرة، أم من خلال تأجير الجمال للحجاج وخدمتهم، وبالتالي الحصول على المال مقابل هذه الخدمات، أو عن طريق نهب القافلة فى حالات كثيرة كما مرّ بنا، لذلك أصبح البدو وتعاملهم مع القافلة يشكل هاجسا للإدارة السياسية فى الولاية المصرية، فتراوحت علاقتهم مع البدو فى حالات كثيرة بين مدّ وجزر، والغالب على هذه العلاقة هو البرود، بل أحيانا النزاع ما بين الطرفين، لظروف القبائل البدوية الاقتصادية السيئة، لقد أثبتت الدراسة أن الدولة العثمانية كانت حريصة فى أغلب الأحيان، على استرضاء القبائل البدوية، والاستفادة من خدماتها أثناء موسم الحج، ولكن عندما كان بعض المسؤولين الإداريين فى مصر يمنعون الأموال التي كانت تخصص للقبائل، كانت هذه القبائل تتعرض لقافلة الحج، وتحدث المواجهات بين الجانبين.

على العموم فقد نجحت الدولة العثمانية إلى حد كبير فى دمج القبائل العربية فى بنية الدولة ونظمها، فطالما ظلت الدولة العثمانية قوية، فقد ظلت قادرة على توفير الأموال لهذه القبائل التي كانت تقوم على خفارة وحراسة الأدرak، كما كانت قادرة على الردع العنيف والسريع لأى قبيلة قد تسول لها نفسها الاعتداء على قوافل الحج، غير أن القرن الثامن عشر الذى تميز بتراجع قوة الدولة العثمانية السياسية، وتراجع مواردها وقدرتها الاقتصادية عكس أيضا تراجع قدرتها فى قيامها بالتزاماتها تجاه رعاياها الذين كانوا يعيشون على ما تمنحه الدولة لهم من أموال مقابل التزامهم بالقيام بمهام معينة سواء تعليمية أم لحفظ النظام والأمن العام، والطرق العامة، وبالتالي فقد أخذت هذه القوى فى

(١) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٨.

التمرد ضد الدولة وهو ما يفسر تمرد و بروز دور طلاب الأزهر وعلمائه خلال هذا القرن ، كما يفسر أغلب التمردات التي حدثت خلال هذه الفترة، والواقع إن نمو الجماعات العسكرية المحلية فى أغلب ولايات الدولة العثمانية ، وسيطرتهم على الموارد المالية أفقد الدولة قدرتها على الاستمرار فى التزامتها المالية مما جعل حركات التمرد ضد النفوذ العثمانى فى تزايد مستمر.



هجمات البدو وآثارها الاقتصادية والاجتماعية فى ريف الدلتا فى العصر العثمانى

جمال كمال محمود^(١)

شكّل البدو^(٢) عنصراً مهماً فى تاريخ مصر منذ الفتح العربى الإسلامى لها، حيث بدأت هجرات القبائل العربية تتوالى على مصر مع كل وال جديد. ولعب البدو دوراً إيجابياً تارة وسلبياً تارة أخرى، ومن ثمّ تباينت علاقتهم بالسلطة الحاكمة وكذلك بالمجتمع المصرى، فتارة يكونون عنصراً فعالاً للسلطة والمجتمع على حدٍ سواء كما كان الحال فى أغلب عصور مصر الإسلامية، وتارة يكونون عنصراً سلبياً يقض مضاجع الجميع، كما كان الحال فى عصر سلاطين المماليك الذى توقفت فيه الهجرات العربية إلى مصر؛ بسبب كراهية المماليك للعنصر العربى، وقد أنف العُربان من الخضوع للمماليك وقاموا بالعديد من الثورات، حتى وصل العثمانيون إلى الشام ثمّ مصر، وهنا انقسم العُربان إلى فريقين: فريق أيد العثمانيين ووقف بجانبهم، والآخر وقف بجانب المماليك. وعقب انتصار العثمانيين تم مكافأة الفريق الأول، وأنعم السلطان العثمانى على البعض من شيوخهم.

وقد حاول العثمانيون استمالة العُربان وأوكلوا إليهم جزءاً من النظام الأمنى خاصة العُربان المتاخمين للقرى وهم المستقرون أو شبه المستقرين؛ لكى يصدوا هجمات العُربان الرحل، وكان ذلك مقابل أجر معين، ومنحتهم كذلك مساحات من الأراضى الزراعية وأعفت جزءاً منها من الضرائب. ولكن ظلّ قطاع كبير من العُربان يعتمد على السلب والنهب، واعتبروا أنّهم أحق بالحكم من العثمانيين والمماليك.

وقد توالى هجمات العُربان خلال العصر العثمانى على الريف وعلى قوافل الحج والأديرة حتى العُربان الذين احترفوا الزراعة فإنّهم فى الغالب لم يتخل الكثير منهم عن عاداتهم القديمة الخاصة بالسلب والنهب. ولم يضع وصول الحملة الفرنسية إلى مصر حداً لذلك بل تعرّض الفرنسيون أنفسهم لنهب العُربان.

(١) دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

(٢) سوف نستخدم كلمة البدو للدلالة على العُربان والعكس.

ولم يقف الفلاحون مكتوفى الأيدي أمام تلك الهجمات، بل حاولوا مواجهتها بالسلاح أحياناً، والانسحاب وهجر القرى أحياناً أخرى، كما لم تقف الإدارة متمثلة فى العثمانيين والمماليك موقفاً سلبياً من هذه الهجمات، بل جردوا لها الحملات العسكرية للقضاء عليها ولجأوا لضرب العربان بالعربان؛ حتى يتم إنهاء كلا الفريقين وآتت تلك الحملات بعض النتائج المثمرة؛ حيث نجح على بك الكبير فى كسر شوكة العربان فى الدلتا والصعيد على السواء.

وكان لتلك الهجمات عواقب وخيمة على المجتمع المصرى اقتصادياً واجتماعياً ولاشك أنها أعاققت بشكل أو بآخر حركة التنمية، حتى فطن محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر إلى فكرة توطيّن هؤلاء البدو وجعلهم قوة فعالة فى المجتمع المصرى.

ماهية البدو:

يُطلق اسم «بدو» Nomads على سكان الصحراء المتنقلين والذين يعيشون بالقرب من وادى النيل فى الدلتا والصعيد. وقد صنّف ابن خلدون البدو إلى ثلاثة مستويات أولها: رعاة الإبل، وثانيها: رعاة الشاة ورعاة البقر، وثالثها: البدو المزارعون الذين مارسوا شكلاً من أشكال الاستقرار حول الآبار والعيون والوديان^(١).

وصنّف أحد المحدثين البدو إلى أربع فئات:

البدو المرتحلون الذين يعتمدون بشكل أساسى على الجمال.

البدو المرتحلون ارتحالاً محدوداً والذين يعتمدون على الغنم والماعز.

البدو المرتحلون ارتحالاً موسميّاً، ويمارس بعضهم الترحال فى أوقات معينة ويستقر معظمهم فى مواطنهم الأصلية.

البدو المزارعون وهم يستقرون فى الغالب فى أطراف الصحارى قريباً من الحضر^(٢).

ويعتمد البدو المرتحلون بشكل كبير على الجمال، وينتشرون على حافة وادى النيل وفى قلب الصحراء، وهؤلاء يعتنون بتربية الجمال لاستخدامها فى تنقلاتهم، وهم مضطرون للتنقل الدائم بين مواطن الكلاً، ورحيلهم يجرى وفق نظام محدد تفرضه أحوال المياه ومناطق الرعى التى يعرفونها جيداً، وغالباً ما يضربون خيامهم بجوار الآبار فى الصحراء؛

(١) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة (د. ت)، ص ١١١.

(٢) صلاح مصطفى الفوال: تنمية المجتمعات الصحراوية، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١١٠، ١١١.

حيث تحصل على موارد المياه، وهذه الفئة من البدو لا تشتغل بالزراعة لو أتاحت لها الفرصة لذلك، وبالتالي لا تميل إلى الاستقرار^(١).

وهذا النوع من العربان كثير العدد، ويمتلكون عددًا كبيرًا من الخيول والجمال، وكانوا يمدون القوافل التجارية بالجمال، كما يمتلكون كميات كبيرة من الأسلحة، ويسمى هؤلاء البدو باسم عرب الخيش أى عرب الخيام^(٢).

أمّا البدو المرتحلون ارتحالاً محدوداً فهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الاستقرار، ويعيش هؤلاء بين الأراضى الزراعية والصحراء فى خيام عادة. ويشتغل هؤلاء بالزراعة، وبشكل هؤلاء العربان الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدًا فاصلاً بين العرب المزارعين وبين العرب الرحل. وهؤلاء لا يشكلون جزءاً من سكان القرى، ولا يزرعون مطلقاً بأيديهم، ولا يغيرون من أماكن إقامتهم، ولهم شيخ من بينهم، ويحترم الفلاحون هؤلاء العربان ويحرصون على إرضائهم^(٣).

والبدو المرتحلون ارتحالاً موسميًا هم الأقرب إلى الاستقرار منهم إلى البداوة، وبرغم ارتباط هؤلاء ارتباطاً مؤقتاً بالأرض التى يزرعونها فإنهم يعتبرون أنفسهم رعاة قبل كل شيء، ويسكنون وقت فلاحه الأرض وحصادها فى أكواخ صغيرة من أغصان الشجر، وبعد انتهاء موسم الزراعة تلجأ تلك القبائل إلى التنقل كالبدو الرحل وراء الماء والكلاً لفترة قصيرة، ويعودون فى أواخر فصل الربيع بقطعانهم إلى مواطن زراعتهم^(٤).

والقبائل التى استقرت أطلق عليها اسم البدو المزارعون وهؤلاء أقبلوا على الزراعة منذ فترة مبكرة من دخول الإسلام، والبعض الآخر احترف الزراعة منذ دخول العثمانيين مصر، وقد ازدادت أعدادهم بشكل كبير، وقد طوّر هؤلاء الزراعة بشكل أكبر من الفلاحين، وقرى هؤلاء العربان أكثر ازدحاماً بالسكان وتتميز قرى هؤلاء العربان عن القرى الأخرى، ويمتلك هؤلاء العربان الخيل والجمال بأعداد كبيرة مثلهم مثل العربان الرحل. ويتميز هؤلاء عن

(١) إيمان عامر: العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) أندريوسى: رحلة إلى وادى النطرون، ج ٢، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٧٠.

(٣) جومار: العرب والعربان فى مصر الوسطى، ج ٢، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٢٠٩.

(٤) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٣٠.

الفلاحين بتقاطيع وجوههم وطباعهم وكل خصالهم، فلقد استمر الدم العربي يتدفق في عروقهم دون أدنى اختلاط وهم يشبهون تمامًا العربان الرحل المحاربين، وقد احتفظوا بالشجاعة والضراوة^(١).

ويوجد في كل قرية من قرى هؤلاء العربان عدد من المشايخ، ويعيش هؤلاء في شقاق فيما بينهم، وتنقسم قراهم إلى أجزاء لكل منهم نفوذه في جزء منها، وكثيرًا ما تؤدي العداوة التي تسود بينهم إلى الاقتتال^(٢).

وللقبيلة نظام خاص بها، يتميز عن سائر الأنظمة الأخرى السائدة في المجتمعات غير القبلية فهو نظام اجتماعي له قوانينه وتقاليده وأعرافه وله شخصيته وسماته، وهو ما نسميه بالقبلية، فالقبلية إذن سلوك خاص يحفظ للقبيلة مصالحها وبقائها^(٣).

فالقبيلة مجتمع صغير، يقوم على رئاسته ورعاية شؤونه شيخ القبيلة، وهو يتولى منصبه عن طريق الوراثة، ويشترط فيه أن يكون قويًا واسع الصدر كريمًا، وعلى من يسعى لهذا المنصب أن يستخدم مهارته وكياسته لإقناع أفراد قبيلته باختياره، وعلى رئيس القبيلة كذلك أن يعقد السلم وأن يشن الحرب وأن يقضى في كل ما يمكن أن يكون نافعًا للقبيلة^(٤).

ونخلص من ذلك إلى تأصل النظام القبلي لدى البدو الرحل منهم وشبهه المستقرين والمستقرين مع اختلاف طفيف تفرضه ظروف المكان والزمان وهذا النظام متأصل لدى البدو منذ هجراتهم الأولى إلى مصر.

هجرات القبائل العربية إلى مصر:

بدأت هجرة القبائل العربية إلى مصر منذ الفتح العربي^(٥) ثم توالى هجرة القبائل العربية إلى مصر مع كل وال جديد، حيث كان يرافقه جيش كبير غالبته من العرب، وكان ذلك يشجع القبائل التي ينتمى إليها هذا الحاكم على الهجرة إلى مصر^(٦).

(١) جومار: المصدر السابق، ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٣) عبد الله خورشيد البرى: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، دار الكتاب العربي،

القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٢٧.

(٤) أندريوسى: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٥) أحمد لطفى السيد: قبائل العرب في مصر، ج ١، القاهرة ١٩٣٥م، ص ٩.

(٦) Mac Michael, A history of Arabs in the Sudan, vol. 1, Cambridge, 1922, p. 159, 160.

وإلى جانب ذلك نجد الدافع الدينى والاقتصادى، وطبيعة شبه الجزيرة العربية الطاردة للسكان^(١).

وفى العصر الأموى وفد إلى مصر اثنان وعشرون قبيلة عربية، ووصل عدد القبائل العربية الوافدة إلى مصر فى العصر العباسى ثلاثا وثلاثين قبيلة^(٢) وفى العصر الفاطمى شجّع الفاطميون القبائل العربية المستقرة على حدود مصر الشرقية - والتي كانت تشكل خطراً عليهم - على الهجرة إلى مصر^(٣).

وفى العصر الأيوبي ازداد شأن العربان لدرجة أن أصبح هناك موظف مختص بشئون العربان وقبائلهم^(٤).

أما فى عصر سلاطين المماليك فقد توقفت الهجرات العربية إلى مصر بسبب كراهية المماليك للعنصر العربى، وقد أنف العربان من الخضوع للمماليك لدرجة أن ثارت إحدى القبائل وقال زعيمها «أنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أننا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد!»^(٥).

ومن المعروف أن العربان لم يكن لهم من حسن النظام والمهارة الحربية وقوة الاستعداد ما يناظر المماليك، ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلاً فى وجه خصومهم، وفى كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان. ومع ذلك كانوا يعودون إلى الثورة بعد قليل حتى سببوا الكثير من الفوضى والمتاعب فى ذلك العصر، من ذلك ثورة حصن الدين بن ثعلب الذى ثار فى عهد السلطان المعز أيبك الذى أرسل له جيشاً بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي الذى أنزل بهم الهزيمة وأخضعهم عام ١٢٥٣م^(٦).

وظلّت العلاقة بين العربان والمماليك قائمة على الكراهية، وبالرغم من أنهم حازوا الكثير من الامتيازات، وتمتّعوا باستقلال محلى محدود فى إدارة مشيخاتهم، إلا أنهم لم ينسوا

-
- (١) سميرة فهيمى: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية ٩٢٣هـ - ١٢١٣هـ/ ١٥١٧م - ١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤٦.
 - (٢) مصطفى كامل الشريف: عروبة مصر من قبائلها، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٦، ٢٧.
 - (٣) المقرئى: البيان والإعراب عن أرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٩٦١م، ص ٥٢.
 - (٤) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ٨٢.
 - (٥) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ط ٣، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٣٢٤.
 - (٦) نفس المرجع السابق والصفحة.

الكراهية والحقد الدفين فنفتوا عنه في ثوراتهم المستمرة، ونهب إقطاعات الأمراء، وقتل الفلاحين، والاعتداء على الحجاج، والامتناع عن دفع الخراج^(١).

وقد استمر الصدام بين العربان والمماليك ولم يتخلوا أبداً عن فكرة الوصول إلى حكم مصر، متناسين في ذلك طبيعة العصر والمتغيرات التي حدثت فيه، والتي مكّنت المماليك من فرض سيطرتهم على المنطقة، وحرمان هؤلاء العربان من تحقيق حلم إقامة سلطنة عربية^(٢).

ولم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسبوط والإسكندرية بل القاهرة من عبث العربان وإغارتهم عليها أو على أطرافها، بغية السلب والنهب، ولم تنقطع تلك الهجمات حتى في الساعات الحرجة، فعندما أغارت جيوش ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م ونهبت المدينة، كان العربان يدخلون في الليل ويستمرون في النهب حتى طلوع الفجر^(٣).

وظلَّ عدم الارتياح بين المماليك والعربان سائداً، حتى همَّ السلطان الغوري بالخروج لملاقاة السلطان سليم، فأراد أن يشرك معه في جيشه عدداً من خيالة العربان في الشرقية والغربية والصعيد؛ ولكنه سرعان ما صرف نظره عن هذا الأمر بناءً على نصيحة أمراء الجند الذين خشوا مغبة إشراك هؤلاء العربان في الجيش المملوكي^(٤).

وهكذا ظلَّ العربان مصدرًا خطراً من مصادر الفتنة وعدم الاستقرار في عصر سلاطين المماليك.

أهم القبائل العربية في الدلتا في العصر العثماني:

وُجد في مصر مجموعة كبيرة من القبائل العربية انتشرت في طول البلاد وعرضها، وسوف نقصر حديثنا على أهم قبائل الدلتا.

– قبيلة أولاد علي: وهي أهم القبائل والواقع أنها تشتمل على عدة بطون تُشكّل كل منها قبيلة في حد ذاتها. وأقامت قبيلة أولاد علي في البحيرة بصفة أساسية وإن

(١) إبراهيم على طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣٣٨.

(٢) علاء طه رزق: دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،

القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٧١.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٥٣، ٥٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٣١.

انتشر بعضهم في الصعيد والفيوم والإسكندرية، ولها عدة أفرع منها البهجة، وبنو عون، والجوابيس، والجميعات، والهوار، والرباع، واللزد، والنجمة، والتمامة^(١).
وغالبًا ما تحمل القبيلة اسم شيخها عند تكوينها أو تحمل اسم إحدى الفترات الهامة التي مرت بها، ويظل هذا الاسم تتوارثه الأجيال جيلًا بعد جيل^(٢).
وقد انتشرت قبيلة أولاد علي وفروعها في الدلتا شرقًا وغربًا وبعض مناطق الصحراء الغربية الواسعة، والدراسة الأنثروبولوجية لقرى البحيرة قلما نجد قرية إلا وبها عائلات تنتمي إلى هذه الفروع^(٣).

- **قبيلة الهنادى**: نزحت إلى مصر في القرن الثامن عشر قادمة من طرابلس، واستقر معظم أفرادها في البحيرة، وجزء منها في الشرقية، وكانت تمثل البدو الرحل الذين يعيشون على الرعي والسلب والنهب، وكانت من أقوى عربان البحيرة، وقد بلغ عدد فرسانها أكثر من ثمانمائة فارس^(٤).

- **قبيلة الجوابي**: استقرت في البحيرة، وكانت تتجول بحثًا عن المراعي اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء، وكانت تلك القبيلة تذهب كل عام من مريوط إلى الصعيد مارين بوادي بحيرات النطرون^(٥)، ويحملون معهم كميات من الملح مقابل ثمن محدد، كما يشتررون البلح الطازج والمجفف من الواحات لكي يبيعونه لصغار التجار في مصر، ويربون القليل من الخيل، وفرسان هذه القبيلة لا يزيدون على الأربعين^(٦).

(١) سجلات محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥، ٩ شوال ١١٠٣هـ/ ١٨ يونيو ١٦٩٢م، انظر: ملحق [٤]؛ محمد محمود السروجي: قبائل أولاد علي وعلاقتها بالسلطات العثمانية الحاكمة في مصر، بحث ضمن أعمال الندوة العلمية التي أقامتها هيئة فولبرايت بالقاهرة في الفترة من ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٩٦؛ إشراف دانيا كريسيلبوس وآخرون، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١١٧.

(٢) دى بوا إيمه: القبائل العربية في صحراوات مصر، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٧٣.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن: المغاربة في مصر في العصر العثماني، المجلة التاريخية المغربية، مطبعة الاتحاد التونسي، تونس ١٩٩٢م، ص ٣٢.

(٤) ليلي عبد اللطيف أحمد: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر، ط ١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٣.

(٥) للمعلومات عن وادي النطرون، انظر: ماجد عزت إسرائيل: وادي النطرون في القرن التاسع عشر، دراسة تاريخية وثائقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م.

(٦) شابرويل: المصريون المحدثون، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، ج ١، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٢٢، ١٢٣؛ المصدر السابق، ص ٦٨، ٦٩.

- قبيلة الطميلات: ومقرها شرق ولاية الشرقية، ولذلك سمى الوادى الممتد فيه ترعة الإسماعيلية إلى بحيرة التمساح باسمها^(١).
- قبيلة مطير: وهم بطن من عبس ويسموا أيضاً بنو عطا، ودخلوا مصر فى العصر الفاطمى، وسكن جزء منهم فى الجيزة، ويسمون باسم «عرب الحصار» وجزء منهم بالشرقية متفرقين فى قرى بلبيس^(٢).
- قبيلة بنى بقر: تركزت فى الشرقية، وتعاون أحد أشهر شيوخها ويدعى أحمد بن بقر مع السلطان سليم العثمانى^(٣) ووجد من هذه القبيلة فروع فى الدقهلية^(٤).
- قبيلة حسن طوبار: استقرت تلك القبيلة فى المنصورة.
- قبيلة الجويلى: وتقيم على حدود ولاية البحيرة، وتضم أكثر من أربعمئة فارس^(٥).
- قبيلة الفرغان: واستقرت فى الشرقية^(٦) وكانت لها فروع فى البحيرة والإسكندرية.
- قبيلة أولاد زهير: واستقرت فى الشرقية، وأشارت إليها الوثائق أحياناً باسم «الزهايرة»^(٧) ووجد لها فروع فى الدقهلية^(٨).
- قبيلة الجميعات: واستقرت فى البحيرة.
- قبيلة العليقات: استقر فريق منها فى القليوبية، وفريق آخر فى الصعيد، ومارس أفرادها التجارة^(٩).

(١) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) ابن زنبيل الرمال: آخره.. المماليك أو واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق: عبد المنعم عامر، أشرف على الطبعة والتقديم لها عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٥٨.

(٤) سجلات محكمة الدقهلية: س ١٣، ص ١٩٤، م ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ/ ٢٨ أغسطس ١٦٩٨م، انظر: ملحق [١]؛ نفسه: س ٥، ص ٥٨، م ١٥٤، ٨ شعبان ١١٠٨هـ/ ٢١ ديسمبر ١٦٧٠م، انظر: ملحق [٥].

(٥) ليلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٤.

(٦) على بركات: تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣م – ١٩١٤م وأثره على الحركة السياسية، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٢٦٨.

(٧) محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، م ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م، انظر: ملحق [٣].

(٨) محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠، ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ/ ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م، انظر: ملحق [٢].

(٩) نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، تحقيق: صبرى العدل، إشراف ودراسة: أحمد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ١١٣، ١١٤.

- قبيلة أولاد سليمان: وفدت إلى مصر من المغرب، وهى قبيلة حربية كبيرة، وقد استقرت فى الشرقية^(١).

- قبيلة الحويطات: سكن عدد كبير منهم فى القليوبية^(٢).

- قبيلة العايد: استقرت فى الشرقية فى بلبيس، وقد وجد فروع من العيايدة فى الدقهلية والقليوبية والمنوفية، وقام أفرادها بنشاط زراعى مثلهم مثل الفلاحين^(٣).

- قبيلة الحبايبة: ويطلق عليهم اسم أولاد حبيب، وسكنوا فى الوجه البحرى وتنقل البعض منهم بين ولايات الوجه البحرى والقبلى^(٤).

- قبيلة أولاد وافى: من القبائل التى تنتمى إلى سليم، التى نزلت إلى مصر من المغرب فى القرن الثامن عشر، وكانت تعد من القبائل العربية الغنية المستقرة، وكانت معروفة بكثرة رجالها وخيلها، واستوطن البعض منها الوجه البحرى^(٥) والبعض الآخر الوجه القبلى^(٦).

تلك كانت أهم القبائل العربية فى الدلتا فى العصر العثمانى، وكانت هناك قبائل أخرى ليست بنفس الأهمية من حيث الدور الذى قامت به فى تلك الفترة، ولا يتسع المجال فى دراستنا هذه أن نعرض لكل القبائل العربية فى ذلك الوقت. وقد تباين موقف البدو بالطبع من الفتح العثمانى لمصر.

موقف البدو من الفتح العثمانى لمصر:

عقب نجاح العثمانيين فى إنزال الهزيمة بالماليك فى موقعة مرج دابق بالشام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، اتجه السلطان سليم العثمانى لفتح مصر، والتقت قواته بقوات السلطان المملوكى طومان باى فى موقعة الريدانية ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، ودارت الدائرة على المماليك وانهزموا،

(١) مصطفى كامل الشريف، المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) شابرويل: المصدر السابق، ص ٢٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٥.

(٤) أحمد الدمرداشى كتحدا عزبان: الدرة المصانة فى تاريخ الكنانة، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩م، ص ٢٤٤.

(٥) الجبرتسى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٤٤.

(٦) دار الوثائق: دفتر التزام رقم ١٠٠١؛ نفسه: دفتر تقسيط التزام رقم ١٩٩٠م.

وانتهى الأمر بشنق السلطان طومان باى على باب زويلة بالقاهرة فى أبريل ١٥١٧م^(١). ومما لاشك فيه أن من الأهمية بمكان التعرف إلى موقف البدو من الفتح العثماني؛ حيث انقسم البدو إزاء تقدم العثمانيين نحو مصر إلى فريقين، الفريق الأول: اتخذ جانب المماليك والفريق الثاني: اتخذ جانب العثمانيين، ومعنى ذلك أن العربان لم تُخلص إخلاصًا تامًا للمماليك وكانت العلاقات بين الطرفين فى الغالب سيئة - كما سبق أن رأينا - فعندما أمر طومان باى الكشاف - حكام الأقاليم - ومشايخ العربان فى سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م أن يجمعوا عشرين ألف فارس من العربان، أشار عليه بعض الأمراء بأنه لا فائدة منهم، فأمر السلطان برجوعهم إلى بلادهم؛ برغم شدة حاجته إلى أى جندى^(٢).

وقد تخلت بعض القبائل عن مساعدة السلطان طومان باى، حيث ذكر ابن زنبيل الرمال مؤرخ الفتح العثماني الذى تتجلى أهميته فى معاصرته لذلك الفتح، أن عربان غزاة عندما التقوا بالسلطان طومان باى «سبوه وشموه» وطلبوا منه الكف عن محاربة السلطان سليم، وقالوا له: «إن لم ترجع عن محاربة السلطان سليم وإلا كلنا كنا عليك واخرج من أرض مصر فإنكم قد قتلتم منا خلقًا كثيرًا»^(٣). وهنا يستدعى زعيمًا عربان غزاة حماد بن خبير وأخوه سلام ذكريات الصراع الذى دار بين المماليك وبين العربان طوال العصر المماليكى، والذى كان النصر حليف المماليك، لتنظيمهم وحسن إدارتهم للمعارك مع العربان. وليس معنى ذلك أن كل العربان كانوا على نفس الشاكلة؛ لأنه حتى بعد هزيمة طومان باى فى الريدانية انضم إليه «نحو سبعة آلاف من العربان محبة فيه»^(٤).

أما الفريق الثانى الذى ساند العثمانيين فكان فى مقدمتهم بنى بقر^(٥)، وزعيمهم أحمد بن بقر، وتصفه المصادر بأنه «كان قليل الخير سيرته سيئة»^(٦). وقدّم أحمد بن بقر مساعدات كثيرة

(١) Holt, P. M., Egypt and the Fertile Crecent 1516 – 1922, School of Oriental and African Studies, Univ – of London, 1966, p. 91.

(٢) إبراهيم على خان: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٣) ابن زنبيل الرمال: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) والصحيح بقر «بفتح الباء وتشديد القاف وفتحها» انظر: الرمال، المصدر السابق، ص ٨٠، حاشية ١٣.

(٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٨١.

للعثمانيين، كان منها إقامة جان بردى الغزالي^(١) عنده قبل أن يتم القبض على السلطان طومان باي^(٢). كما قام أحمد بن بقر بالقبض على أحد كبار الأمراء المماليك ويدعى شار بك الأعور، وأرسل البشارة بذلك للسلطان سليم، وكان ذلك بعد إلقاء القبض على السلطان طومان باي^(٣). ولدى بحث الغزالي والعسكر العثمانيين عن طومان باي نزلوا على قبيلة محارب، فخرج لهم حسن بن مرعى زعيم القبيلة، وأراد أن يسلمهم السلطان طومان باي؛ لأنه كان يعلم مكانه، ولكن منعت والدته، وذكرته بما كان بينه وبين السلطان طومان باي من صداقة^(٤). ولكن فكرة تسليم السلطان طومان باي للعثمانيين ظلت تراود حسن بن مرعى، حتى دلَّ العثمانيين في النهاية على مكانه، وكان ذلك السبب الرئيسي في إلقاء العثمانيين القبض على طومان باي، وقد أخبر العسكر العثمانيين السلطان سليم بذلك «إنه يستحق كل خير فإنه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعاً». وذهب حسن بن مرعى مع العسكر العثمانيين ومعهم طومان باي إلى السلطان سليم^(٥).

وكان من الطبيعي مكافأة كل من قدّم المساعدة للسلطان سليم في الحرب مع المماليك وإلقاء القبض على طومان باي، حيث يذكر «الرمال» أنه في الساعة التي أمر فيها السلطان سليم بصلب طومان باي وقتل الأمير شاربك، أحضر شيخ العرب حسن مرعى وابن عمه شكر، وشيخ العرب أحمد بن بقر «وخلع عليهم خلعاً عظيماً من أجل خلع الملوك» وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده إقطاعاً له بدون مال طوال حياتهم، «ثم أرسلهم إلى بلادهم بعد أن أحسن إليهم إحساناً جزيلاً وأكرمهم إكراماً عظيماً»^(٦).

(١) أحد الأمراء المماليك وكان نائباً على الشام، ولعب دوراً مهماً في مساندة الدولة العثمانية إذ قضى على مشايخ العربان المناوئين للحكم العثماني في الشام، وكان يحلم بإقامة دولة مستقلة في الشام تحت قيادته بعيداً عن السيادة العثمانية، للمزيد من المعلومات، انظر: أحمد فؤاد متولي: تصرفات جان بردى الغزالي وخايربك بعد موت السلطان سليم الأول (كما تصورها وثيقتان بالفارسية والتركية العثمانية) بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) الرمال: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٧؛ يوسف الملواني: تحفة الأحاب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١١٢.

(٤) الرمال: المصدر السابق، ٢٣٢.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٨.

ولكن لم يدم الأمر لأحمد بن بقر طويلاً، فبعد أن خلع عليه السلطان سليم وأبقاه أميراً على بلاده، واعترف خايربك^(١) بإمرته، وعفى عن ابنه عبد الدايم الذى كان من العصاة، عاد عربان الشرقية إلى العصيان، حتى تمكن إبراهيم باشا^(٢) من قتل أحمد بن بقر عام ٩٣١هـ / ١٥٢٥م^(٣). وعلى أية حال كان ذلك موقف البدو من الفتح العثماني، فريق وقف بجانب المماليك، والآخر بجانب العثمانيين، وعقب انتصار الأخيرين كان من الطبيعي مكافأة الفريق الذى وقف بجانبهم، ولم تكن مكافأة الفريق الذى ساعد العثمانيين حائلاً دون عصيان البعض منهم إذ قاموا بالثورة كما رأينا من بدو الشرقية وزعيمهم أحمد بن بقر.

هجمات البدو:

كانت أكثرية القبائل العربية فى العصر المماليكى تعطى إقطاعات مقابل حمايتها للطرق ومعاقبتها للصوص وأطلق آنذاك على الزعيم البدوى العادى لقب شيخ العرب واعتبر من أجناد الحلقة، ومنح الزعيم الأقوى رتبة عسكرية، وكانت أحياناً من نوع طبلخانة أى أمير أربعين - تحت إمرته أربعون جندياً - وقد بقيت هذه التنظيمات سارية حتى الفتح العثماني^(٤).

وبعد دخوله مصر، حاول السلطان سليم استمالة العربان بأن أرسل هدايا لبعض زعمائهم^(٥)، ولم يكن العثمانيون يثقون كل الثقة فى العربان، ولذلك حذر قانون نامة الكُشَاف بحفظ البلاد وحراستها من شر البدو والعربان والعصاة، وإذا حدث منهم عدوان على البلاد، يقوم الكشاف بالقبض عليهم، وقتلهم مع مكافأة من يقوم بذلك من العسكر^(٦).

(١) خايربك: كان من أمراء السلطان الغورى، وانقلب عليه وتعاون مع السلطان سليم الأول فولاه حكم مصر، فكان أول السيادة العثمانيين، ومدة ولايته (٩٢٣هـ - ٩٢٨هـ / ١٥١٧م - ١٥٢٢م) انظر: جمال كمال محمود: الأرض والفلاح فى صعيد مصر فى العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م، ص ٢٦.

(٢) مدة ولايته غرة جمادى الآخرة ٩٣١هـ / ٢٦ مارس ١٥٢٥م واستمر والياً على مصر سبعة أشهر فقط. انظر: أحمد شلبي بن عبد الغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء الباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٣) أحمد شلبي: المصدر السابق، ص ١٠٥، حاشية ٤٤.

(٤) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة بونابرت، ط ٢، دمشق ١٩٦٨م، ص ١٣٤.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٧٩.

(٦) قانون نامة مصر الذى أصدره السلطان سليمان القانوني لحكم مصر، ترجمة: أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣٣.

وقد شدّد قانون نامه على مشايخ العربان أن يصحبوا معهم فى تنقلاتهم من تكون له ضرورة قصوى وأهمية بالغة من أفراد جماعة العربان لعدم تحميل الفلاحين كثيراً من المأكولات والمشروبات أو إرهابهم وإزعاجهم، وينبغى أن يصحبوا معهم القدر الكافى فقط من الرجال^(١).

ونلمس من ذلك محاولة الدولة استمالة العربان، ولذلك أوكلت الدولة جزءاً من النظام الأمنى إلى العربان المتأخمين للقرى؛ ليتمكنوا من التصدى لهجمات العربان الرحل، وعرف هؤلاء العربان الذين أوكل إليهم الخفارة باسم «العرب المدركين» الذين كانوا يعملون بالزراعة الأمر الذى يمكن الإدارة فى الأقاليم من السيطرة عليهم ومحاسبتهم إلى حد ما، وكان لهم نظير القيام بهذا العمل أجر معين على كل فدان من مساحة المنطقة الواقعة تحت حمايتهم، كما كانوا يتقاضون زيادة على الأجر المعين لهم «عادة العربان» التى سجلتها دفاتر الترايبع ضمن البرانى^(٢).

وقد أطلقت الوثائق على هذه العادة اسم «الميز»^(٣) من ذلك نجد إقرار العربان فى الدقهلية والغربية بأنهم التزموا بخفارة القرى الواقعة فى نطاق هذا الثغر - ثغر دمياط - والتزموا برد ما يسرق من المواشى، وألاً يتعدوا على الأراضى الزراعية، وأنهم جميعاً متضامنون متكافلون فى تعويض ما يسرق من الأهالى^(٤).

ونجد تعهد شيخا إحدى قرى البحيرة فى عام ١٠٢١هـ/ ١٦١٣م «بحفظ الناحية بأنفسهما وخمسة رجال يحضروهم معهم ليلاً ونهاراً وجميع ما يحصل من نقب حايط أو خلع باب أو سور وحفظ دار الأوسية» وذلك مقابل أن يجعل لهم الأمير محمد جاويش ملتزم الناحية ثمانية عشر فداناً «جعالة شرعية»^(٥).

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، ط ٢، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٣٧.

(٣) وهو عادة يتقاضاها العربان من الفلاحين بصفة غير رسمية من قبيل الفردة فى نظير ضمانهم لعدم سرقة المواشى والمحاصيل من هؤلاء الفلاحين. انظر: عبد الحميد حامد سليمان: نظم إدارة الأمن فى مصر العثمانية، بحث ضمن أبحاث ندوة تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ١٥١٧م - ١٧٩٨م، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة عدد ٥٧، مركز النشر لجامعة القاهرة، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٧١.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) سجلات محكمة البحيرة: س ١، ص ٢٥، م ٥٤، ١٤ ذو القعدة ١٠٣٠هـ/ ١ أكتوبر ١٦٢١م.

ووجد فى كل قرية عدد من الخفراء الذين يقومون بحراسة القرية وزراعتها وكان عملهم أشبه بعمل الشرطة فى الريف، فهم يعملون على عدم حدوث السرقات وغيرها، كما يندرون الأهالى عند اقتراب العربان الذين كانوا يغيرون على القرى، ويسهر الخفراء خصوصاً لحراسة دار الأوسية^(١) ويراقبون الجسور^(٢) ليحولوا دون العبث بها فى غير مواسمها، وقام بعض العربان بدور الخفراء، وكما أشرنا أسمتهم الوثائق بالعرب المدركين «أى أصحاب الدرك»، وأصبح لهم نظير قيامهم بعملية الخفارة قدر معلوم من المال على كل فدان أو حصة، وأصبح يُنص على ذلك فى عقد الإيجار الذى يكتب بين الملتزم والفلاحين، حيث أشارت المصادر إلى تخصيص خمسة أنصاف ضمن عقد الإيجار لكل فدان للعرب المدركين نظير «غفرهم لطين الحصة»^(٣).

ونجد - أحياناً - تعاوناً بين البدو وبين الإدارة، حيث تشير الوثائق إلى إسهام مشايخ بدو بنى عون بولاية البحيرة على أنفسهم أمام القاضى بأن الأمير إبراهيم بك حاكم الولاية قد اهتم بجرف الجسور «جرفاً حصيناً متقناً حابساً مانعاً لمياه النيل المبارك»^(٤). واستأجر البعض من العربان أراضى زراعية من ملتزميها^(٥) وهم من البدو شبه المستقرين الذين يستقرون فترة الزراعة إلى الحصاد، ثم يرتحلون إلى أن يحين موعد الزراعة يزرعون وهكذا.

وتشير الوثائق إلى أراض باسم العربان «أثر العربان» ممّا يدل على تواجد قطاع من العربان فى هذه الأراضى لمدة طويلة^(٦) كما شارك قطاع من العربان فى التزام الأراضى

(١) استيف: دراسة موجزة حول مالية مصر منذ فتحها السلطان سليم إلى أن فتحها القائد العام بونايرت، وصف مصر، الترجمة العربية، ج ٥، ترجمة: زهير الشايب، ط ١، القاهرة ١٩٧٩، ص ٧٤.
(٢) كان «لدرك» أمن الجسور أهمية كبيرة فى ذلك العصر لدرجة تخصيص الروزنامة دفاتر أطلق عليها اسم دفاتر الجسور، للمزيد من المعلومات عن الجسور، انظر: جمال كمال محمود: وثائق الجسور فى مصر فى العصر العثمانى، بحث منشور فى حولية دار الوثائق «الروزنامة» دار الكتب والوثائق القومية، العدد الخامس، القاهرة ٢٠٠٧، ص ٣٢١ - ٣٤٥.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) سجلات محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥، ٩ شوال ١١٠٣هـ/ ٢٤ يونيو ١٩٦٢م، انظر: ملحق [٤].

(٥) محكمة الباب العالى: س ١٤٦، ص ٢٨٨، م ١٠٠٤، ٣ صفر ١٠٧٩هـ/ ١٣ يوليو ١٦٦٨م؛ محكمة قناطر

السباع: س ١٣٦، ص ٢٣٢، م ٩١٠، ٦ شوال ١٠٩٠هـ/ ١٠ نوفمبر ١٦٧٩م.

(٦) محافظ الدشت: محفظة ١٤٥، ص ٣٦٤، ٢٤ محرم ١٠٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٦٢٨م.

الزراعية^(١) ونجد أراضٍ أخرى تحت اسم «زراعة عربان»^(٢) وتعرف هذه الأرض أيضًا بالحطيطة، ويذكر لانكريه أنها أراضٍ استولى عليها العربان عنوة في القرى المختلفة، وهذه الأراضى قد تناقلوها بفعل الوراثة، واكتسبت شرعيتها بمضى الزمن، وتسمى أرض الحطيطة في الدلتا باسم المسموحة ونسبتها ضئيلة، وقد تكون الحطيطة عبارة عن دخول نقدية أو عينية عن مساحة الأرض، وأحيانًا تكون الأرض نفسها^(٣).

وهذا النوع من الأراضى لم تقرر عليه أية ضرائب، وقد أشارت دفاتر الترابيع إلى أراضى الحطيطة في القرى التى يوجد بها هذا النوع من الأراضى^(٤).

وعلى الرغم من محاولات الدولة استمالة العربان وإدخال البعض منهم فى منظومة الأمن، وهو ما حدث فعلاً «العربان المدركين»، وكذلك محاولة توطينهم من خلال منح التزام أراضٍ زراعية لهم، أو استئجارهم للأراضى الزراعية من ملتزميها، إلا أن قطاعًا كبيرًا من العربان كان يعتمد على السلب والنهب من خلال مهاجمة القرى؛ ويرجع ذلك إلى نظرتهن إلى العثمانيين والماليك؛ حيث اعتبروا أنهم أحق بحكم مصر وامتلاكها منهم بحكم الفتح العربى لها^(٥).

وقد شجّع ضعف الإدارة العثمانية فى مصر فى نهايات القرن السابع عشر على هجرة البدو بشكل كبير من شمال إفريقيا إلى مصر، حيث نزح الكثير منهم من طرابلس وبرقة واستقروا فى بعض ولايات الوجه البحرى، خاصة ولاية البحيرة وأحدثوا دمارًا بها^(٦) وكان من بين هذه القبائل بنو وافى، وأبو كريم، ومحارب، والطحيوى، وقد تفرع من هذه القبائل فروعًا أخرى^(٧).

(١) دار الوثائق: دفاتر الالتزام: دفتر رقم ١٠٦٤.

(٢) دار الوثائق: دفاتر الترابيع: دفتر ترابيع ولاية البحيرة رقم ٢٢٨٧.

(٣) لانكريه: دراسة فى نظام الضرائب على الأقطان وفى الإدارة الإقليمية فى مصر فى السنوات الأخيرة من حكم المالك، ج ٥، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٣١.

(٤) دار الوثائق: دفاتر الترابيع: دفتر ترابيع ولاية المنوفية رقم ٢٢٥٦؛ دفتر ترابيع ولاية الشرقية رقم ٢٢٦٠؛ دفتر ترابيع ولاية القليوبية رقم ٢٢٦٣؛ دفتر ترابيع ولاية المنوفية رقم ٢٢٨٣؛ دفتر ترابيع ولاية البحيرة رقم ٢٢٨٧.

(٥) جومار: المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٦) إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد

العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٧) جومار: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

وشهد عام ١١٠٣هـ / ١٦٩١م هجوماً من القبائل المتمركزة في الشرقية مثل الهجارسة وهلباسويد على قرية جميزة برغوت^(١) واستولوا على الغلال والمواشى والخيل والجمال الخاصة بدار الأوسبة واستولوا كذلك على مواش وجمال للأهالي، واشتكى قائمقام^(٢) الملتزم للقاضي الذي شكّل لجنة لمعاينة المنهوبات، وكان من ضمنها الشونة السلطانية، وانتهوا إلى كتابة كشف بذلك لاستخدامه عند الحاجة^(٣).

وفي عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م هاجم مجموعة تقدر بأربعين رجلا من عربان الزهايرة جرن حاكم الولاية، وضربوا أحد الحراس وأصابوه بجروح، وعقروا ناقة لحاكم الولاية^(٤) وهذا يوضح عدم مبالاة هؤلاء حتى بحاكم الولاية فما بالك بالفلاحين.

وتوالت الهجمات، ففي عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م، هاجم أحمد البقرى وأقاربه ناحية صافور^(٥) وتذكر الوثائق ما نصه «وأوقعوا بها النهب والحرق وأخربوها ظلماً وعدواناً». فما كان من ملتزمها إلا أن اشتكى للقاضي الذي أمر بمعاينة القرية «فوجدت دور أهاليها جميعاً بغير أبواب»، وتم تخريب طواحينها وهدم دار الأوسية، وبعض دور الفلاحين، ونهب وحرق جانب كبير من القمح وغيره من المحاصيل التي وصلت جملتها إلى (٢١٢٨) أردبا منها ٨٥٠ أردب قمح، ٣٥٠ أردب شعير، ٤٢٠ أردب فول، ١٥٠ أردب عدس، ١٦٠ أردب حمص، ٣٠ أردب كتان، ٧٨ أردب برسيم، إلى جانب ١٥٠ أردب حمص من الإنتاج الجديد، وكان من ضمن المنهوبات لملتزم القرية وأهاليها ٣٠ محراث، ٣ جرافة^(٦).

(١) سميت بهذا الاسم في العصر الفاطمي ووردت في قوانين ابن ممتي وفي تحفة الإرشاد جميزة برغوت، وقد تم تغيير اسمها إلى جميزة بنى عمرو وهو اسمها الذي وردت به في تاريخ سنة ١٢٢٨هـ. وصدر القرار بهذا التغيير في ١٩ مارس ١٩٣٢م. انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القسم الثاني، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٨٩.

(٢) هو موظف يعينه الملتزم للإشراف على حصة التزامه، ويقوم القائمقام بحفظ حاجيات الملتزم، انظر: Shaw, S., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1519 – 1798, Princeton, 1962, p. 53.

(٣) صلاح هريدي: فصول من تاريخ المدن المصرية خلال العصر العثماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٩١.

(٤) محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، م ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ / ٢١ يونيو ١٦٨٤م، انظر: ملحق [٣].

(٥) من القرى القديمة وردت في قوانين ابن ممتي وفي التحفة من أعمال الشرقية، انظر: محمد رمزي: المرجع

السابق، قسم ٢، ج ١، ص ١٩١.

(٦) محكمة الدقهلية: س ١٣، ص ١٩٤م، ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ / ٢٨ أغسطس ١٦٩٨م. انظر: ملحق [١].

ويبدو اعتياد بدو الزهايرة مهاجمة القرى، حيث قامت مجموعة منهم في عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م، وهم مدججين بالسلاح، ونهبوا دار أوسية قرية نوسا البحر^(١) وتوابعها، وكانت في التزام اثنين من العسكريين أحدهما أغاتفنكجيان^(٢) والآخر كتخدا الجاويشية^(٣). وكان من جملة المنهوبات ٣٢ ثور وفرسين وحصان وغيرها^(٤) وهذا يوضح مدى استخفاف البدو حتى بالقرى التي يلتزمها الصفوة العسكرية آنذاك.

وإذا أخذنا نموذجاً آخر للبدو نجد قبيلة الحبايبة الذين تهيأت لهم فرصة لفرض نفوذهم وسيطرتهم عن طريق توليهم الخفارة النيلية «حراسة السفن التي تسافر بين بولاق وكل من دمياط ورشيد»، فتحولوا إلى قراصنة، وتجبروا وطغوا، وأصبحت معظم بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايتهم^(٥).

وقد تحالف الحبايبة مع البقرية، وكان الحبايبة يلجأون أحياناً للبقرية في حالة ضغط الإدارة عليهم، وقام سويلم بن حبيب بضرب العديد من النواحي ونهبها^(٦).

ومن المؤسف أن المماليك كانوا يستعينون - أحياناً - بالبدو، حيث أرسل أحد البكوات في عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م إلى عرب الهنادى، فحضروا بجمعهم وأخلطهم، وانتشروا في الجهة الغربية من رشيد إلى الجيزة، ينهبون البلاد، ويأكلون الزرع، ويضربون المراكب في النيل، ويقتلون الناس حتى قتلوا في يوم واحد من قرية النجيلة^(٧) أكثر من ثلاثمائة

(١) من القرى القديمة اسمها الأصلي منية نوسا، ووردت في تاريخ ١٢٢٨هـ باسم نوسا البحر؛ لأنها واقعة على فرع النيل الشرقي، وتمييزاً لها عن نوسا الغيط الواقعة في وسط الأراضي الزراعية. انظر: القاموس الجغرافي، السابق، قسم ٢، ج ١، ص ١٧٨.

(٢) كان أفرادها من حملة البنادق الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم في فتح مصر، وأسهموا في توطيد السلطة العثمانية في الأقاليم بعد ذلك. انظر: عبد الكريم رافق: المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٣) طائفة عسكرية واستخدم أفرادها كرسول لإبلاغ الأوامر والمهمات وكجباة في الأقاليم. انظر: عبد الكريم رافق: المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠، ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ/ ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م. انظر: ملحق [٢].

(٥) ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٦) أحمد الدرداشي: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٧) لم يرد اسمها في الكتب القديمة وأول من ذكرها هو ابن إياس، ويبدو أنها كانت من توابع ناحية محلة أحمد ثم فصلت عنها في تاريخ سنة ١٢٢٨هـ وكانت هذه القرية قاعدة لمركز النجيلة من سنة ١٨٢٦ ثم نقل ديوان المركز إلى كوم حمادة لتوسطها بين قرى القسم الزراعي الواسع. انظر: القاموس الجغرافي، القسم الثاني، ج ٢، ص ٣٣٣.

إنسان، وكذلك فعل عرب الشرق والجزيرة بالبر الشرقي، ويعلق الجبرتي قائلاً: «فتعطل السير برًا وبحرًا ولو بالخفارة حتى إنَّ الإنسان يخاف أن يذهب من المدينة إلى بولاق أو خارج باب النصر»^(١).

ويذكر الجبرتي في موضع آخر أنَّ الأرياف «قامت على ساق» يقتل بعضهم بعضًا، وينهب بعضهم بعضًا، وكذلك أغارت العربان على الأطراف والنواحي، «وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى»^(٢).

ولم ينج حتى الحجاج من هجمات البدو ونهبهم وسلبهم سواءً كانوا رجالاً أو نساءً، وقلماً تخلو المصادر المعاصرة من ذكر تعديهم على «قافلة الحج»^(٣).

ولم تسلم الأديرة من هجمات البدو وتعديهم عليها، وكان الرهبان يقومون بواجب الضيافة للعربان، وهم مضطرون لذلك؛ لأنَّهم في حراستهم، ويمر العربان بالأديرة أثناء تنقلاتهم خاصة بالليل، ويتوقفون عند الأديرة ليتناولوا طعامهم ولكي يستريحوا ويريحوا خيولهم، ويقدم الرهبان الطعام لهم من وراء الجدران، ولا يفتحون لهم الأبواب مطلقاً، حيث ينزلون لهم الطعام من فوق سور الدير بواسطة حبل في نهايته سلة الخبز والخضار، وهم مضطرون لذلك حتى لا يتعرضوا للنهب والقتل خارج الأديرة على أيديهم^(٤).

والجدير بالذكر أنَّه حتى العربان الذين احترقوا الزراعة، فإنَّهم لم يتخلوا عن عاداتهم القديمة وبخاصة عادة السلب والنهب، فكانوا يستولون عنوة على أجود الأراضي، ويحولون مياه الري ويقطعون الجسور في الوقت الملائم لهم غير عابئين بمصالح جيرانهم من الفلاحين، ووصل الأمر بهؤلاء العربان المستفحلين إلى أنَّهم كانوا يسلبون حاصلات القرى المجاورة لهم بدون مبالاة، وذلك كلما قصرت حاصلاتهم عن الوفاء بحاجاتهم^(٥).

والعربان المزارعون هم الأحسن تسليحًا، ويمتلكون كمية كبيرة من البنادق والطبنجات والمسدسات والسيوف إلخ، وماهرون في إخفائها، وتعد الحربة من

(١) الجبرتي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ج ٥، ص ٩.

(٣) سميرة فهمي على عمر: إمارة الحج في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٧٠.

(٤) أندريوسى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦، ٦٧.

(٥) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٤.

الأسلحة التي نادراً ما يتركونها، وهي ليست متوفرة لدى الفلاحين، ومن العادات عند العرب أن تكون مسلحاً^(١).

وقلماً يقاتل العربي البدوي إلا وهو يمتطي حصانه، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحرية طويلة، كما يكون في غالب الأحيان مسلحاً برمح وكمية من الأسلحة التي يعلقها في قوس سرج حصانه، وفي بعض الأحيان يستعيض عن رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدوا بحصانه، رافعاً يده دون أن يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلاً، وبالرغم من أنه مدرب على إلقاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة، فإنه من النادر مع ذلك أن يتخلى عنها في المعركة، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمه، ويرمى بها بقوة تاركاً إياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية، وبحركة معاكسة يستعيدها سريعاً إلى وضعها الأول، وحيث إن كفاءته كفارس أكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه فإنه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هارباً بحصانه الذي تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع في تلك المعارك التي يلتحم فيها المقاتلون^(٢).

وحتى تكتمل الصورة نرى أنه من الحيدة والموضوعية أن نهب وسلب القرى لم يكن من جانب البدو فقط سواءً المتنقلين أو حتى المزارعين بل هناك العديد من الأمثلة التي تشير لمهاجمة أهالي القرى من الفلاحين لأهالي القرى الأخرى من الفلاحين كذلك، فقد أنهى ملتزم قرية سنجيد^(٣) بأن أهالي قريتي منشأة الإخوة^(٤) وبرج النور^(٥) تعدو على ناحية سنجيد وهم مسلحون ونهبوا الأوسية ودور الفلاحين، من غلال ومواش ونوارج ومحاريت وجراريف وغيرها، وحاول البعض من الأعيان الصلح بين الطرفين^(٦).

(١) جومار: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) دى بوا إيبيه: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٣) من القرى القديمة وردت في قوانين ابن ماتي وفي التحفة من أعمال الدقهلية. انظر: القاموس الجغرافي،

المرجع السابق، القسم الثاني، ج ١، ص ١٧٢.

(٤) من القرى القديمة وردت باسمها الحال في تاريخ ١٢٢٨هـ، وهي من أعمال الدقهلية، انظر: القاموس

الجغرافي، المرجع السابق، القسم الثاني، ج ١، ص ١٧٦.

(٥) من القرى القديمة وردت في تاريخ ١٢٢٨هـ، وتتبع الدقهلية، انظر: القاموس الجغرافي، القسم الثاني،

ج ١، ص ١٧٠.

(٦) محكمة الدقهلية: س ٧، ص ٢٨٥، م ٧٠٣، ٩ ذو القعدة ١٠٩٢هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٦٥١م.

وقام أهالي ناحية ديو^(١) بالتعدى على ناحية البرامون^(٢) وما معها ونهبوا دار الأوسية الخاصة بالملتزم، ولدى القاضى اعترف المدعى عليهم بالمنهوبات وأحضرها غير أنها لم تكن كاملة، فطالبهم ملتزم الناحية - وكان أغا طائفة مستحفظان^(٣) - بباقي المنهوبات فطلبوا أن يمهلهم حتى يفتشوا عنها وإن لم يجدوا حلفوا اليمين الشرعى واتفقوا على ذلك^(٤) وهذان المثالان ليس حصراً ولكن حتى تتضح الصورة وأنه لم يكن البدو فقط من يقومون بالسلب والنهب وإنما البعض من أهالي القرى من الفلاحين لا يتورعون عن نهب وسلب قرى جيرانهم وإن لم تكن هناك مقارنة بين نهب البدو لقرى الفلاحين ونهب الأخيرين لقرى بعضهم البعض لا من حيث الكم ولا الكيف.

هجمات البدو فى عهد الحملة الفرنسية:

لم يضع وصول الفرنسيين إلى مصر حداً للنهب والتهديد الذى كان يتعرض له الفلاحون من قبل البدو، الذى استمر تهديدهم للريف، ممّا جعل مشايخ القرى يطلبون حماية السلطات الفرنسية، حتى يتمكنوا من زراعة أراضيهم^(٥) ومن المعلوم ارتباط البعض من مشايخ العربان بالفرنسيين وتم تبادل الخطاب بينهم وبين الفرنسيين ومن هؤلاء الشيخ خليل الحوين الذى كان بمثابة الرسول بين الفرنسيين وشيخ عرب المساعيد الذى لم يكن للفرنسيين علاقة به لا بالخير ولا بالشر «Jamais eu de relation avec nous rien en mal ains» ويطلب الفرنسيون إعادة الجمال الخاصة بشيخ الترابيين^(٦)، وقد لعب شيخ

(١) من القرى القديمة وهذا هو اسمها الأصلي وفى العهد العثمانى أضيف إليها كلمة الوسطى لإظهار اسمها، ووردت باسمها الحال فى تاريخ ١٢٢٨هـ، انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، ج ١، ص ١٩٠.
(٢) من القرى القديمة وهذا هو اسمها الرومى Baramoun، وهى من أعمال القليوبية. انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) كان أفراد هذه الطائفة انكشارية مشاة وأتت إلى مصر مع السلطان سليم الأول وعرفت بطائفة السلطان. وقد أشاد أحد الرحالة بهذه الطائفة وتسليحهم الجيد فى القرن السابع عشر، انظر: De Monconys, Voyage en Égypte, 1646 - 1647, IFAO, Le Caire, 1973, p. 152.

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٨، ص ٨٦، م ٢٠٠، ١٤ شوال ١١٢٠هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٧٠٨م.

(٥) على بركات: رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٦٠.

(٦) محافظ الحملة الفرنسية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة ٨، ملف ١٠، وثيقة رقم B6/ 139،

ديسمبر ١٨٠٠، انظر: ملحق [٦].

الترابين دور الوساطة بين القبائل البدوية والفرنسيين ورتَّب لإعادة بعض البضائع التي نهبها العربان، ويبدو أنه ملَّ من هذا الأمر وأعلن أنه سوف يطرد أى رسول ولن يستقبل أى شكاوى بعد ذلك «et an non cé que si je recois encore deplantes je les cha sserai»^(١) وليس معنى ذلك أننا نقصد التقليل من وطنية هؤلاء، ولكن - كما أشرنا - كان العربان يعتبرون العثمانيين ومن قبلهم المماليك مغتصبين لحكم مصر، وأنهم الأحق بحكمها بحكم الفتح العربى لها.

ويرصد الجبرتى الذى يحتل مكانة فذة كأهم مؤرخ لتلك الفترة؛ لمعاصرتة للحملة بل وقربه من الأحداث ومعرفته الشخصية بالكثير من أعضاء الدواوين التى أنشأها الفرنسيون، فيذكر أن وقوف العرب وقطاع الطرق بجميع الجهات القبلية، والبحرية، والشرقية، والغربية، والمنوفية، والقليوبية، والدقهلية، وسائر النواحي «فمنعوا السبيل ولو بالخفارة، وقطعوا طريق السفَّار، ونهبوا المارين من أبناء السبيل والتجار، وتسלטوا على القرى والفلاحين، وأهل الحرف بالعري، والخطف للمتاع والمواشي من البقر والغنم والجمال والحمير وإفساد المزارع ورعيها، حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهائمهم إلى خارج القرية للمرعى أو للسقى؛ لترصد العرب ذلك» والأكثر من ذلك يذكر الجبرتى تعدى أهالى القرى على بعضهم البعض، واستعانتهم بالعربان «وطمعت العربان فى أهل البلد وطالبوهم بالثارات والعيواید القديمة الكاذبة»^(٢).

ولم يقتصر نهب البدو على أهالى القرى فحسب بل كثيراً ما تعرَّض الفرنسيون لنهب العربان، حيث يذكر «جومار» أنهم كانوا يختبئون فى النهار بين أكداس العليق «العلف» ويخرجون بالليل للسرقة «وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هذه الأكوام، ومعهم الأسلحة التى أخذوها» بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رءوس الجنود، وسرقوا السيوف وهى إلى جانب حقائب الضباط^(٣) وبالطبع لم يكن هذا من دافع الوطنية ولكنهم كانوا يمارسون عادة متأصلة فيهم ولا يفرقون فى ذلك بين مصرى أو فرنسى.

(١) الجبرتى: المصدر السابق، محفظة ٨، ملف ٩، وثيقة رقم B6/134.

(٢) نفس المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٣) دى بوا إيبيه: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨١.

موقف الفلاحين من هجمات البدو:

على الرغم من أن قانون نامه مصر قد أولى الفلاح اهتمامًا كبيرًا، ودعا إلى عدم تحميله أكثر من طاقته، وألا يوقع عليه الجزاء إلا بعد محاكمته أمام القاضي، وعدم التعدي عليه أو ظلمه إلا أن هذا لم يكن سوى مجرد كلام نظري أو إن شئت فقل طبق - إذا كان قد حدث - في فترة قوة الدولة العثمانية، ولكن بضعف الدولة العثمانية وعجزها - إلى حد ما - عن ضبط الأمور وإقرارها بدأ الفلاح يتعرض للكثير من الظلم وعلى رأس هذا الظلم - كما رأينا - هجمات البدو - ومن الطبيعي ألا يقف الفلاح موقفًا سلبياً من هذه الهجمات، ولكن لم يكن الفلاح يملك نفس سلاح العربان، فقد رأينا تنوع هذه الأسلحة وتعددتها لدى هؤلاء، ولذلك أقام الفلاحون في بعض القرى أبراجًا من الطين يعلوها سطح مزود بمتراس، ويزرع هؤلاء وعيونهم يقظة وهم لا يتركون سلاحهم مطلقًا، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا بسرعة حيواناتهم إلى أقرب هذه الأبراج، ويتسلقونه على درجات صغيرة في جسم البرج الخارجي، ومن سطح هذا البرج يدافعون عن ممتلكاتهم ويبعدون البدو عنها بطلقات البنادق.

لقد ترك الفلاح - أحيانًا - فأسه ومحرثه وحمل السلاح في وجه الظلم الواقع عليه^(١) سواء من الإدارة التي أثقلت كاهله بكثرة الضرائب وتعددتها وعدم عدالتها أو من هجمات البدو التي كانت لا تنقطع على الريف.

وأحيانًا يطلب الفلاحون المساعدة من السلطان العثماني رأسًا، حيث أرسلوا إليه رسولاً يحمل شكايتهم من أذى وفساد هؤلاء العربان، وتقصير السلطات الحاكمة في القضاء على فسادهم^(٢).

وهكذا حاول الفلاحون مواجهة هذه الهجمات إمَّا بالتحصُّن داخل أبراج طينية أشبه بالقلع تحميهم وحيواناتهم من الهجمات، أو حمل السلاح في وجه هؤلاء العربان وإذا ضاق بهم الحال كانوا يلجأون إلى الإدارة وعلى رأسها السلطان لحمايتهم من هذه الهجمات.

(١) محمد أنور توفيق أبو علم: السخرة في الزراعة وأثرها في الفلاح المصري في القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٠.
(٢) ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٤٤.

موقف الإدارة (العثمانيين والمماليك) من هجمات البدو:

لم تقف الإدارة مكتوفة الأيدي أمام تلك الهجمات بل كان لها - في غالب الأحيان - موقفاً إيجابياً منها نقلته لنا المصادر المعاصرة، والإدارة هنا تشمل العثمانيين والمماليك معاً؛ لأنه كما نعلم بعد الفتح العثماني أسند العثمانيون إلى المماليك - على الرغم من عدم الثقة بينهما - حكم الأقاليم لدراية المماليك وخبرتهم الطويلة في ذلك، وخير دليل على ذلك تعيين أحد الأمراء المماليك كأول باشا - والى - على مصر وهو خيربك، ويتوافق تعيين خيربك مع السياسة التقليدية للدولة العثمانية في الاستعانة بالحكام المحليين المواليين لها، ثم توطيد السلطة العثمانية بالتدريج بعد ذلك^(١).

وإذا بدأنا بموقف العثمانيين نجد أن الباشوات لم يألوا جهداً في التصدي لهذه الهجمات والقضاء عليها «وإن لم تنجح في ذلك كل النجاح» حيث كانت الإدارة - السلطات الحاكمة - ترسل من حين إلى آخر بعض الفرق لمهاجمتهم في محل إقامتهم أو مراعيهم، ولكي يتقى العربان ضربات تلك الفرق ولكيلا يؤخذوا على غرة، كانوا يرسلون إلى بولاك بعض الجواسيس يتخفون في زى الفلاحين، وكان هؤلاء يتعرفون إلى نوع وحجم الفرق التي تخرج من القاهرة للزحف عليهم، ويذهب هؤلاء على الفور إلى قبائلهم وعلى الفور يرفع البدو خيامهم ويرسلون النساء والأطفال إلى أعماق الصحراء، ويتوغلون داخل الصحراء لمسافة طويلة حتى ينهكوا الفرق الموجهة إليهم، عندئذ تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا إن كانوا سيهاجمون تلك الفرق ومتى، أم سيكتفون بصد الهجمات فقط، ويقيم البدو نقاط استطلاع فوق المرتفعات ويضعون عماتهم فوق الرماح فإذا رأوا أن من الأفضل الهجوم على الفرق يتجهون ناحيتها أما إذا كان العكس يرجعون إلى المخيم^(٢)، وكان الباشا يعقد «جمعية» - اجتماعاً - يحضره كبار الأمراء من أجل وضع حد لهجمات العربان وفي الغالب كان السؤال الذي يطرحه الباشا هو «من ينزل للعرب» وساعتها ينهض أحد الأمراء ويطلب ما يحتاجه من قوات وعتاد ويعطيه الباشا «تمسك بذلك» أى أمراً بذلك ويلبسه قفطاناً كالعادة^(٣).

(١) فيصل عبد الله الكندري: جان بردي الغزالي وموقفه من العثمانيين، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٧، القاهرة

١٩٩٦م، ص ٤٣.

(٢) أندريوسى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥.

(٣) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٤٢.

ففى عهد أحمد باشا الحافظ^(١) مثلاً أرسل قوة «لاستئصال المفسدين من عربان غزاة»^(٢) وقتل منهم خلقاً كثيراً، ونهب العسكر أموالهم ونساءهم وأولادهم، ووصل الأمر للبيع كرقيق «البنات بدينار والولد بدينارين»^(٣).

وأرسلت الإدارة عدة حملات عسكرية لصد عبد الله بن وافى فى عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م - ١٧٠٠م، وقد نتج عن ذلك طرد عبد الله بن وافى وقبيلته من البحيرة إلى خارج مصر^(٤). وأرسلت الإدارة عدة حملات كذلك للقضاء على بدو الحبابية، وطاردهم إلى أن فرّوا إلى الصحراء الشرقية، وأمر الباشا بمنعهم تماماً من النزول إلى الريف وتشديد الحراسة من أجل ذلك حتى «صارت الأقاليم السبعة فى أمن وأمان»^(٥).

هذه أمثلة للحملات التى كانت ترسلها الإدارة لصد هجمات البدو، وتلجأ الإدارة أحياناً إلى ضرب العربان بالعربان، فعندما كانت الإدارة تضيق الخناق على البدو فى الدلتا كانوا يفرون إلى الصعيد وهنا كانت الإدارة تغرى بهم عربان الهوارة الذين «احتاطوا بهم ونهبوهم وأخذوا منهم جملة كبيرة من الجمال وغيرها» وتابعتهم خيل الهوارة ثانية وأخذوا منهم ألفاً وسبعمائة جمل بأحمالها حتى نزلوا الفيوم وكلما نزلوا بلدًا قاتلهم أهلها حتى وصلت طائفة منهم إلى الجيزة، فجرد لهم الباشا قوة عسكرية خلفهم حتى فروا إلى المنوفية^(٦).

وفى حالة عقد القبائل اتفاقاً مع الإدارة لضعفها أو لإنهاك قوتها، فإن القبائل لا تحرص على احترام هذا الاتفاق، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة هاجموا البلاد مرة أخرى، وإذا ما تابعهم العسكر كانوا يلوذون بالصحارى التى يعرفونها جيداً، كما أن لهم قدرة كبيرة

(١) مدة ولايته من ٢٦ رمضان ٩٩٩هـ - رمضان ١٠٠٣هـ/ ١٢ يوليو ١٥٩١م/ مايو ١٥٩٥م. انظر: أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٢) وكانوا يعرفون كذلك بعربان خبيرى، وكانوا يقيمون فى ضواحي الجيزة والمناطق القاحلة بجوار الأهرامات. انظر: جراتيان لوبيير: جولة فى إقليم المريوطية، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، ج ٢، دار الشايب للنشر، القاهرة ١٩٧٨م، ص ص ٤٠، ٤١.

(٣) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٤) رضا أسعد السيد: النشاط الاقتصادى لمشاخ قرى الدلتا فى العصر العثمانى، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة ٢٠٠٨، ص ٧١.

(٥) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٦) الجبرتى: المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٧١، ١٧٢.

على تحمل العطش لوقت طويل وتحمل المتاعب، فالصحراء هي حصن منيع لهم يصعب اقتحامه ويلوذون به في حالة تعرضهم لضغط من الإدارة وقواتها العسكرية^(١). وعلى ذلك فالإدارة العثمانية ممثلة في الباشا والفرق العسكرية كانت لا تألوا جهداً في أحيان كثيرة في التصدي لهجمات البدو.

وإذا انتقلنا للفريق الآخر الذى يعد جزءاً مهماً من الإدارة وهو المماليك نجد أنهم كانوا يشجعون - أحياناً - تلك الهجمات؛ نظراً للعداء التقليدى بينهم وبين العثمانيين، حتى يعيشوا في الريف فساداً نكايه في العثمانيين وإظهارها بمظهر الضعف والعجز عن السيطرة على مقاليد الأمور في البلاد^(٢)، ولكن عندما يتولى الأمير كشوفية ولاية من الولايات فهنا الأمر يختلف فهو «يزود عن بلاده»، فعندما نزلت جماعة من العربان بكداسة «فكبسهم ذو الفقار بك كاشف الجيزة وقتل منهم أربعة وسبعين رجلاً وطلع براءوسهم إلى الديوان» ثم وصل خبر نزول بنى وافى بالطرانة فقام قائمقام البحيرة بقتالهم وقتل منهم الكثير، وأخذ الأموال والمواشى، ولما علم بقية العربان ما حصل لبنى وافى «ضاقت بهم الأرض، ففروا إلى الواحات»^(٣).

وأرسل إبراهيم بك القازدغلى ثلاثة صنّاجق لضرب أولاد حبيب، وعندما وصلهم الخبير وزعوا مواشيههم وحريمهم في البلاد، وركبوا خيولهم، ولما وصلت «التجريدة» وهجموا على موطن الحبايبة فلم يجدوا منهم أحداً لأنهم لما رأوا كثرة التجريدة ذهبوا إلى الصحراء فأرسل إبراهيم بك إلى قائد التجريدة بأن ينادى في البلاد بالأبوابهم أحد ولا ينزلون الريف، ونجح فى القبض على مجموعة كانت فى طريقها للحبايية بالمؤن والذخيرة^(٤).

وخرج إبراهيم بك أبو شنب على رأس قوة عسكرية كبيرة بها عدد من الصنّاجق والأغوات «وجميع عسكر مصر» وكان ذلك شرق القاهرة، واستمرت الحرب بين الفريقين من الصباح إلى قبيل العصر، وقتل من العرب نحو ألف وأسر نحو خمسمائة^(٥).

(١) دى بوا إييميه: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) الجبريتى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧١.

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٤٦.

(٥) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٨٣.

وعندما تولى محمد بك يوسف الجزار كشوفية البحيرة حارب عرب الهنادى وقتل منهم كثيراً، وطردهم عن الوادى، ونهب نجعهم، وأخذ من أموالهم الكثير من الغنم خمسة آلاف ومن الجمال ثلاثة آلاف، وأحل بنى عونه مكانهم^(١).

وعندما عاد الحبايية لسابق عهدهم من السلب والنهب كمن لهم الممالك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعلى حد قول الدمرداشى «قشوا من العرب ناس لها صورة» وفى المقابل كمن الحبايية للممالك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأرسل الحبايية وأحضروا تربي «وأرمى الغز المقتولين فوق بعض عرايا فى مقطع الجسر وجرفوا عليهم وساوهم بالأرض»^(٢).

ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد أعاد الممالك ترتيب صفوفهم، وطردوا الحبايية وأمر الصنjq «أصحاب الأدراك» فى الأقاليم بالأىووا الحبايية وأن كل من «أوى أو ضيّف حبيب وجماعته يستاهل ما يجرى عليه» كما نقل فلاحى القرية المجاورة للحبايية وبنى لهم كقرّاً جديداً وبنى له سوراً من أنقاض بيوت الحبايية وجرف دورهم^(٣).

وظلّ بدو الحبايية هائمين على وجوههم وعلى حد قول الدمرداشى «لم يرض أحد استقبالهم» فساروا إلى أرض غزة وأقاموا بها مدة ثم استسمحوا إبراهيم بك أبو شنب فأقطعهم مائة فدان وأنزلهم فى إحدى قرى بنى سويف^(٤).

واستمرت الحرب سجالات بين الممالك والبدو، وكان إذا وقع أحد البدو فى يد الممالك كانوا يقتلونه من ذلك ما حدث من حسن بك كاشف الطرانة^(٥) الذى ألقى القبض على أحد مشايخ البدو فى كشوفيته وأمر بإغراقه فى النيل ثم أعطاه لقبيلته فدفنوه^(٦).

ونجح على بك الكبير^(٧) فى إنزال هزيمة كبيرة بالبدو فى البحيرة عام ١٧٦٨م، لكنهم عادوا وهددوا طرق المواصلات بين القاهرة والدلتا ووصل الأمر بسويلم شيخ بدو البحيرة إلى

(١) نفس المصدر، ص ٤٩٦.

(٢) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ١١٠، ١١١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٢١.

(٥) كانت الطرانة إحدى ولايات مصر فى تلك الفترة. انظر: محكمة جامع الحاكم: ص ٥٧٣، ص ٤٩٠،

١٢٢٧هـ، ٢ ربيع الأول ١١٢١هـ/ ١٢ مايو ١٧٠٩م.

(٦) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٧) كان على بك الكبير مملوكاً صغيراً لإبراهيم كتحذا القازدغلى، ثم ظهر أمره وأصبح شيخاً للبلد، انظر:

Livingston, J., The Rise of Ali Bey Alkabar, London, 1976, p. 283.

أن أقدم على قتل على بك «حاكم البحيرة» وهو تحدٍ كبير لم يكن على بك الكبير ليسكت عليه، ولذلك أرسل على بك الكبير أحد كبار أمرائه وهو إسماعيل بك بحملة كبيرة إلى البحيرة واستمرت الحرب أياماً دون نتيجة حاسمة إلى أن نجح مماليك إسماعيل بك في إلقاء القبض على سويلم في خيمة بعيداً عن ميدان المعركة وقطعوا رأسه ممّا أثار الرعب في نفوس البدو الذين سرعان ما انهزموا^(١).

وهكذا لم يأل المماليك جهداً في مواجهة البدو خاصة إذا كانت هجمات الأخيرين تهدد مصالحهم بشكل مباشر كأن يهاجم البدو التزامات تابعة لهم، أو يهاجموا قرى في كشوفياتهم، كما كانوا يلجأون لمحالفتهم أحياناً وهذا ما كان يتفق مع روح العصر الذى كانت الصراعات العسكرية بشكل عام أحد أهم سماته ممّا كان له آثاره الوخيمة في المجتمع.

الآثار الاقتصادية والاجتماعية لهجمات البدو:

كان لهجمات البدو آثار اقتصادية كبيرة، حيث سيطروا على الاقتصاد الريفي في حالات كثيرة، خاصة في فترات ضعف الإدارة، فإنهم إذا نزلوا قرية جعلوها قاعاً صفاً لا حياة لقاطنيها الذين يضطرون للتسحب من قراهم تاركين ورائهم آلاف الأفدنة بدون زراعة ممّا يؤدي في النهاية إلى تقلص الإنتاج^(٢).

وثمة أثر مهم لهجمات البدو تمثل في تحطيم الجسور والسدود، ممّا يؤدي لهبوط منسوب المياه، وبالتالي تشرق بعض الأراضي الزراعية التي لا تصلها المياه، وهذا يؤدي بدوره لقلّة المساحة المزروعة ومن ثم الإنتاج، وكما نعلم ترتفع أسعار المواد الغذائية؛ لأنّه كما نعلم هناك ارتباط كبير بين الكميات المعروضة والسعر؛ فإذا زاد العرض قل السعر والعكس. ويؤدي ذلك بالطبع أو على الأقل يسهم في حدوث أزمات اقتصادية يعانى منها المجتمع في الريف والمدينة على السواء.

وإذا انتقلنا لأثر آخر لا يقل أهمية عن ذلك وهو أثر نهب البدو للثروة الحيوانية كالثيران والأبقار والخيول والحمير، وكلها قوى محرّكة وأدوات إنتاج يستفاد منها في العملية الزراعية من حرث للأرض ورى لها كقوى محرّكة للسواقي وغيرها وكذلك كقوى

(١) دانيال كريسيوليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة وتعليق: عبد الوهاب بكر، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٢٣.

(٢) رضا أسعد السيد: المرجع السابق، ص ٢٨٧.

محركة للنوارج التي تقوم بدرس المحصول آنذاك وهذا كله له عواقب وخيمة على الاقتصاد الزراعى فى الريف ولاشك فى انتقال آثاره بدورها إلى المدينة وكما مرَّ بنا فقد كانت بعض تلك الهجمات تفقد فيها القرية المئات من الحيوانات التي هى أساس العملية الإنتاجية^(١). وجانب آخر على قدر كبير من الأهمية لأثر تلك الهجمات يتمثل فى نهب مخزون الحبوب، حيث كان البدو يعمدون إلى نهب كميات الحبوب، وقد بلغت كمية تلك المنهوبات أكثر من ألفى أردب فى إحدى الهجمات من أنواع الحبوب المختلفة^(٢) وهذا له تأثيره الكبير على الإنسان بل والحيوان ليس لمدة عام واحد؛ ولكن يمتد لعام آخر على الأقل؛ لأنَّ من جملة المنهوبات البذور، ممَّا يعوق العملية الإنتاجية، وقد يؤدى لبوار مساحات من الأراضي الزراعية لندرة البذور أو حتى انعدامها.

ولم يقتصر أثر تلك الهجمات على القوى المحركة كالحيوانات بأنواعها أو الحبوب الغذائية أو البذور بل الأمر تعدى ذلك إلى أهم عنصر من عناصر الإنتاج وهو الإنسان نفسه، فقد تمخض عن بعض تلك الهجمات إصابة بعض الأفراد من الحرَّاس «الخفراء»^(٣) أو موت البعض من الأهالى^(٤) وكذلك الحيوانات^(٥) وبالتالي لم يستفيدوا هم كذلك من تلك الحيوانات. وقد تعدى أثر تلك الهجمات - أحياناً - كل ما سبق وهو الاستيلاء على الأراضي الزراعية نفسها وهى أهم وسائل الإنتاج على الإطلاق، حتى يدعى العربان - أحياناً - أنَّ النيل قد أكل جزءاً من أرضهم - بفعل النحت والإرساب - وأنَّ عليهم أن يعوضوا هذا الجزء من الشاطئ الآخر من النهر، ومرة أخرى بادعاء أنَّ الأرض كانت فى حوزة أجدادهم لأجيال مضت، وإنَّ لم يجدوا ذريعة تساعد على ذلك فإنَّهم يستولون على الأرض بقوة السلاح^(٦). والأكثر من ذلك أنَّهم كثيراً ما يستولون على الأراضي الزراعية ويستفيدون بالتالى من إنتاجها ولكن لا يدفعون ما على تلك الأراضي من ضرائب وإنَّ لم تصل قوة عسكرية تفرض عليهم دفع الضرائب فلن يدفعوها ويتحملها الفلاحون الذين اغتصبت أراضيهم^(٧).

(١) انظر: ملحق [٢].

(٢) انظر: ملحق [١].

(٣) انظر: ملحق [٣].

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٨، ص ١٥٥، م ٣٨٢، ١٢ جمادى الآخرة ١١٢١هـ/ ١٩ أغسطس ١٧٠٩م.

(٥) المصدر نفسه: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م.

(٦) جومار: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٨.

(٧) لانكريه: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥.

ويصل الأمر بالعربان إلى الاستيلاء على محصول القرى المجاورة لهم إذا كان المحصول الذى حصده من أراضيهم لا يكفي لمؤنتهم، وذلك بدون مراعاة لأى عرف أو قاعدة، وإن كانوا يتعهدون فى مقابل ذلك بتقديم نوع من الحماية لهذه القرى، وهذه الحماية غير ذات قيمة فى الغالب؛ لأن تلك القرى تتعرض للسلب والنهب بالتبادل على يد تلك القبائل المتشاحنة^(١).

لقد أدت تلك الهجمات إلى إشاعة حالة من عدم الأمن حتى فى الأسواق التى كانت تقام فى مدن الدلتا وقراها، فكسدت تلك الأسواق، وامتنع الفلاحون عن الذهاب إليها لخشيتهم على أنفسهم وأموالهم^(٢).

وفى بعض الأحيان يستأجر العربان قطعة من الأرض فى قرية ما من قرى الفلاحين وينصبون خيامهم فيها، وإذا ما شعروا بأن هذه المنطقة مناسبة لهم يستقرون فيها، ثم يسامون الفلاحين على ثمن المكان، وذلك بعد أن تكون خيولهم وجمالهم قد أكلت بالفعل جزءاً كبيراً من الزراعة، ويكون الثمن المعروض لا يساوى عُشر قيمة الأرض، ولم يكن أمام الفلاح إلا أن يقبل، وقد تحولت قرى بأكملها إلى مخيمات للعربان، وأدى ذلك إلى تبوير أراضٍ كثيرة^(٣).

ونتج عن ذلك كله تسحب الفلاحين من القرى التى تقع على أطراف الدلتا إلى الداخل من ناحية، والتسحب إلى المدن الكبرى من ناحية أخرى، وأدى ذلك إلى خلو بعض القرى من سكانها الذين هربوا لعلهم يجدون مكاناً أكثر أمناً، وأحدث ذلك تغييراً ديموجرافياً فى المجتمع المصرى مازالت آثاره ماثلة إلى اليوم، إذ تعود جذور نسبة ليست بالقليلة من سكان القاهرة نفسها إلى أصول ريفية نزحت إليها منذ سنوات ضاربة فى القدم. وكتب على ريف الدلتا أن يظل لفترة تحت وطأة تلك الهجمات إلى أن قامت حكومة مركزية قوية على يد محمد على ضربت على يد هؤلاء البدو العابثين بيد من حديد وقامت بتوطین قطاع كبير منهم وأصبحوا - فى غالب الأحيان - أداة طيعة فى يد الحكومة.



(١) جيران: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٣٣.

(٣) جومار: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣.

الخاتمة

تعد دراسة هجمات البدو فى ريف الدلتا فى العصر العثمانى على جانب كبير من الأهمية، حيث انتشرت القبائل العربية المرحلة والمستقرة، وظلّ النظام القبلى متأصلاً لدى البدو منذ هجراتهم الأولى إلى مصر وحتى العصر العثمانى الذى شهد وجود العديد من القبائل فى الدلتا يضرب بعضها بجذوره فى أعماق التاريخ، ونزحت بعض القبائل إلى الدلتا خلال ذلك العصر.

ولم ترحب كل القبائل بالفتح العثمانى، بل وقف بعضها إلى جانب السلطان طومان باى، وكافأ العثمانيون الفريق الذى وقف بجانبهم عن طريق إقطاعهم مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية أملاً فى استقطابهم. ولكن لم ينس البدو طبيعة السلب والنهب المتأصلة فيهم، والتي كانوا يرون فيها ترضية لهم؛ لأنهم كانوا يعتبرون أنهم الأحق بحكم البلاد من العثمانيين والمماليك.

وحاولت الإدارة وضع حد لهذه الهجمات فجردت لها العديد من الحملات بقيادة كبار الأمراء من الصناجق والكشاف، وكانت الكثير من تلك الحملات تؤتى ثمارها وتضع حداً لهذه الهجمات «مؤقتاً» إلى أن يعود البدو إلى سابق عهدهم من السلب والنهب، وتوجه الدولة الحملات لصدّها، وهكذا طيلة العصر العثمانى وحتى أيام الحملة الفرنسية تعرض الريف لهجمات البدو، ممّا دفع الفلاحين لطلب الحماية من السلطات الفرنسية التى تعرضت هى الأخرى للكثير من تلك الهجمات.

وقد وقف الفلاحون لصد تلك الهجمات أحياناً بالتحصن داخل أبراج أشبه بالحصون؛ لتحميهم وتحمى حيواناتهم، أو اللجوء إلى الإدارة وعلى رأسها السلطان لحمايتهم، وإن لم تجد تلك الوسائل يستحب أعداد كبيرة من الريف وهذا يؤثر بشكل كبير على الإنتاج الزراعى. وكان لنهب الثروة الحيوانية آثاره السيئة فى الاقتصاد الريفى الذى يؤثر بدوره على المدينة، ونتج عن تلك الهجمات نهب الحبوب وهذا النهب تتعدى آثاره لعام آخر، حيث تنهب البذور ممّا يؤدى إلى ندرتها أو حتى انعدامها ممّا يؤدى إلى تبوير مساحات من الأراضى الزراعية.

وقد تعدى أثر تلك الهجمات النواحي الاقتصادية إلى الإنسان وهو أساس العملية الإنتاجية؛ حيث نتج عن بعض تلك الهجمات مقتل أعداد من السكان، والأكثر من ذلك تعدت بعض تلك الهجمات كل ما سبق إلى الاستيلاء على الأراضى الزراعية نفسها بقوة السلاح، خاصة فى ظلّ ضعف الإدارة وانهماك قطاع من أفرادها فى الصراعات العسكرية التى كانت سمة من أهم سمات ذلك العصر.

وفى النهاية أدت تلك الهجمات إلى خلق حالة من عدم الاستقرار فى الريف نتيجة هجر الفلاحين بل وأعيان الريف قراهم إلى مناطق أكثر أمناً، فأدى ذلك بدوره إلى انخفاض عدد سكان الكثير من القرى خاصة المجاورة للبدو حتى هجرت بعضها تماماً.



نهب ناحية صافور بالدقهلية

«بموجب البيورلدى الشريف الوارد من الوزير حسين باشا بموجبه أن الأمير عثمان وشريكه إسماعيل جلبى ملتزمى ناحية صافور بالولاية بأن أحمد بن نجم البقرى وأقاربه وأهالى النواحي الآتى ذكرها تعدوا على ناحية صافور المذكورة وأوقعوا بها النهب والحرق وأخربوها ظلمًا وعدوانًا... وطلب من مولانا أفندى الكشف على الناحية فوجدت دور أهاليها جميعًا بغير أبواب وكشف على أربعة عشر طاحونًا بها فلم يوجد بها عدة ولا آلة ولا أحجار وأخشاب ووجدت متهدمة البنا وبها أثر الحريق وكذلك ببعض دور الفلاحين، وكشف على دار الأوسية فوجدت متهدمة البنا ووجدت شونة التبن التى بداخلها محترقة والنار تشتعل بحيطانها وببقية التبن الذى كان بها، ووجدت طوالة البهائم محترقة كذلك وكشف على ثمانية عشر حاصلًا فوجدت جميعها بغير أبواب ووجد ببعضها جانب من القمح محترق وجانب من البرسيم محترق وجانب من الجلبان كذلك وكشف على قاعة كبيرة فلم يوجد بها باب ووجد بها أثر حريق كتان، ذكر الأمير عثمان المذكور أنه كان بها مائة وخمسون شدة كتان من كتان العام الماضى وأنه كان بدار الأوسية المذكورة غرفة ممتلاة بالحمص ولم يوجد بها شىء وكشف على جرن الناحية فوجد به أثر حريق من الناحية القبليّة والجهة الشرقية والغربية ووجد به رماد التبن والغلال المحترقة وكشف على الساقية المعدة لشرب الآدميين والدواب فلم يوجد بها أخشاب ولا أتراس ولا جايزة ولا غير ذلك من العدة وأرسل الأمير المتسلم إلى النواحي المجاورة للناحية لاستخبارهم عن ذلك فلم يحضر منهم أحد وحين وصل الأمير عثمان إلى ناحية مناصفور المجاورة لناحية صافور للمبيت بها وجد الأمير المذكور جانبًا من أخشاب ملقاة بدار الأوسية بها، ذكر الأمير عثمان أنها من جملة أخشاب الناحية المنهوبة، وكشف فوجد أنها مشتملة على أخشاب نورج منكسرة وأخشاب سقف ووجد بها خشبة محترقة.



منهوبات دار الأوسية

جملة غلال الأوسية زراعة العام الماضي :

٢١٢٨ أردبا

٨٥٠ أردب قمح

٤٢٠ أردب فول

٣٥٠ أردب شعير

١٥٠ أردب عدس

١٦٠ أردب حمص

٣٠ أردب كتان

٧٨ أردب برسيم

١٥٠ أردب حمص زراعة سنة تاريخه

وللملتزم وأهالي الناحية

٣٠ محراثاً، ٣ جرافات»

المصدر: محكمة الدقهلية، س ١٣، ص ١٩٤، م ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ/ ٢٨

أغسطس ١٦٩٨م.

ملحوظات:

تدخل الباشا رأساً في قضية تتعلق بنهب القرى.

نهب كل بيوت الناحية.

نهب الطواحين وهدمها وإحراقها.

نهب دار الأوسية وهدمها وإحراقها.

حرق القمح والبرسيم والجلبان والكتان.

نهب الساقية المعدة لسقى الإنسان والحيوان.

توضح الوثيقة تعرض ممتلكات الأمراء لاعتداءات البدو، فما بالك بالفلاحين!



نهب بدو الزهايرة لدار أوسية ناحية نوسا البحر وتابعها بولاية الدقهلية

«حضر مندوب الأمير شاهين قايم مقام ناحية نوسا البحر وما معها التزام الأمير محمد أغا تفكجيان وملتزم الناحية المذكورة بحق الربع والسدس شركة الأمير سليمان أغا كتحدا الجاويشية بحق الباقي وطلب من مولانا أفندي أن يعين شاهدين يتوجهان إلى ناحية نوسا المذكورة لضبط واقعة تعدى جماعة من عربان زهير ومنهم أولاد أبي النصر وأبو الخير من عربان الزهايرة ومعهم الزينى على... ومعهم خيالة ومشاة وبالآلات والسلاح والبندق وتعدوا على دار الأوسية بناحية نوسا الساحل... وتوصلوا من باب دار الشاد ونهبوا ٣٢ ثورًا مختلفة الشباه وفرسين وحصانًا وجملين وحمارًا وكسروا باب دار الشاد المذكورة وخرجوا منه بالبهايم المذكورة وكتب ذلك ضبطًا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج جرى ذلك وحرر فى تاسع جمادى الآخرة سنة عشرين ومائة وألف».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠.

التاريخ: ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ / ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م.

ملاحظات:

- نهب دار أوسية قرية نوسا البحر وتابعها رغم تبعيتها لاثنين من الملتزمين العسكريين أحدهما أغا تفكجيان والثانى كتحدا الجاويشية.
- توضح الوثيقة قوة بدو الزهايرة وتسليحهم الجيد.
- تعدد المنهوبات مما يدل على ثراء ملتزمى الناحية.
- تسجيل حجة شرعية ضبطًا للواقع.



مهاجمة البدو لجرن حاكم ولاية الدقهلية والاعتداء على حراسه

«حضر الأمير أحمد أغا كاشف ولاية الدقهلية حالاً وعرف مولانا أفندي أنه في الليلة المسفرة صباحها عن يوم الأربعاء من تاريخه أدناه حضر جماعة خيالة من عربان طايقة الزهايرة بالولاية مقدار أربعين رجلاً نصف الليل وهجموا على جرن الأمير الكاشف المشار إليه الكاين بأرض ناحية منية حدر المجاورة للمنصورة ومعهم آلات السلاح والمثقلات وتعدوا على جماعة كانوا بالجرن المذكور لأجل حراسته وأوقعوا بهم الضرب والجراحات ونهبوا أسبابهم وعقروا ناقة للأمير الكاشف وسيل في الكشف عن ذلك وفي استخبار الحراس بالجرن المذكور وكشف عن رجل يدعى محمد بن بدر الدين القطاوى فوجد ببطنه قريباً من معدته ضربة بمزراق قطعت الجلد وأسالت الدم وضربه ب صدره... ونهبوا وقطعوا ذيل الناقة... وكتب ضبطاً للواقع ليراجع عند الاحتياج إليه جرى ذلك وحرر في ثامن رجب الفرد سنة خمس وتسعين وألف من الهجرة».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، م ٣٤٠.

التاريخ: ٨ رجب ١٠٩٥هـ / ٢١ يونيو ١٦٨٤م.

ملحوظات:

- هجوم بدو الزهايرة على جرن كاشف - حاكم - ولاية الدقهلية.
- قدرت القوة المهاجمة بنحو أربعين رجلاً مدججين بالسلاح.
- ضرب أحد الحراس وإصابته بجروح بالغة.
- إبلاغ حاكم الولاية للحادثة بنفسه.
- عدم مبالاة البدو حتى بممتلكات حكام الولايات.



التعاون بين بدو بنى عونه وحاكم ولاية البحيرة

«لما صدر الإسهاد من مشايخ عربان بنى عونه بولاية البحيرة بين يدي فخر النواب القاضى محمد بن العاص النايب بالحوش السعيد بولاية البحيرة.. أشهد على أنفسهم مشايخ عربان بنى عونه وكل منهم بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار من غير إكراه عليهم فى ذلك أن الأمير إبراهيم بك أمير اللوا الشريف السلطانى.. وحاكم ولاية البحيرة اجتهد وبذل الهمة والمجهود فى جرف حاجز بنى عونه من البداية إلى النهاية وسد ما به من المقاطع والمهالك جرفاً حصيناً متقناً حابساً ومانعاً لمياه النيل المبارك من جريانه وهم المقطع المعروف بالأبيض ومقطع أبو المطامير ومقطع القنطرة وغيرها جرى ذلك وحرر فى تاسع شوال سنة ثلاث ومائة وألف هجرية».

المصدر: محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥.
التاريخ: ٩ شوال ١١٠٣هـ / ٢٤ يونيو ١٩٦٢م.

ملحوظات:

- تعاون مشايخ عربان بنى عونه بالبحيرة مع حاكم الولاية.
- إسهاد بنى عونه باختيارهم على قيام حاكم الولاية بجرف الجسر جرفاً متقناً.
- تؤكد الوثيقة أن دور العربان لم يكن فى كل الأحوال سلبياً وأن لهم أدواراً تعضد الإدارة فى بعض الأحيان.



تركة الأمير عمر حماد البقرى بالدقهلية

«تركة الأمير عمر حماد البقرى بناحية دِيرَب نَجْم ومنشأة صهبرة من خيول ومواشٍ وغلّال وأخشاب.

دِيرَب نَجْم: ٣ محارِيث، ٦ نوارج، ٣ جبانات، ٣ مدارى، ٥ جمال، ٨ جراريف، ٤ أفلاق بلح، ١ قصبة، ٣ سواقى كاملة العدة.

منشأة صهبرة: ٤ أثوار، ٦ جراريف، ١ ساقية صليب «عامود»، ٢ مدارى، ٣ جبانات، ٨ محارِيث، ٣٠ أوتاد، ٩ قطع، ٨ نوارج، ١ ساقية كاملة العدة.

ميت غمر: ٣ خيول، ٣ حمير، ٥٨ ثور، ١ دايرة معدة لبياض الأرز، زريبة معدة لبهايم الأوسية وخزن التبن ملك الأمير عمر حماد البقرى».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ٥، ص ٥٨، م ١٥٤.

التاريخ: ٨ شعبان ١٠٨١هـ/ ٢١ ديسمبر ١٦٧٠م.

ملحوظات:

- دخول الأمير عمر حماد البقرى ميدان التزام الأراضى الزراعية.
- التزام الأمير ثلاث قرى بكل منها أوسية.
- وجود أدوات الزراعة من محارِيث ونوارج وسواقٍ وغيرها.
- امتلاك الأمير لعدد كبير من القوى المحركة «الأثوار» ودواب الحمل من جمال وخيول وحمير.

- تؤكد الوثيقة العلاقات الطيبة بين «البدو» والدولة فى بعض الأحيان.



العلاقات بين البدو والحملة الفرنسية

Au Caire 29 Frimaire an IX... Du Général Reynier

«Le Cheik Khalil Héhouen m, aremis Votre letter du 26. Les Arabs Messaids, dons on arête Les Chameaux n, ont j amis eu de relation avec nous ni en bien ni en ma Ains iln, Y aurait pas de raison de prender leur Chameaux s, ils Venaient acheter de marchadises mais comme ont dit q <ils venaient acheter de grains vous le Feres vendre au profit des grendiers en donnant le cinquième au cheik quil, a dé noncé. Vous rendrez au cheik des trabins les Chameaux qui ont de vous donner le letter qu> il arecue de <ibrahim Bey et .vous me l> enverrez»

المصدر: محافظ الحملة الفرنسية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة رقم ٨، ملف ١٠، وثيقة رقم B6/ 139.

التاريخ: ١٠ ديسمبر ١٨٠٠ م.

ملحوظات:

- توضح الوثيقة العلاقات بين البدو والحملة الفرنسية.
- قيام الشيخ خليل الحوين بدور الوساطة بتسليم الرسائل من وإلى الفرنسيين.
- لم يكن للفرنسيين علاقة بعرب المساعيد لا بالخير ولا بالشر.
- طلب الفرنسيين إعادة الجمال الخاصة بشيخ الترايين.



بدو وادى النطرون والسلطة السياسية فى القرن التاسع عشر

ماجد عزت إسرائيل^(١)

لما كانت صحراء وادى النطرون تحيط بوادى النيل، حيث تتدفق مياهه وتنتشر فى فرع رشيد، فقد أغرى ذلك البدو أو كثيرا منهم على النزول إلى الأراضى الزراعية حيث الرزق الوفير والحياة السهلة، وقد لانت طبائعهم الغليظة فى الأرض الطيبة. وانتهى الأمر إلى هجرة بعضهم والانتشار بقرى وادى النطرون الواقعة على نفس الفرع من النيل وانتقلوا بشكل تدريجى من حالة البداوة إلى مجتمع الزراعة المستقر.

وبالرغم من ذلك فقد ظلت بعض القبائل البدوية تصر على حياة الصحراء، وتسكن الخيام، نظرا لأن تقاليدها تحرم السكن تحت أسقف البيوت وزرع الأشجار، اعتقادا منها بأن الذين يخضعون لهذا العادات سيخضعون سريعا لحكام يستعبدونهم.

ولقد كان لهؤلاء البدو (العربان) - كما اصطلح على تسميتهم بذلك فى المصادر والوثائق منذ العصر العثمانى وطوال القرن التاسع عشر - دور بارز فى المجتمع المصرى نظراً لاتصالهم المستمر بوادى النيل ولكن الجانب السلبي هو الغالب على دورهم عند بداية القرن التاسع عشر، وذلك لأنهم بلغوا فى تلك الفترة أقصى درجة من القوة وشدة البأس، وساعدهم على ذلك حالة الفوضى التى سادت فى الفترة ما بين جلاء الحملة الفرنسية فى سبتمبر ١٨٠١ وتولى محمد على الحكم فى مايو ١٨٠٥م فكانوا يخربون قرى الوادى ويفرضون الإتاوات على سكانها.

ومن هنا كانت دراستنا لإلقاء الضوء على بدو وادى النطرون فى القرن التاسع عشر، وبناءً عليه، فسوف نتناول دور تلك القبائل البدوية فى منطقة وادى النطرون من حيث التشكيل العائلى والقبلى لها، وتجمعاتها وعاداتها وتقاليدها، وكذلك علاقاتها بالقبائل الأخرى المحيطة بها، وكذلك علاقاتها بأديرة الوادى ورهبانه وبالريف ووادى النيل القريب من منطقة سكنائها، ودورها السياسى والاقتصادى والاجتماعى وعلاقاتها بالسلطة الحاكمة خلال القرن التاسع عشر.

(١) دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة تتعامل مع قضايا توطين البدو من أجل استقرارهم، والحد من صراعاتهم المحلية والخارجية، وتوضح مدى علاقتهم بالآخرين من قبائل أو سكان أو نساك (رهبان) بذات الإقليم، ومدى تقبلهم للاستقرار والحدثة في ضوء النظم والتشريعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتناقش علاقاتهم بالحكومة المركزية - طوال القرن التاسع عشر - عبر الدولة الحديثة التي وضع لبنتها محمد علي باشا (١٨٠٥م - ١٨٤٨م) واستكمل بناءها خلفاؤه.

بدو وادى النطرون قبل القرن التاسع عشر:

شهدت مصر عبر عصورها التاريخية ثلاث هجرات حقيقية كانت للهكسوس وبنى إسرائيل والعرب، وجميعهم رعاة وساميون، والهجرتان الأولى والثانية عاش ذووها بمعزل عن المصريين إلى أن رحلوا، وانتهت إلى مجرد «جملة اعتراضية في تاريخ مصر الأنثروبولوجي»، أما الهجرة العربية فكانت أول إضافة حقيقية إلى تكوين الشعب المصرى وآخرها، منذ أن وضعت قاعدة الأساس في عصور ما قبل التاريخ^(١) وهى التى أتت على مراحل، بعضها سابق للفتح العربى الإسلامى (٢١هـ / ٦٤١م) والبعض الآخر والأهم أتى ما بعد الفتح ثم الفترتين الفاطمية (الهلالية) (٣٦٣هـ - ٥٦٧هـ / ٩٧٣م - ١١٧١م) والأيوبية^(٢) على أن هذه الهجرات لم تغير فى التركيبية الأساسية للسكان؛ حيث إن العنصر العربى يعود إلى أصل مشترك مع العنصر المصرى، أى أن هناك «قربة عرقية» بخلاف ما كان عليه الحال فى بلدان عربية أخرى^(٣).

كما شهد عصر دولة الأيوبيين والمماليك (٥٦٧هـ - ٩٢٣هـ / ١١٧١م - ١٥١٧م) أزهى العصور لانتشار القبائل العربية الموجودة فى مصر، فقد بلغوا عددا عظيما؛ حتى جابوا جميع أنحاء البلاد بالوجهين القبلى والبحرى؛ وفى ذات الوقت توقفت الهجرات الوافدة

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، ج ٢، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٢٩٢.

(٢) عبادة كحيلية: عروبة مصر فى فكر جمال حمدان، بحث منشور ضمن الفكر العربى عبر العصور بين الأصالة والإبداع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٦م، ص.

(٣) جمال حمدان: المرجع السابق، ص ٢٩٨.

إلى مصر في عصر المماليك بسبب كراهيتهم للعنصر العربي^(١)، وأدى هذا إلى وقوع صدام مستمر فيما بينهم مما أثر على الأمن العام للبلاد^(٢) وبالرغم من ذلك ساند العربان طومان باى فى صراعه ضد العثمانيين^(٣).

وفى العصر العثماني (١٥١٧م - ١٧٩٨م) عملت الإدارة العثمانية على كسب العربان ضمن صفوفها^(٤) ولاستمالتهم صدر قانون (نامة سليمان) وكان مؤيدا لطلبات مشايخهم اتقاء لشهرهم وتفاديا لتمردهم^(٥) كما أنه اعترف بالدور الرئيسي للعربان بالبلاد^(٦).

وفى فترة الحملة الفرنسية (١٧٩٨م - ١٨٠١م) لعب العربان دوراً وطنياً حيث انضموا إلى المقاومة الشعبية فى مدينتى الإسكندرية والقاهرة^(٧) وتعاونوا مع المماليك من أجل تحصين القاهرة والصعيد فى وجه الفرنسيين، ولكن بءت محاولاتهم بالفشل؛ لأن الفرنسيين تمكنوا من السيطرة على البلاد، وشاركوا الشعب المصرى فى انتفاضته ضدهم^(٨) ولم يهدأ لهم بال إلا بعد خروجهم من البلاد، وبالرغم من ذلك فقد استفادوا من الفوضى فى فترة الحملة الفرنسية^(٩).

وقد انتشرت هذه القبائل العربية مع بدء قدومها فى صحراء مصر؛ ولما كانت الصحراء تحيط بوادى النيل حيث تتدفق مياهه وتنتشر فروعه وتحيط به الخضرة من كل جانب،

(١) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة سنة ١٩٦٨م، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٥٢.
(٣) إيمان محمد عبد المنعم عامر: العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٩.

(٤) محكمة جامع الحاكم الشرعية: سجل ٥٧٣، مادة ١٢٧، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١١٢١هـ/ ٢٢ مايو ١٧٠٩م، ص ٤٩٠.

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ط ٢، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٦م ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٦) هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٤٥.

(٧) أمين سامى: تقويم النيل، ج ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م، ص ١٣٣.

(٨) ج كريستوفر هيرولد: بونايرت فى مصر، ترجمة، فؤاد أندرواوس، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦٦.

(٩) أحمد لطفى السيد: قبائل العرب فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٢٨ - ٢٩.

فقد أغرى ذلك القبائل أو أكثرها على النزول إلى الأراضى الزراعية حيث الرزق الوفير والحياة السهلة، ومن ثم لانت طبائعهم الغليظة فى الأرض الطيبة^(١٠).

أهم المصطلحات والتصنيفات التى أطلقت على البدو:

على أية حال، أطلق العديد من الباحثين والكتاب والمؤرخين مصطلحات متعددة عند تناول دراسة البدو، فيقول ابن خلدون فى هذا الإطار «إن العرب أشد بدواة من غيرهم من الأمم البدوية لقيام بدواتهم على رعى الإبل فقط»^(١١)، وهؤلاء يعرفون باسم «الإبالة» أى رعاة الإبل^(١٢) بينما أطلق عليهم صلاح الفوال «الشاوية» أى أصحاب الشاء ورعاتها^(١٣) كما عرفوا بأصحاب «التايات»^(١٤) أى رعاة البقر والجاموس^(١٥) وبالبربر نتيجة لاختلاط القبائل العربية التى هاجرت من شبة جزيرة العرب، مع القبائل التى هاجرت من شمال إفريقيا^(١٦) وبالأعراب^(١٧) وعربان الصحراء^(١٨) وأطلقت عليهم الوثائق بشتى أنواعها اسم الأشقياء أو العربان، وهو ما تردد خلال فترة هذه الدراسة^(١٩).

ويصنف البدو طبقا لطبيعة الارتحال إلى أربعة أنواع هم بدو الارتحال الكبير، ويعتمدون أساسا على الجمال، والارتحال المحدود ويرتكزون على الأغنام والماعز^(٢٠)، وبدو الارتحال

(١٠) إيمان محمد عبد المنعم عامر: المرجع السابق، ص ٧.

(١١) عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د. ت، ص ٦٧ - ٦٨.

(١٢) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ١ - ٢.

(١٣) صلاح مصطفى الفوال: البداوة العربية والتنمية، القاهرة سنة ١٩٧٣م، ص ٥١.

(١٤) التايات: مفردتها تاية، وهى عبارة عن أكواخ على شكل نصف دائرة مكونة من الطين الجاف ومسقفة بأعواد الغاب لتقيها الحر والبرد؛ لمزيد من التفصيل انظر: يوسف الشريبنى، هز القحوف فى شرح قصيد ابن شادوف، طبعة بولاق، القاهرة ١٢٧٤هـ/ ١٨٩٠م، ص ٦١.

(١٥) مديرية البحيرة: س ١٠٤٠، ج ٥، وارد الفروع من قسم النجيلية، وثيقة ١٢٥٤، ٤ ربيع أول ١٢٨٦هـ/ ١٤ يونيو ١٨٦٩م، ص ٦٥.

(١٦) أحمد مختار العبادى: تاريخ المغرب والأندلس، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، د. ت، ص ١٧ - ١٩.

(١٧) تقى الدين أحمد بن على المقرئى: البيان والإعراب. عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٩١٦م.

(١٨) تأليف علماء الحملة الفرنسية: العرب فى ريف مصر وصحراواتها، ج ٢، ترجمة زهير الشايب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٦٨ - ٦٩.

(١٩) محافظ الثورة العربية: محفظة رقم ٨، تلغراف من ناظر الجهادية والبحرية إلى المعية السننية، بتاريخ ٢٨ شعبان ١٢٩٩هـ/ ١٥ يوليو ١٨٨٢م؛ راجع ملحق رقم (١)، (٣).

(٢٠) إيمان عبد المنعم عامر: المرجع السابق، ص ٣٤ - ٣٥.

الموسمى ، وهم الذين يرتبطون فى هجرتهم بالظروف الطبيعية والجغرافية ، والبدو المستقرون ، الذين يسكنون فى المناطق الانتقالية ما بين البيئة الزراعية والصحراوية^(١).

ولطبيعة حياة البدو الارتحالية وأسلوب معيشتهم الاجتماعية يمكن تقسيمهم إلى أربع فئات : منهم البدو الرحل وهم القادمون من الصحراء إلى حافة الوادى الخصيب ، وهم دائمو الترحال ويجوبون البرارى وحرقتهم الرئيسية الرعى^(٢) ، أما أشباه البدو فهؤلاء هم أقرب إلى حياة البداوة منهم إلى الاستقرار ، ويقومون فيما بين المناطق الزراعية والصحراوية ، ويسكنون الخيام عادة ويميل البعض منهم إلى بناء الأكواخ من الطين^(٣) ، بينما كان البدو شبه المستقرين أقرب إلى الاستقرار منهم إلى البداوة ويرتبطون بالأرض بشكل موسمى ، ثم يرحلون بحثا عن الماء والكلأ ، أما البدو المستقرون فهم يرتبطون بالأرض الزراعية بشكل دائم ، ولا تميزهم عن الفلاحين إلا صفات الجسم من حيث لون الوجه والعينين^(٤).

كما يمكن تصنيف العربان إلى نوعين ، الأول منهم هم قبائل الرعاة وينتمون إلى القبائل العربية التى انتشرت داخل إفريقيا ، ويحتفظون بأخلاقهم وعاداتهم^(٥) ، أما النوع الثانى فهم القبائل المحاربة وهم الوافدون من الشمال الإفريقى ، وقد اعتنقوا الإسلام «دينا» واجتذبهم وادى النيل بمياهه وتربته الحبشية الخصبة^(٦).

على أية حال ، تعددت القبائل التى وفدت إلى مصر فنذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر ، ما تركز منهم بالوجه القبلى مثل قبائل : الهوارة ، والعبادة ، وزناتى ، وهنادى ، والعطايا ، والسحارات ، وبنى واصل ، وبنى وايل غزالة^(٧) . أما قبائل الوجه البحرى فكان من أشهرها قبائل : بنى عون ، والسلالة ، والسعادى ، والعقارة وتشمل أولاد

(١) سميرة فهيمى على عمر: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية (١٥١٧م - ١٧٩٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) إيمان عبد المنعم عامر: المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) ميكل ونتر: المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤) إيمان عبد المنعم عامر: المرجع السابق، ص ٣٨.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) أحمد لطفى السيد: لمزيد من التفصيل عن القبائل الإفريقية انظر: المرجع السابق، ص ١٥ - ٢٥.

(٧) لمزيد من التفصيل، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢.

على والحرابى، والبراعيص، وجذام، والعليقات، والفوايد، والسمالو، والجزيرة^(١). هذه لمحة سريعة عن العربان (البدو) فى مصر بصفة عامة.

طبيعة وادى النطرون الجغرافية والتاريخية:

أما عن وادى النطرون فيجدر بنا أن نلقى فى البداية الضوء عن طبيعته الجغرافية، فهو أحد المنخفضات التى تقع فى الصحراء الغربية من مصر، والتى تضم الواحات: الخارجة والداخلة فى الجنوب ثم الواحات البحرية والفرافرة فى الوسط ثم منخفض وادى النطرون^(٢) والقطارة وواحة سيوة فى الشمال. وتقع هذه المنخفضات فوق مستوى سطح البحر، على خلاف وادى النطرون ومنخفض القطارة حيث يهبط الوادى عن سطح البحر بنحو ثلاثة وعشرين متراً^(٣).

ووادى النطرون هو الاسم الشائع للمنخفض الصحراوى الذى تحده شمالاً بحيرة مريوط وجنوباً الفيوم وشرقاً الدلتا ومن الغرب الصحراء الليبية^(٤). ويتخذ الوادى شكلاً منخفضاً^(٥) فى اتجاه شمالى غربى، جنوبى شرقى^(٦) مواز للهضبة التى تفصله عن وادى النيل وهى فسيحة يتدرج سطحها ببطء، وتوازى النيل على الدوام^(٧) وتقع بحيرات الوادى فى خط مستقيم من أعلى إلى أسفل ويتراوح عددها ما بين ست عشرة بحيرة وعشرين بحيرة منها اثنتا عشرة بحيرة على الأقل كبيرة وواضحة المعالم، وعمقها لا يزيد على المترين، ومجموع

(١) لمزيد من التفصيل سميرة فهمى على عمر: المرجع السابق، ص ٤١ - ٧٥.

(٢) منخفض النطرون: هو منخفض مغلق له بداية ونهاية وليس له منبع أو مصب أو روافد، لمزيد من التفصيل

انظر: جمال حمدان، شخصية مصر، ج ١، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٤١٦.

(٣) محمود على سيف: وادى النطرون دراسة فى الجغرافيا الإقليمية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية

الآداب، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٧.

(٤) Walkes. H: the Anglo - American guide to Alex. Cairo 1935, p. p. 190 - 195. انظر:

شكل رقم (١).

(٥) عمر طوسون: وادى النطرون وربهانه وأديرته ومختصر تاريخ البطارقة، ط ٢، مكتبة مديولى، القاهرة ١٩٩٦م،

ص ٥.

(٦) رفعت الجوهري: أسرار من الصحراء الغربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٤٧م، ص ص

١٦٣ - ١٦٤؛ انظر: شكل رقم (١)، شكل (٢).

(٧) تأليف علماء الحملة الفرنسية: ج ٢، المرجع السابق، ص ٦٣.

مساحاتها ممّا يناهز عشرة كيلو مترات مربعة^(١)، ويحمل بعضها أسماء ألوان مختلفة كالحمرة، والخضرة، والبيضة^(٢) ومياه هذه البحيرات جميعاً تميل إلى الحمرة الخفيفة، وهي ملحية مشبعة بملح النطرون^(٣).

وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون في تحديد مساحة الوادى فقال البعض: إن مساحته تقدر بنحو ٢٠٧ أفدنة، ودل على ذلك بأن الضرائب المحصلة على الأرض المستقلة بلغت قيمتها ٢٠٠ دينار^(٤) وقال آخر إن مساحته ١٢٠ ألف فدان^(٥) بينما يذكر البعض أن مساحته ٣٠٠ كم^٢ أى ١٥٠٠ فدان تقريباً^(٦).

أما مناخ وادى النطرون فيعتبر انتقالياً بين مناخ حوض البحر المتوسط وجو الصحراء^(٧)، وتسقط الأمطار عليه بكميات قليلة خلال فصل الشتاء وتعتبر مورداً مائياً يسهم في رى أراضي الزراعة بالوادى^(٨) إضافة إلى المياه الجوفية التي تختزن في جوف الأرض في منطقة ما ثم تنصرف نتيجة لانحدار طبقات الأرض إلى منطقة أخرى تكون أقل في مستواها عن منطقة التخزين^(٩).

وقد جعل الموقع الجغرافى من وادى النطرون قلعة طبيعية أغرت الغزاة، كما جعلته منطقة صراع عبر التاريخ بسبب موقعه الاستراتيجى على مفرق الطرق التجارية العابرة ما بين الشرق والغرب وما بين شماله وجنوبه^(١٠).

(١) لمزيد من التفصيل انظر: ماجد عزت إسرائيل، وادى النطرون فى القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ٢٠٠٨م، ص ٢.

(٢) محمود على سيف: المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٣) جمال حمدان: المرجع السابق، ص ٤٢٠، انظر: شكل رقم (١) ..

(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٥، مطبعة بولاق، القاهرة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ص ١١٣.

(٥) La Moreaux, Philip. E: Reconnaissance report and recommendations for ground water investigations, WEL Natrun Cairo 1962. p2

(٦) عبد اللطيف واكد: المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٧) Butcher, E. L: The story of the church of Egypt, 2 vols, London, 1897, p. p. 77 – 78.

(٨) محمود على سيف: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٩) المرجع نفسه: ص ١١٥.

(١٠) على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة، ج ٧، ط ٧، بولاق، القاهرة

١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، ص ٤٨ – ٥٦.

ويعتبر الوادى أقرب منخفض لوادى النيل، فمثل حصناً دفاعياً واستراتيجياً لصد هجوم الليبيين على غرب الدلتا^(١)، ومثال ذلك ما قام به ملوك الأسرة الأولى من صد الغزاة وأسر نحو ١٠٠ ألف أسير وعدد كبير من رعاياهم، كذلك أرسل الملك سنوسرت الأول أبيه لعقاب وتأديب الليبيين المغيرين على الحدود الغربية نتيجة انتهاكهم وسلبهم غرب الدلتا لاحتياج قبائلهم البدو والرحل إلى الأراضى الزراعية^(٢).

وقد قام سكان الأراضى الليبية بحملات على الأجزاء الشمالية الغربية من بلاد الدلتا وكبدوا سكانها نهباً وسلباً حتى نجح رمسيس الثالث سنة ١١٧٠ ق.م فى وضع حد لهذه الحملات التخريبية، فاشتبك مع الغزاة فى موقعة حربية وساقهم أمامه فى هزيمة منكرة، حتىلقى بهم خلف حدود مصر الحالية، وقد دُون ذلك على جدران قصره فى مدينة أبو - طيبة^(٣).

وقد اتخذ الوادى أكثر من اسم عبر التاريخ؛ فقد أطلق المصريون القدماء عليه اسم سخت - حمات أو سكة همام وتعنى حقل الملح وذلك لتوفير ملح النطرون فيه^(٤) وأطلق عليه اسم حقل البلح لوفرة أشجار النخيل^(٥) وكذلك اسم (بثت - بت) وتعنى بحيرة السماء وقد ذكر هذا الاسم فى متون الأهرام كمكان لإنتاج البخور^(٦).

وأطلق على الوادى اسم «سكيتس» Scetis وتعنى مكان النسك وقد اشتق من هذا الاسم كلمة تنطق بالعربية باسم إسقيط^(٧) كما عرف باسم برية شيهات أو (شيهيت) ويتكون من مقطعين، الأول ويعنى يزن والثانى ويعنى القلوب ومعناها ميزان القلوب أى المكان الذى

Fakhry, A: Recent Explorations in the Oases of the Western Desert, Cairo 1942, P. (١)
P. 206 - 207.

Ibid., P. 209. (٢)

(٣) صموئيل تاووضروس السريانى: الأديرة المصرية العامرة، المطبعة التجارية الحديثة، ط ١، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٦٩؛ عمر طوسون، المرجع السابق، ص ٦.

(٤) نيفين عبد الجواد: أديرة وادى النطرون، دراسة أثرية وسياحية، مكتبة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٤.

(٥) عبد اللطيف واكد، حسن مرعى: واحات مصر جزر الرحمة وجنات الصحراء، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٤٢٣.

Gouthier, H: Dictionnaire des noms Geographiques contenus dans les textes (٦)
Hieroglyphiques, SRGE, le caire 1980, p. 89.

Fakhry, A: op. cit. p. p. 206 - 204. (٧)

يزين الله فيه قلوب ساكنيه ليعرف مقدار محبة كل واحد منهم له^(١)، وعرف بوادى الملوك نسبة إلى الأميرين مكسيموس ودماديوس ابني الملك فالنتيانوس الذى صار إمبراطورًا لروما سنة ٣٦٤ وعشقا الرهبنة فى وادى النطرون^(٢)، وعرف بوادى هيبب نسبة الى هيبب بن حزام بن عفان الغفارى أحد أصحاب رسول الله (ﷺ) وهو أحد عرب فزارة^(٣)، وأطلق على الوادى اسم وادى النطرون لاستخراج مادة النطرون من بحيراته، وكانت تسمى بالأطرون، ومن ثم فقد سمي الوادى بوادى النطرون^(٤).

كما عرف الوادى باسم الطرانة وهى ولاية تقع على فرع رشيد، كان ينقل إليها النطرون من الوادى، وقد ارتبطت مع الوادى بنشاط تجارى زاهر^(٥). ولعبت قبائل العربان دورًا بارزًا فى وادى النطرون خلال القرن التاسع عشر، وكان لهذا الدور أثره على حياة السكان، فشكلت غاراتهم خطرًا داهمًا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ولخطورتهم لجأ الحكام إلى تخليصهم من حياة البدو والترحال إلى حياة الاستقرار^(٦).

أهم قبائل البدو بوادى النطرون:

ونظرا لأهمية دورهم يجدر بنا أن نشير لأشهرها وأهمها فى الوادى فى ذلك القرن فمنها:
- قبيلة الهنادى: وهى أحد فروع بنى سليم وبنى سلام، وكان مجيئها من طرابلس الغرب فى القرن الثامن عشر، واستقرت فى صحراء مصر الغربية بساحل مريوط، وفى

-
- (١) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٦٣٢، بتاريخ ٤ من ذى القعدة ١٢٩١هـ/ ١٤ ديسمبر ١٨٧٤م؛ متى المسكين، الرهبنة فى عصر القديس ابنا مقار، ط ٢، وادى النطرون ١٩٨٤م، ص ٢٠٩.
 - (٢) إيسوزورس، الأنبا: الخريدة النفسية فى تاريخ الكنيسة، مكتبة المحبة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٢٢٩.
 - (٣) المقرزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرزية) الجزء الأول، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، د. ت، ص ١٨٦.
 - (٤) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ١٢٧٤، بتاريخ ١٥ صفر، ١٠٥٢هـ/ ١٥ مايو ١٦٤٢م؛ ماجد عزت، المرجع السابق، ص ٦.
 - (٥) محكمة جامع الحاكم: سجل ٥٧٣، مادة ١٢٧٥، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١١٢١هـ/ ٢٢ مايو ١٧٠٩، ص ٤٩٠؛ مخطوط دير السريان، رقم ٣٧١، طقوس، سنة ١٤٥٢ ش/ ١٧٣٦، لمزيد من التفصيل انظر: شكل رقم (١).
 - (٦) ديوان خديوى تركى: دفتر ٧٦٤، وثيقة ١٦٦، ٨ محرم ١٢٤٦هـ/ ٢٩ يونيو ١٨٣١م، ص ١١٨؛ انظر: ملحق رقم (١)، ص ٢٧٥.

وادی النطرون بلغ عددها نحو مائة وعشرين نسمة^(١) واستقر جزء منها في الشرقية^(٢) وهم من البدو الرحل الذين لا يعرف أبناؤهم الزراعة أو التجارة، بل يعيشون على الرعي والسلب والنهب وكانت من أقوى قبائل العربان بالوادي^(٣).

– قبيلة أولاد على: وهي من أكبر القبائل العربية الرحالة في مصر، وجاءت من طرابلس الغرب بعد بنى سلام في القرن الثامن عشر^(٤) وانقسمت إلى قسمين، أقام القسم الأكبر منها في البحيرة بمركز أبو المطامير، والدلنجات، وإيتاي البارود، وأبو حمص ووادي النطرون^(٥)، وتقاسمت هناك النفوذ مع قبيلة الهنادي، وهناك قسم آخر من القبيلة سكن في الشرقية، وقد بلغ عددها ١٣٤٤ نسمة وكان منها أربعة وعشرون شيخاً^(٦).

– قبيلة بنى عونة: وهي من قبائل السلالة أو بنى سلامة وقد جاءت إلى مصر من طرابلس الغرب في أواخر القرن الثامن عشر، وبلغ عددها ثلاثمائة فارس^(٧) واتخذت من وادي النطرون مركزاً لها^(٨).

– قبيلة الجوابي: وقد استقرت في البحيرة في إقليم مريوط، ووادي النطرون، وأحياناً كان يطلق على أفرادها الجوابييص^(٩) وكانت تمثل جماعة صغيرة من الرعاة تتجول بحثاً عن المراعى اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء، وتذهب كل عام من الوادي إلى الصعيد حاملة معها النطرون مقابل ثمن محدود، ويذهب من يتجر من أفرادها إلى الواحات لشراء البلح

(١) تعداد نفوس: س ٢٦١، ل/ ٩/ ٧٩/ ٢٦١، ١٢٦٤ هم ١٨٤٧م، ص ص ١ - ٣.

(٢) معية سنوية تركي: دفتر ٢٧، من المعية إلى عمر بك منظم أمور قسم ثالث الشرقية، وثيقة ٣٧٤، ١٣ ربيع ١٢٤٢هـ/ ١٤ نوفمبر ١٨٢٦م، ص ١٢٧.

(٣) محافظ عابدين: محفظة رقم ٥٥٥، مذكرة إيضاحية عن قبيلة أولاد على في البحيرة، ١٩٠٣م؛ ليلي عبد اللطيف: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٣.

(٤) سميرة فهمي على عمر: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٥) محافظ الديوان الخديوي: محفظة ١، دفتر ٥٨٦، وثيقة ٣١٧، ٢ ربيع الأول ١٢٦٣هـ/ ١٨ فبراير ١٨٤٦م.

(٦) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٧) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ص ١٥ - ٢٥؛ ليلي عبد اللطيف: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، سنة ١٩٨٦، ص ٥٣.

(٨) محكمة البحيرة: س ٢٤، م ٦٣٩، ١٥ جمادى الآخرة ١٢١٠هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٧٩٥م، ص ٣٥٨.

(٩) نفسه: س ٩٢، م ١٦٠، ٢٥ من ذى الحجة ١٢٧٠هـ/ ١٩ سبتمبر ١٨٥٤م، ص ٥٣؛ راجع ملحق رقم (١).

الطازج أو المجفف لبيعه بعد ذلك لصغار التجار في القاهرة^(١) وهي قبيلة مسالمة لا تشهر السلاح إلا للدفاع عن النفس، وبلغ عددها نحو ألفي رجل، وتعد من أكثر القبائل حفاظاً على العادات والتقاليد القديمة^(٢).

– **قبيلة الحرابى:** وهي فرع من العقاقرة من قبائل سليم التى وفدت إلى مصر من طرابلس في أواخر القرن الثامن عشر الميلادى^(٣) وانقسمت إلى خمسة فروع هي: العبيدات، والحاسة والدرسة، والفوايد، والبراعصة، واستقرت بالبحيرة في وادى النطرون، والفيوم^(٤).

– **قبيلة السمالو:** وهي بطن من بنى عجلان، تنتسب إلى عرب الحجاز وأحياناً يطلق على أفرادها السمالوس، وهي من القبائل الرحل، يعيش أفرادها في خيام، واستقروا بنواحي بحيرات وادى النطرون، وكانوا يقومون بنقل ملح النطرون مع عرب الجميعات إلى الطرانة^(٥)، واستقر الجزء الأكبر منهم في إقليم الفيوم، وكانوا يعيشون في حرب مع قبائل الضعفا والفرجان^(٦).

– **قبائل الجميعات:** وتتفرع عن قبائل سليم الوافدة من شمال غرب إفريقيا في القرن الثامن عشر الميلادى، واستقر بعضها في البحيرة في وادى النطرون وأقام الفرع الآخر في بنى سويف^(٧).

بدو وادى النطرون والسلطة السياسية:

ونظرًا لتفشي أعمال الإغارة والنهب والسلب من غالب هذه القبائل – وهو ما كان يمثل عبئاً على الحكام، حيث إن من مسوغات كونهم حكاماً أن ينشروا الأمن بين رعاياهم، ومتى بدا منهم قصور فى التصدى لتلك القلائل الاجتماعية استجلب ذلك سخط الرعية –

(١) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) حلمى محروس إسماعيل: دراسات عن الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٤١ - ١٤٣.

(٣) سميرة عمر: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٥) محكمة النجيلة: س ٧٢٤، م ٣١٤، ١٥ جمادى الأولى ١٢٨٤هـ/ ١٤ سبتمبر ١٨٦٧م، ص ٧٤.

(٦) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩.

(٧) محكمة البحيرة: س ٤٩، م ٧٥٢، ٦ رمضان ١٢٨٢هـ/ ٢٣ يناير ١٨٦٦م، ص ١٣٧؛ إيمان محمد عبد المنعم:

المرجع السابق، ص ٦٧، راجع ملحق رقم (١).

فقد كان من دأبهم أن يحدوا من بطش تلك القبائل ويضربوا على أيدي المتطاولين منها بالسلب وإشاعة الذعر والشعور بعدم الأمان^(١).

فمع أوائل القرن التاسع عشر، وصل العربان إلى أقصى درجة من القوة وشدة البأس وساعدهم على ذلك حالة الفوضى التي سادت في الفترة ما بين جلاء الحملة الفرنسية وتولى محمد علي الحكم عام ١٨٠٥م. فكانوا يخربون القرى ويفرضون الإتاوات على سكان الوادي، فضلاً عن اضطراب الأمن نتيجة لقيامهم بأعمال السلب والنهب^(٢).

وقد عانى وادي النطرون كثيراً من غارات العربان خلال حكم محمد علي، فعلى سبيل المثال عانى أهالي كفر داود والطرانة من استيلائهم على أراضيهم وإتلاف مواشيهم لمزروعاتهم^(٣)، كما دأب هؤلاء على سرقة مواشى ومحاصيل قريتي أبو نشابة والأخماس^(٤)، كذلك اشتكى التجار الأوربيون للديوان الخديوى من اعتدائهم على مراكبهم ما بين الطرانة ورشيد^(٥)، كما عانى ملتزمو النطرون من سرقتهم مادة النطرون من بحيراته خاماً، والاعتداء على قوافله والعاملين بها^(٦) كذلك تعرضت على أيديهم أديرة الوادي للسلب والنهب^(٧).

وحتى يتخلص محمد علي من متاعب العربان، انتهج سياسة توطينهم لحماية قرى الوادي من اعتداءاتهم وتحقيق الاستقرار عن طريق منح شيوخ قبائلهم مساحات واسعة من أطيان الأبعادية وإعفائها من الضرائب، ولم يعطهم تقاسيماً تثبت حيازتهم لها، وإنما وعدهم بالألأ يكلفوا بأعمال السخرة أو الخدمة العسكرية^(٨) وعمل على إمدادهم بالبذور

(١) ديوان خديوى تركى: دفتر ٧٦٤، وثيقة ١٦٦، ٨ محرم ١٢٤٦هـ/ ٢٩ يونيو ١٨٣١م، ص ١١٨.

(٢) محكمة البحيرة الشرعية: س ٢٩، م ٢١٨، ٨ جمادى الآخرة ١٢١٨هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٨٠٣م، ص ١٣٠؛ راجع: ملحق رقم (٢)، (٣).

(٣) معية سنوية تركى: دفتر ٧٧، وثيقة ٥٦٥، ١٠ جمادى الأولى ١٢٤٠هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٢٤م، ص ٢٣٥.

(٤) مديرية البحيرة: س ١، صادر البحيرة إلى سايرة، وثيقة ٣٧٢، ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦١هـ/ ٢٧ يونيو ١٨٤٥م، ص ٦١٠.

(٥) ديوان خديوى: محفظة ١، دفتر ٥٨٦، من الديوان إلى يعقوب أغا سر سوارى فى البحيرة، ٢ ربيع الأول ١٢٦٣هـ/ ٢٨ فبراير ١٨٤٧م.

(٦) مديرية البحيرة: س ١، ج ٢، صادر إلى سايرة، وثيقة ١٠١، غرة جمادى الأولى ١٢٦١هـ/ ٧ يونيو ١٨٤٥م، ص ٦٣٨؛ انظر ملحق رقم (٣).

(٧) ديوان شورى المعاونة: محفظة ٢٠، ملخصات دفاتر، دفتر ٢٨٤، وثيقة ١٩٠، ١٧ صفر ١٢٥٧هـ/ ١١ إبريل ١٨٤١م؛ انظر: شكل رقم (٣)، وملحق رقم (٥).

(٨) رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٣.

الجيدة، بالإضافة إلى أدوات الفلاحة^(١)، كما وعدهم بشراء حاصلاتهم نقدًا لتسويقها بمعرفة الحكومة^(٢).

وبالرغم من ذلك فإنهم لم يألوا حياة الاستقرار بسهولة، ولم يغيروا من أنماط حياتهم، وظل الكثيرون منهم يسكنون الخيام، وتركوا الفلاحين يزرعون الأرض لحسابهم مقابل نصف المحصول، فصدر أمر عام ١٨٣٧م بمنع شيوخ العربان من تأجير أطيانهم أو مزارعتها (المشاركة على محصولها) ولجأ الباشا إلى إغرائهم عن طريق منحهم الكساوى وتولى الوظائف الحكومية لتشجيعهم على الاستقرار^(٣).

كما استخدم الباشا أسلوب الشدة بجانب التوطين لردع العربان عن أعمالهم، بإصدار قرار فى غاية ذى الحجة ١٢٥٣هـ/ ٢٧ مارس ١٨٣٨م إلى ناظرهم يأمره بمنع عربان الجميعات من إقامة خيامهم فى مزارع الأهالى، لما فى ذلك من إيذاء لهم^(٤)، كما أمره بإحضار مشايخ عربان الوادى الذين قاموا بنهب الأسواق والقرى إليه لتوبيخهم وعقابهم^(٥) وكان من شأن محمد على عندما كثرت أعمال النهب والسلب للقرى من قبائل العربان فى وادى النطرون وفقا لعاداته بالترغيب والاستمالة والأخذ بالقوة والإرهاب، أن عين للأعراب من يتولى شئونهم وينظر أمورهم^(٦)، وهو الذى أطلق عليه ناظر العربان^(٧)، وكان يصدر بتعيينه أمر عالٍ، واقتصرت الوظيفة على كبار العسكر^(٨).

(١) معية سنوية تركى: دفتر ٤٤، من الجانب العالى إلى أحمد باشا، وثيقة ١٨٣، ٢٧ صفر ١٢٤٨هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٣٢م، ص ١١٨.

(٢) أحمد محمد الدماصى: الاقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر، ج١ (١٨٠٠م - ١٨٤٠م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٩١.

(٣) ديوان خديوى: دفتر ٣، من الباشا إلى أمور الديوان الخديوى، وثيقة ٧٨٩، ١٩ شوال ١٢٤٧هـ/ ٢٢ مارس ١٨٣٢م، ص ١٦٨؛ الوقائع المصرية: عدد ٣٨٤، ٢١ ذى الحجة ١٢٤٧هـ/ ٢٢ مايو ١٨٣٢م، رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٤) ديوان شورى المعاونة: محفظة ١٥، ملخصات دفاتر، دفتر ٢٨٤، وثيقة ١٠٨١، غاية ذى الحجة ١٢٥٣هـ/ ٢٧ مارس ١٨٣٨م.

(٥) معية سنوية تركى: دفتر ٤٤، من الجانب العالى إلى أحمد باشا، وثيقة ١٨٣، ٢٧ صفر ١٢٤٨هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٣٢م.

(٦) مديرية البحيرة س ٩٨٢، وارد من سر سوارى وناظر العربان، وثيقة ٣٨، ٧ شوال ١٢٦٠هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٨٤٤م، ص ١٦١، انظر: ملحق رقم (٢).

(٧) حامد على دسوقى: النظام الإدارى فى عهد إسماعيل، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٥٥م، ص ٢٢٠، إيمان عامر، المرجع السابق، ١٨٥.

(٨) مديرية البحيرة: س ٢٥٠، صادر الفروع إلى جهات سايرة، وثيقة ٧، ٧٢٩ محرم ١٢٦٦هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٨٤٩م، ص ١٦١.

وكان من اختصاصاته بالوادي، معرفة قبائل العربان وعددهم وأطيانهم، وكيفية استخدامهم في تأدية خدمات الدولة من ردم البرك وتمهيد الطرق والمسالك التي تعرقل مرور العسكر بالوادي لتأدية المهام المكلفين بها^(١)، بالإضافة إلى تربية الخيول وتوفير الغلال والعليق اللازم تقديمه للجهادية^(٢). ونقل النطرون من الوادي إلى الطرانة لتسويقه، ويرجع ذلك لخبرتهم بالمنطقة، وإن اقتصر ذلك على عربان الجوابيص بالوادي^(٣).

وكانت الأوامر تصدر إلى مشايخ العربان بضرورة التعاون مع ناظرهم لتأدية مهامه، مثلما كان من تعاون شيخ عربان أولاد علي والجوابيص مع خليل أغا في ضبط أصحاب الشبهات^(٤) والمعتمدين على المارة بالطرق لإعادة السكنية والهدوء بالوادي^(٥).

وكان من شأن الناظر أحيانا أن يستعين بقوات عسكرية لقهز العربان وإجبارهم على تنفيذ ما يطلب منهم بالقوة عند عصيانهم إياه، ومن ذلك عندما تراجع عربان الوادي عن توفير الخيول والبرسيم والعليق والغلال للجهادية^(٦). وعن نقل الملح والنطرون إلى الطرانة إلا بعد أخذ أجورهم، فكان أن استعان بقوات عسكرية لردعهم^(٧).

وعندما دأب أولاد علي بالوادي على التوجه إلى رشيد لسرقة البلح والاعتداء على الأهالي صدر أمر إلى محافظ رشيد في أكتوبر ١٨٣٤م بضبط اثنين منهم، ليصلب أحدهما ويرسل الآخر إلى السجن ليكونا عبرة لغيرهما، مع التنبيه على مشايخهم بعدم السماح لرجالهم بالذهاب إلى رشيد إلا للضرورة القصوى^(٨).

وعلى أية حال، كان على ناظر العربان التحقيق مع مشايخ العربان في حالة تعديهم بالسلب والنهب لقبائل التجار والمراكب النيلية لضبطهم وعقابهم، بين الطرانة

(١) نفسه: س ٩٨٢، وارد من سر سوارى وناظر عربان، وثيقة ٧. ٣٨ شوال ١٢٦٠هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٨٤٤م، ص ١٦١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه: س ١٠٣٤، وارد من مصلحة الأطرون، وثيقة ١٣، ٦٨٥ جمادى الآخرة ١٢٨٥هـ/ ٣٠ أغسطس ١٨٦٨م،

ص ١٤٧.

(٤) نفسه: س ٢٨٨، صادر الفروع إلى سو سوارى خليل أغا، وثيقة ٢٦٥، ١٢٦٨هـ/ ١٣ يوليو ١٨٥١م، ص ١٣٥.

(٥) نفسه: س ٣٢٥، وثيقة ٢، ٢٠٣ ربيع أول ١٢٧٠هـ/ ٣ ديسمبر ١٨٥٣م، ص ٨٣.

(٦) نفسه: س ٩٨٠، وارد سر سوارى عساكر أغا، وثيقة ١٠، ١٦ صفر ١٢٧٤هـ/ ٦ أكتوبر ١٨٥٧م، ص ١٣.

(٧) نفسه: س ١٠٣٤، وارد مصلحة الأطرون، وثيقة ١٣، ٦٨ جمادى الآخرة ١٢٨٥هـ/ ٣٠ أغسطس ١٨٦٨م،

ص ١٤٧، راجع ملحق رقم (٤).

(٨) إيمان محمد عامر: المرجع السابق، ص ٨٠.

والمحمودية^(١)، فيحاولون إلى مفتشى عموم الوجه البحرى، لرد ما استولوا عليه، ودفع غرامة مالية كبيرة^(٢).

كما كان على ناظر العربان الدفاع عن حقوق القبائل أمام الجهات المختصة، ومن ذلك ناظرهم وكيل مصلحة الأطرون بسداد أجره جمال قبيلة الجوابيص التى نقلت النظرون من الوادى للطرانة^(٣).

ومع بداية حكم عباس (١٨٤٨م - ١٨٥٤م) سرعان ما عاد العربان لسيرتهم الأولى من الارتكان إلى السلب والنهب بالوادى، ومثال ذلك عندما دأبت مجموعة من عربان الفوايد بالتعدى على الأحماس، وسلب مواشيهم ونهب محصولهم الزراعى^(٤)، كما قام عربان الجمعيات والهنادى بقطع الطرق الفرعية بين قرى الوادى وفرض إتاوات على سكانها^(٥) فأصدر عباس الأول أمرا (١٨٥٠م) هددهم فيه بنزع أطيانهم منهم إذا لم يكفوا عن أعمالهم وأن يتولوا فلاحتها بأنفسهم^(٦).

وعندما تولى محمد سعيد باشا الحكم (١٨٥٤م - ١٨٦٣م) قرّب الفلاحين إليه وكره العربان، بل قام بتأديبهم بحرمانهم من كل ما منحه لغيرهم، وأراد إدخالهم فى الخدمة العسكرية^(٧) فكان نتيجة ذلك أن قام عربان وادى النظرون بمشاركة أقرانهم فى الفيوم بثورة، أعلنوا فيها سخطهم بأسلوبهم البدائى باعتدائهم على الفلاحين بالسلب والنهب، كما تعرضت قريتا البريجات والأحماس منهم^(٨) لذلك، فما كان من سعيد إلا أن أصدر

(١) مديرية البحيرة: س ٤٢٩، صادر الفروع لسر سوارى، وثيقة ٢٨، ٢٨٠ صفر ١٢٢٨٣هـ/ ١٢ يوليو ١٨٦٦م، ص ١٤٧.

(٢) نفسه: وثيقة ١٧، ٨٦ جمادى الآخرة ١٢٨٣هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٨٦٦م، ص ٩٥.

(٣) نفسه: س ٢٠٥، صادر الدواوين للمالية، وثيقة ١٦٧، ٥ صفر ١٢٩١هـ/ ٢٤ مارس ١٨٧٤م، ص ١١٣.

(٤) محافظ مديرية البحيرة: محفظة ١، وثيقة ٩، بتاريخى غرة جمادى الأولى ١٢٦٨هـ/ ٢٢ فبراير ١٨٥٢م، انظر:

ملحق رقم (٢).

(٥) معية سنوية عربى: س ٤٤، من المعية إلى مديرية الضبطية، مضبطة رقم ٦٧٤، ٢٥ رجب ١٢٦٦هـ/ ٦ يونيو

١٨٥٠م، ص ٦٧٤.

(٦) رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٧) ديوان الجهادية: س ٤٥١، وثيقة رقم ٢٣، ٢٥ شوال ١٢٧٦هـ/ ١٦ مايو ١٨٦٠م، ص ٣٧.

(٨) محافظ الأبحاث: محفظة ١١٨، معية سنوية تركى: دفتر ١٦٤٣، ج ١، صادر المعية إلى مديرية البحيرة ٢ صفر

١٢٧٥هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٥٨م؛ مديرية البحيرة، س ١١٣، صادر دواوين للروضة، وثيقة ٢٤٤، ١٦ شوال ١٢٧٤هـ/ ٣١

مايو ١٨٥٨م، ص ١٤٢.

أوامره بإبادتهم فى تلك المنطقة، وقضى على ثورتهم، بعد أن حاصرهم وقتل الكثير منهم، وسجن رؤساءهم فى ليمان القلعة السعدية^(١).

وكثيراً ما كان البدو يثيرون الاضطرابات، وقد شهد عصر إسماعيل بعضها فى وادى النطرون، فعلى سبيل المثال قامت قبيلتا السمالو والحرابى، بسلب ونهب فلاحى قريتى الخطاطبة والطرانة والاعتداء عليهم^(٢)، فما كان من الحكومة إلا أن قامت بإرسال أشقيائهم إلى ليمان القلعة السعدية، ورؤسائهم إلى نواح متفرقة بصعيد مصر^(٣).

ولجأت الحكومة للحد من هذه الاضطرابات إلى توطين البدو، فأصدرت فى ١١ نوفمبر ١٨٦٣م أمراً إلى تفتيش عموم الأقاليم يقضى بعدم جواز تصرف البدو فى الأطيان المعطاة لهم بالبيع أو الهبة أو الاستبدال أو الرهن، أو غير ذلك من دروب التصرف، وألا تنتزع الأطيان من أيديهم ما داموا يسددون ما عليها من أموال، بشرط أن يتركوا سكنى الخيام، وتتول هذه الأطيان إلى الدولة إذا لم يكن هناك من يستحق أن يأخذها^(٤). كما لجأت الحكومة إلى استخدام القوة العسكرية من أجل توطين العربان، عن طريق ردعهم عسكرياً للتخلص من أعمال السلب والنهب والسرقه والقتل، وأن يسكنوا المنازل ويتركوا الخيام ومن يفعل غير ذلك يعرض نفسه للعقاب^(٥).

ولعبت بعض قبائل العربان دوراً سلبياً فى الثورة العرابية عام ١٨٨١م، وكان من أولئك عرب الهنادى فى البحيرة بوادى النطرون بقيادة شيخهم محمود سلطان، الذى وضع نفسه فى خدمة معارضى الثورة، وأصبح الواسطة بين عربان الوادى والخديوى توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢م) الذى مضى فى التقرب إليهم، حيث وعد أقرانه بالرتب والأوسمة على أن يبذلوا الطاعة للخديوى والإنجليز، وينبذوا طاعة الثوار، وسار على طريقة معينة اتصف بها، وهى

(١) لطيفة سالم: القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م، ص ١٤٧.

(٢) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٦، دفتر ١٩١٤ أوامر، أمر كريم إلى مديرية البحيرة، رقم ٧، ١٥ شعبان ١٢٨١هـ/

١٣ يناير ١٨٦٥م، ص ٢٠.

(٣) معية سنية تركى: دفتر رقم ١٩٢٣، صادر أوامر، أمر كريم إلى تفتيش عموم الأقاليم، رقم ٤٩، ٦ من ذى الحجة

١٢٨٣هـ/ ١١ إبريل ١٨٦٧م، ص ٧٠.

(٤) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ١٩٠٧ أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، رقم ٣٢، ٢٨ جمادى الأولى

١٢٨٠هـ/ ١١ نوفمبر ١٨٦٣م، ص ٥٠؛ رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٥ - ٩٦.

(٥) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ١٩٠٧، أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، رقم ٣٢، ٢٨ جمادى أول

١٢٨٠هـ/ ١١ نوفمبر ١٨٦٣م، ص ٥٠.

إحياء العداء والغيرة بينهم وبين الفلاحين^(١)، كذلك قبيلة أولاد علي بالوادي أمكن للخديوى شراء قائدها ودعمه بثلاثة آلاف فارس فى مقابل حصولها على عشرين ألف جنيه^(٢). وواصلت سلطات الاحتلال البريطانى لمصر خلال الفترة ما بين (١٨٨٢ - ١٩١٤م) سياسة استخدام القوة العسكرية لردع اعتداءات العربان على قرى وادى النطرون حتى لا يعرقلوا مصالحها الاقتصادية مثل تجارة النطرون، وشركة الملح والصودا، ومشروعات الرى واستصلاح الأراضى، أو سير مراكبها بالنيل ما بين القاهرة والإسكندرية أو رشيد^(٣) للحفاظ على الأمن بتوطينهم من خلال تشديد العقوبات التى توقع على ساكنى الخيام وقطاع الطرق والعصابات المسلحة من العربان وتأديب شيوخهم، مثلما مارست ذلك على قبيلتى أولاد علي والحرابى^(٤).

وبالرغم من الدور السلبى للعربان، فقد كان لهم أيضاً دور إيجابى فى وادى النطرون خلال القرن التاسع عشر، فمنذ بداية حكم محمد علي وقيامه بتوطينهم، احترفت بعض القبائل ومنها بنو عونى وأولاد علي والجميعات حرفة الزراعة، وساهمت فى إنتاج المنتجات الزراعية، بالإضافة إلى منتجات الرعى^(٥).

كما استعان الباشا بمشاىخ عربان الوادى من أجل توفير وشراء الخيول والجمال اللازمة لإعداد الجيش لحروبه، مثلما قام باستدعاء الشيخين حمد المقرحى وعمر هندواى لشراء صفقة خيول من عربان وادى النطرون، وجمال من المغرب^(٦) وعندما أراد تحسين سلالة الأبقار فى مصر، استعان بهم لشراء أبقار من السودان^(٧) كذلك استخدم بعضهم فى الرعاية البيطرية للثروة الحيوانية لخبرتهم بها^(٨).

(١) لطيفة سالم: المرجع السابق، ص ص، ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) محافظ عابدين: محفظة رقم ٥٥٥، مذكرة إيضاحية عن قبيلة أولاد علي فى البحيرة، منذ مجيئها حتى سنة ١٩٠٣م.

(٣) شركات وجمعيات: مجلس الوزراء: محفظة ١٧٠، ١/ أ، ١٩ إبريل ١٨٩٩م.

(٤) محافظ مجلس الوزراء: مجلس النظار، محفظة ٥/ ب، ٢٠ شعبان ١٣٠٧هـ/ ١٠ إبريل ١٨٩٠م.

(٥) مديرية البحيرة: س ٨٣٥، وارد إلى سايرة، وثيقة ٣١٨، ٢٨ شوال ١٢٦٤هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨٤٨م، ص ١٢٤.

(٦) معية سننية عربى: دفتر ٨، أوامر، أمر كريم إلى شيخ عربان الجميعات، وثيقة ٤٣، ٢٨ صفر ١٢٥٢هـ/ ١٥ يونيو ١٨٣٦م، ص ٣٥.

(٧) نفسه: دفتر ٣٣، من الجنب العالى إلى مأمور نصف البحيرة، وثيقة ١١٨، ١٠ ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ أول أكتوبر ١٨٢٧م، ص ٩٤.

(٨) نفسه: محفظة ١٨، ملخصات دفاتر، وثيقة ٣٩، ١٢ ربيع الآخر ١٢٥٢هـ/ ١٦ يوليو ١٨٣٧م.

كما ساهم عربان وادى النطرون بتقديم جمالهم للمحمل الشريف ومنهم عربان الهنادى ، بالإضافة إلى نقل الغلال والمؤن والبريد والمرتبات إلى الحجاز^(١) كما استخدمت خيولهم وجمالهم لمرافقة رجال الدولة أو ضيوفهم من الأجانب فى ترحالهم وسفرهم داخل الوادى^(٢) . كذلك اعتمدت عمليات اقتلاع النطرون من مغارته وحراسته ونقله وتجارته على نحو ما رأينا - على عربان الجميعات والحرابى والسمالو^(٣) .

وساهم عربان وادى النطرون فى نظارة بعض النواحي ، فعلى سبيل المثال صدر إشعار برفع محمد المقرحى شيخ عربان أولاد على من نظارة سيوة وإسنادها إلى شيخ عرب الجميعات هنداوى أبو الذهب مع إلزام عربان سيوة بدفع ما عليهم سنويًا له (١٢ ألف قرش)^(٤) .

وقد استعان عباس الأول (١٨٤٨م - ١٨٥٤م) بعربان وادى النطرون من أجل إعادة الأمن إليه ، كما حدث عندما لقى كل من خير الله محمد ومحمد أبو قلادة من عربان الجميعات مصرعهما على يد حمد خطاب ، وهروبه من سجن دمنهور^(٥) وإلزام مشايخ عربان أولاد على بالبحث عنه وتقديمه للعدالة^(٦) ، كذلك أسند إليهم الإبلاغ عن الأشقياء من أقرانهم والمتسحبين من قراهم^(٧) .

واعتمد محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) على بعض قبائل عربان وادى النطرون للقضاء على ثورتهم فى الفيوم ، فاستعان بشيخ عربان السماو عوض كرمة وأخيه خليفة للتجسس على أقرانهم الثوار وضبطهم والقضاء على ثورتهم ، وكافأهم مقابل ذلك بمبلغ

(١) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق، ص ١٨٩ - ١٩١ .

(٢) ديوان شورى المعاونة: دفتر ١٥٨ ، أمر إلى مدير نصف البحيرة، وثيقة ١٠٨١ ، ذو الحجة ١٢٥٣هـ/ ١٦ إبريل ١٨٣٨م، ص ٢١٢ .

(٣) مديرية البحيرة: س ٢٣٥ ، صادر الفروع إلى سايرة، وثيقة ٢٠٠٨ ، ٤ شعبان ١٢٦٢هـ/ ٢٨ يوليو ١٨٤٦م، ص ٣٧٨؛ راجع ملحق رقم (٣) .

(٤) معية سنوية عربى: دفتر بدون رقم، أمر من خليل أفندى إلى بعض مشايخ سيوة، وثيقة ٢٢٨ ، ١٨ أكتوبر ١٨٣٤م، ص ١٢٦ .

(٥) مديرية البحيرة: س ٣٠٢ ، وثيقة ١٧٥ ، صادر الفروع إلى سر سوارى خليل أغا، بتاريخ ١١ ربيع الثانى ١٢٦٩هـ/ ٢٢ يناير ١٨٥٣م، ص ٧٤٤ .

(٦) نفسه: مادة ١٨٦ ، ١٨ ربيع الآخر ١٢٦٩هـ/ ٢٩ يناير ١٨٥٣م، ص ٧٧٦ .

(٧) معية سنوية عربى: دفتر ٦٦ ، من المعية السنوية إلى مديرية البحيرة، ٥ من ذى القعدة ١٢٦٧هـ/ الأول من أكتوبر

١٨٥٠م، ص ٢١ .

٥٠٠٠ قرش^(١)، كذلك كلف شيخ عربان الجميعات عمر الهنداوى بالتوجه بقبيلته بعد إمداده بـ ٢٥٠٠ آفة بقسماط إلى صعيد مصر لقضاء مأموريته فى ردى قباثل العربان^(٢)، كما استعان سعيد باشا بعربان وادى النطرون للعمل فى الجيش، وكان عملهم أساساً فى فرق الفرسان، وكلفوا بأن يحضروا خيولهم معهم^(٣). وبالرغم من اعتراض العربان على التجنيد، فقد حفلت الوثائق بالأوامر إلى مشايخهم بدعوة أبنائهم إلى الجهادية، ومن ذلك صدور أمر إلى مشايخ عربان أولاد على والجميعات والحراىى بتقديم مائتين منهم للتجنيد^(٤).

وكذلك اعتمد الخديوى إسماعيل (١٨٦٣م - ١٨٧٩م) على عربان وادى النطرون فى تأدية بعض المأموريات الأمنية خارج حدود مصر، كما نرى من تكليف شيخ عربان الجوابيىص رحيم تعلق وآخرين بالتوجه إلى طرابلس الغرب (ليبيا) لإحضار بعض المتهمين ومنهم شيخ عربان محايد نعومة الذى شق عصا الطاعة فى عهد سعيد باشا ونفى إلى الآستانة (عاصمة الدولة العثمانية) ولكنه هرب إلى طرابلس^(٥)، كذلك إحضار الأفراد المتهمين بقتل من يدعى الصابر أبو مسعود من جماعة الجوابيىص، لملاقاة جزائهم والحفاظ على أمن البلاد^(٦).

وكذلك أسند الخديو إسماعيل إلى بعض قباثل عربان وادى النطرون؛ مهمة تأمين منطقة قناة السويس فى أثناء حفلة افتتاحها للملاحة الدولية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م، بالإضافة إلى مشاركة بعض مشايخ عربان الوادى فى تقديم عرض للخيلة بمصاحبة الاحتفال^(٧).

-
- (١) ديوان خديوى: محفظة رقم ٨، من محمد فاضل لواء الطوبجية السعيدية إلى الخازن الخديوى، وثيقة ٤٨٠، ١٦ محرم ١٢٧٢هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨٥٥م.
- (٢) معية سنوية عربى: دفتر ١٨٢، ج ١، أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، وثيقة ١٣٨، ٢٢ شوال ١٢٧١هـ/ ٧ يوليو ١٨٥٥م، ص ٤٩٢.
- (٣) مديرية البحيرة: س ١٢٣، صادر دواوين للجهادية، وثيقة ١١٥، ١٩ جمادى الأولى ١٢٧٧هـ/ ٤ ديسمبر ١٨٦٠م، ص ٩٢.
- (٤) ديوان معية سنوية عربى: س ١/ ٩/ ٣، وثيقة ١٨، ١٣ ربيع الأول ١٢٧٧هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٨٦٠م، ص ٤٧.
- (٥) نفسه: محفظة ٧، دفتر ١٣٢، من محمد فاضل إلى خازن الخديوية، وثيقة ٢٦٩، غرة ذى القعدة ١٢٨١هـ/ ٢٨ مارس ١٨٦٤م.
- (٦) مديرية البحيرة: س ٤٢١، صادر فروع لسرسوارى، وثيقة ٦١، ١٣ محرم ١٢٨٣هـ/ ٢٨ مايو ١٨٦٦م، ص ١٩١م.
- (٧) نفسه: س ١٠٤٠، ج ٥، وارد الفروع إلى سرسوارى، وثيقة ٣٠٦، ١٥ شعبان ١٢٨٦هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٨٦٩م، ص ٥٤.

بالرغم من أن أصابع الاتهام تشير إلى أن العربان كان لهم دور أساسي في هزيمة العربيين بخيانتهم لهم؛ مما أدى إلى سقوط البلاد تحت سيطرة الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م، فلم يكن كل العربان على شاكلة واحدة؛ فهناك عدة إشارات بالوثائق تؤكد مساندة قبيلتي الجميعات والحرايبي للثوار^(١)، كذلك شارك الباسل شيخ قبيلة الرماح المنتشرة فيما بين وادي النطرون والفيوم في إمداد الثوار بالمؤن، وشارك ابنه محمود الباسل مع الثوار وقبض عليه، وصدر حكم بإعدامه رمياً بالرصاص، ولكنه استطاع الهرب، فقبض الإنجليز على أخيه رحيم وأعدم بدلاً منه بناء على حكم صدر من المحاكم الإنجليزية^(٢). كما شهدت الفترة ما بين (١٨٨٢م - ١٩١٤م) اعتداءات العربان المستمرة على جنود ومراكب الإنجليز، وشاركهم الفلاحون في هذه الاعتداءات منددين بسياستهم، ومطالبين بالجلاء عن البلاد^(٣).

اعتداءات العربان على أديرة وادي النطرون:

تعتبر مشكلة اعتداءات العربان على أديرة وادي النطرون من المشكلات القديمة التي يعود تاريخها إلى أوائل القرن الخامس الميلادي، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الصحراوية القاسية، وحيياة البداوة وعدم الاستقرار والترحال والتجول للبحث عن قوت يومهم؛ لأنه لم يكن لديهم مصدر ثابت للعيش، مما جعلهم في حالة حرب مستمرة لقيامهم بأعمال السلب والنهب والتخريب؛ ومنذ ذلك القرن وحتى أواخر القرن التاسع عشر^(٤) لم يكفوا عن غاراتهم المفاجئة لأديرة الوادي ورهبانه، فأنزلوا بهم الكثير من الظلم نتيجة للعنف الذي كانوا يستعملونه معهم حتى إن بعض الرهبان كانوا يفرون إلى المغارات والشقوق عند اقترابهم تاركين وراءهم كل شيء، مما ترتب عليه خراب كثير من الأديرة التي كانت منتشرة بالوادي^(٥).

(١) مديرية البحيرة: س ٢٣٠، صادر دواوين إلى سايرة، وثيقة ١٩٦، ١٠ من ذى الحجة ١٢٩٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٨٨٢م، ص ١٧٣.

(٢) وطني: عدد ٢٣٧٠، ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٧ مايو ٢٠٠٧م، ص ١٤.

(٣) محافظ الأبحاث: محفظة ١٢٥، أوراق ومستندات تتعلق بالثورة العربية والاحتلال البريطاني، دوسيه ٣، وثيقة بدون رقم، ٢٨ أغسطس ١٨٨٢م.

(٤) انظر: ملحق رقم (١)، (٢)، (٣)؛ حلمي محروس: المرجع السابق، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٥) إيفلين هويست: تاريخ الرهبة القبطية في الصحراء الغربية مع دراسة للمعالم الأثرية المعمارية لأديرة وادي النطرون منذ القرن الرابع الميلادي إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ط ١، ج ٢، ترجمة بولا البراموسى، دير البراموس - وادي النطرون ١٩٩٧م، ص ٣٤ - ٤١.

وقد تعرضت أديرة وادي النطرون لسلسلة من الغارات، كان أشدها ما بين عامي (٤٠٧هـ / ١٠٦٩م)^(١) وكان يصاحب هذه الاعتداءات عمليات سلب ونهب وقتل وأسر للرهبان لمدة تطول أو تقصر، ولكن عقب كل غارة كان الرهبان يعودون فيجتمعون في البرية من جديد، ليعيدوا بناء ما قد تخرّب، وجمع شتات تلاميذ الرهبنة^(٢). ونتيجة لاعتداءات العربان تناقصت أعداد أديرة وادي النطرون، فبعد أن كانت نحو خمسين ديرًا منذ القرن الخامس الميلادي أصبحت نحو عشرة أديرة فقط عند مجيء الفرنسيين إلى مصر سنة ١٧٩٨م واندرثت منها ستة أديرة، ولم يبق سوى أربعة عامرة - على نحو ما رأينا - خلال فترة الدراسة^(٣).

على أية حال، لم تسلم هذه الأديرة من أيدي العربان المغيّرين، ومن ذلك تعرّض دير البراموس في أوائل القرن التاسع عشر لهجماتهم، فأعملوا السلب والنهب والقتل بين نساكه وحل الخراب كالمعتاد فهرب أغلب الرهبان وتشتتوا في جميع أنحاء البرية، ولم يتبق إلا راهب واحد يدعى عوض الإبراهيمي^(٤) وبعد فترة ليست بقصيرة عاود العربان الاعتداء على نفس الدير مرة ثانية ولكن باءت محاولتهم بالفشل؛ لأن الدير كان محصنًا جيدًا من قبل الراهب الكفيف^(٥).

وكان هجوم العربان على أديرة وادي النطرون لا ينقطع، خاصةً إذا ما ترامى إلى علمهم انتعاش الأديرة وازدهارها فكانوا يعيدون الكرة والانقضاض على الأديرة ورهبانها وسلب ونهب ما بها، مثلما تعرّض دير الأنبا بيشوى لهجوم من جانب مجموعة من العربان انتهى باستيلائهم على ما يمتلكه الدير من أدوات ومؤن غذائية^(٦).

(١) للمزيد من التفصيل انظر: سمير جرجس، هجمات البربر على وادي النطرون ونتائجها، مطبعة كامل، البحيرة، سنة ٢٠٠٣م المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢) بولا البراموسى: دير السيدة العذراء براموس، رسالة ماجستير، غير منشورة، معهد الدراسات القبطية، القاهرة ١٩٩١م، ص ص ١٤١ - ١٤٣.

(٣) داود مرقس حناوى، القمص: مخطوط، تاريخ البطارقة، ج٢، ١٦٥٣ش/١٩٣٦م، ص ص ٥٧٢ - ٥٧٣؛ انظر: شكل رقم (٣).

(٤) تعداد نفوس: س رقم ١٧٩، ل/ ٩/ ٧٩/ ٥٤ تعداد ناحية كفر داود بقسم النجيلة، لسنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م، ص ٣١.

(٥) بولا البراموسى: دير السيدة العذراء، المرجع السابق، ص ص ١٤٢ - ١٤٤.

(٦) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٢١١٣، ٨ صفر ١٢٢٥هـ/ ١٥ مارس ١٨١٠م.

وكذلك تعرض دير الأنبا مقار لاعتداءات من عربان الواحات والفيوم، فنهبوا ما فيه من متاع وزاد وجردوا من فيه مما عليهم بالقوة^(١).

وزادت اعتداءات العربان على أديرة الوادى فى موسم اقتلاع النطرون، حيث كانوا يجتمعون ويسكنون حول بحيرات النطرون، وتعددت قبائلهم، فكان منهم الجميعات والجوابيص والحرابى وغيرهم، فأتاحت لهم الفرصة الإقامة إلى جوار الرهبان، مما أدى إلى اعتداءاتهم على أديرتهم من أجل أعمال السلب والنهب^(٢).

ولجأ بعض العربان خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى الاعتداء على القوافل والمترددین على الأديرة والعاملين عليها، ومن ذلك اعتداء بعض العربان على قافلة متجهة إلى دير السريان قادمة من عزبة الدير بأتريس بالجيزة وسلبهم ما بها من بلاطه لفرن الدير ومؤن غذائية للرهبان^(٣)، كما اعتدى آخرون من العربان على مجموعة من المترددین على الأديرة وجردهم من أموالهم وملابسهم^(٤) على صراف عزبة دير السريان ونهبوا ما معه من أموال^(٥). وخلاصة القول إنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قلت الاعتداءات على أديرة وادى النطرون، وما حدث منها فهى حالات تكاد تكون فردية، فربما يرجع ذلك إلى سياسة محمد على التى اتبعها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر نحو نشر الأمن وتوطين البدو بالبلاد مما حدَّ من هذه الاعتداءات، وقد استمرت هذه الحال حتى نهاية القرن التاسع عشر^(٦).

أما فيما يتعلق بموقف رهبان أديرة وادى النطرون من اعتداءات العربان، فقد عملوا على تحصين الدير أمامهم، بتعليته وترميم أسواره، ومراقبتها من غرفة الرقوبة (غرفة المراقبة)^(٧)، أو ضرب الناقوس ضرباً مختلفاً كإشارات دالة على أن هناك خطراً من غارات

(١) معية سننية عربى: دفتر ١٦٠٩، أوامر، أمر رقم ٩٥، ٤ ربيع ١٢٤٨هـ/ ١ أغسطس ١٨٣٢م، ص ١٣.

(٢) محكمة البحيرة الشرعية: س ٢٧، م ٦٢٥، ١ جمادى الآخرة ١٢١٦هـ/ ١١ أغسطس ١٨٠١، ص ٣١٤؛ ديوان

معية سننية عربى، دفتر ١٤، أوامر، أمر رقم ٣٨، ٩ جمادى الأولى ١٢٦١هـ/ ١٦ مايو ١٨٤٥، ص ٦.

(٣) وثائق دير السريان: ملف القوافل، وثيقة رقم ٩٣٥، ١٧ أمشير ١٥٩٨ش/ ١٨٨٢م.

(٤) نفسه: وثيقة ٤٦٩، ٢٢ بؤنة ١٦١١ش/ ١٨٩٥م.

(٥) نفسه: وثيقة ٩٧٠، أول مارس ١٨٩٤م.

(٦) معية سننية تركى: محفظة ٢٢، ملخصات دفاتر، دفتر ٥٩٢، وثيقة ٣٣٧، ٢١ شعبان ١٢٦٤هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٤٨م.

(٧) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٧؛ إيفيلين هوايت، المرجع السابق، ج ٣، ص

للعربان أو قطاع الطرق واللصوص الفرادى وعابرى السبيل، فكان الناقوس لغة مفهومة من طرف واحد وهو الرهبان^(١).

كما لجأ رهبان وادى النطرون إلى العربان أنفسهم لحراستهم فى مقابل تقديم واجب الضيافة؛ لأن العربان كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان ليلاً، ويمرون بالأديرة فى أثناء جولاتهم ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ولكى يستريحوا ويريحوا خيولهم، وكانوا يقدمون إليهم واجب الضيافة من وراء الجدران، فلا يفتحون الأبواب ليلاً، وقد اضطروا إلى ذلك حتى لا يتعرضوا لاعتداءاتهم خارج الأديرة نهباً أو سلباً أو قتلاً^(٢).

ومع هذا فقد اعتمد رهبان أديرة وادى النطرون على بعض العربان فى تأدية بعض الخدمات التى قد تعرضهم للاعتداء بالسلب أو النهب، وكان من ذلك لجوء رهبان دير الأنبا بيشوى إلى على صالح والحوفى الحجاوى لرعى مواشى الدير بالوادى^(٣)، كذلك اعتمد دير السريان على منصور عامر^(٤) وعامر شريعة فى صحبة قوافل المؤن ما بين عزبة الدير باتريس والدير الذى بالوادى^(٥).

ومما تجدر الإشارة إليه أن تلك الاعتداءات كان يتخللها بعض العلاقات الحميمة بين الرهبان والعربان، فعلى سبيل المثال حدث صراع بين اثنين من العلمانيين ممن هم تحت الاختبار للرهبنة بديرى السريانى والأنبا بيشوى، وصل خبره إلى حاكم الطرانة، فتدخل أحد العربان لديه ووعدته بإنهاء النزاع والصلح فيما بينهما فحكم على كليهما بغرامة خمسة قروش تدفع لدى الحاكم ووافق الطرفان على حكم الأعرابى^(٦)، وعندما وشى أحد الرهبان للبابا كيرلس الخامس باستيلاء القمص يوحنا على أموال الدير، قام عربان وادى النطرون بكتابة شهادة موقعة من مجموعة منهم تشهد بحسن سير وسلوك والتزام هذا؛ لإزالة شك البطريرك^(٧).

(١) سمير جرجس: المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) مديرية البحيرة: س ١٠٣٢، وارد الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ٨٨٨، ٧ من ذى القعدة ١٢٨٤هـ/، ص ١٥٥.

(٤) وثائق دير السريان: وثيقة ٩٣٥، ١٧ أمشير ١٥٩٨/١٨٨٢م.

(٥) نفسه: وثيقة ١٣٠٥، ١٦٠١ش/١٨٨٥م.

(٦) دير السريان: مخطوط ٢٤٩، ميامر، ١٥٨١ش/١٨٦٥م؛ انظر: ملحق رقم (٥).

(٧) نفسه: وثيقة رقم ٦٠٩، ٧ يناير ١٨٩٣م.

كما اعتمدت أديرة وادى النطرون على العربان فى عملية النقل مثل نقل بعض مواد البناء والمؤن من عزب الأديرة بأتربيس بالجيزة وكفر الدوار بالبحيرة^(١)، ونقل الرهبان والزائرين بواسطة الإبل ودواب الحمل من الأديرة إلى الطرانة لوجود مرسى للنيل بها حتى يتسنى لهم الانتقال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو رشيد^(٢)، كذلك إمدادهم بالعمالة فى بعض الأشغال المؤقتة بالدير أو الدائمة بعزب الأديرة، وكل ذلك كان لا يمكن أن يتم إلا فى جو تسوده العلاقات الحميمة بين الرهبان والعربان^(٣).

خاتمة:

ونخلص مما سبق إلى أن بدو وادى النطرون ينتمون إلى أصول وقبائل هاجرت من شبه جزيرة العرب، وخاصة بعد الفتح العربى الإسلامى، وقبائل هاجرت من شمال غرب إفريقيا، وأن بعض هذه القبائل اندمجت فى المجتمع المصرى، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه فى الوقت الحالى، وإن ظلت بعضها على بدويتها وعاداتها وتقاليدها بالرغم من مستحدثات العصر. وهناك العديد من المصطلحات التى أطلقت على البدو، منها الأباله والشاوية، وأصحاب التيات، العربان والأشقياء، والبربر، وإن اتفقت جميعها على العربان، وصنفت طبقاً لطبيعة الارتحال إلى أربعة أنواع وهى: بدو الارتحال الكبير، والمحدود، والموسمى، والمستقرون، وصنف البدو طبقاً لأسلوب معيشتهم إلى أربع فئات هى البدو الرحل، وأشباه البدو، وشبه المستقرين، والمستقرون.

وقد أشرنا إلى طبيعة وادى النطرون الجغرافية والتاريخية، والمسميات التى أطلقت عليه، وأهم القبائل التى كان منها الهنادى، والحرابسى، وأولاد على، وبنو عون، والجوابى، والسمالو، والجميعات.

وخلصنا إلى أن السلطة الحاكمة طوال ذات الفترة تعاملت مع بدو وادى النطرون بعين اليقظة، ولتحقيق سياستها عينت عليهم من بينهم من أطلق عليها «ناظر العربان»، وأن تلك السلطة استخدمت الشدة أحياناً لردعهم، وأحياناً أخرى استخدمت اللين، واستطاعت توجيههم للإفادة منهم ومن مواردهم البيئية الصحراوية.

(١) نفسه: وثيقة رقم ٦٠٣، ٢ ربيع الأول ١٢٣٦هـ/ ٨ ديسمبر ١٨٢٠م.

(٢) نفسه: وثيقة ٦٢٥، ٢٥ رجب ١٢٩٣هـ/ ١٦ أغسطس ١٨٧٦م.

(٣) نفسه: وثيقة رقم ١١٩٤، ٢٣ برمهات ١٦٠٢ش/ ١٨٨٦م

وأوضحنا الدور السلبي والإيجابي ، لبدو وادى النطرون حيث تمثل دورهم السلبي فى إغارتهم على القرى واعتدائهم على الأهالى ، وسيطرتهم على بعض أراضى وموارد الدولة ، وخيانة بعض قبائلهم لقادة الثورة العرابية ١٨٨٢م ، وتأبيدهم لسلطات الاحتلال البريطانى منذ احتلالها البلاد ١٨٨٢م ، كما اعتدت بعض القبائل على رهبان وأديرة الوادى وأحدثت خرابا كبيرا ، بحيث كانت سببا فى اندثار أغلبها.

أما الدور الإيجابى لقبائل البدو فى وادى النطرون ، فتمثل فى مساندة المقاومة الشعبية لطردهم الفرنسيين من مصر ١٨٠١م ، وتأبيدهم تولى محمد على باشا السلطة فيها (١٨٠٥م - ١٨٤٨م) ، ومساندة البعض منهم للثورة العرابية عن طريق إمداد الثوار بالمعلومات عن سلطات الاحتلال البريطانى ، أو إعاقه سيرهم نحو القاهرة ، أو إمداد جيش أحمد عرابى بالمؤن. وخلصنا إلى أن السلطة الحاكمة طوال القرن التاسع عشر ، استطاعت أن تستفيد من الموارد الاقتصادية للبدو ، وهى التى تميزت بها بيئتهم الصحراوية ، مثل الخيول والجمال والخيام ، والقوى البشرية وخبرتهم بالصحارى وعمل الخيام ومسالك الطرق ، كما شاركوا فى اقتلاع النطرون ونقله إلى الطرنة على نهر النيل ، ونقل المؤن الغذائية إلى الأديرة ، وتدخلوا لإنهاء بعض المشكلات التى كانت تحدث بين بعض قبائل الوادى أنفسهم عن طريق عقد جلسات المحاكم العرفية ، أو ما كان يحدث بين بعض رهبان وأديرة الوادى . وبذلك أمكننا أن نتلمس صورة أوضاع بدو وادى النطرون وعلاقتهم بالسلطة السياسية ، ولعلنا بهذا العمل نكون قد أسهمنا ولو بقدر يسير فى إيضاح الصورة وإزالة اللبس الذى اكتنف ذلك القرن.



ملحق رقم (١)

بدو الجوابيىص وتشاجرهم مع قرى وادى النطرون^(١).

بعد أن وقع تشاجر ما بين ناحية كفر داوود وما بين عربان الجوابيىص ، ووقع التشاجر بضرب ببندقى البارود ، وجرح كل من المكرم أبو أشبيب ابن المحترم أبو رواش عبد الله برصاصة فى رجله اليمنى ، والمحترم عياد ابن المحترم الحاج حسن شرويد برصاصة فى ذراعه اليمنى وجرح أيضا المحترم ابن المحترم سليمان أبو زهران برصاصة فى ورکه الأيمن ، حضر بمجلس الشرع المشار إليه كل من المحترم محمد أبو أشبيب ابن المحترم أبو رواش والمحترم عياد ابن المحترم الحاج حسن شرويد المذكورين والمحترم داوود ، المحترم مطيريد المذكور ، أما المحترم محمد والمحترم عياد وفقا أنفسهما وأما المحترم داوود فوكالته الشرعية عن شقيقه المحترم مطيريد المذكور حسبما وكله بشهادة كل من المكرم الحاج حسنى ابن المرحوم ومحمد الديب شيخ الناحية المذكور والمحترم عياد المذكور وهؤلاء صولحوا فى جراحتهم المذكورة بمبلغ قدره مائة ريال وواحدة وسبعون ريالا مقبوضين بأيديهم من المكرم الشيخ تعيلب ابن المرحوم الشيخ كرعيد شيخ عربان الجوابيىص المذكورة عن أن المجلس بالتفاصيل بينهم ما هو للمحترم محمد أبو أشبيب من ذلك مبلغا قدره ستون ريالا وما هو للمحترم مطيريد الموكل من ذلك ستون ريالا وما هو للمحترم عياد باقى المبلغ وقدره خمسون ريالا ، وأقروا واعترفوا وأشهدوا على أنفسهم كلاً من المحترم محمد والمحترم عياد والمحترم داوود الوكيل عن شهودهم الإشهاد الشرعى وهم حجال الصحة والسلامة والطوعية والاختيار من غير إكراه عليهم فى ذلك ولا إجبار أنهم لا يستحقون ولا يستوفون قبل المكرم الشيخ تعيلب المذكور ولا باقى عربان طائفة الجوابيىص سبب مراعاتهم ولا سبب غيرها حتى مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوا ولا طلبا ولا ضربا ولا جرحا ولا دية ولا عمدا ولا شبة عمد ولا قليلا وكثيرا ولا خفيرا ولاشيا قل ولأجل حسبما

(١) المصدر: محكمة البحيرة الشرعية، سجل ٣٧، مادة ٢، بتاريخ ٩ شوال ١٢٣١هـ / ٢ سبتمبر ١٨١٦م، ص ١.

اشهدوا على أنفسهم بذلك وأقروا به وصدقهم على ذلك الشيخ تعيلب المذكور وقبله منهم لنفسه ولباقى طائفة عربان الجوابيىص صلحا وأقروا وأشهدوا وتصديقا وقبولا شرعيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى المومى. إليه أعلاه شفاها ووجاها وحكم بموجبه الحكم الشرعى وصدر ذلك بحضور المكرم شيخ العرب أبو الذهب شيخ عربان الجميعات وعلى ما جرى ترفع التحرير والرقم والتطير فى تاسع شهر شوال سنة واحد وثلاثين وألف، صح أن مبلغ المصالحة المذكور سلفا قدره ثلاثماية ريال ما هو ذلك، ما هو للمحترم محمد، وما هو للمحترم مطيريد ماتيان وعشرون ريالا؛ بالسوية بينهما وما هو للمحترم عياد باقى المبلغ وقدرة ثمانون ريالا قبضوا المبلغ المذكور بالمجلس.

□□□

ملحق رقم (٢)

بدو وادى النطرون واعتداؤهم بالنهب والسلب على مهاجرى إسكندرية زمن الثورة العربية^(١).

مهاجروا إسكندرية المتفرقون فى سيرهم بطول السكة الحديد وترعة المحمودية ، تبهدل بعضهم وجرح وقتل بعضهم ، وتحرر لمديرية البحيرة بالتأكيد والتشديد على مشايخ عربان ، هذه المديرية بحفظ الأموال والأرواح ، بأن الجهد فى حسم هذه المشكلات ولذلك تتبعت بنفسى خط سير هؤلاء المهاجرين ، وقد ضبطت بعض العربان بما نهبوه ، وجار اللازم نحوهم ، كما يفيد سعادة مدير الغربية أورى بإشارة تلغرافية ، أن مهاجرى إسكندرية حاصل فيهم هيجان وفتن فى السلب والفتن بطنطا ، ولأجل تسكين ذلك فحررت لوكيل الجهادية بإرسال أورطتين إلى المديرية المذكورة ، وقد تنبه على سعادة المدير بتوزيع المهاجرين على البلاد والقرى وإكرام مثوهم ، حيث إن قيامهم من إسكندرية كان فجأة وتركوا أموالهم وما يمتلكونه فى منازلهم ، وحيث الأمر كما ذكر وشفقة ومرحمة ولى النعم تقضى ، بالنظر لهؤلاء المساكين فقد تجاسرت بالعرض للمعية السنية ، لصدور الأمر لكافة المديريات بالتحفظ على أرواح وأموال المهاجرين وأن يكرموا مثوهم بتوزيعهم على البلاد لحصولهم على القوت الضرورى إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وأملى فى ولى النعم أن يصدر الأوامر الأكيدة على المديرين بتوزيع الجزاءات ، على من يصب فى مثل المواد المذكورة بحسب ما تقتضيه الأمور السنية بالنسبة للأحوال الحاضرة والأمر لمن له الأمر.

يعطى صورة ما توضح للمعية السنية ، ولسعادة رئيس النظار بإسكندرية

يعتمد إعطاء هذه الأخبار لجهاتها حسب الموضح بعالية

ناظر جهادية وبحرية

(١) المصدر: محافظ الثورة العربية ، تلغرافات ، تلغراف للمعية السنية ، رقم ٢٦ ، بتاريخ ٢٨ شعبان ١٢٩٩هـ/

١٥ يوليو ١٨٨٢م.

ملحق رقم (٣)

بدو الوادى ودورهم فى نقل النطرون^(١).

جواب بختم الوكيل حددته بنا عما ورد منكم، قد كتب إلى رحيم تعليل لأجل حضوره لتعيينه معاون عساكر، لتسهيل مصلحة الأطرون فى جمع العربان بالجمال ولمشال النطرون من الوادى للمصلحة، قد وردت إفادة من عبد الحميد ولده مفيدة أن والده توجه للجبل لجمع العربان والجمال، ومنتظر العساكر فتحرر لحضرة مأمور العربان بتعيين خمسة عساكر وواحد ضابط ليتوجهوا لطرفكم لأجل عمل التشهيلات.

□□□

(١) المصدر: مديرية البحيرة، سجل ٢٠، صادر لوكيل مصلحة الأطرون، بتاريخ ٢٠ صفر ١٢٨٢هـ/ ١٥ يوليو

١٨٦٥م، ص ٢٥.

حركات الرفض والاحتجاج عند البدو فى عهد محمد على وخلفائه

بكر يحيى محمد سليمان^(١)

تمهيد:

إن دراسة البداوة العربية على جانب كبير من الأهمية، لأن البدو يكونون قطاعا غير هين فى المجتمع العربى، وأن هذه الدراسة تضيف إلى معارفنا ذخيرة ثمينة حية إلى ما نعرفه عن التغيير الاجتماعى والحضارى^(٢).
فلقد كان ارتباط البدوى بشيخ القبيلة الذى كان يعامل أفراد قبيلته معاملة القراء، دون التعالى على أحد منهم، أدى ذلك إلى عدم اعترافهم بسلطة فوق سلطته، أما سلطة الدولة فليست لها فى نظره قيمة أخلاقية، وبالتالي فالخروج عليها لا يعد خرقا لكيانها^(٣).
فشيخ القبيلة هو المصدر الأساسى لكل السلطات التى لا تستمد قوتها الإلزامية من القوانين المدونة، وإنما من التصورات الجماعية والمشاعر والأحاسيس ومن العصبية المتغلغلة الجذور فى حياتهم اليومية^(٤).
والجماعات البدوية تكون لنفسها سلطة دفاع للمقاومة كما تكون نظما تسيير عليها وترجع إلى شيوخها وعقلائها فى كل ما يعن لها، وتقبل إرشاد الشيوخ الذين كان لهم فى النفوس وقار وتجله، كما أنهم لم يعترفوا بأية سلطة فوقهم غير سلطة شيوخهم^(٥).

(١) دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

(٢) سهير عبد العزيز محمد يوسف: الاستمرار والتغير فى البادية العربية (دراسة ميدانية فى علم الاجتماع البدوى)، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٥.

(٣) إيمان عبد المنعم عامر: العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، تاريخ المصريين، العدد ٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص ١٢٢.

(٤) حسن يوسف نصار: قبائل البدو فى مصر (١٨٤٨ - ١٩٥٢م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م، ص ٨.

(٥) عبد القادر الصبان: لمحة من حياة البدو، مؤسسة الطباعة والنشر بعدين، ١٩٧٨م، ص ١٣، ١٥.

ومع أن المجتمع البدوى لا يكاد يعترف بالفرد إلا أنه يخضعه للعائلة أو للبطن أو للفصيلة، نجد أن البدوى لا يجد في ذلك حجرا على حريته، ولكنه يثور على أى عدوان يصدر من جماعة خارجة مثل قبيلة أخرى أو مثل الدولة^(١).

ولقد كانت نظرة البدوى إلى الصحراء على أنها وطنه الاجتماعى الذى لا يستطيع أحد أن يهاجمه فيه. كما يعدها المصدر الأول والوحيد لحياته، فهو لم يعرف دولة يخضع لسلطاتها ويعترف بقوانينها وتنظيماتها، كما لم يحاول عن طريق إنشاء تحالف بين القبائل البدوية إقامة شكل من أشكال الدولة تكون لها السيادة العليا^(٢).

ويعتبر اعتزاز البدو بحريتهم وتبرمهم بالقيود والروابط الصارمة التى تفرضها شرائع الدولة من بين الأسباب التى تؤدى إلى اختلال الأمن، ولذا ظلوا لبنات قلقة فى بناء المجتمع الريفى^(٣).

كما كان لطبيعة المكان أيضا أثره فى حركات التمرد، فلقد ساعدت طبيعة الصعيد المحافظة، وحدوده الطبيعية المغلقة التى تخالف طبيعة الوجه البحرى المفتوحة، والتى ساعدت عربانه على استمرار تمردهم ضد السلطات الحاكمة، وفرارهم إلى الصحراء الغربية، أو إلى سيناء أو غزة، مثلما كان يفعل دائما «أولاد بقر» بالشرقية وعرب البحيرة الذين كانوا يهربون إلى برقة ومنها إلى بلاد المغرب^(٤).

ولقد بلغ العربان أقصى درجة من القوة وشدة البأس فى بداية القرن التاسع عشر، وساعدهم على ذلك حالة الفوضى التى سادت فى الفترة ما بين جلاء الحملة الفرنسية وتولى محمد على الحكم عام ١٨٠٥م، فكانوا يخربون القرى ويفرضون الإتاوات على سكان البلاد^(٥). كما نجد أن القبائل ظلت فى مرحلة البداوة وعدم الاستقرار، كانوا دائما مصدر قلق وإزعاج لسلطة الدولة فى عهد محمد على وعهود خلفائه^(٦).

ويوضح البحث محاولة محمد على وخلفائه فى كسر شوكتهم وإدماجهم داخل المجتمع.

(١) حسن نصار: المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) حسن نصار: المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٤) ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٥) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٨.

(٦) وائل بيومى: مديرية الشرقية فى القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٨م، ص ٧٦.

مقدمة:

لقد كان العربان فى مصر منذ عهود قديمة عنصرا مقلقا للحكومة والإدارة، وقد استطاعوا - سواء كانوا شبه مستقرين أو رحلا بميولهم الحربية - عرقلة مهمة الحكام، فى التصدى لأعمالهم التخريبية^(١).

ومن أشهر هذه التمردات ما حدث فى العصر المملوكى، تلك الثورة العارمة فى عام ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣م. وقد اشترك فيها عرب الصعيد والوجه البحرى بقيادة الشريف حصن الدين ثعلب بناحية دهروط - ديروط الحالية أحد مراكز أسيوط - واستخدم المماليك أقسى وسائل القمع والشدة فى إخمادها، كما قبض على زعيم التمرد وسجن بالإسكندرية. كذلك نجد ثورة عرب الصعيد عام ٧٠٧ هـ/ ١٣٠١م فى مدينتى منفلوط وأسيوط وأخمدت مثل سابقتها^(٢).

أما بالنسبة لحال العربان تحت الحكم العثمانى، فقد كان امتدادا لما كان يحدث فى العصر المملوكى، فعلى الرغم من استمالة السلطات العثمانية للعربان إلى جانبها بالطرق الودية، اتقاء لشهرهم وتفاديا لتمرداتهم، فإن الموقف العدائى تجاه السلطات الحاكمة، كان قد تأصل فى نفوس هؤلاء العربان، ففى بداية الحكم العثمانى أعلن عبد الدايم بن بقر شيخ عربان الشرقية فى عام (٩٢هـ/ ١٥١٨م) تمرده على السلطة وامتناعه عن دفع الخراج^(٣). وقد استمرت تلك الثورات والتمردات طول العصر العثمانى، وكان من أشهرها تمرد عربان أولاد وافى المغاربة بقيادة شيخهم ابن وافى عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م، وقام أحمد باشا والى مصر آنذاك بتجريد حملتين على رأس كل منها صنجق، إحداهما إلى البحيرة فى الدلتا، والأخرى إلى البهنسا بالصعيد لمحاربتهم، وعلى الرغم مما بذلته هاتان الحملتان من جهود لكسر شوكة هؤلاء العربان، إلا أنهما لم تستطعا تحقيق الهدف المرجو منهما^(٤).

(١) ليلى عبد اللطيف: سياسة محمد على إزاء العربان فى مصر، ط ١، دار الكتاب الجامعى، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٥.

(٢) إبراهيم العدل المرسى: حركة عمر المصرى فى عهد سعيد، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٢٧، ٢٠٠٠م، ص ٣٧١.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٨٠.

(٤) إبراهيم العدل المرسى: المرجع السابق، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

أما في عهد محمد على فلم يعتمد على القوة وحدها من أجل استقرار هؤلاء البدو وتحقيق الأمن الداخلي ، إذ كان لابد من مغريات حتى يتخلى البدو عن عاداتهم ، وذلك بمنحهم مساحات من الأرض في المناطق التي استقروا فيها^(١).

هذا وقد حاول خلفاء محمد على اتباع سياسته لجذب البدو لمنع تمرداتهم ، ولكن بتولى سعيد باشا حكم البلاد ، نجد أن العلاقة بين البدو والسلطة قد اتخذت نمطا عنيفا ، وشهدت البلاد تمردات خطيرة ومن أشهرها حركة عمر المصرى (١٨٥٤م - ١٨٥٨م)^(٢) . وعلى هذا فقد أثمرت جهود محمد على وخلفائه من بعده ثمارها في استقرار البدو وانصهارهم في جسم المجتمع وتحولوا في نهاية القرن التاسع عشر من مرحلة البداوة إلى مرحلة التوطن والتمدن^(٣).

أولا - في عهد محمد على:

لقد بلغ العربان في بداية عهد محمد على حدا كبيرا من الجبروت والبأس ، حتى إنهم كانوا يفرضون الإتاوات على الأهالي ويهددون بالزحف على القاهرة نفسها^(٤) . وهناك عدة ملاحظات على القبائل المتمردة وهي :

- أن معظمها ينتمى إلى قبيلة بنى سليم الوافدة من غرب إفريقيا من برقة وطرابلس من أبناء برغوث ، وهم الجبارنة ومنهم (الجوازي أولاد أبى جازية) ، والفوايد ومنهم (أسرة ملوم) ، والرماح ومنهم (أسرة الباسل) .
- أنها كانت دائمة التمرد ، حيث كانت وافدة من أقاليم صحراوية اتصف أهلها بالخشونة .
- أن العربان كما يذكر البعض ، كانوا يشبهون الجند العصاة ورؤساءهم المتمردين من حيث ميلهم إلى السلب والنهب^(٥) .

(١) على بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية (١٨١٣م - ١٩١٤م) ، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٦١ .

(٢) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

(٣) على شلبي : الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٨٤٧م - ١٨٩١م) ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٣م ، ص ٢٦٤ .

(٤) ليلى عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٥) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٤٠١ ، ٤٠٣ .

وترجع أسباب الرفض والاحتجاج إلى عدة أسباب، منها سياسات الحكومة في أنواعها العديدة للخدمة العسكرية والسخرة والضريبة الجديدة والفردة التي فرضت سنة ١٨٢٢م، وزيادة ضريبة الأرض التي ارتفعت إلى ٢٢٪، وكذلك حدوث الكوارث الطبيعية في هذه السنوات، حيث أغرق النيل الحقول سنة ١٨٢٠م ودمر المحاصيل، وهذا أيضا بشر بظهور وباء الكوليرا الأول الذي كان مقلقا بصفة خاصة، كما حدث تمرد في إقليم منوف عام ١٨٢٣م، والسبب في هذا التمرد هو الابتزاز الشديد من وكلاء محمد علي باشا وأيضا من الخدمة العسكرية الإلزامية^(١).

ويتضح أن روح التمرد هذه كانت عند العربان على كل سلطة عدا سلطة شيخ القبيلة عندهم، وذلك يتضح من خلال قول أحد العربان أمام قاضي إقليم المنوفية عام ١٨٤٨م بقوله: «إننى أعترض على المجلس الشرعى للإقليم، وأن شرع الله عند غيركم»، ويقصد بذلك أن ولاءه لشيخ القبيلة^(٢).

وكان من أسباب هذا الرفض والاحتجاج في عهد محمد علي هو اعتراض العربان على قرارات الحكومة. ومثال على ذلك، عندما رأى الأهالي أن أراضي العربان من أجود الأراضي ولا يدفعون ضرائبها، فطالبوا بزراعتها ووافقت السلطة على ذلك مقابل ثمانية ريالات عن كل فدان، إلا أن العربان قاموا بطرد الفلاحين من هذه الأراضي بالقوة وهذا يوضح لنا قوة العربان في هذه الفترة^(٣).

كما كان العربان يهددون بالرحيل من الأراضي التي يزرعونها إذا ما فرضت عليهم ضريبة زائدة على ما يدفعونه^(٤).

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنهم امتنعوا عن دفع الضرائب، وصدرت الأوامر في عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م باسترداد بعض الأطيان التي منحتها لهم الحكومة، وذلك لكي يخضعوا لأوامر وقرارات الحكومة^(٥).

(١) Lutfi al – sayyid – Afaf, Egypt in The reign of Mohammad Ali, Cambridge univeresty, (١) press. p.

(٢) حلمي أحمد شلبي: المجتمع الريفي في عصر محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ٢٩ – ٣٠.

(٣) وائل بيومي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٥) وائل بيومي: المرجع السابق، ص ٨٣.

ومن الأشياء التي تدل على مخالفة العربان لتعليمات الحكومة، أنهم كانوا يشاركون الفلاحين فى زراعة الأراضى الممنوحة لهم، مما أدى إلى صدور الأوامر بزراعة أراضيهم، ولكن العربان استمروا فى مشاركة الفلاحين وتأجير أراضيهم، مما يدل على تعاليهم على العمل اليدوى^(١).

كما يتضح عدم تقبل العربان لعملية التجنيد والالتحاق بالجهادية؛ فعندما طلب من الشيخ أبى بكر حميدة شيخ عربان أولاد على إعداد عدد من الفرسان، فر بعض أفراد القبيلة إلى الغرب لرفضهم الانضمام للجهادية، على الرغم مما كان يدفع لهم من مرتبات مقابل ذلك^(٢).

وغالبا ما كان التمرد والهروب يحدث دائما من عربان الغرب أو المغاربة وهؤلاء كانوا دائما من العربان المثيرين للشغب والميالين للتجوال الدائم وسلب ونهب القرى والضواحي^(٣). كذلك عندما استخدمت السخرة فى حفر الترع وإقامة الجسور ومد السكك الحديدية، ترك الكثير من العربان أماكن إقامتهم وهربوا إلى جهات أخرى، وذلك لكونهم يأنفون من أداء مثل هذه الأعمال^(٤).

وعلى الرغم من ذلك كانت هناك استجابة من بعض الشخصيات البارزة من عربان الصعيد لسياسة محمد على مثل إسماعيل بن نصير من أولاد الهلة وكان من المتعاونين مع السلطة. ومن أجل استقرار هؤلاء العربان كان محمد على يعقد معهم الاتفاقيات، وفى حالة نقضهم لهذه الاتفاقيات كان يستخدم معهم القوة العسكرية ويأخذ زعماءهم كرهائن عنده بالقاهرة وذلك لكى يضمن طاعتهم وولاء قبائلهم، وكان يخصص لهؤلاء الزعماء رواتب وأرزاقا خاصة بهم، وكان لهذه الوسيلة تأثير كبير فى التزام الكثير من القبائل الهدوء والطاعة^(٥).

وليس معنى ذلك أن جميع العربان فى خدمة الحكومة، بل كان منهم من يحدث الضرر فى القرى ولذلك صدرت الأوامر إلى مأمورى المديرية بعدم انتقال أحد من العربان

(١) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٢) نفسه، ص ٢١١، ٢١٤.

(٣) لىلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٥) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٩٧، ١٢٥.

من مديرية إلى مديرية أخرى إلا بتذاكر ممهورة من شيخ القبيلة، وعلى المديرية الأخرى أن تطردهم في حالة عدم وجود هذه التذاكر معهم^(١).

ونتيجة لامتناع العربان عن دفع الضرائب المقررة على الأرض الزراعية، لجأت السلطات في بعض الأحيان إلى سجن بعضهم، بالإضافة إلى منعهم من القيام بأعمال الزراعة^(٢). كما يتضح لنا مدى اهتمام محمد علي بتأديب العصاة من العربان من خلال صدور أوامر إلى عباس باشا الأول عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م، وذلك بأمره بالسفر لبر الشام لإبادة عربان نابلس العصاة هناك^(٣).

ومن ضمن العقوبات التي وقعت على العربان طردهم من النواحي التي يثيرون فيها الفساد والتخريب، ونقلهم بالقوة إذا أبدوا اعتراضهم على ذلك. أما بالنسبة للعربان القادمين من مناطق أخرى فيتم نقلهم إلى أماكن إقامتهم السابقة، كذلك كان يتم مصادرة مواشى وأغنام العربان العصاة وكذلك أغنام العربان التي تتخطى مراعى السلطات^(٤). وفي أحيان كثيرة استخدم محمد علي القوة العسكرية في ذلك لإرغام العربان على تقديم المطلوب منهم للدولة^(٥). كما احتفظ محمد علي برهائن من العربان في العاصمة، وجرّد كتائب على بعض شيوخهم وأعدموا^(٦).

وفي أحيان كثيرة كان يتعهد شيوخ العربان للحكومة بتأديب العصاة من قبائلهم، ويطلبون بعض الجنود من الحكومة لمساعدتهم في ذلك، مثلما حدث عندما اتبع بعض عربان العبادى القاطنين بالجبل العسيان والبغى واتبعوا عربان البشارة لم يرض شيوخهم عن ذلك، وطلبوا من محمد علي إمدادهم بقوات لتأديب هؤلاء العصاة وقد أجابهم محمد علي إلى ذلك^(٧). كما حذر محمد علي مشايخ العربان بتدميرهم إذا لم يوفوا بوعودهم وتسليم العربان الأشقياء، فعندما حدث صدام بين سلطات محمد علي وقبيلة أولاد علي، وكان من

(١) وائل بيومي: المرجع السابق، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٣) أمين سامى: تقويم النيل، ج ٢، ط ٢، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م، ص ٤٢٣.

(٤) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٥) ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٦) إبراهيم العدل المرسى: المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٧) ليلي عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٣.

نتيجة هذا الصدام مقتل بعض الجنود عام ١٨٤٦م، صدر أمر من الكتخدا (نائب الوالى) إلى عبد الله المقرجى شيخ مشايخ عربان أولاد على عام ١٨٤٦م بالقبض على هؤلاء الأشقياء بواسطة مشايخهم، وأن يقدم هؤلاء المشايخ أولادهم كرهائن إلى ناظر العربان، ولكنهم لم يوفوا بما وعدوا به ولذلك حذرهم الكتخدا باتخاذ إجراءات صارمة ضدهم. ومن ذلك يتضح لنا اتباع محمد على لأسلوب الترغيب بجانب أسلوب الترهيب^(١).

كما أمر محمد على بتحصيل المبالغ التى صرفت لشيوخ العربان المقصرين فى كسر العربان الأشقياء، وذلك لإهمالهم فى مواجهة هؤلاء العربان الأشقياء، وحدث ذلك عندما صدرت مثل هذه الأوامر إلى مدير الشرقية ومدير الدقهلية ودمياط وشربين عام ١٨٣٤م^(٢). ولم يكن أسلوب القوة هو الأسلوب الوحيد الذى اتبعه محمد على لتوطين العربان، وإنما كان الأسلوب الأكثر فاعلية فى استقرارهم عن طريق منحهم أرضا زراعية، لكى تساعدهم على الاستقرار، مثل قبائل الهنادى والفوايد، وقد تم نقل قبيلة الهنادى إلى مديرية الشرقية واستقروا بها بمعرفة محمد على^(٣).

وتذكر بعض المصادر أن محمد على لم يمنح العربان أى سند قانونى وإنما وعدهم بأنهم سيعفون من السخرة والخدمة العسكرية فى حالة زراعتهم واستقرارهم فى الأراضى التى معهم^(٤).

وهكذا يتضح لنا أن العربان كانوا دائما عنصر اضطراب للأمن، ولكن محمد على استطاع ترويضهم إلى حد كبير وتمكن من تنمية الجوانب الإيجابية فيهم على حساب الجوانب السلبية^(٥).

وعندما أخذ محمد على بعض زعماء العربان إلى القاهرة، كان لهذه الوسيلة تأثير كبير فى إخلاد القبائل للهدوء، وكانت سياسة منحهم رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم، كما أجرى عليهم الرواتب والأرزاق ومنحهم الأراضى، كانت من العوامل التى

(١) على شلبى: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٢) دار الوثائق القومية: أدراج الدار، درج رقم ٢٧٦، وثيقة رقم ٣٧، دفتر بدون نمرة، أمر كريم عام إلى مديرية الشرقية ومدير الدقهلية ودمياط وشربين، ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، ص ٤٩.

(٣) على شلبى: المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٤) إيمان عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٥) نفسه، ص ١١١.

ساعدت على توطينهم، كذلك استخدمهم في الجيش ومشاركتهم في الحروب المختلفة في الحجاز والسودان وسوريا وغيرها من الحروب^(١). وكذلك كان من العوامل التي ساعدت على توطينهم وإبعادهم عن أعمال التمرد والعصيان .

ثانيا - البدو في عهد عباس باشا الأول:

واصل خلفاء محمد على نفس السياسة التي اتبعها لتوطين البدو وإن كانت العلاقة بينهم وبين سلطات الدولة قد اتخذت نمطا عنيفا في بعض الفترات، واستمر خلفاؤه في منحهم الأراضي من أجل توطينهم واستقرارهم، واستعمال القوة معهم إذا رفعوا راية التمرد والعصيان وهددوا أمن البلاد^(٢).

وكان عباس باشا يحب عربان الهنادى ويفضل المكوث عندهم، ويقال إنه تزوج من إحدى بناتهم وكانت غاية في الجمال. ويبدو أن تودد عباس باشا إليهم هو الذي دفعهم إلى التمرد والعصيان، كما فرض العربان على الزروع المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال، وفي حالة تعذر جمعها كانوا يفسدون في البلاد ويهلكون الحرث والنسل^(٣).

كما استمر البدو في إثارة جيرانهم من الفلاحين غير مباينين بسلطات الدولة، فأصدر عباس أمرا إلى كل المديرين وإلزام المديرين بضرورة منع ذلك والقبض على الأشقياء والمنحرفين منهم، وعقابهم بأقصى عقوبة، وذلك حفظا للأمن بالبلاد، كما هدد المديرين بعقابهم إذا قصرُوا في ذلك، وعلى الرغم من ذلك استمر البدو في استخدام أعمال العنف مع الفلاحين، واستبدلوا أراضيهم بأراضي الفلاحين الأكثر جودة، فعلى سبيل المثال تقدم أهالي ومشايخ كفر الحيوان ونصف سوادة بمديرية الشرقية بشكوى إلى المعية متظلمين من استيلاء عامر الطحاوى شيخ عربان الهنادى على أطيانهم وأشجارهم ونخيلهم وادعائه بأن ذلك من ضمن الأبعادية التي أنعم بها عليه^(٤).

ومع كثرة اعتداء العربان على الفلاحين وارتكابهم أعمال التخريب والنهب واختلال الأمن بالبلاد، وكذلك إيواؤهم المشبهين والمجرمين، فكر عباس في أن يحدث تغييرا في

(١) على شلبي: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢) على شلبي: المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(٣) وائل بيومي: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٤) على شلبي: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

مشايخ القبائل ، فعزل بعضهم وعين بدلا منهم ممن كان يرى أنهم أكثر ولاء وطاعة أملا في توطيئهم وخلود قبائلهم للهدوء^(١).

وعندما رأى عباس باشا الأول ارتكاب البدو للعديد من المخالفات ، أصدر أمرا إلى جميع شيوخ العرب وحذرهم فيه من ارتكاب الجرائم في ٢٩ ربيع الأول ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م تعميم للمدريات جاء فيه :

«عند وصولي إلى الإسكندرية ومصر هذه المرة سمعت وعلمت أن قبائل العربان انحرفوا عن الطريق المستقيم وابتدأوا يعتدون وينهبون ويسرقون كل ما تصل إليه أيديهم ، فمثل هذه الأمور المخالفة لرضاي يجب أن تستأصل ويضبط فاعلوها ويجازوا أشد الجزاء ، ويعلن إجرامهم للملا ليفتضح أمرهم لأن إزالة وجود هؤلاء الأشقياء ضرورة لتقرير الأمن والسلام»^(٢).

كما هددت السلطات في عهد عباس باشا الأول مشايخ العربان الذين يرفضون إرسال الأشخاص المطلوبين من شياختهم للعمل في بعض الأعمال العامة وتوعدهم بالعقاب الشديد إذا لم ينفذوا أوامرها.

فعلى سبيل المثال قامت السلطات بتهديد الشيخ سليمان الطحاوي من مشايخ الهنادى بالشرقية عندما امتنع عن إرسال ٩٠ شخصا حصته في العمل في عمارة الدار البيضاء^(٣). ولذلك قامت السلطات بتهديده إذا لم ينفذ أوامرها^(٤).

(١) على شلبي: المرجع السابق، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) أمين سامي: تقويم النيل وعصر عباس حلمي باشا الأول ومحمد سعيد باشا، المجلد الأول من الجزء الثالث، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، ص ١٧.

(٣) (*) الدار البيضاء: وردت في الخط التوفيقي بأنها المحطة الثانية من طريق الحاج بعد ناحية البركة في الصحراء الشرقية واقعة على سكة حديد السويس وعلى بعد (٥٦) كيلو مترا شرق القاهرة، وكانت تسمى الدار الحمراء فأنشأ بها عباس الأول قصرًا للنزهة والرياضة الخلوية وسماها الدار البيضاء أو الدار الخضراء وليس بها ماء ولا نبات، وبالبحث عن مكان هذه الدار تبين لي أنها واقعة على الطريق المعبد المخصص للسيارات بين مصر الجديدة والسويس تجاه أطلال بسطة الدار البيضاء والمعروفة بالمحطة نمرة (٨) الواقعة شرق مدينة مصر الجديدة على بعد ٥٣ كيلو مترا وفي شمال المحطة المذكورة على بعد ٣٥٠٠ متر توجد أطلال الدار البيضاء وقصر عباس في وسط الصحراء.

محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية (من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م)، القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٥٨.

(٤) وائل بيومي: المرجع السابق، ص ٨٥.

«شرح صورته أنه لما تبين من إفادة حضرتكم السابق ورودها، أن شيخ مشايخ الهنادى متوقف فى إعطاء التسعين نفراً المطلوبة من عهده لأشغال عمارة الدار البيضاء، وقد حررنا لحضرة ألقى بك بما لزم عن ذلك»^(١).

ويبدو أن قبيلة الطحاوية كانت من المعارضين لقرارات الحكومة، ويتضح ذلك أيضا من خلال تأخير سليمان الطحاوى فى سداد تقسيط الأموال المقررة عليه وعلى أخيه عامر الطحاوى بمديرية الشرقية، وأن هذا التقسيط متأخر حتى القسط الثالث، وقد هددهم عباس باشا بنزع هذه الأقطان منهم فى حالة عدم السداد^(٢).

ولم يكن استبدال الأراضى هو كل معاناة الفلاحين من العربان، ولكنهم غالبا ما كانوا يرفضون دفع الضرائب أو يجبرون الفلاحين على تحمل قسط أكبر منها، وعندما يقل المحصول بأراضيهم كانوا يغتصبون قوت الفلاحين. وكان الفلاحون لا يعترضون على ذلك لأن البدو كانوا دائما يحملون السلاح، فكان الفلاحون يخافون الاصطدام بهم.

وعلى الرغم من كل الوسائل التى اتخذها عباس للوصول بالبدو إلى الاستقرار والهدوء، فإن الأوضاع والعادات التى ألفها البدو لم تكن تنمحي من عقولهم بسهولة، واستمرت عملية توطينهم تتأرجح بين المد والجزر، وربما كان سعيد أحد فترات الجزر التى شهدتها عملية التوطين^(٣).

ثالثا - فى عهد سعيد باشا:

لم يكد سعيد باشا يتولى عرش البلاد فى عام ١٨٥٤م حتى واجهته مشكلة الأعراب الذين راحوا يتحينون الفرص للخلاص من قيود الأوامر وأغلال السلطة التى بدأها محمد على من أجل الزج بالعربان بين طبقات المجتمع^(٤).

ففى عهد سعيد اختل الأمن اختلالا عظيما نتيجة لتمادى العربان فى الغزو والسلب والنهب وإعلانهم التمرد والعصيان، وحذرهم سعيد من ذلك، فأمر مدير المنيا وبنى مزار

(١) دار الوثائق القومية: معية سنوية عربى س/ ١ / ٨ / ١٤، صادر المعية السنوية للدواوين والأقاليم والمحافظات، رقم السجل القديم ٦٢، ج ٣، وثيقة رقم ١٧٨ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م، ص ٤٦١.

(٢) وائل بيومى: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٣) على شلبى: المرجع السابق: ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) حسن نصار: المرجع السابق، ص ٣٧١.

عام ١٨٥٤م بإنذار مشايخ قبائل العربان الموجودين بمديريته. إلا أن إنذار سعيد لم يؤد الهدف المرجو منه، بل إن العلاقة بين البدو والسلطة قد اتخذت نمطا عنيفا، وشهدت البلاد تمردات خطيرة وبخاصة في الوجه القبلي، لعل من أشهرها حركة عمر المصرى^(١) (٢).

وعمل سعيد باشا على سد المنافذ والطرق عليهم من خلال إصدار أوامره إلى المديرين بذلك؛ ففي عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م أصدر أوامره إلى مدير كردفان بذلك:

«إن عربان الجوازي والعمائم وطرحونة وخلافهم الذين كانوا متوطنين بجهات قبلي قد غلبت عليهم الشقاوة واتبعوا طريق البغي والفساد واقتضت الإرادة العلية إعدامهم بالكلية، وقد حضرنا بمقتضى الأمر العالي لترتيب العساكر مع ما يلزم لسد الطرق عليهم وقطع أثرهم»^(٣).

كما أمر سعيد باشا مفتش الوجه القبلي بالاستيلاء على جمالهم وخيولهم كي لا يستطيعوا الفرار مثل غيرهم^(٤).

وترجع أسباب التمرد في عهد سعيد إلى الآتي:

- سبب اقتصادي خاص بطلب سعيد من العربان بضرورة دفع الضرائب والأموال عن الأرض التي يزرعونها.
- محاولة سعيد الاستقرار في عملية توطين قبائل العربان وإصراره على عمل تذاكر لكل شخص منهم لمعرفة تنقلاته.
- تعدي سعيد على امتيازاتهم وبخاصة الإعفاء من التجنيد.
- جمع السلاح منهم وذلك لأنهم كانوا يستخدمونه في ارتكاب جرائمهم، ومحاولاته التدخل في تنظيم شؤونهم.

(١) (*) بالنسبة لعمر المصرى، فقد كان شيخ عرب الجوازي وكانت كلمته مسموعة بين أبناء قبيلته، ويتمتع بنفوذ كبير، وقد منحه عباس باشا ١٠٠٠ فدان من أبعادية بني سموح وههيا وعزبة القمادير بالمنيا، وقد قاد من قبل حركة تمرد ونفى إلى السودان، حيث أرسل به سابقا إلى فاز أوغلي وقد أفرج عنه بأمر سعيد باشا، وعلى ما يبدو فإن كلمة «المصرى» كانت لقبيلة، ربما لتدل على انتمائه لمصر.

إبراهيم العدل المرسي: المرجع السابق، ص ٣٩٦.

(٢) إبراهيم العدل المرسي: المرجع السابق، ص ٣٧٨.

(٣) أمين سامي: تقويم النيل، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٤) علي شلبي: المرجع السابق، ص ٢٧٩.

- إن شخصية سعيد كانت متقلبة ، وعدم تدبيره للأمر^(١) .
فلقد بدأ تمرد العربان بالوجه القبلى كما تذكر الوثائق فى شهر رمضان عام ١٢٧١هـ/
١٨٥٤م ، حيث امتنع بعضهم عن تنفيذ أوامر سعيد باشا ، بل قاموا بأعمال السلب
والنهب ، وقد بلغ هذا التمرد ذروته فى شهر شوال من نفس العام^(٢) .
وعندما قامت قبائل العربان فى الوجه القبلى بالتمرد ، انتشر التمرد كذلك فى الوجه
البحرى ، وكانت قبيلتا الهنادى والجوازى قد تعاونتا مع عمر المصرى فى التمرد ضد
سياسة سعيد باشا^(٣) .

كما قام هؤلاء المتمردون بإبلاغ العربان الآخرين للاتحاد معهم ، حيث أرسل المدير العام
بأسيوط يقول : «إنه وصله خبر من محمد على باشا مدير أسيوط بأن الشقى عمر المصرى
قادم إلى جهة أسيوط ، وقد اتحد بالقبائل القاطنة فى المديرية ، وينهبون كل ما يصادفونه
فى طريقهم . ولذلك صدرت الأوامر إلى مدير أسيوط بالعمل على منع دخول الأشقياء إلى هذه
المدينة واستكشاف مواقع العربان^(٤) .

كما قام سعيد باشا بإصدار أوامره لسد الطرق على أشقياء العربان بجهة الواحات
ومحاولة التضييق عليهم ، كما أعلن أن كل من أحضر عمر المصرى حيا أو ميتا يأخذ
أبعاديته وأبنيته إنعاما ، كما أصدر أوامره إلى عربان أولاد على للتعاون فى قتال هؤلاء
الأشقياء^(٥) .

ويتضح أن عملية سد المنافذ أمام العربان المتمردين لم تأت بثمارها ، حيث استطاعت
بعض فرق عربان الجوازى مع عربان عمر المصرى شيخهم الانتقال من مكانهم الأصلي
والهروب إلى الصحراء مما جعل سعيد باشا يشدد على الطرق المحتمل فرارهم منها^(٦) .
أما بالنسبة للأهالى وموقفهم من هذا التمرد ، فقد انقسموا إلى فريقين ، الفريق الأول
تعاون مع السلطات من أجل القضاء على هؤلاء المتمردين ، وقد استخدم سعيد باشا معهم

(١) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٢) نفسه ، ص ٤٠٤ .

(٣) وائل بيومى : المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٥) أمين سامى : تقويم النيل ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٦) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٤٠٨ .

عدة أساليب لتشجيعهم على مساعدته ، منها إعطاء مكافآت مالية لمن يرشد عن العربان المتمردين نظير علاقات بينهم أو مقابل مالى^(١).

وعندما ازدادت أعمال السلب والنهب من جانب العربان اضطر سعيد إلى البطش بهم عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م وقتل الكثير منهم بحد السيف ومقذوفات نيران المدافع والبنادق والشنق والخازوق ، وفر من نجا منهم إلى الصحراء الغربية ، وصودرت ممتلكاتهم للسلطات . ومن القبائل التى صودرت أطيانها قبيلة الهنادى وخاصة عرب الجوازى ، حيث صودرت أبعادياتهم ومن بينها أبعادية عمر المصرى (قائد التمرد) ، وتم مصادرتها لحساب الميرى عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م ، وقام سعيد بتوزيع بعضها على من دخل فى طاعة السلطة من شيوخ القبائل الآخرين^(٢).

ولقد كان لعملية مطاردة العربان أثرها على العربان المتمردين ، حتى فى قبيلة الجوازى المتزعمة هذا التمرد ، حيث نجد عبد الرحمن وابن أدهس عقيلة ومحمد عبد النبى أبا عمر المصرى ، ومحمد على من مشايخ عربان الجوازى جاءوا من الفشن والمنيا إلى بنى سويف يريدون تقبيل الأعتاب الكريمة ، ووقعوا على التعهد الخاص المماثل للتعهد الذى وقعته مشايخ الحرابى والبراعصة ، كما تعهدوا بطاعة الحكومة وجمع الأسلحة ، كما نجد بعض جماعات من قبيلة الرماح المتمردة طلبت العفو وأعلنت استعدادها لأخذ تذاكر الإقامة ، وقاموا بجمع أسلحة مختلفة وأرسلوها إلى مخازن بنى سويف^(٣).

وبرغم ما فعله العربان فقد منح سعيد بعض القبائل الأمان ، ولكن كانت تعليماته للمديرين بضرورة القبض على أشقياء العربان الذين يدخلون المديرية متظاهرين بالطاعة والخضوع وإرسالهم إلى القلعة السعيدية ، كما أن هناك بعض القبائل لم تنل عفو سعيد وإنما أصر على طردهم من البلاد مثل الحرابى ، فأصدر إلى مديرية الجيزة بتاريخ ٥ إبريل عام ١٨٥٧م أمرا بطردهم وإعطائهم مهلة عشرة أيام ليتركوا البلاد أينما شاءوا وإلا فسوف يستخدم القوة فى طردهم ، والسبب فى ذلك أن هذه القبيلة كانت دائمة التمرد واعتاد أفرادها على السلب والنهب وتهديد أمن الريف^(٤).

(١) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ص ٤٦٣ ، ٤٦٦ .

(٢) على شلبى : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) إبراهيم العدل المرسى : المرجع السابق ، ص ٤١٤ - ٤١٥ .

(٤) على شلبى : المرجع السابق ، ص ص ٢٧٨ ، ٢٨١ .

وكان من بين القبائل التي التمسست العفو عنها واسترداد ما صدر من أراضيها قبيلة الهنادى وخاصة آل الطحاوى، حيث استردوا عام ١٨٥٨م أراضي مساحتها ٤٥٠٠ فدان من أطيان القليوبية التي كانت قد تمت مصادرتها فى عام ١٨٥٤م^(١). ويمكن القول بأن العربان الخارجين عن الطاعة فى عهد سعيد باشا قد كسرت شوكتهم، وذلك نتيجة لحمالاته العسكرية ضدهم، حتى إن بعض القبائل فى عهده قد ألفت حياة الاستقرار^(٢).

كما نجد أن الشدة التى اتبعها معهم، ربما كانت أحد الأسباب القوية التى جعلت القبائل تخلد للهدوء وتؤثر التوطن والاستقرار فى عهد سلفيه حتى أصبح توطنهم واستقرارهم حقيقة ملموسة فى نهاية القرن التاسع عشر^(٣).

رابعا - فى عهد إسماعيل:

وفى بداية عهد إسماعيل، وعقب التمرد الذى قامت به بعض قبائل البدو ومن بينهم بدو الهنادى بقيادة عمر المصرى فى عهد سعيد وصدورت أطيانهم نتيجة لذلك صدر أمر عال فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٦٣م ببرد أطيانهم ونخيلهم وإعطائهم بدلها إذا كان قد تم التصرف فيها، والذين ليس لديهم أطيان يعطى لهم أطيان^(٤).

ولكن إسماعيل اشترط عليهم ألا يعودوا إلى أعمال التمرد ويلتزموا بالطاعة والانقياد للحكومة من أجل توطيئهم واستقرارهم.

«بحيث يكونوا قايمين وملتزمين حسن الطاعة والانقياد للحكومة ويجتنبوا ويجازوا ما يخالف حميد المساعى ويغايير مقام الإنسانية، ولا يعودوا إلى ما كانوا مألوفين عليه أشقياهم من المخالفة والسلب والنهب»^(٥).

كما تقدم ولد من أولاد عمر المصرى بالتماس إلى الخديوى إسماعيل يطلب فيه العفو عن والده، وقبل إسماعيل التماسه ولكن بشرط أن يسلك مسلك الاستقامة.

(١) إبراهيم العدل المرسى: المرجع السابق، ص ٤٧٦.

(٢) وائل بيومى: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٣) على شلبى: المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٤) على بركات: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٥) أمين سامى: تقويم النيل، المجلد الثانى، ج ٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ص ٥٢٢.

ويتضح من ذلك أن الدولة أصبحت تضع مزيداً من التقنين لأوضاع العربان، واستمرار منحهم الأراضي^(١).

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر العربان في ارتكاب أعمال السلب والنهب والقتل، فأصدر إسماعيل أمرا إلى مفتش الوجه البحرى عام ١٨٦٥م بتحديد ثلاثين يوماً لكل مشايخ البلاد والعربان بحصر كافة من يكون بجهتهم من ذوى البغى والفساد وتقديمهم للمدريات، ومن يظهر عنده بعد ذلك هذه الأوصاف يكون مستحق الجزاء^(٢).

وبرغم مما فعله إسماعيل من أجل توطين العربان واستقرارهم، فإننا نجد أنه مازال هناك البعض من العربان يعترضون على قرارات السلطة ويتوقفون عن دفع الأموال المقررة عليهم، مما دفع السلطات لحصر كامل لجميع ممتلكاتهم لتسديد المستحق عليهم. «وذلك بشأن توقف المذكورين عربان عن تعداد مواشيهم ودفع عوايدهم ولهم زروعات، وقرارات مجلس شورى النواب وأمر سعادة ناظر المالية تقتضى إجراء حصر كامل للمواشى المختصين بالزراعة وتسديد عوايدهم»^(٣).

كما توقف الطحاوية عن سداد المبالغ المطلوبة منهم لجفلك القطاوية عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م ومطلوب تسديد ما عليهم للخبزينة^(٤).

وعلى الرغم من ذلك ومهما تكن العلاقة بين سلطات الدولة والعربان، فإن سياسة التوطين فى عهد إسماعيل قد خطت خطوات كبيرة إلى الأمام، وما حدث فى عهد سعيد من قتال وتشتيت قد أثمر ثماره فى عهد إسماعيل وألف الكثير منهم حياة الاستقرار^(٥). وكان القصد من إعطاء الأتبان إلى العربان هو استقامتهم وتآلفهم مع الأهالى، وعندما ينتفعون من الزراعة وتوجد عندهم المواشى فلا بد أن يقوموا باستصلاح الأراضى من تلقاء أنفسهم^(٦).

(١) على شلىبى: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٢) على شلىبى: المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(٣) دار الوثائق القومية: ل/ ١٥ / ٦٤ / ٢، تابع مال الوارد من مديرية الشرقية عموم، وثيقة رقم ٦٢، ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، ص ٢٢.

(٤) دار الوثائق القومية: صادر مأمورية العربان بالوجه البحرى، ل/ ١٥ / ٧٨ / ١، وثيقة رقم ٢٢٤ بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، ص ٨٦.

(٥) على شلىبى: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٦) دار الوثائق القومية: ديوان المالية، صادر مأمورية توطن العربان، سجل نمرة ٩٨، نمرة عموم ١، بتاريخ ١٧ ربيع ثانى ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م.

كما أمر إسماعيل بتشكيل جمعية من شيوخ القبائل ومندوبين من طرف الحكومة لوضع لائحة عرفت بلائحة معاملة العربان، وتضم هذه اللائحة خمسة عشر بنداً وخاتمة، وأهم ما جاء فيها، أن العربان معافون من الجهادية والأشغال العامة مع إعطائهم أطيافاً ليعيشوا منها نظير تركهم سكن الخيوش^(١).

كما عمل إسماعيل على تشكيل مأمورية للعربان للنظر في الأمور المتعلقة فيما بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين الأهالي^(٢).

وقد كان محل هذه المديرية هو مجلس الزراعة بالزقازيق، وكان بها موظفون يتقاضون مرتبات عن ذلك بما فيهم المأمور، وقد بلغت ماهياتهم عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م ٢١ كيسة وكسور بما فيهم ماهية المأمور^(٣).

خامساً - في عهد الخديوى توفيق:

أما في عهد الخديوى توفيق، فعلى الرغم من وصول معظم العربان إلى حياة الاستقرار وسكن البيوت بدل من سكن الخيش، كما استطاع الكثيرون منهم دفع الأموال المقررة على أراضيهم، فإن هذا لم يكن حال جميع العربان، بل ظل البعض منهم لا يألف حياة الاستقرار^(٤).

وعندما رأى مجلس النواب أن البدو أصبحوا يكونون طبقة من الملاك الزراعيين مثلهم مثل الفلاحين الملاك، وجد أنه يجب أن يعاملوا بالمثل، ومعنى ذلك سحب الامتيازات التى تمتعوا بها من قبل، وهنا ظهر تمردهم ورفضهم لذلك، وعقدوا اجتماعاً فى عام ١٨٨٢م لمشايخ الشرقية والغربية والبحيرة والفيوم والوجه القبلى فى طنطا وقرروا بأنهم لن يسمحوا لمجلس النواب بالتدخل فى شئونهم، وأنهم متمسكون بامتيازاتهم.

وأحست الثورة بخطورة ذلك، فأرسلت حكومتها ألفين من الجنود نصفهم إلى الزقازيق والآخر إلى البحيرة للقضاء على تلك الحركة^(٥).

(١) إبراهيم العدل المرسى: المرجع السابق، ص ٤٧٨.

(٢) دار الوثائق القومية: صادر مأمورية العربان بالوجه البحرى، ل/ ١٥ / ٧٨ / ١، وثيقة رقم ٢، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م.

(٣) دار الوثائق القومية: أدراج الدار، درج رقم ٢٧٨، دفتر رقم ١٩٣٠، محفظة أوامر، أمر كريم من رأس التين إلى

الداخلية، وثيقة رقم ١٤٦، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م، ص ١٣٩.

(٤) وائل بيومى: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٥) لطيفة محمد سالم: القوى الاجتماعية فى الثورة العربية، جامعة الزقازيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٨١م، ص ٤٥١.

كما تعدوا على موظفي الحكومة عندما كانوا يقومون بجمع الأنفار من العربان للقيام ببعض الأعمال الخاصة بالحكومة ، مما يؤكد تمسكهم بامتيازاتهم مهما كلفهم ذلك. فقد قام أحد عربان قبيلة الهنادى بالتعدى على أحد موظفى الحكومة وهو صالح عبد الله وكيل شياخة عراكى سعد بطنطا وعطلوه عن جمع الأنفار المطلوبة من شياخة عراكى سعد شيخ عربان البهجة والهنادى^(١).

كما استغل العربان حالة الفوضى التى سادت البلاد فى أثناء الثورة العرابية وامتنعوا عن دفع الأموال المقررة على أراضيهم، بل واستغلال أهالى البلاد وتحصيل أموال منهم بدعوى أنهم متوجهون للجيش، فكتب أحمد عرابى إلى مدير بنى سويف بإجبارهم على سداد الأموال ووضع من يعتدى منهم على الأهالى فى السجن^(٢).

وقد قامت الحكومة بإصدار أوامرها فى ٣١ مايو عام ١٨٨٥م بشأن معاملة الأشقياء، وألزمت مشايخ القبائل بتسليم الأشقياء إلى المديرية، وفى حالة عدم ضبط هؤلاء الأشقياء يسلم شيخ القبيلة أحد أولاده أو أقاربه إلى الحكومة كرهينة لحين ضبط الأشقياء^(٣).

وفى ٢٠ سبتمبر عام ١٨٨٨م صدر قرار مجلس النظار بخصوص بعض عربان العباددة^(٤) الذين انضموا إلى الثورة المهديّة فى السودان، بمصادرة أراضيهم وإعطائها للمهاجرين الوافدين من السودان^(٥).

وبذلك نجد أن السلطات كانت دائما بالمرصاد لمن يقوم بمثل هذه الحركات من البدو.

مدى نجاح السلطات فى استقرار البدو وتوطينهم:

مما لا شك فيه أنه كان للسلطات دور كبير فى إخضاع هؤلاء البدو وإبعادهم عن حركات التمرد، بالإضافة إلى عوامل طبيعية أخرى ساعدت فى توطينهم واستقرارهم. ولعل من أهم الأسباب التى ساهمت فى ذلك، كان إقرار حقوق الملكية فى مصر قبل غيرها من الدول وهو دافع مهم على الاستيطان وكذلك تطور الزراعة إلى جانب إدخال نظام

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الثورة العرابية، محفظة رقم ٢، التلغرافات، وثيقة رقم ٤٧٤، ٩ أغسطس ١٨٨٢م.

(٢) على شلبى: المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٣) وائل بيومى: المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٥.

(٤) جرجس حنين: الأطيان والضرائب فى القطر المصرى، ط ١، القاهرة، ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، ص ١٩٩.

(٥) على شلبى: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

الرى والاهتمام بالمحاصيل النقدية، وكذلك تطور وسائل النقل بالسكك الحديدية، وكذلك عن طريق النيل، كما كانت الحكومة المركزية القوية فى عهد محمد على من أهم الأسباب التى عجلت بتوطين البدو فى نهاية القرن التاسع عشر^(١).

كما كانت هناك عوامل ساعدت على هذا الاستقرار، وذلك أن مصر من الناحية الجغرافية والاقتصادية كانت مهيأة لأن تقوم بها حكومة مركزية قوية، كما كان لاتساع الرقعة الزراعية أثر كبير، فقد حولت الصحراء إلى أرض تبذر بالبذور مما تسبب ذلك فى إغلاق المسالك والفجوات التى كان يتسلل منها البدو إلى المنطقة الآهلة بالسكان^(٢).

وعلى كل حال، فلم يكد القرن التاسع عشر يقترب من نهايته حتى كان معظم البدو قد استقروا وتوطنوا^(٣).

الخاتمة:

يتضح لنا من خلال هذه الدراسة الموجزة أن العربان كانوا دائما ما ينزعون إلى الرفض والاحتجاج، وذلك يرجع إلى طبيعة الحياة عندهم وتمسكهم بعباداتهم وتقاليدهم التى تجعل من شيخ القبيلة رمزا للنظم والقوانين عندهم، رافضين أى تدخل آخر وهذا بدوره ما كان يعرضهم للاصطدام بالسلطات والقوانين المتبعة.

ولكى تبعدهم السلطات عن مثل هذه الاحتجاجات والتمردات حاولت معهم مرة بالشدة ومرة باللين، وهذه السياسات كان لها دور بارز فى محاولة إخضاع هؤلاء البدو، وقد اتبعها محمد على وكانت ناجحة إلى حد كبير.

كما حاول خلفاء محمد على معهم إلى حد كبير من أجل تطبيق هذه السياسة، ولكننا نجد أن أحد خلفائه وهو سعيد قد استعمل معهم الشدة بدرجة كبيرة من أجل إخضاعهم، مما تسبب ذلك فى صدام كاد يقتل فيه سعيد باشا نفسه، وهذا يدل على مدى مقاومة هؤلاء البدو لمن يحاول المساس بنظمهم والتدخل فى شئون حياتهم.

ولكننا نجد بعد ذلك من تغير أسلوب الحياة وتطور وسائل النقل ودخول الكثير من المحاصيل النقدية التى تدر عائدا كثيرا على الفرد، وكذلك متطلبات الحياة المختلفة، كل

(١) على شلبى: المرجع السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) ج. بيير: دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، ط ١، ترجمة عبد الخالق لاشين، مكتبة الحرية،

القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٥، ٣٧.

(٣) على شلبى: المرجع السابق، ص ١٧٢.

ذلك جعل البدو يسعون إلى الحصول على مسايرة باقى أفراد المجتمع وتغيير نظم حياتهم، وذلك بطلب الحصول على الأراضى الزراعية والاستفادة منها. وعلى الرغم من اتجاه معظم أفراد البدو إلى التوطن والعمل بالزراعة والبعد عن حياة التنقل والترحال، فإننا نجد أن هناك فئة قليلة من هؤلاء البدو رفضت الاستقرار والتوطن وبقىت على حالها من تنقل وترحال.



الشرع يحكم فى البادية

دراسة لعملية أسلمة المجتمع البدوى بين قبائل أولاد على^(١)

سعيد المصرى^(١)

مقدمة:

شكل القضاء البدوى بين قبائل أولاد على بمطروح، فى الوقت الراهن، مسرحا حقيقيا للحضور الإسلامى الفعال فى تطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من الأعراف البدوية. حدث ذلك فى ظل تعزيز قوة المجتمع البدوى على تحييد سلطة القضاء الرسمى، القائم على القوانين الوضعية. صحيح أن العرف ظل قويا عبر تاريخ المجتمع البدوى فى مواجهة قوة المستعمرين البريطانيين، كما ظل محافظا على تقاليده بعيدا عن سلطة الدولة والقضاء الرسمى منذ عهد محمد على، ولم تستطع حركة السنوسية الدينية بتعاليمها أن تحل محله رغم دورها الفعال ومكانتها الروحية فى حل المنازعات. ومع ذلك فإن قوة الحركة الإسلامية خلال العقدين الماضيين هى التى تمكنت من تطويق سلطة العرف، والسيطرة عليه، وإحلال قواعد شرعية جديدة محله، بحجة أن جوهر العرف هو الشرع، وأن عملية الإحلال هذه تشكل نوعا من الإصلاح الدينى لمؤسسة القضاء البدوى عموما. يأتى

(١) يتوجه المؤلف بالشكر والعرفان إلى مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء المصرى لتقديم الدعم المادى والمعنوى لنشر البحث فى صورته الأولية كورقة عمل ضمن سلسلة الأوراق البحثية (ورقة رقم ٨ : ٢٠١٠) والتى أتاحت الفرصة للحصول على تعليقات بعض القراء من المتخصصين أفادت فى إجراء بعض التعديلات المهمة على نص البحث مما استوجب إعادة نشره بصورته النهائية. كما يتقدم بالشكر للأساتذة والزملاء بقسم الاجتماع على تفضلهم الكرم بالموافقة على تقديم الدعم المالى للعمل الميدانى، ويخص بالشكر أ. د/ على الكاوى، رئيس مجلس القسم خلال عام ٢٠٠٦م، الذى تحمس كثيرا لأن تكون الرحلات العلمية قائمة على إجراء بحوث ميدانية. كذلك يشكر المؤلف الأستاذ الدكتور محمد الجوهري والأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد اللذين تفضلا بالاطلاع على البحث قبل نشره، وقدما ملاحظات قيّمة كان لها أثرها المهم فى إثراء البحث، ويخص بالشكر الأستاذ الدكتور محمد الجوهري الذى تجشم عناء مراجعة البحث وتصويب أخطائه وتقديم العديد من الملاحظات التى أفادت البحث حين تم الإشارة إليها فى بعض الهوامش وخصوصا ٣ - ١٣ - ١٤ - ١٨.

(٢) (*) أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا المساعد بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ومدير برنامج القضايا الاجتماعية، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار - مجلس الوزراء.

ذلك في إطار الدور الذي تطمح إليه الحركة الإسلامية، ولا تحيد عنه دائما وهو دفع عمليات التحول الجارية نحو تأسيس مجتمع إسلامي جديد، ليس في البادية فحسب، وإنما في المجتمع المصري ككل. ورغم أن تأثير الحركة الإسلامية في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية البدوية أعلى صخبا في تداول الخطاب والرموز، فإن الحضور الإسلامي في فض المنازعات بدا واقعا فعليا، وأمرأ بديهيها يعمل بهدوء في البادية. على ضوء ذلك تسعى هذه الدراسة إلى رصد أبعاد عملية أسلمة القضاء البدوي بين أولاد على بمطروح، والتي نتج عنها تأسيس القضاء الشرعي كنمط من الحكم، يقوم على فض المنازعات بتطبيق نصوص من الشريعة الإسلامية.

وتنقسم الدراسة إلى خمسة أقسام تبدأ بعرض إشكالية الدراسة ومنهجها، يلي ذلك إطلالة نظرية حول تحولات البداوة والقضاء البدوي من واقع نتائج الدراسات السابقة. وفي القسم الرابع تعرض الدراسة للسياقات المرتبطة بنمو وتطور الحركة الإسلامية في المجتمع البدوي، وفعاليتها في إحداث تغييرات اجتماعية، وثقافية كان لها تأثيرها على إعادة تشكيل ممارسات الضبط الاجتماعي، بما يتفق مع الشريعة الإسلامية. وتعرض نتائج الدراسة في القسم الخامس لصور المنازعات التي يستأثر بها القضاء الشرعي، ومراحل التقاضي الشرعي بدءا من التوسط في النزاع، ثم التفاوض حول المشورة، وجلسات التحقيق، وإصدار الحكم، وصولا إلى تدابير تنفيذ الحكم الشرعي.

الإشكالية والمنهج:

يمثل الشرع في نظر كثير من البدو رمزا للعدالة والحق الذي ينبغي أن يسود بين الناس، حتى ولو كانت بعض صور الحياة البدوية مخالفة للمعايير الشرعية. ويدرك غالبية البدو أن مصدر الشرع هو الله. لهذا يكتسب الخطاب الديني البدوي في الحياة اليومية مصداقيته من استخدام واحترام قدسية الدلالات الرمزية للشرع في تصورات البدو. وما كان للزعامة القبلية أن تكتسب شرعيتها السياسية والأخلاقية الكاملة دون إقرارهم بأهمية الشرع في المجتمع البدوي، وتوظيفهم للمفردات الشرعية في خطابهم اليومي. وبمقتضى ذلك ظلت الأعراف القبلية تستمد قوتها، في نظر البدو عموما والزعامات البدوية التقليدية خصوصا، من كونها قواعد تجسد الشرع في الحياة البدوية. ورغم أن امتلاك المعرفة الإسلامية في

بعض المجتمعات البدوية بشمال إفريقيا شكل مصدرا رئيسا للقوة^(١)، فإن القوة الحقيقية بين قبائل أولاد علي في مصر كانت مركزة في أيدي الزعامات القبلية التقليدية للقبائل، وخصوصا من يعرفون بـ «العواقل» ممن يمتلكون المعرفة بتراث الأعراف البدوية بصفة عامة، وأعراف أولاد علي بصفة خاصة. فهؤلاء يتمتعون بمصداقية قبلية ودينية في نفس الوقت، فهم يمتلكون رصيذا عائليا في الشرف البدوي^(٢) من ناحية، ويمتلكون أيضا شرعية دينية من كونهم يحترمون شرع الله في كلامهم، وأفعالهم، ومواقفهم العادلة في تسيير شئون القبيلة من ناحية أخرى. لهذا كانت الأعراف البدوية التي يحملونها، وينظمون حياة البدو بمقتضاها تشكل مزيجا فريدا من الشريعة الإسلامية وشريعة البادية.

ولما كانت قوة العرف متضافرة مع قوة «العواقل» فقد ظل المزج بين الشريعة الإسلامية وشريعة البادية في الصياغات العرفية متماسكا وقويا، دون أن يفقد شرعيته في عملية فض المنازعات على امتداد تاريخ أولاد علي في مصر. استمر ذلك حتى عام ١٩٥٢م، حين اتجهت الدولة إلى إنشاء بعض المجالس البلدية التابعة لوزارة الشؤون البلدية والقروية آنذاك في مطروح، وبعض المدن الرئيسية بالصحراء الغربية، ثم بداية نشاط هيئة تعميم الصحارى عام ١٩٦٠م، وبداية تنفيذ نظام الإدارة المحلية عام ١٩٦٢م^(٣). وظل هذا الوضع قائما بعد محاولات الدولة الجادة منذ ستينيات القرن الماضي في دمج المجتمعات البدوية^(٤)، وتنفيذ مشروعات للتنمية والتوطين، وإتاحة الخدمات والمرافق، وإنشاء المحاكم ومؤسسات الدولة في البادية، وصدور قانون الإدارة المحلية عام ١٩٧١م، الذي بموجبه تم فصل المجالس الشعبية المحلية المنتخبة عن المجالس التنفيذية. ولا شك أن جهود الدولة في هذا المجال أضعفت سلطة القبيلة عندما أتاحت كثيرا من الخدمات والمرافق، وفتحت آفاقا جديدة للتحضر، وفرص الحياة، والحراك الاجتماعي أمام كثير من البدو بما يتجاوز قدرة القبائل. كما فرضت أوضاع التحضر الحديثة أنماطا جديدة من المنازعات، تشكل تحديا لقدرة

(١) D. F. Eickelman, Knowledge and power in Morocco: The education of a twentieth century notable, 1985.

(٢) ليلي أبو لغد، مشاعر محجبة، ترجمة: أحمد جرادات، القاهرة: نور - دار المرأة العربية، ١٩٩٥م، ٥٩ - ٦٦.

(٣) محمد سعد أبو عامود، محافظة مطروح، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٤م، ٩.

(٤) ليلي أبو لغد، مرجع سابق، ٣٣.

الأعراف القبلية ، وعوائل البدو على فهمها ، وتقديم حلول بشأنها مما جعل للقانون ، ونظم القضاء الرسمى دورا فى مواجهة هذه المنازعات^(١).

ومع ذلك فإن ظهور الحركة الإسلامية منذ أواخر السبعينيات شكل تحديا كبيرا لسلطة الأعراف البدوية ، والقضاء العرفى البدوى من ناحية ، وسلطة الدولة فى تفعيل القانون والقضاء الرسمى من ناحية أخرى. فالإسلاميون الجدد يرون فى المجتمع المصرى ككل - بصورته الراهنة - مجتمعا يسير فى طريق مختلف عن الشرع. ذهب بعض التيارات إلى حد القول إنه مجتمع جاهلى^(٢)، يشبه الحالة الأولى التى كان عليها الإسلام فى مهده، وأنه يتعين قيام مجتمع إسلامى ، على غرار ما كان عليه عهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم.

فى خضم هذا الجدل الإسلامى كانت فكرة الشرع وتطبيق الشريعة الإسلامية هى الآلية الأساسية للتحويل إلى مجتمع إسلامى. وإذا كانت فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية عن طريق العنف المسلح مع الدولة قد فشلت فى قلب القاهرة معقل مركز الدولة بقوتها وهيبته، فإن الفكرة ما زالت قائمة فى نشاط الدعاة فى خطبهم وفتاواهم، وتفاعلمهم الحى مع الناس فى أماكن مختلفة بالريف والبادية، وعبر فضاءات الإعلام الحديث وتكنولوجيا الاتصال.

لم يكن المجتمع البدوى بمنأى عن هذا التيار الجارف ، فالبدو الذين ينفتحون على عالم المدينة ، وينخرطون فى صور الحياة الحضرية المختلفة ، باتوا يتفاعلون مع فضاءات إسلامية جديدة عليهم عبر مؤسسات التعليم ، ووسائل الاتصال الحديثة. وأصبحوا يطالبون بحكم الشرع بدلا من العرف فى شئون حياتهم اليومية. فضلا عن ذلك ، فقد كان عالم البادية بين «أولاد على» على مدى عقدين من الزمن مسرحا لعمليات إحلال نوع جديد من القضاء الشرعى ، محل القضاء العرفى البدوى فى فض المنازعات على يد تيار سلفى من الإسلاميين ، يسعى إلى تحييد دور الدولة. وتُوَجَّ هذا التحويل ببروز نخبة دينية جديدة ، لها شرعية كبيرة فى إحداث تحولات جديدة نحو مجتمع إسلامى ، يرتكز على أسس شرعية. لقد مثل عالم البادية أرضا خصبة لنشاط إسلامى محموم ، يعمل فى ظل ضعف قوة الدولة

(١) ومع ذلك ظلت سلطة القانون العرفى قوية بمقتضى المرونة التى يتمتع بها العرف مما جعله قادرا على استيعاب أنماط التحضر ، والدليل على ذلك أنه استحدثت أحكاما للنزاعات المترتبة على حوادث السيارات والمعاملات التجارية الحديثة ، والتنافس بين البدو على التعيين فى الشركات السياحية وشركات البترول والخدمات البترولية ومصانع إنتاج الحديد والأسمنت فى المناطق الصحراوية.

(٢) سيد قطب ، معالم فى الطريق ، القاهرة: دار الشروق ، ١٩٨٩م.

نسبياً من ناحية، وضعف قوة القبيلة من ناحية أخرى. وعندما تتحول المساجد الكبرى في البادية إلى مجالس شرعية لفض أغلب المنازعات البدوية، وإصدار الفتاوى، بدلا من قواعد العرف والقانون، على يد شيوخ وفقهاء جدد بوصفهم قضاة شرعيين، فى الوقت الذى مازال فيه أغلب البدو لا يحترمون القضاء الرسمى، فهذا يعنى أن ثمة صورا متخيلة حول نمط من الحكم (Governance) الإسلامى أصبحت واقعا، تتسع قاعدته يوما بعد يوم، يعيد للشرع قوته ومجده فى البادية، بعد أن أخفق فى مواجهات العنف الدامى بالحضر^(١). لا شك أن دلائل الأسلمة الجارية فى المجتمع البدوى فى مصر أصبحت واضحة ولا تخطئها العين. ويثير ذلك عدة تساؤلات حول طبيعة تجربة الأسلمة وحدودها، ومدى تغلغلها فى الحياة البدوية، وطبيعة تفاعلها مع البداوة، وكيف استطاعت التوغل داخل نظام القضاء البدوى القائم على العرف. ويتعين أن نسأل ما طبيعة هذه التجربة؟ وكيف نشأت؟ وإلى أى مدى أصبحت واقعا يجرى التشبث به، ليس من جانب نشطاء الحركة الإسلامية فحسب، وإنما من خلال العصبية الدينية الجديدة أيضا فى حياة البدو أنفسهم؟ للإجابة عن تلك التساؤلات اعتمدت هذه الدراسة على بيانات ميدانية، تم الحصول عليها باستخدام أدوات البحث الكيفى، كالملاحظة والمقابلات المتعمقة، وحلقات المناقشة الجماعية التى أجريت ببعض قبائل أولاد على بمطروح. تم ذلك من خلال رحلتين علميتين لطلاب مرحلتى الليسانس والدراسات العليا، وبعض المعيدى، والمدرسىن المساعدين بقسم الاجتماع جامعة القاهرة^(٢). تمت الرحلة الأولى فى يولييه عام ٢٠٠٦م، واستغرقت عشرة

(١) تشير بعض آراء الإسلاميين إلى أن الإسلام الذى نشأ فى بداية القرن الأول الهجرى كان غربيا فى ظل هيمنة جاهلية البادية، وسوف ينتهى به المقام إلى غربية أخرى فى ظل جاهلية جديدة، يتعين مقاومتها، والانتصار عليها، على غرار ما فعل النبى محمد صلى الله عليه وسلم ومن كانوا معه. وفى هذا الصدد هناك شعور لدى الإسلاميين الجدد بين قبائل أولاد على بأن البادية حاليا هى الأرض الخصبة لنشر الدعوة الإسلامية، كما حدث مع البادية الأولى. وبالتالي فإن فى جهادهم فى البادية عودة لانتصار الشرع.

(٢) شارك فى إدارة العمل الميدانى د/ شريف عوض - المدرس بقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وكان له دور بارز فى الحصول على أكبر قدر من البيانات فى مدى زمنى محدود وبجودة عالية. لذا يتوجه المؤلف له بخالص الشكر والتقدير. كما شارك فى إدارة العمل الميدانى د/ محمد عبد السلام - المدرس بقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، والذى كان له دوره المهم فى كافة ترتيبات العمل الميدانى بكل إخلاص، بما استحق معه عميق الشكر والاعتزاز. أما فريق العمل الميدانى من طلاب مرحلة الليسانس، والدراسات العليا بقسم الاجتماع، فقد شارك فى جمع البيانات الميدانية بمطروح: أفنان الديميرى، وبسمة المراغى، وخالد فوزى، وسارة عبد العال، وسماح حسن، وشيماء عبد العليم، ومحمد صقر، ومي عمارة، ونعيمة عثمان، وهالة الحفناوى، وشارك فى تجميع الدراسات والبحوث السابقة والبيانات الثانوية: سارة يحيى، وأسماء صلاح، ولهؤلاء كل الشكر على ما بذلوه من جهد، ولولاهم ما كان ممكناً إنجاز هذا البحث بالصورة التى أصبح عليها.

أيام متصلة، والثانية تمت في سبتمبر عام ٢٠٠٧م لمدة عشرة أيام أيضا. واستخدم في جمع البيانات دليل للعمل الميداني تم إعداده، وطبق على ٤٨ شخصا من شيوخ القبائل، وبعض أفراد من النخبة البدوية في أربع مناطق وهي: مرسى مطروح، والضبعة، والقصر، وأبو مرقيق. وقد جاء اختيار تلك المناطق مستندا إلى ثلاثة اعتبارات أساسية وهي محاولة تمثيل أكبر قدر ممكن لمناطق مطروح المختلفة، وفي حدود الميزانية المحدودة التي وفرتها كلية الآداب جامعة القاهرة لتدبير نفقات السفر والانتقال والإقامة والإعاشة لفريق البحث، وكذلك التسهيلات المتاحة من جانب إدارة تنمية القرية بالمحافظة، والعلاقات الجيدة التي أمكن بناؤها مع بعض الإخباريين من شيوخ البدو في مختلف مناطق مطروح، والتي ساعدت كثيرا على جمع أكبر قدر ممكن من البيانات في مدى زمني محدود.

وفيما يلي نعرض لتحويلات البداوة في إطار الدراسات السابقة، لبيان الإسهام الذي يمكن أن تقدمه هذه الدراسة في فهم آليات التحول بفعل نشاط الحركة الإسلامية بين البدو، يلي ذلك تحليل عمليات تغلغل الحركة الإسلامية في المجتمع البدوي بشكل عام، وعمليات التحول الإسلامي داخل القضاء البدوي بصفة خاصة.

تحويلات البداوة والقضاء البدوي: إطلالة نظرية:

يعود الفضل إلى ابن خلدون الذي قدم أول وأهم تعريف للبداوة، باعتبارها «انتحالا للمعاش الطبيعي الضروري والبسيط قبل الحاجي والكمالي»... وأن «البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي، والقيام على الحيوان والأنعام، وأنهم مقتضرون على الضروري من الأقوات، والملابس، والمسكن، وسائر الأحوال والعوائد». يستخدم ابن خلدون كلمة «العرب» بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن، ويشغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون^(١) من مكان لآخر حسب مقتضيات حياتهم، وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر، وسكان الأمصار^(٢). وقد حدد ابن خلدون عدة خصائص للبدو، بعضها إيجابي والبعض الآخر سلبي، أهمها ما أسماه التوحش والشجاعة، والترحال وانتهاج ما في أيدي الناس، وعدم الانقياد للسياسة، والعصبية، والغلب، والالتحام بالنسب.

(١) بمعنى الانتقال أو الترحال.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: الجزء الثاني، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مطبوعات مكتبة الأسرة، القاهرة: الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ٤٦٩ - ٤٧٠.

ويشير ابن خلدون أيضا إلى وجود المشايخ وكبار القبائل البدوية على رأس بناء القوة «بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة» على حد قوله^(١).
من الواضح أن كثيرا مما ذكره ابن خلدون ينطبق على أهم معالم البدو في الصورة المثالية النقية، التي كانت سائدة لبدو الأجداد في الجزيرة العربية، ومنطقة الصحراء الكبرى، وشمال إفريقيا منذ ستة قرون مضت، وفي ضوءها يمكن أن نحكم على ما آلت إليه أحوال أحفاد البدو في المجتمعات البدوية المعاصرة. ولا يعني ذلك تحول عالم البداوة بصورة كاملة، ولا يعني أيضا بقاء البداوة على حالها، بل ثمة إعادة لإنتاج البداوة بصور جديدة، تحتاج إلى الرصد والتحليل. فبرغم وجود تراث للبداوة يميل إلى الطابع التقليدي، والتشبث بمقومات قد تبدو ثابتة، مثل القرابة الأبوية، والأصالة ورابطة الدم، وغلبة النقل على العقل، وتمجيد الماضي^(٢)، فإن الحياة البدوية قابلة للتغير، وتعيد إنتاج نفسها باستمرار. وقد رصد ابن خلدون في المقدمة أهم تحول يمكن أن يتعرض له البدو في كل مكان، وهو انتقالهم من البداوة إلى التحضر، موضحا الآثار المترتبة على ذلك، والتي حددها فيما أطلق عليه «الترف والدعة وتفكك العصبية». وسجلت البحوث الأنثروبولوجية شواهد كثيرة على التغيرات الناجمة عن استقرار البدو وتوطينهم، مثل: الانخراط السريع في الاقتصاد النقدي على نحو ما حدث لقبائل أولاد علي^(٣)، والاندماج في نمط من الاقتصاد الريعي، كما هو الحال بالنسبة لعنيزة بالسعودية^(٤)، والعمل بالزراعة بين بدو سوريا، والحراك السياسي للبدو داخل نظام الحكم في السعودية^(٥). ونتيجة لشدة التحولات الاجتماعية في حياة البدو، فقد دفع ذلك هامفري وسنيث (Humphrey, and Sneath) في دراستهما عن البدو إلى القول بنهاية البداوة (The End of Nomadism) في عالمنا المعاصر، وقدمتا شواهد للمسارات العديدة التي سلكتها كثير من الجماعات البدوية في آسيا لمواجهة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية الحادة^(٦).

(١) نفس المرجع، ٤٨٠.

(٢) حلیم بركات، المجتمع العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.

(٣) لیلی أبو لغد، مرجع سابق.

(٤) ثریا التركی، ودونالد كول، عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية، ترجمة: جلال أمين وأسعد

حلیم، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩١م.

(٥) Martha Mundy & Basim Musallam, The transformation of nomadic society in the rab East, 2000.

(٦) Caroline Humphrey & David Sneath, The end of nomadism?: Society, state, and the environment in inner Asia, 1999.

لقد كانت التغييرات متعددة ومتشابكة ، وقد حاولت الدراسات الأنثروبولوجية أن تسجل شواهد كثيرة وثرية بشأنها. يمكن تلخيص الجدل المطروح في الدراسات التي رصدت تغير البداوة، والمجتمع البدوي في أربع آليات للتغير، وذلك على النحو التالي:

٣- ١ التغييرات المصاحبة لعمليات استقرار البدو (Sedentarization):

حدثت عمليات الاستقرار لبعض التجمعات البدوية في عديد من المناطق بفعل التغييرات الاجتماعية والاقتصادية، الناجمة عن اتساع نطاق التحضر ونمو المدن؛ وكذلك التغييرات الناجمة عن العولمة في مجال الاتصال والمعلومات، واستخدام التكنولوجيا الحديثة التي ساهمت إلى حد كبير في كسر عزلة البدو، ودفعهم إلى الانفتاح على العالم. وبما أن القوانين والأعراف البدوية تستجيب للحاجات والمشكلات الجديدة التي يفرضها التغير، فقد وثقت بعض الدراسات الأنثروبولوجية بعض الشواهد الدالة على تكيف القانون العرفي في القواعد، والإجراءات، والتفسيرات، والرموز مع نظم القضاء الحديثة في بعض الدول الإفريقية، وأهمها غينيا الجديدة، وتنزانيا خلال حقبة ما بعد الاستعمار^(١). وفي مقابل ذلك، كانت هناك شواهد دالة على بعض الصعوبات أمام فعالية القوانين العرفية في حماية مواد وعناصر التراث الشعبي في غانا، بما يتوافق مع المفاهيم المحلية من ناحية، ومبادئ الملكية الفكرية من ناحية أخرى^(٢).

٣- ٢ التغييرات المصاحبة لعمليات التوطين والإدماج المنظم للبدو:

قامت بعض الحكومات بدمج البدو المقيمين على أراضيها عن طريق إتاحة فرص متكافئة في التوظيف، والتعليم، والإسكان، والحصول على الخدمات الصحية، ومختلف برامج الرفاه الاجتماعي. ومع ذلك لم تؤثر عمليات الدمج على وضع القانون العرفي، الذي ظل محافظا على سلطته وتقاليده ومؤسساته في الدول ذات التعددية العرقية. ففي الصين ظل القانون العرفي، لدى كثير من الجماعات العرقية القبلية، مسيطرا على عملية الضبط الاجتماعي. فرغم إحكام

(١) International African Institute. Ideas and procedures in African customary law. (١) Ed. M. Gluckman, 1969.

– S. F. Moore, Social facts and fabrications: «Customary law» on Kilimanjaro. 1987.

Paul Kuruk, «African customary law and the protection of folklore», (2002): 5 – 25. (٢)

سيطرة الدولة على الجماعات القبلية، فإن تلك الجماعات لا تعرف شيئا عن القانون الرسمي للدولة، ولا تعمل بمقتضاه، وإنما تسير حياتها بموجب قواعد القانون الشعبي أو العرفي^(١). وقد اهتم الأنثروبولوجيون والقانونيون بدراسة مشكلة التعددية القانونية (legal pluralism) التي أتاحت للقوانين العرفية أن تحافظ على وجودها في سياقات مختلفة^(٢).

وهناك شواهد على بقاء التمييز بين القانون العرفي والقانون الرسمي لاعتبارات سياسية. وفي هذا الصدد حاولت مليساً دميان (Melissa Demian) عام ٢٠٠٣م في دراستها لغينيا الجديدة أن تتعرف على صور توظيف القانون العرفي المختلفة بغينيا الجديدة في فض المنازعات داخل المحاكم المحلية والمحاكم العليا. وقد أوضحت دراسات الحالة أن كلا من القضاة المحليين والقضاة في المحاكم العليا يستخدمون العرف والقانون كمصادر استراتيجية للسلطة. ففي الوقت الذي يميل فيه القضاة المحليون في فض المنازعات إلى اتخاذ الأعراف كحقائق مسلمة، ومن ثم يتعيّن عليهم اكتشاف القانون في ضوءها، فإن قضاة المحاكم العليا يسيرون في الاتجاه المعاكس؛ حيث يتعاملون مع القوانين كمسلمات، ثم يكتشفون الأعراف في ضوءها. ومن هنا لا يوجد توليف بين الأعراف والقوانين تحت ما يسمى بالقانون العرفي، بل يجرى تعزيز التفرقة بينهما، كي يصبح أحدهما مصدرا يتعين على الآخر أن يسير على ضوءه^(٣).

وهناك بعض البحوث التي رصدت نشاط الدولة نحو دمج منظومة القيم العرفية في نظامها القضائي بصورة انتقائية، لا تسمح بتعارض العرف مع القيم الدستورية. ففي جنوب

Zhang Xiaohui & Wang Qiliang, «The change and function of folk law of ethnic minorities in modern society», (2003): 33.

G. D. Westermarck, «Court is an arrow: Legal pluralism in Papua New Guinea», (٢) (1986): 131 – 149.

– G. Donne, «Custom in the legal system», (1987): 3 – 6.

– Jonathan Aleck, «Mismeasuring the law: Some misconception concerning the nature of law and custom in Papua New Guinea today (1993): 93 – 109.

– M. Goddard, «Off the record: Village court praxis and the politics of settlement life in Port Moresby», (1998): 41 – 62.

Melissa Demian, «Custom in the courtroom law in the village: Legal transformations (٣) in Papua New Guinea», (2003): 97 – 115.

إفريقيا كان تطبيق القانون العرفي مقترنا بالتمييز ضد النساء. وقد حاولت الدولة التوفيق بين القانون الرسمي والقانون العرفي بإجراءات تشريعية محددة فى إطار حماية مبدأ العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين^(١).

٣ - ٣ التغييرات المصاحبة لعمليات التدين فيما يعرف بالأسلمة

اجتاحت العديد من المجتمعات العربية، والإفريقية، والآسيوية موجة من التدين بفعل تزايد أنشطة الجماعات الدينية. وكان للحركة الإسلامية تأثيرها الكبير على إحداث تغييرات اجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية لم يقف مداها عند حدود المناطق الحضرية والريفية فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى أطراف الصحارى، والتجمعات البدوية. وفى هذا الإطار تعرضت الدراسات التى أجريت حول هذا الموضوع لأربعة من مظاهر أسلمة البدو وهى:

٣ - ٣ - ١ الأسلمة بالقسر:

يقصد بذلك دفع البدو إلى تغيير دينهم بفعل الغزو، والمثل التاريخى الدال على ذلك مرتبط بالأسلمة الناتجة عن الغزو التركى لمنطقة وسط آسيا فى نهاية العصر البيزنطى. حيث قدم سبيروس فريونيس الأصغر (Vryonis, Jr. Speros) تحليلا تاريخيا وإثنوجرافيا لمظاهر من الأسلمة، ارتبطت بانهييار الحضارة البيزنطية، وتكوين مجتمعات إسلامية فى آسيا الصغرى، يمتزج فيها الطابع الرعوى بالإسلام. وفى ظل التفاوت بين الغنى المرتبط بالإسلام، وفقر المناطق التى تم غزوها، كانت دوافع التحول الدينى والردة لدى الرعاة، مصحوبة بمزايا اقتصادية، وحراك اجتماعى، ومزيج من الخوف والافتناع الدينى، والضعف الثقافى^(٢). وقد لخصت كتابات ابن خلدون هذه الحالة التاريخية الفريدة بقوله: «الناس على دين ملوكهم»^(٣). وبما أن الغزاة مسلمون، فسوف يكرسون سلطتهم بقوة تطبيق الشريعة الإسلامية فى آسيا الصغرى. لهذا يمثل التأثير التركى أولى المحاولات لأسلمة البدو، ومزج الأعراف البدوية بمبادئ إسلامية.

(١) Monique Deveaux, «Liberal constitutions and traditional cultures: The South African customary law debate», (2003): 161 - 180.

(٢) Speros Jr. Vryonis, «Nomadization and Islamization in Asia Minor», (1975): 41 - 71.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، ٧١٢.

٣ - ٣ - ٢ الأسلمة بالتحالف السياسي:

شهدت بعض المجتمعات العربية ظاهرة التحالف السياسي للنخبة البدوية مع النخبة السياسية، والدينية في نسيج النظام السياسي. ويعد نموذج تكوين الدولة السعودية في أوائل القرن العشرين أول عملية أسلمة، اعتمد تكوينها على التحالفات القبلية والدينية (الوهابية مع البدو)، ومنحهم امتيازات نظير الحفاظ على وحدة المملكة، وبسط نفوذ السلطة السياسية على كامل الجزيرة العربية. وهناك أمثلة أخرى من التاريخ المعاصر حاولت تطبيق الشريعة الإسلامية بتحالفات شبيهة، كما في السودان، والصومال، ونيجيريا، وأفغانستان؛ لكنها واجهت صعوبات محلية ودولية حالت دون استمرارها. وتشير بعض الدراسات إلى الآثار السلبية لمثل هذه التجارب، حيث أدى تطبيق الشريعة الإسلامية بدءاً من ١٩٩٩م - من خلال القضاء الرسمي في نيجيريا - إلى وقوع انتهاكات في حقوق الإنسان^(١).

٣ - ٣ - ٣ أسلمة التحول الثوري:

كانت التجربة الإيرانية نموذجاً للتحول الثوري نحو بناء دولة إسلامية من خلال سيطرة رجال الدين على الحكم، بحيث كان لهم دور فاعل في تحويل القضاء الرسمي إلى قضاء إسلامي، يطبق على كل الإيرانيين بمن فيهم من البدو. وقد أشار لويس بيك (Lois Beck) في دراسته عن رعاة كشققة (Qashqa) بإيران إلى أن الجمهورية الإسلامية كانت بصدد مجموعة من الأقليات العرقية من البدو الرعاة، الذين تميزت حياتهم بالبدو. وكانت نظرة رجال الدين لهم أن إسلامهم قريب من الجاهلية، وأنه يتعين عليهم الانخراط في المجتمع الإسلامي الجديد وفق مبادئ الشريعة الإسلامية. ورغم كون الأسلمة شكلت فرصة للاندماج الاجتماعي للبدو في المجتمع الإيراني، فإن الأعراف مازال لها تأثير على تسيير حركة الضبط الاجتماعي بين البدو. ومع ذلك، فإن خلط الأعراف بالشريعة قائم بين البدو الإيرانيين على قاعدة الأسلمة، التي فرضتها الجمهورية الإسلامية في إيران على كل الشعب الإيراني^(٢).

(١) Osita Nnamani Ogbu, «Punishments in Islamic criminal law as antithetical to human dignity: The Nigerian experience», (2005): 165 – 182.

(٢) Lois Beck, «Herd owners and hired shepherds: The Qashqa'i of Iran», (1980): 327 – 351.

٣ - ٣ - ٤ الأسلمة في إطار حركة اجتماعية:

يقصد بذلك نشاط الدعوة الإسلامية القائم على عمل دؤوب ومنظم، بين مجموعات من الناس، يعملون وفق تنظيمات محددة ذات طابع ديني، ويجمعهم قاسم فكري وإيديولوجي مشترك. وتتخذ أفعال هؤلاء طابع الحركة الاجتماعية، التي تبتغى تحقيق تغيرات اجتماعية في اتجاه تكوين مجتمع مسلم، على غرار ما حققته دعوة الإسلام في بدايته. ويتسم النشاط الحركي الإسلامي وسط التجمعات البدوية عموماً بالتفاعل المباشر، والكثيف وجهاً لوجه مع الناس، وتعبئتهم وفق أجندة سياسية غير معلنة، يجري العمل بها خلف ستائر الإصلاح، والدعوة إلى تبني القيم الحميدة والتقوى. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك في مناطق متعددة من العالم، يتركز فيها قبائل بدوية مثل أفغانستان وباكستان والهند والعراق والأردن وعرب إسرائيل وسوريا ولبنان ومصر والسودان والجزائر والمغرب.

والدراسات التي ترصد هذه الظاهرة محدودة للغاية، باستثناء دراسة لايش وشمولى (Layish, and Shmueli) اللذين كتباً حول العلاقة بين العرف والشرع لدى البدو، وتوصلاً إلى أن هناك تأثيرات جديدة على الأعراف البدوية من واقع إعادة تفسيرات جديدة لمبادئ إسلامية باسم الشرع. وفي عام ١٩٩١م، طور لايش أفكاره بشواهد ميدانية جديدة، تؤكد الأسلمة في المجتمعات البدوية من خلال آلية الإفتاء، التي أصبحت تؤثر بقوة على أساليب فض المنازعات بين البدو. حيث درس الفتوى بوصفها آلية محورية في أسلمة القبائل البدوية، بالتطبيق على قبيلة على حسن ببيت ساحور في القدس، وبيت لحم. وأشار إلى أن الإسلام بمنظومة معتقداته، ومؤسساته مازال يلعب دوراً رئيساً في تشكيل المجتمع البدوي الرعوي^(١).

وتشير دراسة لايش (Layish) إلى أن البدو مسلمون وإسلامهم غير مكتمل، لذا فإنهم لا يوفون الطقوس الإسلامية حقها، ولا ينظمون أحوالهم الشخصية وفقاً للشرعية الحقة. وبموجب الاستقرار الذي حدث لهؤلاء البدو فقد أصبحوا أكثر اقتراباً من الإسلام الحرفي، وأصبحت أساليب حياتهم تدريجياً أكثر ارتباطاً بالعبادة والتقوى. وبموجب آلية الفتوى - على حد قوله - تم اختراق مؤسسات القضاء البدوي من جانب الشرعية الإسلامية. وتعد

(١) Aharon Layish & A. Shmueli, «Custom and (Shari'a) in the Bedouin Family according to Legal Documents from the Judaeen Desert», (1979): 29 - 45.

المحكمة مكان التقاء الشريعة والعادات، ويمثل القضاة عنصرا فاعلا في تحقيق الموازنة بينهما. ويلعب المفتى دورا رئيسيا في إقناع البدو - الذين تربوا على القانون العرفي - بأهمية تطبيق الشريعة في حياتهم. وكشفت هذه الدراسة أن هناك علاقات اجتماعية، وعلاقات عمل ما بين القاضى والمفتى، ومع ذلك يوجد تنافس كامن بينهما على السلطة السياسية، والمكانة العامة التي يسعى كل منهما إلى تحقيقها، والحفاظ عليها. وعلى الرغم من كون الفتوى غير ملزمة، وتنفيذها مسألة طوعية، فإن العمل بالفتوى يشكل أداة لتقريب البدو من الإسلام الأصولى. وتكتمل عملية أسلمة البدو من خلال النشاط التعليمى التلقينى للتعاليم الدينية^(١).

وبرغم أهمية هاتين الدراستين فى تقديم بيانات عن ظاهرة الأسلمة فى المجتمع البدوى بشكل عام، والقضاء البدوى بصفة خاصة، فإن هناك نقسا شديدا فى الدراسات التى يمكن أن توفر بيانات جديدة حول عمليات الأسلمة، وتفاعلها داخل القضاء البدوى، من واقع نماذج كثيرة للمجتمعات البدوية فى آسيا وشمال إفريقيا.

وإذا تأملنا آليات تحول البدو عموما من واقع الدراسات التى حاولت أن تعالجها، فسوف نلاحظ أن تأثير هذه الآليات الأربع لم يكن واحدا، بل اختلف كل منها فى طبيعته، ومدى تأثيره على مجمل الحياة البدوية. فالآليات الثلاث الأولى أثرت على حدود اندماج البدو فى العالم المحيط بهم، وبالأخص مؤسسات الدولة المدنية. حيث أتاحت فرصا لتحسن الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، ونوعية الحياة، وحققت قدرا من الحراك الاجتماعى، وساهمت فى بناء جسور بين القبيلة والدولة. ولقد كان هناك زخم لا بأس به من الدراسات والبحوث الميدانية حول مظاهر هذا التحول فى كثير من المجتمعات البدوية. أما الآلية الرابعة المتعلقة بالحركة الإسلامية فقد كان تأثيرها مرتبطا بالنشاط الذى مهدت له الجماعات السلفية فى الحد من التصوف، والاعتقاد فى الأولياء^(٢). كما بدأ تأثير الحركة الإسلامية مختلفا باختلاف تجارب الأسلمة فى العديد من المجتمعات البدوية

(١) Aharon Layish, «The {fatwā} as an instrument of the Islamization of a tribal society in process of sedentarization», (1991): 449 - 459.

(٢) فاروق أحمد مصطفى، ومحمد عباس، صناعة الولى: دراسة أنثروبولوجية فى الصحراء الغربية، القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م، ٢١٩.

فى العالم، رغم أنها ركزت على أهم عنصر فى الحياة البدوية وهو القضاء البدوى، الذى يمثل قلب البداوة، ويمنحها البقاء والاستمرار أمام كل رياح التغيير المحيطة بالبدو. كما أن تغلغل الحركة الإسلامية داخل هذا المكون أعاد إلى البداوة سحرها الذى يفيض بالحياة، وجاذبيتها فى أفئدة بعض الإسلاميين، كما أعاد إليها أيضا شبح العزلة، واتخاذ موقف مناوئ من الدولة. ونظرا لأن هذا التحول جار منذ عقدين من الزمن حتى الآن، فما زالت الدراسات والبحوث قليلة فى رصد تداعياته على تغيير المجتمع البدوى بصفة عامة، والقضاء البدوى بصفة خاصة.

وهناك دلائل على وجود عمليات أسلمة مكثفة تتم داخل مؤسسات المجتمعات البدوية فى ثلاث نقاط حدودية فى مصر، وهى سيناء شرقا، ومطروح غربا، وحلايب وشلاتين جنوبا. وفى ظل تراجع اهتمام علم الاجتماع فى مصر بالبدو بصفة عامة، والقضاء البدوى بصفة خاصة خلال السنوات الأخيرة، فإن كثيرا من الأسئلة المطروحة حول حدود، وأبعاد، وتداعيات أسلمة القضاء البدوى بالتطبيق على أولاد على، يمكن أن تساهم فى فهم تحولات البدو الناتجة عن تأثير الحركة الإسلامية. فالبحوث التى أجريت حول البدو والبداوة لم تلتفت بصورة مباشرة لعمليات أسلمة المجتمع البدوى. وفى المقابل، لم يكثر الزخم الهائل للبحوث والدراسات المعاصرة التى أجريت عن الحركة الإسلامية بتغلغل حركة الإسلاميين واختراقهم المجتمع البدوى. لهذا تكمن أهمية هذه الدراسة فى تقليل الفجوة المعرفية القائمة حول أسلمة المجتمع البدوى. كما أنها تفيد أيضا فى لفت انتباه صناع القرار إلى أهمية الإسراع فى تحقيق الاندماج الاجتماعى للبدو فى مصر، بوصفه الضمان الأساسى لتحقيق الأمن القومى.

الحركة الإسلامية فى المجتمع البدوى:

لن يتسنى لنا أن نفهم طبيعة ومدى التغيير الذى حدث فى مجال إحلال القضاء الشرعى محل القضاء البدوى بين قبائل أولاد على بمطروح ما لم نلق الضوء على نشأة، وتكوين، وفعالية القوى الإسلامية الفاعلة فى إحداث هذا التحول. لقد بدأ وجود الحركة الإسلامية متمثلا فى الجماعات السلفية منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضى فى مطروح، متزامنا مع الوجود النشط للحركة الإسلامية - عموما - فى مختلف أرجاء المجتمع المصرى. وشكل حضور السلفيين فى هذه البقعة النائية من البادية عنصرا فاعلا

فى إحداء تغفراء اءءماعفة بعفةء المءى؁ رءم الأواء الموءسسى الكبفر؁ وءفر المسبوق للءولة بمطروء من ناءفة؁ وانفءاء البءو ءفر المسبوق على العالم عبء وسائل الاءصال الءفءة؁ من ناءفة أءرى. ولم تكن نشأة الءركة الإسلامفة ءاأل البفةة البءوفة من فرار؁ وإنما ارءكز وءوءها على رصفء أارفءى من الروابط بفن الءفن والباءوة. وقء ساهم ذلك فى ءءبفء أقءام رموز الءركة الإسلامفة فى مءالاء مءءلفة من ءفاة البءو؁ بما فى ذلك القضاء البءوى.

الءصافء بفن الءفن والباءوة:

فشكل الءفن مءونا رئفسا فى ءقافة البءوة على اعءبار أنه فءعلق بالهوفة البءوفة. وبمءءضى ذلك فمءل الإسلام ءزءاً أصفلا من هوفة أولاء على؁ فكءفرا ما فءءء أولاء على عن هوفءهم بالءوءة إلى ماض مقدس؁ ففءرن بنسبهم الشرف الذى فمءء إلى قبفلة بنى هلال وبنى فاس بالءرفرة العربفة؁ وارءباط وءوءهم فى الشمال الغربى من مصر بالفءوءاء الإسلامفة. «فالانءماء لهؤلاء الأءءاء منء أولاء على ماضفا شرففا ومءروففا؁ ءفر أن الانءماء إلى أءءاء شاركوا فى الفءء الإسلامى لهو أمر أعلى مكانة وأكثر مءءاً»^(١).

ظلاء المءرفة الإسلامفة على مءى أارفء المءءم البءوى لأولاء على ءعءمء على نشاء بعض رءال الءفن؁ ممن فعلمون الأءفال اللغة العربفة؁ وءفظ القرآن؁ والعباءاء بالزوافا. وكاءء السنوسفة أقءم ءركة إصلاء ءفنفة فاعلة بفن قبائل أولاء على؁ ومءمل مناطق الواءاء بالصءراء الغربفة. ءفء فءوء أارفء السنوسفة إلى عام ١٨٤١م؁ عنءما رءلوا عن الءءاز؁ وءركزوا فى شرق لفبفا؁ ثم أسسوا بعء ذلك مءرءا ءعلفمفا منافسا للأزهر فى واءة ءءبوب بالصءراء الغربفة بمصر. واعءمء إءوان السنوسفة فى نشاءهم على نوع من الءعلفم فءءء طابعا ءفنففا؁ وعلى الءصامن الاءءماعى؁ والءوسء فى ءل المنازعااء بفن البءو. وكاءء الزوافا^(٢) الءى أقامها السنوسفة ءول بعض الآبار — مرءبطة بقبائل أولاء

(١) ءونالء كول؁ وءرفا ءرءكى: أهل مطروء: البءو والمسءونون والءفن فقصون العطلااء؁ ءرءمة: مءمء على فرء؁ مراءعة: طلعاا الشافب؁ الفاهرة: المءلس الأعلى للءقافة؁ ٢٠٠٥م؁ ٧٨.

(٢) أسساا السنوسفة ١٤٦ زاوفة منها ٣١ زاوفة فى الصءراء الغربفة بمصر (٦ زوافا فى الواءى الءءفء؁ و٢ فى الوااء البءرفة؁ و٦ فى سفوة؁ و١٧ زاوفة فى السائل الشمالى الغربى بءافة من منءة الإءصاب فى السلوم وءءى ءوش عفسى بالءءففة)؛ مما فعنى أن أكثر من نصف عءء الزوافا بمصر كان من نصفب أولاء على. انظر المرفء فى:

ءونالء كول؁ وءرفا ءرءكى؁ أهل مطروء: مرفء سابق؁ ٢٤.

E. E. Evans – Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, 1949.

على والعائلات الكبيرة التابعة لها - بمثابة مراكز دينية لتفعيل هذه الأنشطة. فالزاوية كانت مكانا لتعليم القراءة والكتابة، وتعاليم الإسلام من منطلق مبادئ السنوسية، وكانت الزاوية أيضا مكانا لضيافة المسافرين، وتوفير الملاذ لمن يطلب الحماية، وكذلك التوسط في فض المنازعات. وكان إخوان السنوسية - من منطلق ديني - على استعداد للعمل كمدرسين جوالين، ينتقلون من مخيم لآخر لنقل المعرفة مقابل المأكل. كما استطاع إخوان السنوسية التحكم في حياة البدو، من خلال مكانتهم الدينية، وادعائهم بامتلاك القوة الروحية الخارقة، القدرة على إيذاء الآخرين وتشيدهم.

وقد بلغ تأثير السنوسية الروحي أقصى مداه حين قبل أولاد على المشاركة بفرسانهم في الجيش الذي كونه السنوسية بإيعاز من الأتراك، وخوض حرب ضارية حتى الموت ضد القوات الإنجليزية بين عامي ١٩١٥م و١٩١٦م في وادي ماجه^(١). وقد استطاعت السنوسية حث القبائل على الانضمام لهذه الحرب باعتبارها حربا دينية بين المسلمين والمسيحيين، وكانت فتوى السنوسية حينذاك أن من يقتل جنديا إنجليزيا يدخل الجنة. غير أن نهاية هذه الحرب غير المتكافئة كانت قاسية بعد هزيمة جيش السنوسية، وتدمير كثير من مظاهر الحياة البدوية، وتشريد البدو^(٢). وما زال بعض أحفاد فرسان أولاد على من العواقل والشباب يفخرون حتى اليوم بهذه التضحيات، ويعتبرونها رمزا لمكانتهم وهيبتهم بين القبائل^(٣).

ورغم انتهاء دور السنوسية بنهاية الحرب العالمية الأولى، فإن بعض رواسب التوجه الصوفي السنوسي ظل قائما مع نشاط بعض رجال الدين ممن ينتمون إلى قبائل المرابطين^(٤)؛

(١) في هذا الوقت لم يكن مسموحا للبدو الانضمام للجيش النظامي المصري، امتدادا للسياسة التي اتبعها محمد على مع البدو بصفة عامة، والتي تقضى بإعفائهم من الخدمة العسكرية، والخدمة الوطنية نظير دورهم في حفظ النظام في الصحراء، وحماية الحدود. وأدى هذا الإعفاء إلى تهميش البدو في إطار تحديث الاقتصاد السياسي في مصر.

(انظر مزيدا من التفاصيل في: كول والتركي، أهل مطروح، ١١٢ - ١٢١).

(٢) دونالد كول، وثريا التركي، أهل مطروح: نفس المرجع، ١٢١ - ١٢٦.

E. E. Evans - Pritchard, op.cit.

(٣) لا يعنى ذلك بطبيعة الحال فخر البدو بالمشاركة في الحرب من منطلق شعور وطني، بل يعنى أن الانتماء إلى الإسلام والعروبة والقبيلة لدى البدوى يشكل ثلاث دوائر أساسية للهوية تدفع إلى المقاومة والتضحية.

(٤) هناك تقسيم اجتماعي لدى أولاد على قائم على التفاوت في المكانة القبيلية بين من يطلق عليهم السعدا والمرابطون. ويطلق اسم السعدا على القبائل الحرة، القوية، والأرفع في المكانة الاجتماعية من أولاد على، وقد كانت في الماضي تتمتع بامتيازات اجتماعية واقتصادية وسياسية. ومن أهم هذه الامتيازات ارتفاع قيمة دية القتل منهم، =

وهم يعملون في بعض المساجد وزوايا أضرحة الأولياء، بالإضافة إلى عملهم كمعالجين للأمراض باستخدام المعتقدات، وممارسات الطب الشعبي. وقد وصفت ليلي أبو لغد هؤلاء منذ ربع قرن تقريبا بقولها إنهم: «يضمون شخصيات دينية تقيية أو مقدسة (ينتمون إلى فئة يطلق عليها المرابطون بالبركة)»، وبرغم اعتبارهم - بشكل عام - أدنى منزلة من الناحية الاجتماعية والسياسية، فإن أولئك الذين لم يفقدوا صيتهم كأشخاص أتقياء، ينظر إليهم بنوع من الرهبة والإجلال. لقد اعتادوا أن يقوموا بدور المصلحين الذين يبذلون جهودا من أجل السلام، واستمر دورهم كمداوين^(١). وبذلك حظى «المرابطون بالبركة» أو ما يطلق عليهم «المرابطون على الأضرحة» بمكانة مرموقة على مدى خمسين عاما تقريبا، منذ انتهاء حركة السنوسية بعد الحرب العالمية الأولى، وحتى منتصف سبعينيات القرن الماضي.

لقد ارتبط دور المرابطين على الأضرحة بنشاط ديني مكثف، يعتمد على المعتقدات الشعبية ذات الطابع الصوفي حول أضرحة الأولياء في البادية. وتركز نشاطهم الرئيسي حول ثلاثة أولياء رئيسيين هم: سيدى العوام فى قلب مدينة مرسى مطروح، وسيدى عبد الرحمن فى شرق مطروح، وسيدى برانى فى غرب مطروح. وإلى جانب هؤلاء كانت هناك عدة أضرحة أخرى متناثرة فى جميع أرجاء البادية، تمثل مقار ثانوية لأنشطة المرابطين بالبركة. لقد استمد هؤلاء المرابطون هيبتهم من نسبهم الشريف من ناحية، ومن رعايتهم لأضرحة

= وتمتعهم بحق النزلة، أى حمايتهم لمن ينزل إليهم بمعنى يلوذ بهم؛ فعند وقوع حادثة قتل تلجأ إليهم عائلة القاتل لمدة عام حتى يحل النزاع عرفيا. ويرجع نسب السعدى إلى سعدة، وهى سيدة يقال إنها من سلالة بنى سليم، التى ينتمى إليها النبى محمد صلى الله عليه وسلم من حيث النسب. أما المرابطون فهم أتباع السعدى، يساعدهم فى أعمالهم وحروبهم مقابل الولاء لهم والتمتع بحمايتهم. وبمقتضى ذلك يدفع المرابطون جزية للسعدى ويحرمون من حق النزلة. ويقال إن السعدى حينما كانوا يحاربون، كان المرابطون «يربطون» حول الماشية والنساء والأطفال. ويشير دونالد كول وثريا التركى (٢٠٠٥م، ٨٩) إلى أن المرابطين كانوا «يربطون» فى المواقع الأمامية التى احتشد بها المسلمون فى المراحل الأولى من نشر عقيدتهم فى شمال إفريقيا. الآن تغيرت حدة التفاوت بين السعدى والمرابطين، بعد أن حقق ثراء بعض القبائل المرابطة توازنا فى المكانة مع قبائل السعدى، ولم تعد القبائل التابعة مرتبطة بالقبائل الحرة، ونشأت علاقات زواج محدودة بينهما. ومنذ بضعة أعوام أصبحت الجميعات، وهى قبيلة مرابطة، تتمتع بحق النزلة. كما ساهم تدين بعض المرابطين فى إعطائهم الهيبة، ويطلق عليهم مرابطون بالبركة بموجب ادعائهم الانتساب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم من الأشراف. (انظر مزيدا من التفاصيل فى: كول والتركى ٢٠٠٥م، ٨٨ - ٩٦). وقد أشارت ليلي أبو لغد إلى أن العلاقة بين السعدى والمرابطين يجرى التعبير عنها بمصطلحات قرابية لتخفيف حدة التفاوت بينهما (ليلي أبو لغد ١٩٩٥م، ٥٧ - ٥٩).

(١) ليلي أبو لغد، مرجع سابق، ١٧٦.

الأولياء، وتنظيمهم للاحتفالات السنوية بموالد الأولياء، من ناحية أخرى. وكانت زيارات الأضرحة توفر مورداً مالياً منتظماً لعمل هؤلاء المرابطين من خلال الذنور، والعلاج الشعبي من الأمراض. وكانت احتفالات الموالد التي تقام كل عام مهرجاناً روحياً، وبهيجاً، يلتقى فيه كل البدو من كل بقاع البادية، يصلون ويقيمون حلقات للذكر، ويمارسون طقوساً للاستشفاء، ويأكلون، ويمرحون، ويتسوقون ويذبحون الذبائح ندوراً للأولياء.

إلى جانب ذلك كانت الأضرحة تشكل مكاناً مقدساً مهيباً لأداء القسم عند فض المنازعات. حيث يشترط العرف، عند عقد المجالس العرفية، على المتهم بالسرقة مثلاً أن يؤدي القسم، إن كان بريئاً، أمام ضريح مهم كسيدي العوام وذلك من منطلق الاعتقاد بأن العوام شاهد عليه، وسوف يعاقبه بالبلاء إن كان كاذباً. وكانت طقوس هذا القسم مهيبية، ويخشها كثير من البدو إجلالاً لقدسية المكان وصاحبه، ورهبة من غضبه، وأملاً في استرضائه. وبطبيعة الحال، كان المرابطون على الأضرحة يلعبون دوراً مهماً في فض المنازعات بالتعاون مع العواقل، على أساس إضفاء الطابع الديني على الأعراف عند إقرارها وتفعيلها في حل المنازعات. فضلاً عن ذلك، فقد كانت قدسيتهم واحتكارهم للمعرفة الدينية تعطيهم دوراً محورياً في إمداد العواقل، والزعامات القبلية بالدلائل الشرعية، التي تعزز ما يتوصلون إليه من أعراف. لقد كان العواقل وزعماء القبائل أشبه بالمنظرين للأعراف التي تضمن تحقيق التضامن الاجتماعي، والترابط القبلي في المقام الأول، وفي المقابل كان المرابطون حول الأضرحة من المتصوفة أشبه بالأولياء الأحياء، يمتلكون من المعاني والأسرار الإلهية ما يمكنهم من مباركة شرعية العرف إسلامياً. وهكذا تطورت الأعراف البدوية بمزيج من ثقافة البداوة، ونوع من التدين تحت راية شرعية مستمدة من الله. لهذا يصر العواقل دائماً على اعتبار أن الشرع كان دائماً جوهر العرف، حتى ولو انحرفت بعض الأعراف عن مسار الشرع لسبب أو لآخر. فحين يتشكك البدوي في حكم بعض أحد العواقل في نزاع ما، فإنه يقول له: «شرع الله عند غيرك» كناية عن رفضه للحكم الذي يستند لعرف لا يروق له. ومن ثم يعبر عن رغبته في اللجوء إلى شخص آخر من العواقل، للفصل في النزاع من منطلق العرف أيضاً، عله يجد لديه حلاً مناسباً.

وهكذا ظل هذا النوع من الشرعية الدينية للأعراف البدوية والقضاء العرفي البدوي قائماً بين أولاد علي حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي. ومنذ ذلك الحين، بدأ

زلزال الحركة الإسلامية، الذى اجتاحت المجتمع المصرى بأسره، تصل توابعه إلى البادية فى الساحل الشمالى الغربى لمصر. وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من العلاقة بين الدين والبدو على يد جيل من المهاجرين من أبناء وادى النيل، نجحوا فى إيجاد صيغة ملائمة من التعايش مع البدو، تستند إلى أرضية دينية، واحتراما لمكانتهم الدينية. كما شكل وجود جيل جديد من البدو المتعلمين نقطة التحول الرئيسة فى تعزيز سلطة النخبة الإسلامية الجديدة، وتمكينها من إحداث تغييرات اجتماعية واسعة النطاق. وسنرى كيف حدث ذلك!

دور المهاجرين فى أسلمة المجتمع:

لعب بعض المهاجرين دورا فاعلا فى تعزيز النشاط الدينى بين البدو، فى إطار عملية دمج الدولة للمجتمع البدوى بمطروح. وعبر سعيهم الدءوب للاندماج فى البادية^(١) فقد واجه هؤلاء المهاجرون صعوبات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية خلال احتكاكهم بالبدو^(٢). وللتغلب على تلك المصاعب لجأ المهاجرون إلى بعض آليات الاندماج بين البدو، بهدف التعايش والاستقرار. من بين هذه الآليات الزواج المتبادل مع البدو^(٣)، والحرص الدائم على شغل المناصب الرفيعة فى الوظائف المدنية، وتحقيق الثراء الاقتصادى خلال

(١) قامت جهود التنمية فى التجمعات القبلية بمطروح منذ ستينيات القرن الماضى على أكتاف كثير من المهاجرين من أبناء وادى النيل، وخصوصا الموظفين الرسميين فى مجال الخدمات والمرافق.

(٢) واجه هؤلاء المهاجرون صعوبات فى الاندماج بين البدو لاختلاف ثقافتهم عن ثقافة البدو، وبسبب التصورات النمطية السلبية المتبادلة لدى كل من البدو من ناحية، والمصريين من أبناء وادى النيل من ناحية أخرى (ليلى أبو لغد ١٩٩٥م، ٣٤). وظهرت بعض تلك الصعوبات فى الصراعات ذات الطابع الاقتصادى فى علاقات العمل والمعاملات التجارية (كول والتركى ٢٠٠٥م، ١٠٣). وكذلك الصراعات الناتجة عن المطالبة بالتمثيل السياسى فى المجالس النيابية أسوة بالبدو (كول والتركى ٢٠٠٥م، ١٧٧).

(٣) مازالت حالات الزواج بين أبناء وادى النيل وقبائل البدو المقيمين بمطروح محدودة، وتتنحصر بين بعض قبائل المرابطين التى تحتل مكانة أدنى. وهناك حالات زواج قليلة للغاية بين قبائل على الأحمر. قد يقبل البدو على مضم زواج الرجل منهم من امرأة مصرية من وادى النيل، ولكن زواج المرأة البدوية من رجل مصرى يعد أمرا صعبا للغاية. وقد أشار دونالد كول وثرىا التركى فى دراستهما لأهل مطروح إلى أن غالبية أولاد على يعتبرون زواج رجال البدو من نساء غير بدويات يهدد الحياة البدوية (كول والتركى ٢٠٠٥م، ٣١٩). وقد كانت قضية الزواج المتبادل بين البدو وغيرهم من أبناء وادى النيل محل جدل وخلاف بين الإسلاميين الجدد والعوائل.

الأنشطة التجارية والملكيات الكبيرة^(١). وإلى جانب كل ذلك ساهم النشاط الديني لبعض المهاجرين بقوة في توطيد دعائم الاندماج الاجتماعى، والثقافى، والاقتصادى، والسياسى. لقد حدث ذلك من خلال الدور الفعال للعاملين فى مجال التعليم. فهؤلاء أعادوا اكتشاف دور الدين فى مد جسور التضامن والتحالف بين البدو وغير البدو، على اعتبار أن الإسلام يشكل الهوية الأوسع، التى تضم فئات متعددة، وبمقتضاها يمكن نسج عصبية دينية واحدة، تتجاوز قوة رابطة الدم فى العصبية القبلية الضيقة - إذا جاز لنا أن نستعير مصطلحات ابن خلدون. وبذلك اتخذ هؤلاء المهاجرون موقع المبشرين فى تعليم البدو، ودعوتهم لاتباع تعاليم الإسلام الصحيحة، على غرار ما كان يفعل إخوان السنوسية فى زواياهم الدينية، منذ ما يزيد على قرن ونصف من الزمان، وبنفس الطريقة التى اعتمدت عليها حركة جماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتها.

لقد كانت بداية التوجه الدينى للمهاجرين مرتبطة بنمط التعليم الأزهرى، الذى يوفر المعرفة الدقيقة والمتخصصة بالإسلام، وتعاليمه بطريقة رسمية. يقول أحد الإخباريين من أبناء وادى النيل الذين استقروا فى مطروح: «كان إسلام البدو قويا قبل مجيء أبناء وادى النيل، غير أنهم اعتادوا خلط الإسلام بعباداتهم وتقاليدهم التى كان بعضها صحيحا ومتماشيا مع الإسلام، والبعض الآخر فى حاجة إلى تصحيح»... «كان عمى أول عالم شريعة من أبناء وادى النيل يستقر فى الإقليم. وكان يدرس للناس تعاليم الدين الصحيحة، وكان سببا فى نشر الوعى الدينى»... «إن علماء وادى النيل (يقصد علماء الدين من الوافدين) وفروا النصح والإرشاد»^(٢).

ومنذ السبعينيات من القرن الماضى ظهر جيل جديد من المهاجرين ذو توجهات إسلامية راديكالية من بين العاملين فى مجال التعليم أيضا، بالإضافة إلى بعض العاملين فى قطاعات خدمية أخرى. ولم يقف دور هؤلاء عند حدود النصح والإرشاد كما فعل الأزهريون سابقا، وإنما تعدى ذلك إلى تكوين مؤسسات دينية جديدة، وإحداث تغييرات اجتماعية بعيدة

(١) دونالد كول، وثرىا التركى، أهل مطروح: مرجع سابق، ١٠٣.

(٢) ساعد على ذلك تدنى المستوى التعليمى للبدو، وعدم توفر الإمكانيات التى تنمى قدرتهم خصوصا فى السنوات الأولى لتطبيق نظام الإدارة المحلية، وإقامة العديد من المؤسسات الحكومية فى تلك الفترة.

(٣) نقلاً عن دونالد كول، وثرىا التركى، مرجع سابق، ٩٩.

المدى. ولم يكن ذلك ممكنا دون وجود جيل جديد من المتعلمين من أبناء البدو له توجهات دينية، ساعدهم تعليمهم على التفاعل بعمق مع الدور الإسلامى الجديد للمهاجرين.

التعليم والعصبية الدينية الجديدة:

كان للنهضة التعليمية التى بدأت منذ ستينيات القرن الماضى دور مهم فى رواج التوجهات الدينية الجديدة بالمجتمع البدوي بمطروح، وذلك من خلال إتاحة فرص واسعة للشباب البدوي المتعلم للاطلاع على المعرفة الإسلامية من مصادر متعددة، تتجاوز آفاق الدين الشعبى القائم فى البادية. فمن خلال أجيال جديدة من البدو المتعلمين أمكن تداول الكتب والمطبوعات الدينية، وكذلك أشرطة الكاسيت التى تحتوى على الخطب الدينية المسجلة لبعض الدعاة^(١). كما ساهم تعليم الشباب البدوى خارج مطروح فى الاحتكاك بعالم جديد من التدين، الذى تروج له الحركة الإسلامية فى الجامعات والأماكن العامة. لهذا شعر بعض هؤلاء الشباب بأن المجتمع البدوي محاط بنوعين من الجاهلية، الأول يتعلق بسحب الحداثة القادمة إليهم عبر أجهزة الدولة، والثانى يرتبط بنمط التدين البدوى الملىء بالخرافات والجهل.

فعالية النخبة الدينية الجديدة:

لهذا التقت جهود الشباب البدوي المتأسلم مع جهود بعض الإسلاميين من المهاجرين ليشكلا جناحين رئيسيين داخل نخبة دينية، تعمل فى نشاط دينى مكثف، يسعى إلى تغيير المجتمع البدوي نحو نمط من الإسلام السلفى. يتركز قلب هذه الحركة الآن فى مدينة مرسى مطروح، ومن خلال مسجد الفتح الذى يشكل قلعة أساسية للنخبة الإسلامية الجديدة، ومركزا لنفوذهم الروحى. ولدى المجموعة الرئيسية فى مدينة مرسى مطروح علاقات وطيدة بمجموعات متعددة تعمل داخل مساجد أخرى باسم الفتح، متناثرة فى

(١) وفرت بعض الدول العربية (ذات التوجهات السلفية) طبعات فاخرة مجانية أو شبه مجانية من الكتب الدينية، التى وجدت طريقها إلى أيدي الناس فى سائر الدول العربية. على الناحية الأخرى، أتاحت ظاهرة ما أصبح يطلق عليه «البترو دولار» نشر الإخوان المسلمين لأهم أعمال حسن البنا، وسيد قطب على أوسع نطاق. كما ساهم «البترو دولار» فى دعم الحركة السلفية، من خلال دعم القيادات الدينية، وتوفير كثير من الخدمات لنشر نفوذهم.

أغلب المراكز الإدارية لمحافظة مطروح. وقد اتخذت معركة هذه النخبة ثلاثة مسارات أساسية فى المجتمع البدوى:

الأول - يتجه نحو التخلص من مظاهر الجاهلية البدوية المتمثلة فى الدين الشعبى، والأعراف البدوية عن طريق العمل الدءوب فى مجال تعليم البدو أصول الإسلام على نحو صحيح.

الثانى - اتجه نحو محاربة بعض مظاهر الحداثة، وتحييد دور الدولة فى المجتمع البدوى بقدر المستطاع.

الثالث - تركز فى العمل على تأسيس نمط جديد من القضاء، يعتمد على الشريعة الإسلامية، وليحل بذلك محل العرف والقضاء البدوى.

لقد كانت حجة السلفيين فى كل الأحوال تعتمد على كونهم أكثر تعليماً، وبالتالي أكثر قدرة على قراءة نصوص القرآن، وكتب السيرة، ومعرفة الفقه. ومن ثم فهم الأقدر على قيادة البدو نحو مجتمع إسلامى حقيقى. وإذا كانت جهودهم فى تطبيق الشرع هى الأهم، والأكثر تأثيراً على المجتمع البدوى، إلا أن هذا الجهد كان جزءاً من عملية أكثر اتساعاً تستهدف التصدى لصور الجاهلية الثلاث: جاهلية البداوة؛ وجاهلية الحداثة؛ وجاهلية السلطة. ولن يتسنى لنا فهم الكيفية التى يتم بمقتضاها تطبيق الشرع فى البادية، ما لم نفهم أولاً كيفية تصدى الإسلاميين لصور الجاهلية الثلاث.

٤ - ٤ - ١ محاربة الجاهلية البدوية:

ولما كانت العصبية جزءاً لا يتجزأ من ثقافة البداوة، فقد أصابت العصبية الدينية الجديدة بعض هؤلاء السلفيين فى شبابهم، وخصوصاً حين بدأت معركة التغيير بالقوة تستهدف أضرحة الأولياء وموالدهم، باعتبارها قلاعاً للجاهلية البدوية، وتستهدف أيضاً بعض عادات البدو، وأعرافهم الاجتماعية الموروثة. فقد حاول بعض هؤلاء الشباب هدم تلك الأضرحة، ومنع الناس من زيارتها، وإقامة الموالد حولها. لقد بدأت محاولات هدم الأضرحة فى بعض التجمعات البدوية النائبة، ولأولياء أقل فى المكانة الروحية مقارنة بمقامات سيدى العوام، وسيدى عبد الرحمن، وسيدى برانى؛ ولم تنجح تلك المحاولات لأنها قوبلت بمقاومة كبيرة من الناس ومن المرابطين. غير أن نشاط الإسلاميين الشباب نجح جزئياً فى منع الزيارات وتقديم النذور، وكان النجاح الأكبر متمثلاً فى منع إقامة

الموالد. ففيما يتعلق بالحد من زيارات الأضرحة، فقد كانت الخطب الدينية في المساجد، وحلقات الدروس الدينية عنصرا مهما في ترويج أحكام دينية تحرم زيارات الأضرحة، والتبرك بها. كما ركزت دعوة الإسلاميين على سحب البساط من تحت أقدام «المرابطين بالبركة» عن طريق تكثيف حضور الإسلاميين الديني باعتبارهم مصادر للتنوير الإسلامي، وانتشار نشاطهم في الدعوة الإسلامية في أماكن مختلفة، وتعزيز مكانتهم عن طريق تقديم صور العون للفقراء، وتدعيم التضامن الاجتماعي.

أما فيما يخص منع إقامة موالد الأولياء فما زالت هذه العملية يشوبها قدر من الغموض، وخصوصا إذا كنا بصدد استعادة وقائع مقصودة للمنع حدثت منذ سنوات. ومع ذلك فهناك عدة أسباب تضافرت مجتمعة للحد من الموالد منها: ضعف السلطة الروحية «للمرابطين بالبركة» بفعل نشاط الإسلاميين الجدد في الإحلال محلهم، وكذلك كبر أعمار هؤلاء المرابطين، وقلة نشاطهم، وعدم قدرتهم على تكوين مرابطين جدد لأداء مهام إعادة إنتاج المعتقدات الشعبية البدوية. حيث انصرف كثير من هؤلاء المرابطين إلى اهتمامات أخرى كخوض الانتخابات النيابية، والدخول في معترك الحياة السياسية، شأنهم في ذلك شأن السعادي، وخصوصا بعد أن تغيرت الأحوال والمكانة الاجتماعية للمرابطين. أضف إلى ذلك أن مظاهر الحدثة التي بدأت في التغلغل داخل المجتمع البدوي، والانفتاح على العالم بفعل التعليم ووسائل الإعلام والاتصال الحديثة، كل ذلك أدى إلى شيوع أنماط جديدة من الثقافة الاستهلاكية، تتجاوز وسائل البهجة والمتعة التي كانت توفرها احتفالات الموالد البدوية. كما ساهمت التحولات نحو الاقتصاد النقدي في ارتفاع نفقات المعيشة، مما تعذر معه المشاركة في الموالد. وهنا يشير بعض المتعلمين من البدو إلى ذلك بقوله «كان سعر الخروف زمان ٢ أو ٣ جنيه الآن أصبح يصل إلى أكثر من ٦٠٠ جنيه فكيف تتحمل أسرة بدوية نفقات ذبح عدد من الخراف خلال المولد». هذه العوامل مجتمعة، بما فيها دور الإسلاميين الجدد، قوضت الدعائم الدينية، والثقافية، والسياسية للموالد البدوية، هذا على الرغم من استمرار بقايا الاعتقاد في الأولياء بين الناس، وخصوصا كبار السن من الرجال والنساء.

وفى إطار مقاومة بعض العادات البدوية، حاول السلفيون حث البدو على الإقلاع عن بعض الممارسات التي لم تعد مظاهر البذخ فيها تستجيب لمتطلبات الواقع المتغير للمجتمع

البدوى. وقد اختار السلفيون أن تكون مقاومتهم للتقاليد البدوية الموروثة قائمة خلال المواقف المشبعة بالعواطف، والمشاعر، كمظاهر البهجة والحزن في الحياة الاجتماعية. ففي مجال البهجة قاوم السلفيون عادة الاحتفال بالمولود، والاحتفال بالختان، وجميع مظاهر البهجة في احتفالات الزفاف.

ولما كانت إغراءات الاستمتاع بالغناء، ورقصات الحجالة محتملة في حفلات الزفاف، ويصعب مقاومتها، فقد كثف السلفيون حضورهم الفعال في ترتيبات الاحتفال بالزفاف، فهذا يضمن تعزيز التوجهات الإسلامية الجديدة. وقد تمثل ذلك في وجود عادة إقامة ندوة دينية بمناسبة الزفاف، يتخللها التهنئة وتذكير الناس بأمور دينهم في الحياة بصفة عامة، والزواج والأسرة على وجه الخصوص؛ حيث يحضر بعض رموز السلفيين، ومعهم بعض الشباب المتأسلم، ويخطبون في الناس مستعيدين قصصا من السيرة النبوية عن زواج الرسول عليه الصلاة والسلام بزوجاته، وزواج بناته، وزواج الصحابة. يتخلل ذلك الدعوة إلى تبسيط إجراءات، وتكاليف الزواج، والفرح، والمهور، والدعوة إلى تيسير الزواج، والتخلي عن مبدأ «الزواج الداخلي» بين أبناء وبنات العمومة، والمعروف لدى البدو بـ «مسك بنت العم»^(١)، على اعتبار أنه يكرس الاعتبارات القبلية بما يتناقض مع الشريعة الإسلامية التي لا تفرق بين المسلمين إلا على أساس التقوى.

وفي إطار تعزيز التوجهات الإسلامية الجديدة في الحياة الاجتماعية حاول السلفيون إحداث تغيير في عادات الزواج البدوى، يتم بمقتضاه السماح للعريس برؤية العروس قبل إتمام الزواج بها في إطار ما يعرف «بالرؤية الشرعية»، التي يمكن أن تتم في ظل ضوابط تقرها الشريعة الإسلامية. ولما كانت التقاليد البدوية بشأن الفصل بين الجنسين صارمة بشدة، فقد أحدث ذلك جدلا كبيرا بين العواقل والسلفيين حول مدى التوافق بين الشرع والعرف في هذه الدعوة. لهذا اختلف البدو فيما بينهم حول كيفية تطبيق الرؤية

(١) يُقصد بذلك اعتبار زواج الفتاة أمرا مقروا منذ ولادتها بوصفها حقا موروثا لابن عمها. ولا يسمح لها بالزواج من أحد غيره إلا بعد رضاه وتنازله عنها طواعية. يتم ذلك في إطار الزواج الداخلي القائم على تعزيز الروابط القرابية في اتجاه الأب، وتعميق رابطة الدم. وفي بعض الأحيان قد تتزوج الفتاة البدوية من رجل آخر من قبيلة أخرى، وفي هذه الحالة يمكن لابن العم أن يجبرها على الطلاق مادام الزواج تم بغير إرادته. وهناك حالات من هذا القبيل تولد خلافات عائلية تقتضى عقد مجالس عرفية لحلها. وقد نجح الإسلاميون، إلى حد ما في إقناع البدو برفض مبدأ مسك بنت العم لأنه يتناقض مع الشرع - حسب زعمهم.

الشرعية، فبعض العائلات طبقت «الرؤية الشرعية» بتمكين العريس من رؤية العروس في حضور بعض السيدات الكبيرات من أقارب الطرفين. وفي المقابل، رأت عائلات أخرى أن تتم «الرؤية الشرعية» للفتاة التي يرغب العريس في الزواج منها من خلال أمه أو أخته، وليس العريس نفسه، تأكيداً لمعنى الحفاظ على العادات والتقاليد القبلية في هذا الشأن^(١). يعنى ذلك أن تغير المجتمع البدوى، وإعادة إنتاج البداوة في ظل الأسلمة يمثل مزيجاً فريداً للتفاعل بين الشرع والعرف، وليس مجرد الهيمنة الكاملة، أحادية الجانب للمبادئ الإسلامية الجديدة على حياة البدو.

وفى هذا الإطار تتغير عادات البدو فى احتفالات الزفاف، حيث يدعى بعض رموز السلفية إلى حضور مثل هذه المناسبات للمشاركة فى البهجة والتزود بالحكمة. لقد أصبح حضور السلفيين فى هذه المناسبات ركناً أساسياً فى ترتيبات الاحتفال بالزفاف، تحرص عليه كثير من العائلات فى أغلب التجمعات البدوية. وفى أثناء الحفل يتولى السلفيون توجيه الخطب الحماسية، والتي يتم من خلالها دعوة الناس إلى الابتعاد عن مظاهر البهجة التقليدية باعتبارها تبذيراً، ومجلبة للمعصية والمفاسد. وقد يتخلل ذلك توظيف بعض أبيات من الشعر البدوى القديم، وخصوصاً الحماسى الذى يحمل مضامين تعزز بعض القيم الدينية والبدوية فى ذات الوقت؛ كالصدق والشرف والشجاعة ومناصرة الحق والترشيد والتعاون والتراحم. وقد ساهم ذلك فى إضفاء طابع جديد على الاحتفال، تراجعت فيه بشدة مظاهر الرقص والغناء واللعب والذبائح، وتقلصت فيه أيضاً مظاهر البهجة إلى حد كبير.

وفى مواقف الحزن نجحت جهود الإسلاميين فى الحد من سطوة بعض عادات الموت التى كانت راسخة من قبل، مثل نحر الذبائح أمام جسد المتوفى عند بداية الجنازة، وكذلك نحر الذبائح خلال الحداد، وتلقى العزاء لمدة طويلة. كما تراجعت مظاهر الحزن الشديد التى كانت تقوم فيها النساء بالصراخ، والعيول والعديد، والطم على الخدود، بالإضافة إلى عدم العناية بالجسد، ومظهر الثياب، وارتداء النساء للثوب الأسود والحزام الأبيض طول مدة الحداد. وفى مقابل ذلك ساهمت جهود السلفيين فى تبني البدو بعض

(١) أدين بالفضل لأحد المحكمين لهذا البحث - غير المعروفة أسماؤهم - فى تحليل الخلاف حول الرؤية الشرعية كمجال للتفاعل بين الشرع والعرف بما يتجاوز التبسيط فى فهم عملية أسلمة المجتمع البدوى.

العادات ، التي تنص عليها العقيدة الإسلامية مثل غسل الميت بنفس قواعد الاغتسال والوضوء التي يمارسها الناس في حياتهم ، والصلاة على الميت بالمسجد ، والحرص على كثرة المصلين في أثناء صلاة الجنازة ، وكثرة المشاركين في موكب الجنازة ، وتلقي العزاء أمام القبر عقب الدفن ، وتقليص مدة الحداد ومظاهره ، بحيث يصبح قصرا على الحزن من القلب ، وأخذ العبرة من الحدث ، والاعتدال في المظهر ونظافة الجسد .

٤ - ٤ - ٢ السلفيون في مواجهة الدولة:

لما كانت بعض صور الحداثة تكتسب شرعية وجودها من ارتباطها ببعض مؤسسات الدولة ، فقد حاول السلفيون - من منطلقات دينية - تحييد دور الدولة ، ومقاومة صور تدخلها في الشأن البدوي . يتجسد ذلك في مواقف متعددة يمكن أن نكتفي باثنين منها : أحدهما يشير إلى كيفية مواجهة الفقر ، والعمل على تخفيفه ، والآخر يتمثل في الكيفية التي تدير بها الدولة العملية الديمقراطية .

الموقف الأول - يتعلق ببعض أنشطة برنامج تنمية المجتمع بالصندوق الاجتماعي للتنمية في مطروح ، وخصوصا مشروعات منح القروض الصغيرة للتخفيف من الفقر . ولما كانت هذه الأنشطة تعمل تحت إشراف الدولة فهذا يكفي لأن يتردد البدوي ، ويفكر مرارا قبل الإقدام على أية خطوة نحو الحصول على أي قرض . كما يمثل ذلك مبررا للحذر من جانب الإسلاميين أنفسهم . أضف إلى ذلك أن سياسة منح القروض تعتمد على تحصيل بعض الفوائد البسيطة ، لتغطية بعض مخاطر تعذر السداد ، وللإنفاق على إدارة منح القروض . ورغم أن هذه الفوائد لا تشكل مصدرا آخر لزيادة رأس المال وضخه من جديد على هيئة قروض إضافية ، فإن الإسلاميين يعتبرونها من أشد المحرمات . وأصدروا في هذا الصدد فتوى تحرم الحصول على القروض الصغيرة ، وروجوا لهذه الفتوى بين البدو عبر خطب الجمعة ، وفي تجمعات تلقي الدروس الدينية بالمساجد ، وفي مختلف اللقاءات الجماعية . وقد ترتب على ذلك عزوف كامل من جانب كل البدو - تقريبا - في مطروح عن المشاركة في القروض رغم كل التسهيلات المقدمة . ولم تفلح جهود المسؤولين بالمحافظة في إقناع البدو الفقراء بقبول أي قرض من منطلق تعلق البدوي بالاعتقاد في تحريم الربا ، والخوف المترسب في ثقافة البداوة من الكوارث الحياتية التي يمكن أن يتعرض لها البدوي إذا كان مصدر رزقه قائما على شبهة الربا . وقد استطاع الإسلاميون توظيف هذا الاعتقاد

وتعزيزه في نفوس البدو، بتضخيم مخاوفهم من القروض الربوية بأدلة وأسانيد أكثر قوة في الإقناع من تلك الأسانيد العرفية التي كان البدو يؤمنون بها.

وعندما لجأ محافظ مطروح إلى إصدار قرار جديد وفريد من نوعه بإنشاء صندوق لدعم المشروعات الصغيرة، يتضمن إعفاء المقترضين من الفوائد، وتديريها من موارد أخرى، يتم تحصيلها تحت إشراف المحافظة، سارع بعض البدو إلى الحصول على القروض^(١). غير أن كثيرين منهم تراجعوا فيما بعد عن طلبه بعد أن أفتى شيوخ السلفية بأن القرار فيه التفاف على قاعدة شرعية، وأن القروض مازالت محرمة، حتى ولو لم يتحمل المقترض أية فوائد بشأنها. فالفوائد حسب رأيهم مازالت سارية وأن هناك آخرين يتحملونها ظلماً. لهذا أصبحت الفتوى الصادرة عن السلفيين بمسجد الفتح أكثر تشدداً، وخصوصاً في ظل محاولات المسؤولين بالمحافظة الحصول على فتوى من شيخ مقيم بالإسكندرية تبيح الحصول على القروض دون تحمل سداد فوائدها. فالتحريم - حسب فتوى السلفيين - كان مشدداً ويقع وزره على كل من شارك في الإقراض: من قدم القرض، ومن أخذه، ومن دفع الربا عنه. وقد بذلت المحافظة مجهوداً كبيراً بمختلف أجهزتها الرسمية لإجهاض تأثير فتوى السلفيين، تمثل ذلك في الدعاية المضادة المكثفة، وإقناع ممثلي المجلس المحلي بمطروح - والذي يضم قوة ضغط إسلامية ذات توجهات دينية - على إصدار قرار يؤيد قرار المحافظ. ومع ذلك لم تفلح كل محاولات المحافظة في حث البدو على الاستفادة بالتسهيلات التي يطرحها قرار المحافظ.

(١) صدر قرار محافظ مطروح رقم ٩ في ١٨ يناير ٢٠٠٦م بإنشاء صندوق لدعم المشروعات الصغيرة ولائحته التنفيذية. ومن أهم مواد القانون مادة رقم ٣، التي حددت أهم أهداف الصندوق، القيام بسداد قيمة الفائدة على قروض المشروعات الصغيرة للشباب، والأسر الفقيرة بقرى ومدن المحافظة الممولة من جهات الإقراض المختلفة، والتي تتمثل في: صندوق الإدارة المحلية، والصندوق الاجتماعي للتنمية، ومصادر التمويل الأخرى التي تعمل في مجال التنمية، ودعم مشروعات الشباب والحرفيين، والحد من البطالة. كما حددت المادة تقديم مساعدة مالية للمرأة المعيلة، والأسر ذات الاحتياج الشديد لتنمية دخولهم، وتمويل مشروعاتهم بمنحة لا ترد بحد أقصى ٢٠٠٠ جنيه. وفي المادة ١٦ من اللائحة التنفيذية للقرار تم تحديد موارد الصندوق في تحصيل نسبة ٥٪ من المستفيدين بالخدمات الاجتماعية بالجمعيات التعاونية في مجالات الإسكان، والزراعة، والإنتاج، والاستهلاك، وتنمية المجتمع، وكذلك تحصيل رسوم بمبلغ ٢٠ جنيهاً على رخص الأنشطة الصيفية والسياحية، تضاف إلى كل المنح المخصصة لدعم المشروعات الصغيرة من الصندوق الاجتماعي، وماتخصه الدولة في ذات الغرض، وما تخصصه المحافظة من المحاجر في هذا المجال، وتبرعات رجال الأعمال وأية موارد أخرى تستجد فيما بعد.

هذه الواقعة تشكل دليلا قويا على مدى قوة الإسلاميين في تحييد دور الدولة ومقاومتها بالشرع. وعلى ضوء هذا الموقف أصبحت مطروح من أكثر المحافظات إحصاءا عن المشاركة فى برامج التنمية القائمة على القروض الصغيرة بجميع أنواعها، والتي تشرف عليها الدولة. ولا تقف قوة الإسلاميين عند حدود الإفتاء بالمنع والمنح، بل تعدى ذلك إلى محاولة إنشاء كيانات مؤسسية بديلة للتضامن الاجتماعى على هيئة صناديق تبرعات، تخصص للإقراض الحسن كبديل يتفق مع الشرع. ورغم أن هذه المحاولات محدودة وتنشط داخل دوائر أعضاء الحركة الإسلامية، فإنها تشكل بدائل إسلامية لنشاط مصرفى شرعى للتخفيف من الفقر فى البادية^(١).

الموقف الثانى - هناك موقف آخر - قد لا يكون معبرا عن قدرة الإسلاميين على تحييد دور الدولة بقدر ما يكون كاشفا عن مدى إمكانية مقاومتهم لصور تدخلها فى الشأن البدوى - يتمثل فى محاولة عرقلة العملية الانتخابية (انتخابات مجلس الشعب والانتخابات الرئاسية)، التى جرت فى مصر خلال عامى ٢٠٠٥م و٢٠٠٦م. حيث أفتى شيوخ السلفية بتحريم المشاركة فى تلك الانتخابات، وحث الناس والعوائل على الإجماع عن التصويت. ويمكن الحكم على هذه المحاولة بأنها فشلت فى ظل النتائج، التى كشفت عن ارتفاع نسبة المصوتين فى مطروح لصالح الرئيس مبارك بصورة تفوق كل نسب التصويت فى المحافظات الأخرى. وكذلك ارتفاع نسب المصوتين فى انتخابات مجلس الشعب رغم الخلافات القبلية التى صاحبته^(٢). وفى هذ الصدد، يرى بعض الإسلاميين أن دعوتهم نجحت فى منع التصويت نسبيا فى بعض الدوائر دون غيرها، نظرا لاستمرار آلية الإجماع القبلى فى الانتخابات، وتفاوت تأثيرها من منطقة لأخرى. ومع ذلك فهناك جهد حثيث من جانب الإسلاميين للسيطرة تدريجيا على الناخبين فى المستقبل.

من هنا يتضح لنا مدى اتساع حضور السلفيين فى حياة البدو، وتأثيرهم الفعال فى المعتقدات والتوجهات الدينية. وكذلك قدرتهم على التواجد بعمق فى الحياة الاجتماعية

(١) من الجدير بالذكر أن فكرة صناديق القرض الحسن فى الأصل قائمة فى التراث البدوى قبل أن يلتفت إليها الإسلاميون الجدد؛ حيث تحرص بعض القبائل على أن تقوم كل عائلة بتوفير صندوق لها، يلزم كل فرد بالغ بالمساهمة فيه على قدر استطاعته فى كل عيد، وأن يوضع الصندوق لدى أحد أفراد العائلة المشهود له بالأمانة. ويخصص هذا الصندوق لمساعدة أى فرد من أفراد العائلة يتعرض لأزمة ما، كالوفاة والمرض والحوادث والكوارث الطبيعية، أو فى حالة الالتزام بدفع دية ما.

(٢) حسب تعبير أحد شيوخ قبيلة على الأبيض فى منطقة أبو مرقيق.

البدوية، والتأثير في عمليات التضامن الاجتماعي، واستيعاب الزعامات القبلية المحلية، وتحديد دور الدولة، وعرقلة تدخلها في بعض جوانب الشأن البدوي. وقد انعكس كل ذلك في قدرة السلفيين على إحلال القضاء الشرعي محل القضاء البدوي، حيث أوجد الإسلاميون قواعد جديدة منظمة لإجراء التقاضي الشرعي. وفيما يلي نوضح ذلك بالتفصيل.

مراحل التقاضي الشرعي:

تتم إجراءات التقاضي الشرعي - وفقا لما يدعو إليه الإسلاميون - في ست مراحل متتالية تبدأ بالتوسط في النزاع، ثم تقديم المشورة الشرعية، يعقب ذلك إجراء التحقيقات الشرعية، وإصدار الفتوى النهائية، وعقد المجلس الشرعي لإصدار الحكم الشرعي، وأخيرا العمل على تنفيذه. هذه المراحل تمثل نموذجا للتقاضي الشرعي يجرى العمل على تنفيذه بكل جدية وحسم من جانب الإسلاميين في مراحل متتالية، تبدأ منذ بداية التفاوض حول النزاع حتى يتم تنفيذ الحكم الشرعي. ونظرا لأن القضاء الشرعي يعمل في سياق متغير تتعدد فيه أنماط القضاء، وتتباين فيه مواقف البدو نحو هذه الأنماط من وقت لآخر، فإن طبيعة النزاع المعروض والملايسات المحيطة به هي التي تحدد المسار الذي ينتهي إليه التقاضي الشرعي. فقد يكتفى الخصوم بالمشورة الشرعية، وقد يقف التقاضي عند مرحلة إصدار الحكم الشرعي، وفي حالات أخرى ينجح السلفيون في الوصول إلى مرحلة إنهاء النزاع بالصلح أو تنفيذ نص الحكم الشرعي.

التوسط في النزاع:

لا يستطيع رموز القضاء الشرعي من الإسلاميين أداء دورهم دون البدء بالتوسط في النزاع على غرار ما يحدث في القضاء العرفي^(١). فعند وقوع نزاع ما، لا يصبح محلا للتفاوض والتقاضي الشرعي، ما لم يكن أعضاء اللجنة الشرعية، أو ما يعرف بالقضاة الشرعيين، وسطاء بين الأطراف المتنازعة، وصولا لحل النزاع وفقا لأحكام الشرع.

(١) تكمن أهمية التوسط في القضاء العرفي التقليدي في أن الأعراف البدوية تهدف إلى السلام بين الأطراف المتنازعة والحيلولة دون أن يتطور الصراع بينهما إلى تفاقم روح الانتقام والثأر. (حول هذه النقطة انظر: Austin Kennett. Bedouin justice: Law and customs among the Egyptian Bedouin, 1968, 116.) وهذا ما تلجأ إليه أيضا عمليات التوسط في القضاء الشرعي.

يتم التوسط، في العادة، بين الأطراف المتنازعة بطريقتين: الأولى تعتمد على قيام أى من أطراف النزاع بإبلاغ اللجنة الشرعية بما حدث من نزاع، طالبا أى شكل من أشكال المعونة القضائية فى حل النزاع. الطريقة الثانية تتمثل فى المبادرة بالتوسط من جانب اللجنة الشرعية، أو أحد أعضائها، أو ربما بعض الإسلاميين ممن يرتبطون بعلاقات مباشرة مع اللجنة. فى هذه الحالة لا تقف اللجنة موقفا سلبيا بانتظار من يلجأ إليها طلبا للعون، بل تبادر إلى الاتصال بأطراف النزاع، وحثهم على مراعاة شرع الله فى خلافاتهم. قد يتم ذلك من خلال الاستعانة ببعض العواقل من أقارب الطرفين لتوظيف مكانتهم، وتأثيرهم فى إتمام عملية التوسط الإسلامى. وكثيرا ما يحدث أن تصبح تدخلات بعض الإسلاميين من خارج أعضاء اللجنة الشرعية أداة فى تعزيز نشاط اللجنة فى فض المنازعات بمبادرات إسلامية. والهدف من ذلك بالطبع دفع الخلافات إلى دائرة القضاء الشرعى مبكرا، ومحاصرتها ضمن حدوده، لقطع الطريق على أية محاولات أخرى تفضى إلى التقاضى العرفى أو الرسمى.

التفاوض حول المشورة:

فى هذه المرحلة يعرض أعضاء اللجنة الشرعية وجهة نظرهم الشرعية المبدئية بأسلوب يعتمد على الخطابة والتأثير العاطفى، بما يشجع الأطراف المتنازعة على الاستمرار فى وساطة الشرع. وفى بعض الأحيان قد يطلب بعض أطراف النزاع - ممن يعرضون نزاعهم على القضاء الرسمى أو العرفى - فتوى شرعية من اللجنة الشرعية لاستخدامها كسند إضافى فى التأثير على حكم القضاة أو العواقل. لهذا يحرص أعضاء اللجنة الشرعية على الإلمام بكل التفاصيل المحيطة بالنزاع، وأخذ مهلة للتشاور، ودراسة أبعاد النزاع وتأثيره. بعد ذلك تتم كتابة الفتوى وتقديمها لأطراف النزاع. ولما كانت مهمة الإفتاء على هذا النحو تبدو بسيطة، وتقلل من تأثير الإسلاميين وفرصهم فى المشاركة الفعالة فى حل النزاعات، فهم يعملون بكل قوة من أجل توسيع دورهم كقضاة شرعيين. يتمثل ذلك فى تعميقهم لعمليات التواصل مع أطراف النزاع، وأقاربهم من العواقل، وتوسيع مساحة التفاوض معهم، حتى بعد تقديم الفتوى لحثهم على الالتزام بالشرع.

جلسات التحقيق وإصدار الحكم:

تستكمل إجراءات التقاضى عندما يبدأ أعضاء اللجنة الشرعية بعقد جلسات شرعية بالمسجد للتحقيق فى الاتهامات المنسوبة، وجمع مزيد من الأدلة والبراهين حول

مصداقيتها، وقد تتم هذه المهمة بناء على طلب الأطراف المتنازعة. يقتصر الحضور على أطراف النزاع، وبعض أقاربهم وخصوصاً من العوائل. تبدأ جلسة التحقيق بإلزام الأطراف المتنازعة بأداء القسم الشرعي على كتاب الله بقول الحق، والالتزام بما يأمر به شرع الله. هذا يختلف عن القسم العرفي الذي كان يشترط أن يؤدي أمام ضريح أحد الأولياء. وكذلك اشتراط المدعى أن يؤدي القسم كذلك عدد من أقارب المتهم للتأكيد من صدقه^(١). هذا النظام يرفضه القضاء الشرعي، ويعتبره غير شرعي، وفيه تعسف وتفسير على الناس، وإشعال للصراع بين الطرفين. لهذا يكتفى الشرع بقسم الشخص نفسه، على اعتبار أن الله رقيب عليه يعاقبه إن كذب.

يلي ذلك التقصي عن أحداث النزاع، وتختلف إجراءات التقصي بحسب طبيعة وحدود النزاع. ففي حالة الخلافات الزوجية يطلب أعضاء اللجنة من الزوج أداء القسم، ثم يرد على أسئلة اللجنة كاملة، وعندما يتطلب الأمر مساءلة الزوجة ومواجهتها لأقوال الزوج، تجلس المرأة خلف ستار يحجبها تماماً عن كل الحاضرين. وعقب أدائها القسم تجيب عن أسئلة اللجنة، وترد على اتهامات الزوج. وهكذا تظل الجلسة قائمة حتى تطمئن اللجنة إلى كفاية الأدلة وسلامتها. وفي حالة نقص المعلومات تعقد جلسات أخرى مماثلة حتى تكتمل تفاصيل النزاع. وفي حالات أخرى كالضرب، أو الإصابة الجسدية يطلب أعضاء اللجنة التحقق من طبيعة وحجم الضرر الجسدي من خلال تقارير وفحوصات طبية تعرض خلال جلسات تالية، وقد تعطى اللجنة مهلة للتأكد من مدى الضرر البدني الذي وقع بعد انقضاء فترة العلاج^(٢).

عقب اكتمال تفاصيل النزاع تبدأ مرحلة المداولات الفقهية بين أعضاء اللجنة الشرعية لصياغة الحكم الشرعي من إصدار الفتوى، التي هي أساس الحكم على النزاع. وفي جلسة إصدار الحكم التي تتم بالمسجد يسعى القضاة الشرعيون إلى إضفاء طابع الطقوس الدينية

(١) ففي حالة السرقات يطلب المجلس العرفي من الشخص المتهم بالسرقة أن يقسم، ثم يشترط المدعى أن يؤدي القسم كذلك عدد من أقارب المتهم لتأكيد صدقه. وفي القضاء العرفي قد يبالغ القضاة في زيادة عدد المرجحين للقسم. ويمكن أن يترك للمدعى حرية اختيار أشخاص للقسم ليسوا على وفاق مع المتهم، وقد يؤدي إحامهم عن القسم إلى إدانة المتهم.

(٢) هذا الإجراء مشابه للقضاء العرفي في اعتماده على الوقام، أي من يقيم الضرر البدني، والنظار، أي من يقيم مدى الإصابة بالعين. وهناك أوجه شبه كبيرة مع القضاء الرسمي في لجوئه إلى الخبراء للتحقق من الأدلة.

على جلسة إصدار الحكم، كالصلاة وتلاوة القرآن بصوت مسموع، ومطالبة الحاضرين بالصمت إجلالاً لشرع الله ومهابته. يحرص الإسلاميون على أن يحضر الجلسة النهائية طرفا النزاع، وبعض العوائل من أقارب الطرفين. تبدأ الجلسة عقب صلاة الظهر أو العصر أو العشاء، بحسب تقدير القضاة لحجم الخلاف المتوقع، وردود أفعال طرفي النزاع لما سوف تؤول إليه أحكام الشرع. تبدأ الجلسة بتلاوة قصيرة من آيات القرآن، يعقبها القيام بإجراء مهم يتمثل في تعهد الطرفين بتفويض موقع عليه للجنة الشرعية بالحكم فى النزاع، وقبول ما سوف يصدر من أحكام، والتعهد أيضا بتنفيذ تلك الأحكام. بعد توقيع طرفى النزاع على هذا التفويض يوقع أيضا على ثبوته بعض الشهود من العوائل الحاضرين. يعقب ذلك قيام أحد أعضاء اللجنة أو رئيسها أو أحد البارزين فيها بعرض مختصر لوقائع النزاع، ثم يتلو الحكم من ورقة مكتوبة سبق إعدادها. وتسلم نسخة من الحكم لكل طرف، ولكل العوائل البارزين من أقرباء الطرفين. ثم ينهى القضاة بعد ذلك الجلسة، لتبدأ عمليات تفاوض فى الأيام التالية خارج المسجد لتنفيذ حكم الشرع.

تدابير تنفيذ الحكم الشرعى:

يمكن أن تنتهى مهمة اللجنة الشرعية عند حدود إصدار الحكم الشرعى، وترك مهمة تنفيذه للإرادة القبلية بين الطرفين. ومع ذلك هناك محاولات دءوبة من جانب الإسلاميين لضمان تنفيذ الحكم، وقطع الطريق على أية محاولة أخرى للتقاضى بشأن النزاع. من الواضح أن مرحلة تنفيذ الحكم، تختلف كثيرا عما سبقها من مراحل، وقد تطول أكثر مما يجب. كما أنها تكشف عن قدر من فعالية وحدود الحركة الإسلامية وسط البدو. ولضمان تنفيذ أحكام الشرع، وعدم حدوث النزاع مرة أخرى فى المستقبل، يلجأ الإسلاميون إلى عدة تدابير نعرض لها فيما يلى:

٥ - ٤ - ١ الضغط على المشاعر الدينية:

تبدأ عملية توظيف الشعور الدينى من داخل جلسات التحقيق، وجلسة إصدار الحكم النهائى، وتستمر هذه العملية فى أغلب جلسات التفاوض فيما بعد. يتضمن ذلك تهيئة الجالسين فى المجلس الشرعى بأنهم فى بيت الله، ويتعين عليهم احترام قدسيته، وأن يخشعوا أمام كتاب الله وكلماته، وألا يضمروا فى أنفسهم سوءا. وتتضمن أغلب خطب

الإسلاميين سواء داخل جلسات فض النزاع، أو في المساجد تأكيدا ممتزجا بالترهيب والترغيب بأن الخروج على شرع الله فيه شقاء في الدنيا والآخرة، وأن اتباع الشرع وطاعة الله فيه السعادة، وحسن المآب. ثمة خطاب ديني كثيف بين الإسلاميين حول معنى الشرع، يتم توظيفه في عملية أسلمة التوجهات البدوية في الحياة اليومية بصفة عامة، وفي النزاعات بصفة خاصة.

٥-٤-٢ إشراك العواقل فى التقاضى:

يحرص أعضاء اللجنة الشرعية عند قبولهم التوسط للفصل فى أى نزاع على ضرورة حضور بعض العواقل لجلسات المجلس الشرعى؛ وهم فى الغالب من أقارب طرفى النزاع، وخاصة المشهود لهم بالمكانة الرفيعة والنزاهة والتدين. وفى هذا حفاظ على ما تبقى لهؤلاء العواقل من هيبة، وتوظيف دورهم لخدمة القضاء الشرعى. وبطبيعة الحال، فإن إشراك العواقل فى التقاضى الشرعى يستند إلى أحكام شرعية. ففى الخلافات الزوجية يذكر بأهمية وجود حكم من أهل الزوجة، وآخر من أهل الزوج كآلية فعالة، ومتوازنة فى فض النزاع. ومع ذلك فإن حرص الإسلاميين على مشاركة العواقل يتعدى تنفيذ ما جاء بنصوص دينية، ولا يخلو من التوظيف السياسى. فهناك عائد يمكن تحقيقه من وراء مشاركة العواقل - بصفة عامة - فى التقاضى الشرعى، أوضحه فيما يلى:

- ضمان تأييد العواقل لأحكام الشرع، وعدم معارضتهم لها من منطلق كون الشرع يمثل جوهر العرف، وليس بديلا عنه. لهذا يشير كثير من العواقل إلى أنهم أصبحوا يؤيدون الشرع لأنه أصل العدل، ولأنه يمثل تصحيحا للأعراف بالعودة إلى أصولها.
- ضمان تحييد العواقل أو شهادتهم على ما تم من أحكام، على اعتبار أن مكانتهم ترتبط بالشرف البدوى، وبالتالي فشهادتهم لها مصداقية يعتد بها بين البدو. وهذا يضمن عدم الزج بهم فى أية شهادات زور مستقبلا لصالح أى طرف على حساب الآخر.
- الاستفادة بتأييدهم للشرع بوصفهم قادة طبيعيين، يمكن توظيفهم فى توسيع قاعدة المؤيدين للشرع بين البدو.

- توظيف قوتهم وتأثيرهم فى تنفيذ أحكام الشرع، بحيث يتم اقتسام مهمة تنفيذ أحكام الشرع بين الإسلاميين والعواقل. ففى الوقت الذى يسعى فيه السلفيون إلى إقناع البدو بحجتهم، فإن العواقل يستخدمون كل وسائل الضغط العائلى، والقبلى على الأطراف

المتنازعة لقبول تنفيذ الأحكام. وبذلك يصبح العرف في خدمة الشرع، بعد أن كان الوضع معكوسا في ظل القضاء العرفي من قبل.

وهكذا نجح السلفيون على مدى العقدين الماضيين في توطيد دعائم الثقة والود مع العواقل، وتحييد مبدأ التنافس معهم على النفوذ بين البدو. وساعدت عمليات إشراك العواقل في إجراءات القضاء العرفي على ضمان الحد الأدنى لهيبتهم. فهم يروجون للشرع، ويطلبون من اللجنة الشرعية التدخل في فض المنازعات التي يفشلون في حلها بالعرف، ويحثون طرفي النزاع على الحل بالشرع. مما يعنى أن لجوء العواقل إلى الشرع أصبح تأكيدا على نجاح الإسلاميين في تعبئة رموز القبائل من ناحية، والحفاظ على هيبة العواقل على أرضية إسلامية من ناحية أخرى.

ومن الواضح أن الحفاظ على هيبة العواقل يقترن بالحفاظ على العرف، باعتباره المظلة التي يمكن أن يتم من خلالها أسلمة العادات والتقاليد البدوية. والدليل على ذلك الخلافات التي ظلت لعدة سنوات فيما بين العائلات البدوية حول قبول التخلي عن عادة مسك بنت العم، والانفتاح على الزواج الخارجي. فبعض العائلات رفضت التخلي عن هذه العادة، وفي مقابل ذلك نجحت بعض العائلات الأخرى في إقناع الأطراف المتنازعة برفض هذه العادة، باعتبارها مخالفة للشرع. ولم يكن هذا النجاح ممكنا دون الالتزام العرفي بضرورة أخذ مشورة العواقل، الذين يمثلون البيت الذي تنتمي إليه الفتاة، حتى لا يُفرض على ولى أمرها شرط جزائي لصالح ابن العم. وتشير بعض المحاضر العرفية في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي لإحدى عائلات قبيلة الصنافة إلى أن إحدى الفتيات تم زواجها من شخص خارج القبيلة، دون مشورة ابن العم، ودون الرجوع إلى عواقل قبيلتها. ولهذا عوقب الأب بموجب القضاء العرفي بإلزامه بدفع مبلغ ألف جنيه كشرط جزائي لصالح ابن العم^(١). وهذا يوضح مدى قوة الأعراف البدوية في مواجهة المد السلفي. فعلى الرغم من قبول العواقل التخلي عن عادة مسك بنت العم تطبيقا لدعاوى الجماعات السلفية، فإن حرص بعض العائلات البدوية على القبول المشروط بمشورة العواقل، يجسد مدى قوة العرف في تنفيذ شريعة الزواج الخارجي في إطار قبلي - عرفي.

(١) أدين بالفضل للأستاذ الدكتور محمد الجوهري بالإشارة إلى تلك الواقعة باعتبارها دليلا على مدى قدرة العرف على التفاعل الخلاق مع المتغيرات الجديدة المرتبطة بالأسلمة.

٥ - ٤ - ٣ المساندة المالية للغارم:

فى بعض الحالات قد يعجز الطرف المعتدى عن تدبير المبلغ الذى أقره الحكم الشرعى كتعويض عن الضرر للطرف الآخر. ربما يحدث ذلك لأسباب متعددة كضعف الروابط العائلية، أو عدم وجود إجماع بين القبيلة على قبول الحكم، أو اختلاف العوائل فيما بينهم بشأن الحكم الشرعى. وهناك جدل واسع النطاق يتم داخل النخبة البدوية حول مدى عدالة أن تتحمل القبيلة أية تعويضات، يحكم بها الشرع على أحد أبنائها، وخصوصا الخارجين على أعراف القبيلة ومكانتها. وقد يكون تدنى حال القبيلة اقتصاديا سببا فى عدم قبولها دفع تعويضات باهظة. لهذا يحاول بعض الإسلاميين القيام بحملة تبرعات لمساندة الطرف الذى حكم عليه بالغرامة، كى يتمكن من أداء الغرامة، ولتأكيد سلطة الإسلاميين بوصفهم رموزا لتحقيق العدالة والتضامن الاجتماعى. وتمتد حملة التبرعات لتتجاوز الحدود القبلية، ويشارك فيها أكبر قدر من الناس بمن فيهم السكان المصريون من خارج البدو. وفى واحدة من حملات التبرع هذه دافع الإسلاميون عن أحد الجناة الذى اتهم بقتل آخر بقولهم «أخ فى الله أخطأ وتاب، ويريد أن يقيم شرع الله فهل نتخلى عمن يقيم شرع الله؟!» ويشير بعض الإسلاميين وهو يدعو الناس للتبرع بالقول «واحد غارم ومحتاج مساندة لرفع راية الشرع». وفى الحالات التى يصعب جمع مبلغ الغرامة كله، يلجأ السلفيون إلى أهل المقتول للسماح فى تقليل حجم الدية المطلوبة. وقد تكون المساندة المالية مقترنة بمدى تدين الشخص وقبوله الانتماء للسلفية. وهكذا يمكن الترويج للقضاء الشرعى بأساليب مختلفة، منها إغراء الناس - كلا الطرفين - بالمنفعة المتحققة من أحكام القضاء الشرعى، والوعد بإمكانية التأثير فى المعتدى عليه، وتنازله، وفى المقابل يتم إغراء المعتدى عليه بإمكانية الحصول على تعويض أكبر - حسب الشرع. ولاشك أن التفاعل الخلاق للإسلاميين مع عقلية البداوة بشأن المنفعة المادية ينبع من إدراكهم الجيد لأهمية الإغراءات المادية، وتوظيفها فى فض النزاع، مما يكسب الإسلاميين مشروعية أكبر فى جدارتهم بالقدرة على فض النزاع من غيرهم.

الخلاصة:

فى عام ١٩٧٦م كتبت صافية محسن فى دراستها عن «الصراع والقانون بين أولاد على» أن كل التجمعات البدوية فى مطروح تعترف بدرية أولاد على، أى الأعراف والقانون

القبلي الذي يحكم سلوك أولاد علي، وأن الحكومة تتعامل مع أولاد علي طبقاً لهذه الأعراف^(١). ولقد تغير هذا الوضع بعد تدخل الدولة في إنشاء مؤسسات الحكم المحلي، وتعزيز قوة الشرطة، والقضاء الرسمي، وإنشاء المحاكم^(٢). وقد تغيرت الأحوال بصعود الحركة الإسلامية إلى مسرح الحياة العامة خلال العقدين الماضيين، مما أفضى إلى تغيرات في العرف لصالح تعزيز الشرع، وتحييد دور الدولة في فض المنازعات.

استطاع الإسلاميون السيطرة على جانب لا بأس به من مؤسسة القضاء البدوي، من خلال استخدام الفتوى كآلية فعالة في إعادة إنتاج قواعد جديدة شرعية بديلاً عن الأعراف البدوية. وتم توظيف النشاط الإسلامي في المساجد والأعمال الخيرية والتعليم في تعزيز قوتهم باسم الشرع. وبرغم قدرة الإسلاميين على فض كثير من المنازعات بأحكام شرعية كثيرة، فإنهم أحجموا عن تنفيذ اثنين من أكثر قواعد تطبيق الشريعة وضوحاً، وهما تطبيق حد السرقة بقطع يد السارق، وحد الزنا بالرجم. حيث يتطلب ذلك سلطة أكبر في ظل وجود دولة مدنية، لا تعترف قوانينها بذلك، ومن المتوقع ألا تسمح بتطبيق هذا النوع من الحدود الشرعية؛ فهناك حضور لسلطة الدولة مهما كان ضعيفاً في البادية^(٣).

وقد استطاعت جهود الإسلاميين عبر القضاء الشرعي أن تنجح حتى الآن في خلق سلطة رمزية حول دورهم المقترن بإعلاء شرع الله، دون المخاطرة بالصدام مع الدولة أو

(١) S. K. Mohsen, «The legal status of women among Awlad 'Ali», (1967): 153 – 166.

(٢) هذا لا يعني أن الدولة أصبحت تطبق القانون على البدو شأنهم في ذلك شأن سكان الوادي؛ بل كانت مضطرة أحياناً للتجاوب مع الأعراف القبلية والاعتراف بأهميتها وإضفاء الطابع الرسمي عليها، مثلما حدث في السبعينيات حين أقرت الدولة ممثلة في رئيس الجمهورية اتفاقيات قبلية لتسيير الانتخابات البرلمانية والمحلية منذ سبعينيات القرن الماضي، والتي تم بموجبها تكريس القبلية في التمثيل السياسي. وفي أغلب الأحيان كانت الدولة تغض الطرف عن ممارسات القضاء العرفي في السيطرة على الضبط الاجتماعي داخل المجتمع البدوي. ومن ناحية أخرى، ساهمت الدولة في استمرار المجالس العرفية بصورة غير مباشرة من خلال انتهاج الدولة لسياسات تبدو للبدو استيعادية، والتي تم بموجبها حرمان أبناء البدو من تولي بعض المناصب، ودخول الكليات العسكرية، واستيلاء القيادات التنفيذية على أراضيهم المملوكة بوضع اليد دون تعويضهم عنها، مما يدعم فقدان الثقة نحو الدولة وتقبل بدائل للحياة بعيداً عنها سواء كان بالعرف أو بالشرع.

(٣) في المقابل حالت الأعراف القبلية وما زالت دون تطبيق أمر شرعي تجاوبت معه القوانين الوضعية وهو توريث المرأة. مما يعني أن جانباً من سلطة الأعراف ما زالت باقية ولم تتلاشى تماماً. وهو الأمر الذي استفاد منه الإسلاميون ذاتهم، وساهم في علو شأنهم ودعم دورهم في المجتمع البدوي.

العواقل. فهم يعتمدون على بسط نفوذهم الرمزي من خلال السيطرة على القضاء البدوى، الذى ظل نواة صلبة مضادة لمؤسسة القضاء الرسمى، ونواة صلبة للحفاظ على تراث البداوة. ومن ثم فالإسلاميون حين يسيطرون على القضاء البدوى فهم لا ينشئون قضاءً بديلاً، وإنما تصبح الأسلمة لهذا الكيان استراتيجية سياسية للتحصن بالقبيلة ضد الدولة من ناحية، والتحصن بالشرع ضد العرف من ناحية أخرى. لهذا امتزجت عمليات أسلمة القضاء البدوى بالبداوة امتزاجاً فريداً فى سبيل استعادة صورة من صور المجتمع الإسلامى المتخيل، الذى كانت البداوة وما زالت واحدة من أهم مقوماته.



ملحق: أدلة العمل الميدانى المستخدمة فى جمع البيانات

الدليل الأول

أسلمة المجتمع البدوى: التوجهات الدينية

(دليل عمل ميدانى يطبق على البدو)

المركز:

القرية:

القبيلة:

البيانات الأساسية

الاسم:

النوع:

العمر:

مستوى التعليم:

المهنة:

القدرات الاقتصادية:

الخلفية القبلية:

الخلفية الدينية:

التوجهات الدينية

- ١ - ما مدى الاهتمام بالمعارف الدينية عموماً؟ هل الاهتمام بالمعارف الدينية منتشر أم محدود؟ وفى أى الفئات بالتحديد؟
- ٢ - هل تشعر أن معلوماتك الدينية كافية أم ناقصة؟ خاطئة أم صحيحة؟ كيف ولماذا؟
- ٣ - من أين تحصل على معلوماتك الدينية؟
- ٤ - هل يختلف مصدر الحصول على هذه المعلومات باختلاف المواقف والموضوعات؟ كيف ولماذا؟.

- ٥ - ما أكثر المجالات التي تحرص على معرفة رأى الدين بشأنها؟ ولماذا؟
- ٦ - هل تحرص على حضور حلقات وخطب دينية بالمساجد؟ كيف؟ ولماذا؟
- ٧ - من دفعك لحضور تلك الحلقات لأول مرة؟ ومتى حدث ذلك؟ وكيف؟
- ٨ - هل غيرت الدروس الدينية فى تلك الحلقات من أسلوب حياتك؟ كيف؟ ولماذا؟
- ٩ - صف مشاعرك بعد حضور لقاء، أو حلقة دينية أو خطبة دينية.
- ١٠ - هل تحرص على مشاهدة بعض البرامج الدينية فى التليفزيون بانتظام؟ ما هى؟ ولماذا؟
- ١١ - هل تحرص على الاستماع ومشاهدة دروس بعض الدعاة على شرائط كاسيت وفيديو واسطوانات؟ ما هى؟ ولماذا؟
- ١٢ - هل تحرص على متابعة المواقع الدينية على الإنترنت بانتظام؟ ما هى؟ ولماذا؟
- ١٣ - هل تحرص على اقتناء وقراءة الكتب الدينية بانتظام؟ ما هى؟ ومن أين تحصل عليها؟ ولماذا الحرص على اقتنائها وقراءتها؟
- ١٤ - هل تشعر أن سلوكياتك تغيرت بفعل الثقافة الدينية التى حصلت عليها من تلك المصادر؟ كيف؟ ولماذا؟
- ١٥ - هل تشعر أن حياتك تغيرت بفعل مداومة الاستماع إلى بعض الدعاة؟ من هم؟ وكيف؟ ولماذا؟ اذكر مواقف وممارسات محددة تعكس ذلك.



الدليل الثانى

أسلمة المجتمع البدوى: أساليب فض المنازعات (دليل عمل ميدانى يطبق على شيوخ البدو ورجال الدين)

-: المركز
.....: القرية
.....: القبيلة
البيانات الأساسية
.....: الاسم
.....: النوع
.....: العمر
.....: مستوى التعليم
.....: المهنة
.....: القدرات الاقتصادية
.....: الخلفية القبلية
.....: الخلفية الدينية

اللجوء للمحاكم المدنية الرسمية

- ١ - ما نظرة الناس للمحكمة والقضاء المدنى عموما؟
- ٢ - هل يلجأ البدو عادة إلى المحاكم لحل خلافاتهم؟ متى يحدث ذلك؟ ولماذا؟
- ٣ - ما أنواع المنازعات التى تتطلب اللجوء إلى المحاكم؟ ولماذا؟
- ٤ - متى يصبح اللجوء إلى المحاكم أمرا لا مفر منه؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة.
- ٥ - هل هناك مزايا يمكن أن يحققها القضاء الرسمى فى فض المنازعات؟ ما هى؟ ولماذا؟
- ٦ - هل هناك من البدو من يرفض اللجوء إلى القضاء المدنى؟ من هم؟ ولماذا؟
- ٧ - هل لرجال الدين وبعض التيارات الدينية دور فى الحد من اللجوء إلى المحاكم والقضاء الرسمى؟ كيف؟ ولماذا؟

- ٨ - ماذا يفعل الشخص الراض للقضاء المدنى حين يلجأ الخضم إلى المحكمة؟
- ٩ - هل هناك أضرار تنجم عن أحكام القضاء الرسمى؟ ما هى بالتفصیل؟
- ١٠ - هل يتفق القضاء الرسمى فى بعض أحكامه مع العرف السائد بین البدو؟ وكيف؟
- ١١ - هل تتفق بعض أحكام القضاء المدنى مع الشریعة الإسلامیة؟ وكيف؟
- ١٢ - ما هى فى رأیک الجوانب غیر الشرعیة (أى غیر المتفقة مع الإسلام) فى أحكام القضاء الرسمى؟ وكيف؟

اللجوء للقضاء العرفى

- ١ - ما نظرة الناس حالياً للقضاء العرفى عموماً؟
- ٢ - هل مازال البدو يلجئون إلى القضاء العرفى لحل خلافاتهم مثلما كان الحال فى الماضى؟ متى يحدث ذلك؟ ولماذا؟
- ٣ - هل بدأ العرف يفقد دوره حالياً فى فض المنازعات؟ كيف؟ ولماذا؟
- ٤ - من الذین یمیلون إلى القضاء العرفى دائماً لفض المنازعات؟
- ٥ - ما أنواع المنازعات التى تتطلب اللجوء إلى القضاة العرفیین؟ ولماذا؟
- ٦ - متى یصبح اللجوء إلى القضاة العرفیین أمراً لا مفر منه؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة.
- ٧ - هل هناك مزايا یمکن أن یحققها القضاء العرفى فى فض المنازعات؟ ما هى؟ ولماذا؟
- ٨ - هل هناك من البدو من یرفض اللجوء إلى القضاء العرفى ویتحدى سلطة العرف؟ من هم؟ ولماذا؟
- ٩ - هل أدى وجود طبقة من المتعلمین إلى تقلیل نفوذ العواقل، وبالتالى الإقلال من أهمیة الأعراف البدویة؟ كيف؟ ولماذا؟
- ١٠ - هل لرجال الدین وبعض التيارات الدینیة دور فى الحد من اللجوء إلى القضاء العرفى؟ كيف؟ ولماذا؟
- ١١ - هل یتدخل بعض المسئولین فى الشأن البدوى بتشجیع اللجوء إلى القضاء البدوى؟ كيف؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة حدثت.
- ١٢ - هل یتدخل بعض المسئولین فى الحد من عقد جلسات المجالس العرفیة وتعطیل أحكام القضاء العرفى؟ كيف؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة حدثت.
- ١٣ - ماذا یفعل الشخص الراض للقضاء العرفى حين یلجأ الخضم إلى القضاء العرفى؟

- ١٤ - هل هناك أضرار تنجم عن أحكام القضاء العرفي؟ ما هي بالتفصيل؟
- ١٥ - هل يتفق القضاء العرفي في بعض أحكامه مع أحكام الشرع التي تستند إلى فتاوى دينية؟ وكيف؟
- ١٦ - ما الجوانب غير الشرعية في العرف؟
- ١٧ - هل تتفق بعض أحكام القضاء المدني مع أحكام القانون المدني؟ وكيف؟
- ١٨ - ما هي في رأيك الجوانب غير الشرعية (أى غير المتفقة مع الإسلام) في أحكام القضاء العرفي؟ وكيف؟
- ١٩ - اذكر خطوات إجراء التقاضى العرفي بالصورة التي تمارس في الوقت الراهن.
- ٢٠ - هل هناك تغييرات حدثت في نظام التقاضى العرفي؟ ما هي؟ وما السبب؟ اذكر أمثلة من واقع منازعات حدثت.
- ٢١ - هل يتم اللجوء إلى بعض الأحكام الشرعية خلال عملية التقاضى العرفي؟ ما هي؟ ولماذا؟

اللجوء للقضاء الشرعى

- ١ - ما المقصود بالشرع؟ ومعنى القضاء الشرعى؟
- ٢ - هل يلجأ الناس حالياً إلى السنية (رجال الدين) لحل خلافاتهم؟ وكيف؟ ولماذا؟
- ٣ - ما نظرة الناس حالياً لدور ومكانة السنية ورجال الدين فى المجتمع عموماً؟ ودورهم فى حل المشكلات بصفة خاصة؟ ما مصادر قوتهم فى نظر البدو؟
- ٤ - من الذين يميلون إلى الفتاوى فى فض المنازعات فيما يسمى بالشرع؟
- ٥ - من الذين يدافعون عن أهمية الشرع فى فض المنازعات؟ وكيف؟
- ٦ - من الذى تقع عليه مسئولية الإفتاء؟ ولماذا؟
- ٧ - ما أنواع المنازعات التى تتطلب اللجوء إلى السنية (رجال الدين)؟ ولماذا؟
- ٨ - متى يصبح اللجوء إلى السنية (رجال الدين) أمراً لا مفر منه؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة.
- ٩ - هل هناك مزايا يمكن أن يحققها اللجوء إلى السنية (رجال الدين) فى فض المنازعات؟ ما هي؟ ولماذا؟
- ١٠ - هل هناك من البدو من يرفض اللجوء إلى السنية (رجال الدين) ويتحدى نفوذهم؟ من هم؟ ولماذا؟
- ١١ - هل أدى وجود تيارات إسلامية فى المجتمع إلى تعزيز دور السنية (رجال الدين) وبالتالي تزايد أهمية الشرع فى حياة البدو؟ وكيف؟ ولماذا؟

أسئلة تضاف لرجال الدين

- ١ - ماذا يفعل الشخص الراض لفتاوى السنية (رجال الدين) حين يلجأ الخصم إلى الشرع طلباً للفتوى لحل النزاع؟
- ٢ - هل هناك أضرار تنجم عن أحكام القضاء الشرعى (فتاوى السنية أو رجال الدين)، ما هى بالتفصيل؟
- ٣ - من الذى يهاجم الشرع وإطلاق الفتاوى لحل المنازعات؟
- ٤ - ما الجوانب غير العرفية فى الأحكام الشرعية؟
- ٥ - اذكر خطوات إجراء التقاضى الشرعى بالصورة التى تمارس فى الوقت الراهن.
- ٦ - متى يتم اللجوء إلى السنية فى فض المنازعات؟ وكيف؟
- ٧ - هل يبادر السنية بالتدخل فى فض النزاع؟ متى يحدث ذلك؟ وكيف؟
- ٨ - ما معنى المشورة الشرعية ومتى يتم اللجوء إليها؟ ومن الذين يقع على عاتقهم تقديمها؟
- ٩ - كيف تتم التحقيقات الشرعية؟ المكان والزمان والمشاركين وخطوات التحقيق بين الأطراف المتنازعة.
- ١٠ - هل يتم إشراك العواقل فى أثناء التحقيقات؟ كيف؟ ولماذا؟
- ١١ - هل يتم اللجوء إلى فحوص طبية فى حالة النزاع بسبب إصابة جسدية ما؟ وكيف يتم ذلك؟ ولماذا؟
- ١٢ - هل يتم اللجوء إلى فتاوى من خارج المجمع البدوى؟ كيف؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة.
- ١٣ - ماذا يحدث إذا ظل الخلاف قائماً بعد الفتوى حول مضمونها؟
- ١٤ - كيف يتم تنفيذ أحكام الفتاوى؟ وما ضمانات تنفيذ تلك الأحكام؟ اذكر أمثلة.
- ١٥ - هل للعواقل دور فى تنفيذ أحكام الشرع؟ كيف؟ اذكر أمثلة؟
- ١٦ - هل يؤثر العواقل فى الحيلولة دون تنفيذ أحكام الشرع؟ كيف؟ اذكر أمثلة.
- ١٧ - من الذين يقاومون دور السنية ورجال الدين فى فض المنازعات؟ وكيف يتجاوب رجال الدين مع تلك الصعوبات؟
- ١٨ - ما الأساليب التى يلجأ إليها السنية (رجال الدين) فى الترويج لما يسمى بالقضاء الشرعى أو حكم الشرع؟
- ١٩ - هل يتدخل بعض المسئولين فى الشأن البدوى بتشجيع اللجوء إلى القضاء البدوى للحد من دور السنية (رجال الدين) فى فض المنازعات؟ كيف؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة حدثت.

٢٠ - هل يتدخل بعض المسئولين في الحد من عقد جلسات الشرع التي يعقدها السنية (رجال الدين) لتعطيل أحكام القضاء الشرعي؟ كيف؟ ولماذا؟ اذكر أمثلة حدثت.

الفتاوى

- ١ - ما معنى الفتوى؟ وإلى أى مدى تختلف عن أحكام العرف؟ كيف؟ ولماذا؟
- ٢ - مدى الحاجة للفتاوى في الحياة البدوية؟
- ٣ - لماذا اللجوء للفتوى مهم في الحياة؟
- ٤ - من الذين يدعون إلى أهمية الفتاوى في الحياة؟
- ٥ - ما الفئات الأكثر ميلا إلى اللجوء إلى الفتوى؟ ولماذا؟
- ٦ - متى يتم اللجوء إليها؟ ما المواقف التي يتم فيها اللجوء للفتوى؟
- ٧ - مصادر الحصول على الفتوى؟ من هم الموثوق في فتواهم؟ ولماذا؟
- ٨ - هل يختلف مصدر الفتوى باختلاف المواقف التي تقتضى الإفتاء؟
- ٩ - هل يحدث أن تتم فتاوى المعاملات اليومية من خلال شيوخ محليين؟
- ١٠ - ما المصادر غير الموثوق فيها للفتوى؟ ولماذا؟
- ١١ - هل يمكن أن يحدث تضارب في الفتاوى؟ اذكر أمثلة.
- ١٢ - ماذا يفعل البدو حين يواجهون تضاربا في الفتاوى؟ هل يختار البدوى ما يناسبه؟ أم تفرض عليه فتاوى بعينها؟ كيف؟ ولماذا؟
- ١٣ - كيف يتم تنفيذ مضمون الفتوى؟
- ١٤ - هل سبق لأشخاص أن طلبوا فتوى ثم عدلوا عنها ولجأوا إلى أحكام عرفية؟ ولماذا؟
- ١٥ - هل هناك أشخاص بين العوائل يقاومون الإفتاء؟ ولماذا يقاومون؟ ووسائل المقاومة؟ وكيف يتعامل الإسلاميون مع هذا النوع من المقاومة؟
- ١٦ - ما مواصفات الشخص المؤهل للإفتاء؟
- ١٧ - هل يحرص البدو على أن تكون حياتهم ذات طابع إسلامي؟
- ١٨ - هل هناك فروق بين حياة البداوة والإسلام؟ وما هي؟
- ١٩ - أيهما يفضل الشخص أن يكون بدويا أم مسلما أم كليهما؟ ولماذا؟
- ٢٠ - اذكر أمثلة لممارسات في الحياة اليومية تغيرت بفعل فتاوى معينة، كيف؟ ولماذا؟

بدو مصر فى ثورة ١٩١٩م

أحمد الشربيني^(١)

تميزت ثورة ١٩١٩م فى مصر عن غيرها من الثورات التى اندلعت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بالمنطقة العربية، فى أنها كانت ثورة شعبية غلب عليها الطابع السلمى. وقد انطلقت هذه الثورة يوم ٩ مارس وعمت كل أنحاء مصر بعد أن أُلقت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر القبض على بعض الساسة المصريين - وفى مقدمتهم سعد زغلول باشا - وشرعت فى نفيهم إلى خارج البلاد، فى محاولة للسيطرة على ما أسموه بالتهييج السياسى بالبلاد، المصاحب للاستعدادات التى كانت تجرى بلندن وباريس للإعداد لتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى. وإذا كان الطلاب لهم السبق فى الخروج إلى الشارع المصرى، وإلهاب حماس الجماهير بشكل دفعهم إلى النزول تباعا والمشاركة فى الثورة، فقد شارك فى الثورة كل فئات وأطياف المجتمع المصرى، والذين تنوعت مشاركتهم، ما بين التظاهر والإضراب عن العمل، والاعتصام بمقار العمل.

وإذا كانت المدن المصرية إبان الثورة قد شهدت زخما ثوريا غير مسبوق فى مصر الحديثة، فإن انخراط جماعات أخرى فى الثورة من غير ساكنيها، نقل الثورة من القاهرة والمدن إلى أطراف المجتمع المصرى، بشكل أدى إلى اتساع مجالها، إلى حد جعل مهمة القوات البريطانية فى السيطرة عليها صعبة ومعقدة، حتى إن أحد كبار المسؤولين البريطانيين - السير م. تشستيهام Sir M. Cheetham, S القائم بالأعمال البريطانية فى مصر بعد رحيل السير ريجنلد وينجت Sir R. Wingate - رأى بعد اندلاع الثورة بأقل من ثلاثة أسابيع، بأن «نوعا من التفاقم فى طبيعة الثورة الحالية أمر محتوم إن عاجلا أم عاجلا».

وقد أثارت مشاركة الفلاحين والبدو غير المتوقعة فى ثورة ١٩١٩م انتباه المراقبين للشأن المصرى عندئذ، وبخاصة المسؤولين البريطانيين، الذين هالهم تلك المشاركة التى لم تجعل الثورة تنتقل من القاهرة وحواضر الأقاليم إلى الأطراف فحسب، بل جعلت الوضع أثناء الثورة خارج المدن أكثر خطورة على الوجود البريطانى من المناطق الحضرية بما فيها

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة، كلية الآداب - جامعة الكويت.

العاصمة، بعد أن أجهدهم تعقب الثوار من الفلاحين والبدو، ممن انتشروا في مناطق مفتوحة، تتسم بالعمق الاستراتيجي، وبخاصة البدو الذين وجدوا صعوبة في ملاحقتهم في الصحراء. فإذا كانوا قد نكلوا بقرى ثائرة كثيرة، بفرض الحصار عليها، وتفتيش منازلها في غسق الليل، بل وإحراقها بمحتوياتها، فإنهم وجدوا مشاكل كثيرة في ملاحقة البدو، لوقف نشاطهم في الثورة.

ولعل دور البدو المزعج والمكلف لسلطات الاحتلال البريطاني بمصر في ثورة ١٩١٩م كان وراء اهتمام رجال الاحتلال بتشويه هذا الدور، ومحاصرته، وذلك بالعمل على عزل البدو وإخراجهم من الثورة على وجه السرعة، وذلك من خلال نشر بيانات ونداءات بالصحف لتوتير العلاقة بين البدو وغيرهم من الجماعات المصرية المستقرة - والتي كانت نظرة كل منهما للآخر ما تزال بحاجة إلى بعض التصحيح - وإفقاد البدو الأرضية أو الحضانة التي تسهل لهم الانخراط في عمليات مقاومة سلطات الاحتلال، لاسيما بعد أن اهتموا بنقل ساحة مشاركتهم في الثورة إلى المدن والقرى الأقرب إلى مواطنهم.

وتنوعت الأساليب التي اتخذها رجال الاحتلال في مصر لعزل البدو في الثورة، منها إثارة الشك والريبة في نفوس الفلاحين وأصحاب المصالح الزراعية من تحركاتهم، عندما راحت بلاغاتهم التي كانت تنشر بالصحف اليومية، تصور تحركات البدو في الثورة على أنها تحركات رعايع ومشاغبيين... حتى إن أحد هذه البلاغات اعتبر أن ثوار البحيرة ما هم إلا مجموعات من «المشاغبين الذين كان معظمهم من البدو».

واعتبرت بلاغات أخرى لبعض المسئولين البريطانيين من شاركوا من البدو في ثورة ١٩١٩م أصحاب عصابات... ففي ٢٨ مارس ١٩١٩م نشر بلاغ رسمي عن سلطات الاحتلال في مصر ذهب إلى أن «العصابات المسلحة التي هجمت على أسسيوط والتي كانت موزعة على طول النيل شمالا إلى ديروط كانت مؤلفة من البدو، وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم عناصر من الخارجين على القانون من القاطنين في هذا الجزء من وادي النيل».

ونعتت بلاغات أخرى لمسئولين بريطانيين، من كانوا يشاركون في الثورة من البدو، بأنهم جماعات تتحرك بدافع السلب والنهب والسرقعة، فذهب بلاغ إلى أن البدو في البحيرة، ومركز الوسطى بنى سويف «انتهزوا فرصة الحالة.. الثورية... ليدخلوا المناطق المزروعة للسرقعة والنهب».

وفى رسالة من القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهام» إلى اللورد كيرزون Earl Curzon فى ١٩ مارس ١٩١٩م ذهب إلى «أن هجمات البدو ترتب عليها سلب الدوائر الحكومية ومحطات السك الحديدية، بعد أن درجوا على الإغارة على الدوائر الحكومية المدنية فى الأرياف بأعداد كبيرة والقيام بأعمال السلب والنهب وإتلاف المحاصيل فى مختلف المناطق، بشكل أدى إلى شيوع الفوضى، مع عجز البوليس عن مواجهة الثوار». هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه بلاغات أخرى لتصوير البدو فى ثورة ١٩١٩م، على أنهم مرتزقة، تستخدمهم الجماعة الوطنية للضغط على أصحاب المصالح حتى يقبلوا بالانخراط فى الثورة، أو إطلاق البدو عليهم، حتى إن القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهام» أرسل إلى اللورد كيرزون «أن الوطنيين كانوا يهددون رؤساء الإدارات المحلية ورجال البوليس، ليفاضلوا بين الانضمام إلى الحركة الوطنية، أو يأتون إليهم بالبدو لسلب المنطقة، وإشعال النار فى المباني الحكومية، و نفذوا تهديدهم فى عدد كبير من الحالات، وكانت أجور هؤلاء البدو تدفع من قبل اللجنة الوطنية المركزية»، وأن الأمير عمر طوسون قام بدور مهم فى تنظيم العمليات التى يقوم بها البدو، بعد أن لوحظ أن مشايخ البدو كانوا يزورونه بصفة مستمرة لعدة أسابيع فى فندق شبرد بالقاهرة.

لكن الشواهد التاريخية التى تم فرزها حتى من بين رسائل وبلاغات المسئولين البريطانيين أنفسهم، تشير إلى أن تحرك البدو فى ثورة ١٩١٩م كان تحركا محسوبا، وينم عن إدراك، ووعى بالمسألة المصرية، وأبعادها، لاسيما بعد أن جاء هذا التحرك متناغما مع تحركات باقى القوى المصرية المشاركة بالثورة.

فهناك بلاغات لمسئولين بريطانيين تشير إلى أن البدو فى بعض المناطق بمصر كانوا يعملون لدفع غيرهم من البدو الذين ترددوا بشأن المشاركة فى الثورة، حتى ينخرطوا معهم فيها، فأشارت رسالة من اللورد اللنبى Sir E. Allenby إلى كيرزون لقيام بدو البحيرة بمحاولات لإقناع بدو الساحل بين الإسكندرية والسلم، للانخراط فى أحداث الثورة. وفى الوقت الذى كان يتحرك فيه بعض البدو لإشراك ذوبهم فى الثورة، لتوسيع دائرتها بشكل يربك حسابات سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، وبخاصة فى المناطق التى تمثل ظهيرا لأهم المدن والسواحل المصرية، أخذت قطاعات من البدو مواقف معادية للثورة، حتى إن بعض هذه القطاعات لم يرفض الاستجابة لدعوات غيرهم من البدو

للمشاركة فى الثورة فحسب، بل راح يتعاون مع سلطات الاحتلال لحماية خطوط السكك الحديدية، فالبدو الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة بين الإسكندرية والسلوم لم يرفضوا دعوات بدو البحيرة للانخراط فى الثورة فحسب، بل قام كثير منهم بحراسة محطة سكة حديد مريوط، كذلك قام العرب القاطنون بين أسوان والأقصر بتقديم المساعدة للأجهزة الإدارية فى مصر أثناء الثورة، حتى إنه تم الاستعانة بعناصر منهم فى حماية السكة الحديد فى جنوب الأقصر، والذين كانوا من قبيلة البشارية التى كانت دائما موالية للسلطة، واستخدم منها أغلب قوات الهجانة.

وتراجع قطاعات من البدو عن المشاركة بالثورة، والقبول بالتعاون مع الإدارة، لحماية خطوط السكك الحديدية والمنشآت العامة، يجعل الاتهامات التى كالجها رجال الاحتلال للبدو الذين شاركوا فى الثورة فى غير محلها، لأنهم لو كانوا يشاركون فى الثورة كمرتزقة، أو بهدف السلب والنهب لربما انساقوا جميعا خلف هذه الأهداف، وما وجدنا قطاعات من البدو ترفض الانخراط فى الثورة.

ومما جعل نشاط البدو فى ثورة ١٩١٩م أبعد ما يكون عن أعمال السلب والنهب، إن تحركاتهم ارتبطت بتحركات الجماعة المصرية، وبخاصة الفلاحين، لاسيما بعد أن نقلوا نشاطهم الثورى إلى المناطق ذات التأثير فى أداء سلطات الاحتلال، والتى تجاوزت القرى التى تقع على أطراف الصحراء إلى مدن الأقاليم الأقرب إلى مواطنهم، بمديريات الفيوم، وبنى سويف، وجرجا، وقنا، وأسوان، وأسيوط، كذلك امتدت تحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى البحيرة، والإسكندرية، والمنوفية، والشرقية، والدقهلية.

وفى تلك المناطق شكل البدو مع الأهالى وكافة القوى الاجتماعية المصرية وبخاصة الفلاحين، جبهة واحدة للقيام بأعمال للضغط على سلطات الاحتلال، وإرباك حساباتها فى مصر. فقد أشارت بلاغات المسؤولين البريطانيين أثناء الثورة أن «الهجمات التى تعرضت لها أسيوط وتوابعها قام بها البدو وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم العناصر التى لا تطيع قانونا». وأن «الهجمات على مديريات أقصى جنوب مصر من جرجا وقنا وأسوان، قام بها البدو وعناصر عادية من المصريين»، كما «أن الهجمات التى استهدفت مناطق بشمال الشرقية والدقهلية والغربية وغرب البحيرة قام بها الرعاع من الفلاحين والبدو» وفى «الفيوم تسبب رجال البدو وبعض السكان فى إحداث أضرار بالغة فى عاصمة الإقليم والمدن

والمراكز المجاورة لها». كما كان المهاجمون «لمركز الوسطى - مبنى سويف - والقادمون من الفيوم والذين قدر عددهم بسبعة آلاف رجل كانوا من السكان والبدو».

وطالما كان البدو جزءاً من الحراك الثورى الذى شهدته الساحة المصرية فى ١٩١٩م، فقد استهدفوا فى تحركاتهم إبان الثورة ما استهدفه غيرهم من المصريين خارج القاهرة، حيث استهدفوا الجسور ممثلة فى الطرق وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها، ومراكز البوليس، والدواوين الإدارية، لتعطيل دولاى العمل، والحيل بين قوات الاحتلال والوصول إلى المناطق الثائرة، بعد أن أصبحت الجسور لا تمثل لهم إلا وسيلة تستخدمها سلطات الاحتلال، لقمعهم، وسرقة فائض إنتاجهم.

لهذا كانت الطرق ووسائل النقل والمواصلات بما فيها خطوط السكك الحديدية، والقطارات هدفاً لتحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م، لعزل القاهرة باعتبارها العاصمة عن جنوب مصر وشمالها، وقطع الإمدادات المختلفة عنها. وإضعاف قدرة سلطات الاحتلال فى السيطرة على الثورة، بشل يدها فى نقل قواتها خارج القاهرة والإسكندرية.

لهذا هاجم البدو القطارات على خط سكك حديد القاهرة - أسوان، وتساوى فى ذلك القطارات التى كانت تتحرك فى الاتجاهين، وفى ١٨ مارس ١٩١٩م هاجموا قطارا كان قادما من الأقصر إلى القاهرة فى ديروط ودير مواس، كان يحمل بعض الضباط البريطانيين، «كما هاجموا فى الرقة القطار السريع القادم من القاهرة إلى أسوان ونهبت به عربة البريد، وأمتعة ركابه من الأوربيين، مما اضطره للعودة إلى القاهرة».

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه اعتداءات البدو على القطارات، كانوا يحطمون خطوط السكك الحديدية، حيث قاموا باقتلاع خطوط السكك الحديدية، فى أنحاء مديرية الفيوم حتى الوسطى بمديرية بنى سويف، وقطعوا خط السكك الحديدية بين الرقة وبنى سويف.

ولم يتوقف إتلاف خطوط السكك الحديدية على الفيوم والمناطق الجنوبية من مصر بل امتد إلى البحيرة، والمنوفية، والدقهلية. وفى «البحيرة قامت أعداد كبيرة من البدو الثائرين، بالهجوم على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة بالمنطقة»، وفى المنوفية «وقعت حوادث تخريب للسكة الحديدية... بعد أن بدأ البدو على حدودها يتفرقون... مجموعات كبيرة وشنوا هجمات على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة».

ولم تسلم مباني محطات السكك الحديدية، من اعتداءات البدو، حتى إنها تعرضت للنهب والتدمير، بشكل أدى إلى تعطيل حركة القطارات.

وبلغ اهتمام البدو بتعطيل وسائل النقل والمواصلات أنهم لم يتلفوا خطوط السكك الحديدية الرئيسية فحسب، بل أتلفوا الفروع الجديدة في المراكز البعيدة، ومعظم الطرق الزراعية، حتى أصبحت غير صالحة لنقل المحاصيل الزراعية، وتحتاج إلى وقت طويل لإصلاحها.

ولما كان تعطل وسائل النقل والمواصلات أثناء الثورة، يزعج سلطات الاحتلال البريطاني في مصر، فقد اهتمت بالعمل على إعادتها وحمايتها على وجه السرعة بأى ثمن، حتى إنهم استخدموا سلاح الهجانة، والبدو في بعض المناطق لحمايتها من الاعتداء عليها. لاسيما بعد أن اهتم البدو بمعاودة تعطيل خطوط السكك الحديدية التي كان يتم إصلاحها. حيث أشار القائم بالأعمال البريطانية في مصر «تشيتها» في رسالة له إلى كيرزون في ١٩ مارس ١٩١٩م إلى أن الجنود المصريين في جنوب القاهرة قاموا بالمساعدة في إصلاح خط السكك الحديدية المتجه إلى منطقة الوسطى، ولكن التقارير التي أعدها سلاح الطيران تشير إلى دمار جديد قام به البدو بصورة دائمة في القرى.

وقد ربطت سلطات الاحتلال بين عودة الحركة إلى طبيعتها على خطوط السكك الحديدية ببعض المناطق بتوقف البدو عن مهاجمتها، حيث أشار بلاغ رسمي صادر عن سلطات الاحتلال البريطاني في مصر في ٢٥ مارس إلى «عودة المواصلات بالسكة الحديدية بين الوسطى والفيوم بعد أن ارتدع البدو، بسبب العقاب الصارم الذى لحقهم يوم ١٩ مارس في مدينة الفيوم».

وإلى جانب استهداف البدو في ثورة ١٩١٩م لخطوط السكك الحديدية ومحطاتها وغيرها من الطرق الزراعية، فقد استهدفوا مراكز البوليس، والدوائر الحكومية الأخرى، بما فيها المحاكم لتعطيل جلساتها، ولاسيما بالمراكز النائية، حتى إنهم أجبروا من كانوا يعملون بها، على تسليم أسلحتهم، والانسحاب منها تحت ضغط هجماتهم. فقد حاصر البدو بمركز اطسا بالفيوم ديوان المركز وطالبوا رجال البوليس بتسليم أسلحتهم وخيولهم، ولما رفضوا تقاتلوا معهم، وفي ٢٢ مارس ١٩١٩م هاجم عدد كبير من السكان والبدو القادمين من الفيوم مركز الوسطى... وجرّدوا رجال البوليس من سلاحهم واستولوا عليه، «وفي ١٨ مارس قام البدو في كوم حمادة بالبحيرة بهجوم عنيف على المركز»، «وفي مدينة إيتاى

البارود بالبحيرة، حاصر البدو المدينة حتى سقط مركز البوليس فى أيدى جموع الثائرين»، علاوة على ذلك كان البدو يقومون بالإغارة بأعداد كبيرة على الحكومة المدنية بالأرياف. وأمام تكرار هجمات البدو على مراكز البوليس والدوائر الحكومية المدنية بالمراكز وبخاصة النائية، اتجهت الحكومة عندئذ إلى نقل الموظفين إلى عواصم المديرية لتأمينهم، ففى مديرية الفيوم عندما تصاعدت هجمات البدو على مراكز البوليس والمقار الحكومية بأنحاء المديرية، لجأ موظفو مراكز المديرية إلى مدينة الفيوم ليكونوا بمأمن من هجمات البدو.

وكانت مهاجمة البدو لمراكز البوليس والاستيلاء على أسلحتها وراء تحول تظاهراتهم أثناء الثورة إلى مواجهات مسلحة مع القوات البريطانية، أوقعت قتلى كثر فى الجانبين، ففى ١٥ مارس ١٩١٩م حدث قتال فى بنى سويف فى جنوب الوسطى بين البدو وفصيلة صغيرة من الجنود الهنود الذين أرسلوا من القاهرة للمحافظة على النظام، وأصيب فى تلك المواجهات، قائد الفصيلة البريطانى بجراح بالغة، وفى أسيوط «اندلعت معارك شديدة بين الحامية المحلية ورجال البدو وغيرهم من الثائرين فى الفترة من ٢٣ و ٢٥ مارس ١٩١٩م، مما أدى إلى انتشار أعمال عنف ونهب وحرقت طالت المبانى الحكومية، ومخازن للمواد الغذائية». وفى «١٩ مارس ١٩١٩م حدثت بمدينة الفيوم مواجهة بين القوات البريطانية والبدو، قتل وجرح فيها نحو أربعمائة شخص معظمهم من البدو».

ولعل العنف الذى صاحب المظاهرات التى شارك فيها البدو كان وراء إصدار سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر «إنذارات للبدو - ٢٢ مارس ١٩١٩م - بالبقاء فى خيامهم» و«الالتزام بالهدوء والتوقف عن إطلاق النار على الجنود البريطانيين، حتى لا تضطر قواتهم لاستخدام وسائل تؤدى إلى إزهاق أرواح كثير من الأبرياء. فقد وجه القائد العام للقوات البريطانية فى مصر - الجنرال واطسون - إنذارا إلى أهالى الفيوم والوجه القبلى جاء فيه إنه «فى الأيام الأخيرة أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين وقتلوا بعضهم، فإذا أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين مرة أخرى، اتخذت فى الحال وسائل مشددة قاهرة لا بد أن تفضى إلى ضياع أرواح كثير من الأبرياء وهذا آخر إنذار».

كذلك درج البدو أثناء الثورة على إتلاف المحاصيل الزراعية فى مختلف المناطق، من خلال الاعتداء على عذب وممتلكات وأعيان البلاد ممن لم يمدوا يد العون للثوار، أو ناهضوا الثورة. كما استهدفوا أشغال الرى، حتى إن المندوب السامى البريطانى فى مصر

عندئذ خشى أن تكون قد دمرت. هذا علاوة على قطع خطوط الهاتف بين مدن الأقاليم وبعضها البعض.

وكانت مشاركة البدو في ثورة ١٩١٩م وراء تصاعد الأحداث بالمناطق التي كان للبدو فيها حضور ثورى قوى، كالفيوم والبحيرة، والإسكندرية، وغيرهم من المدن المصرية. وكانت الفيوم من أكثر المناطق سخونة في الثورة بعد أن درج بدوها على الزحف على مراكزها وقراها، وبخاصة النائية منها، وراحوا يستهدفون مراكز البوليس ورجالها، الذين أجبروهم على الرحيل، والقبول بالانتقال إلى مدينة الفيوم، بحثا عن الأمان. كذلك هاجم بدو الفيوم وسائل المواصلات والمباني الحكومية، فى الوقت الذى نقلوا فيه نشاطهم الثورى إلى المناطق الأخرى المحيطة بالفيوم، وتحديداً بنى سويف، التى كانت الحالة بها فى بعض الأوقات تبدو شديدة الحرج بسبب وجود عدد كبير من رجال البدو فى المناطق المجاورة لها.

ومع استمرار تزايد أعداد البدو فى قرى كوم حماده، والدلنجات، وحوش عيسى وأبو المطامير فى غرب البحيرة، تحولت البحيرة إلى واحدة من أكثر مناطق ثورة ١٩١٩م سخونة، حتى إن أحد رجال الاحتلال البريطانى رأى أنها تعيش ثورة سافرة للبدو، شهدت إبانها مراكزها أعمال شغب، وإحراق محطات السكك الحديدية، وإتلاف معظم الطرق الزراعية، وحصار المدن كإيتاى البارود، وكذلك حصار مراكز البوليس حتى سقوطها فى أيديهم، وبلغت ثورة البدو بالبحيرة حدا دفع سلطات الاحتلال لإرسال قوات كبيرة من الإسكندرية إلى دمنهور لمواجهة الموقف الخطير الذى نجم عن ثورة البدو فيها.

وكما نقل البدو الذين تسللوا إلى الفيوم نشاطهم إلى المناطق المجاورة للفيوم كبنى سويف، فقد قام البدو الذين تسللوا إلى البحيرة بنقل نشاطهم إلى مدينة الإسكندرية، التى قاموا باعتداءات عليها، لاسيما بعد أن بدأت تنطلق منها قوات للاحتلال لمواجهة الموقف الخطير فى دمنهور الناجم عن ثورتهم بالبحيرة.

كذلك امتدت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى الشرقية والدقهلية والغربية، حتى أصبحت الحالة بالمراكز المتطرفة فى شمال الشرقية والدقهلية والغربية فى دلتا مصر غير مرضية، فى الوقت الذى أدت فيه مشاركة البدو فى أحداث الثورة بصعيد مصر إلى توتر الأحوال فى المنيا وأسيوط، وجرجا، وقنا، وأسوان.

ولعل شدة الموقف فى جنوب مصر بسبب تحركات البدو وتحديدًا فى أسيوط، كان وراء اتجاه سلطات الاحتلال إلى تحويل أسيوط إلى مركز لقيادة القوات البريطانية فى الوجه القبلى، حتى هدأت الأحداث بها، فتم نقل مركز القيادة إلى سوهاج ثم أسوان. ومشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م بفاعلية ليست فى حاجة لأن نبحت لها عن أسباب خاصة، كذلك التى كان يسعى رجال الاحتلال لتصديرها للمجتمع المصرى فى محاولة لعزلهم، وإخراجهم من الثورة، إذا ما نجحوا فى تشويه تحركات البدو فيها، وتشكيك المجتمعات المستقرة بكل مكوناتها فيهم.

لهذا يمكننا القول بأن الأسباب التى دفعت المصريين للانخراط فى ثورة ١٩١٩م هى نفسها التى دفعت البدو للمشاركة فى الثورة بكل المناطق المستقرة بالمدن والقرى التى تقع على أطراف الصحراء، والتى مكنتهم كثرتهم من نقل احتجاجاتهم إليها.

وبالطبع هذه المشاركة التى أزعجت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، مردها أن البدو المصريين لم يكونوا يوما بمعزل عن المجتمع وهمومه، للارتباط التاريخى الواضح بينهم كجماعات وأطراف، وبين المناطق الحضرية والزراعية. هذا الارتباط يعود إلى استمرار اندماج جماعات من البادية فى المجتمع المستقر بريفه وحضره، والقبول بالجمع بين حياة الترحال والاستقرار، أو التضحية بحياة الترحال لحساب الزراعة والاستقرار، وقد جاء هذا الاندماج - أحيانا - فى إطار سياسة لتوطين البدو، أخذت شكلا واضحا فى العصر الحديث، ولاسيما فى القرن التاسع عشر، مما أدى إلى ظهور عائلات مستقرة امتلكت مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية، حققت لها وزنا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا فى المجتمع المصرى فى العصر الحديث، منها الشريعى، وأباظة، والسعدى، والباسل وغيرها. وبالطبع كان استقرار هذه العائلات وارتباط مصالحها الجديدة بالمجتمع فى الوقت الذى كانت تحتفظ فيه بعلاقات البداوة، جعل البدو دوما على مقربة مما كان يحدث بالمجتمع المصرى. لهذا لا نستغرب أن يكون للبدو دور فى أحداث الثورة العربية، وبعد ذلك ثورة ١٩١٩م، التى كان حمد الباسل أحد أهم رموز المجتمع المصرى والبادية المصرية فيها.

و حمد الباسل (١٨٧١م - ١٩٤٠م) الذى نشأ نشأة بدوية، ينتمى إلى قبيلة الرماح بالفيوم، والتى عين عمدة لها خلفا لوالده محمود الباسل، ثم تخلى عن منصب العمدة لأخيه عبد الستار، بعد أن جذبته السياسة، وراح يستقر بالعاصمة، ليكون على مقربة من

صالوناتها، وفي عام ١٩١١م عين في مجلس مديرية الفيوم، ثم انتخب عضواً في الجمعية التشريعية قبيل الحرب العالمية الأولى، وعندما تأسس الوفد المصري في أعقاب الحرب اختير وكيلاً له.

وكان نشاط الباسل السياسي - كغيره من السياسيين المصريين - إبان الحرب العالمية الأولى، وراء اتجاه سلطات الاحتلال البريطاني في مصر لوضعه تحت المراقبة، بسبب عطفه وتأميره مع السنوسى.

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى شارك حمد الباسل في الحركة الوطنية وساند مجموعة الوفد منذ البداية، فكان ممن وقعوا على النداء الذى وجه إلى ممثلى الدول الأجنبية فى مصر فى مطلع ديسمبر ١٩١٨م، احتجاجاً على الخطة التى اتخذت لمنع سفر وفد يمثل المصريين بمؤتمر الصلح «واحتجاجاً على كل قرار يتخذ بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى الأمة المصرية فيه».

وكان الباسل من أكثر أعضاء الوفد المصرى جرأة فى التحرك عندئذ حتى إنه تحمل مسئولية الدعوة لعقد اجتماع للوفد بمنزله - بشوارع الداخلية تجاه بيت الأمة - فى ١٣ يناير ١٩١٩م يعد الأول من نوعه، لأنه أنهى مرحلة من تاريخ الوفد كانت أعماله تعلن للأمة بطرق غير مباشرة، وجاء الاجتماع ليعطى الوفد فرصة لأن يعلن عن نفسه صراحة وبشكل مباشر، أدى إلى ازدياد التقاف الناس حوله وازدياد ثقتهم به، فى الوقت الذى أدى فيه إلى ازدياد الروح المعنوية للأمة، وازدياد معرفة الأجانب فى مصر بالحركة الوطنية، وأغراضها، ووسائلها حتى يطمئنوا إليها. وقد دعا الباسل إلى هذا الاجتماع نفراً كبيراً من أعضاء الجمعية التشريعية، والهيئات النيابية الأخرى، والعظماء وكبار ذوى الآراء، وفى هذا الاجتماع ألقى سعد زغلول خطبة هى أول خطبة سياسية له بعد تأليف الوفد، والتى شكر فيها حمد الباسل على أن هياً له هذه الفرصة.

ولعل نشاط حمد الباسل جعله محل اهتمام رجال الاحتلال، الذين اعتبروه من المحرضين، والمهيجين السياسيين، وأحد زعماء الإثارة الوطنية من حملة الباشاوية - سعد زغلول، إسماعيل صدقى، محمد محمود، حمد الباسل -، والذين تقرر إبعادهم خارج البلاد فى ٨ مارس ١٩١٩م.

وكما كان إلقاء القبض على الباشاوات الأربع الشرارة التى أشعلت مظاهرات الطلاب، وفجرت أحداث ثورة ١٩١٩م، بالعاصمة، فقد كان ذات الحدث وراء تحرك البدو للمشاركة

فى الثورة؁ باعتقال حمد الباسل رمز البادفة؁ والرئفس الروحى لجماعات الأعراب فى مصر؁ والذى تمتع بشعبفة عرفة لفس بفن أفراد قبفلة الرماح بالففوم؁ بل بفن جمفب أعراب المنطفة؁ الذىن دانوا له بالولاء والطاعة؁ وإن كانت مشاركة البدو فى الثورة قد تأخرت بعض الشفء؁ بعد أن انتشرت الحالة الثورفة بكل أنحاء مصر.

كذلك ارتبطت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م - وبشكل فعبس تحركهم المنظم فى إطار الجماعة الوطنفة - بتأثرهم بالإجراءات التى اتخذتها سلطات الاحتلال لتبفر المواد الغذائفة والأمتعة والمؤون والعتاء؁ وحتى الأعلاف التى كانت تخدم المجهود الحربى لبرفطانفا فى مصر والمنطفة.؁ والتى انتشرت مراكز تجمفبها بأثناء مصر؁ حتى إن أسفوط أثناء ثورة ١٩١٩م كانت بها أهرام هائلة من التبف مكدسة لحساب السلطة العسكرفة؁ فى انتظار ضغطها وكبسها فى مكبس أنشفء خصفصا لذلك؁ لتحولبها إلى قوالب مضغوطة للوقود.

وبقدر ما أثار استفلاء سلطات الاحتلال على أعلاف الفلاحفن لحساب مجهودها الحربى؁ قد أثار البدو الذىن كان بعضهم فنتقل سنوفا إلى مناطق الأراضى الخصبة فى مواسم الجفاف لرعى أغنامهم وإبلهم وماعزهم على بقفا الحصاد الذى كانوا فشترونه من الفلاحفن؁ والذى تأثر بشح الأعلاف إبان الحرب بسبب سفاسة السلطات البرفطانفة فى مصر.

كذلك دفع الارتفاع فى أسعار السلع أثناء الحرب البدو للمشاركة فى الثورة؁ بعد أن أثر هذا الارتفاع فى قدرة معظم البدو على الوفاء باحتفاجاتهم المحدودة من الملابس والتمر والحبس والقمح.

وكان استنكار البدو لأسالفف جمع الدواب؁ وأعداد كبفرة من المصرففن - بالخطف من الطرق والحقول والمنازل - للعمل بفرق العمل والنقل وراء امتعاضهم من الاحتلال ورموزه من رجال السلطة المملفة بالمدن؁ والذىن كانوا لا ففدون غضافة فى الاتفاق على محاصرة قرى وجمع خفرة أبنائها؁ ونقلهم إلى ساحات القتال بشكل قسرى؁ بما فى ذلك قرى الأطراف التى استقر بها البدو؁ وقد أشار أحد رجال الاحتلال فى مصر لأثر هذه السفاسة فى نفوس المصرففن ممن جندوا بفرق العمل والنقل؁ والذىن بلغوا ٥٠٠ ألف متطوع؁ سطر فلفهم إحساس بالظلم والاستنكار؁ والذى وجد بدون شك طرفقه للتنففس والإعراب عنه فى حملة من الدمار العنفف بفن الناس.

والملاحظ أن أداء البدو في ثورة ١٩١٩م يعكس حالة المجتمع المصرى فى الثورة بكل مستوياته، حيث مثلت البادية فى قيادة الثورة بمستوياتها الخارجى والداخلى، حيث كان حمد الباسل أحد من ألقى القبض عليهم من الأربعة الذين تم نفيهم إلى مالطة، وسافر ضمن من سافروا إلى باريس بعد أن تقرر الإفراج عنهم، وسمح للمصريين بالسفر لعرض قضيتهم على مؤتمر الصلح، وظل بالخارج يسعى مع غيره من أعضاء الوفد بحثا عن وسيلة لإنقاذ المسألة المصرية، حتى اختلف مع سعد زغلول، وقرر العودة إلى مصر مع نفر من أعضاء الوفد. وفى الداخل كان عبد الستار الباسل يعمل على الأرض مع من كانوا يعملون من الساسة بالداخل، وإن كان قد مثل التيار المعتدل على الساحة المصرية عندئذ، وتجلى هذا فى توقيعه فى ٢٤ مارس ١٩١٩م على «النداء الشهير إلى الأمة، والذى كان الموقعون عليه يدعونها إلى الإخلاء والهدوء والسكينة... وتجنب أى اعتداء وأن لا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين حتى لا يسد الطريق فى وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة، وأن يلتزم الجميع فى تصرفاته بالحكمة.

وبينما كان آل الباسل يمثلون البدو فى قيادة الثورة، سطر البدو بالأقاليم المصرية المختلفة مع غيرهم من أهل القرى والمدن صفحة وطنية مشرفة فى الثورة، لأن تظاهرات البدو ما كان لها أن تربك سلطات الاحتلال ما لم تتوفر للبدو الحضانة بالمناطق التى قرروا خوض المواجهة فيها مع سلطات الاحتلال، فى الوقت الذى كانت المناطق التى شارك فيها البدو بالثورة من أكثر المناطق سخونة وعنفا، بعد أن درج البدو على استخدام السلاح فى مواجهة قوات الاحتلال.



مصادر ومراجع الدراسة ومراجعتها

- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية، ج ٢، القاهرة ١٩٢٦م.
- حسن أحمد يوسف نصار: قبائل البدو في مصر ١٨٤٨م – ١٩٥٢م، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس ١٩٨٧م.
- صلاح الراوى: الشعر البدوى فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومى من ١٩١٤م إلى ١٩٢١م، ج ١، ط ٣، مؤسسة دار الشعب القاهرة ١٩٦٨م.
- محمد على علوية: ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.
- عبد الرحمن فهمى: مذكرات عبد الرحمن فهمى «يوميات مصر السياسية» ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.
- ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩م، مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٩٦٩م.
- صحيفة الأخبار مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.
- صحيفة المقطم مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.



البدو ودستور سنة ١٩٢٣م

سعيدة محمد حسنى^(١)

مقدمة:

استقر بمصر بعد الفتح العربى الإسلامى فى القرن السابع الميلادى عدد من القبائل العربية، جاء بعضها من شبه الجزيرة العربية والبعض الآخر من بلاد المغرب. وقد بلغ عدد البدو فى مصر وقت مجىء الحملة الفرنسية ١٧٩٨م حوالى مائة ألف، تتألف من ستين قبيلة، ولم يتغير هذا الإحصاء كثيرا خلال القرن التاسع عشر والعشرين. ومن المعروف تاريخيا أنه فى بداية عهد محمد على كانت هناك بعض القبائل العربية التى وصلت إلى مرحلة من الاستقرار مع بداية القرن التاسع عشر، وأصبحوا فى عداد المزارعين، منذ أجيال، وبلغت مساحة ما كان يزرعونه من الأقطان نحو ١٦ ألف فدان من الأراضى المصرية.

أما بقية القبائل فى مصر - فى عهد محمد على - فكانت لاتزال فى مرحلة البداوة وعدم الاستقرار، وكان تنقلهم فى الصحراء يجعلهم فى حرب مستمرة مع الفلاحين والسلطة، هذا بالإضافة إلى انصراف البعض منهم إلى قطع الطريق والاعتداء على القرى الآمنة، وأراد محمد على القضاء على شوكة هذا الفريق، فلجأ إلى مهادنة زعمائهم فى أول الأمر، وعقد الاتفاقات معهم، ولكنهم نقضوا هذه الاتفاقات، ولذا لم يجد محمد على أمامه من وسيلة إلا أخذهم بالقوة من أجل إرغامهم على الاستقرار ومن أجل تحقيق أهدافه فى زيادة الدخل من ناحية وتحقيق الاستقرار والأمن الداخلى فى البلاد من ناحية أخرى عن طريق منح البعض منهم امتيازات، ولكن هذه الامتيازات التى منحت لهم قد فشلت فى تحقيق الهدف الذى كان يسعى إليه محمد على من وراء تلك السياسة التى كان قوامها الشدة تارة واللين تارة أخرى، وذلك لأنهم لم يكن لهم سوى خبرة قليلة بالزراعة^(٢).

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة قناة السويس.

(٢) هيلين آن ريفلين، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م،

ونتيجة لهذه السياسة التي اتبعتها محمد على مع البدو طلبوا الصلح، فقبل محمد على ذلك بشرط أن يقيم زعمائهم بالقاهرة ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم، وتعهد لهم بدفع رواتب لهم^(١)، وعهد إليهم بحراسة تلك القوافل التي كانوا يسطون عليها حتى ذلك الحين مقابل أجر يتقاضونه.

وعندما أصبح لمحمد على نفوذ على زعماء البدو، أخذ يكبح جماح القبائل المتمردة مستعينا بسائر القبائل الخاضعة، وبهذه الطريقة استطاع محمد على أن يحصل على مصالح مشتركة بينه وبين كثير من القبائل، كما استطاع أن يبث بينهم عوامل التفرقة والانقسام كما فعل مع كبار علماء الأزهر، وعمل على الاستعانة بهم في جيشه على هيئة فرسان غير نظاميين، على أن تدفع لهم الدولة الأجور مقابل خدمتهم بشرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبنديقيته، وقد استفاد محمد على بهم في حروبه في السودان وجزيرة العرب وبلاد الشام^(٢)، وكانوا بمثابة الجنود غير النظاميين في بعض الجيوش الأوروبية في وقتها.

واستعان بهم محمد على في الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته أثناء انسحابه، ومما يذكر للبدو أنهم هم الذين أسروا السر عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثماني في معركة قونيا خلال حروب الشام الأولى.

وعمل محمد على، على توطين البدو الرحل حتى يتخلص من متاعبهم، وذلك عن طريق منح شيوخهم مساحات واسعة من الأراضي وإعفائهم من الضرائب ولم يعطيهم ما يثبت حياتهم لتلك الأراضي، وإنما أعطاهم وعدا بعدم تكليفهم بأعمال السخرة والخدمة العسكرية^(٣).

وقد قام محمد على بتدعيم أهدافه الرامية إلى إدماج القبائل البدوية مع الفلاحين وكسر ترابطهم، وذلك عن طريق تعيين مشايخهم في وظائف حكومية لأول مرة، فمنذ عام ١٨٣٣م بدأ محمد على يعين المصريين وخاصة العمدة ومشايخ البدو في وظيفة «ناظر قسم» أو «مأمور».

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد، سياسة محمد على إزاء العربان في مصر، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٦م، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) علاء الدين أحمد عبد المجيد، القبائل العربية في مصر في نهاية القرن العشرين، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٥٤ وما بعدها.

(٣) وكان ذلك الامتياز الغير مكتوب هو الذى استند إليه البدو عند وضع مشروع دستور سنة ١٩٢٣م، ذلك الامتياز الذى رغبوا فى التمسك به عند إعداد مشروع الدستور، والذى كان الباعث وراء اختيارنا لهذا البحث.

ولكن البدو لم يألفوا حياة الاستقرار بسهولة، فلم يغير كثير منهم أنماط حياتهم وظلوا يسكنون الخيام وتركوا الأرض للفلاحين يزرعونها لحسابهم مقابل نصف المحصول، فصدر أمر عالي في سنة ١٨٣٧م يقضى بمنع شيوخ البدو من تأجير أطيانهم أو مزارعتها، وإلزامهم بأن يتولوا زراعتها بأنفسهم.

وقد استمرت سياسة توطين البدو - عن طريق ربطهم بالأراضي الزراعية - تتعثر أحيانا حتى عصر الخديو إسماعيل (١٨٦٣م - ١٨٧٩م)، الذى شهد اضطراب الأمن من قبل بعض البدو ببعض الجهات فى مصر، ومن ثم تألفت جمعية من بعض شيوخ القبائل ومندوبين من الحكومة ووضعا لائحة عرفت بلائحة معاملة العربان، وتضم هذه اللائحة ١٥ بندا وخاتمة وصدر عليها أمر عال بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٨٦٣م، ومن أهم ما تضمنته اللائحة أن العربان أصبحوا معفيين من طلبات الجهادية والأشغال العامة، وعليهم فقط العمليات الخاصة بأراضيهم^(١).

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدت عدة عوامل أخرى ساعدت على استقرار البدو تتمثل فى قيام دولة ثابتة وقوية فى مصر، وتسجيل الأراضي الذى شجع البدو على الاحتفاظ قانونيا بما كان فى الماضى أمر واقع، وتطور المواصلات من ظهور السكك الحديدية ثم السيارات التى قلصت دور القوافل إلى حد بعيد، هذا بالإضافة إلى شدة بأس القوة العسكرية للدولة فى مواجهة محاولات الانفصال من جانب سكان الصحراء. وقد أضافت عملية توطين البدو - التى تمت فى القرن التاسع عشر إلى كبار الملاك الزراعيين - فئة اجتماعية جديدة.

ونتج عن استقرار قبائل البدو نوعان من التغييرات الاجتماعية فى بناء القبيلة فمن ناحية ضعفت الرابطة القبلية التى كانت تربط أفراد القبيلة الواحدة بعضهم ببعض، كما انقسمت القبيلة إلى مستويين اجتماعيين، فمعظم مشايخ القبائل أصبحوا فى عداد كبار الملاك ورحل معظمهم إلى المدن، وأصبح البعض موظفين حكوميين بينما أصبح باقى أفراد القبيلة جزءا من الطبقات الاجتماعية، كما أن الذين استقروا فى الريف أصبحوا فى عداد الفلاحين.

(١) على شلبي، الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ١٨٤٧م - ١٨٩١م، الطبعة الأولى،

١٩٨٣م، دار المعارف، ص ٢٨٢.

وبذلك تعرضت قبائل البدو التي استقرت في الريف إلى عملية الانقسام الطبقي التي حدثت في المجتمع الريفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أصبح مشايخ البدو من كبار الملاك وامتلكوا القصور الكبيرة في عزبهم أو في المدن المصرية. ومما لا شك فيه أن عملية توطين البدو في مصر في القرن التاسع عشر، كانت من أهم التغيرات الجذرية التي شهدتها البناء الاجتماعي في مصر في ذلك الوقت. وحسب إحصاء سنة ١٨٨٢م بلغ عدد البدو ٢٤٥,٧٧٩ نسمة بمعدل ٣,٦٠٪ من سكان القطر المصري في ذلك الوقت، موزعة على ٧٥ قبيلة.

واستمر البدو يشكلون شريحة اجتماعية لا يستهان بها في المجتمع المصري، كان منهم قبائل مستقرة وأخرى ظلت متمسكة ببادوايتها، وعلى هذا ظهرت مشكلة على جانب كبير من الخطورة عند وضع المبادئ العامة لدستور سنة ١٩٢٣م، وهو هل يعامل البدو على أنهم سكان مستقرون عليهم واجبات ولهم حقوق مثل بقية المصريين، أم يعاملوا على أنهم قبائل غير مستقرة؟ على الرغم من أنه كان بينهم من أقام في المدن وأصبح مثله مثل أي مصري، وينطبق عليه ما ينطبق على بقية أفراد المجتمع.

ويرجع ذلك إلى الامتيازات التي منحت لهم في عهد محمد علي وسعيد واستكملت بلائحة العريان التي صدرت في عهد إسماعيل، والخاصة بإعفاثهم من الخدمة العسكرية والأعمال العامة، وظلوا يتمتعون بتلك الامتيازات حتى أثيرت تلك المسألة عند وضع مشروع دستور سنة ١٩٢٣م.

وبداية هذا الأمر تكمن في أنه قد ترتب على قبول مصر لتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ضرورة وضع دستور تحكم مصر بمقتضاه، والواقع أن دستور ١٩٢٣م كان علامة ميزت تاريخ مصر المعاصر في النصف الأول من القرن العشرين وتغنى بما فيه من حرية وديمقراطية الكثير من المصريين والأجانب على اعتبار أن بموجبه أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة بعد ما يقرب من خمسة قرون من حرمانها من هذا الاسم الذي ظلت تتفاخر به طيلة السنوات السابقة على الفتح العثماني لها ١٥١٧م، ومن ثم كان الترحيب والابتهاج بوضع مشروع لهذا الدستور الذي تمناه وطالب به الكثير من المصريين منذ وقت طويل، ومن الثابت تاريخيا أن عبد الخالق ثروت باشا عندما قبل تشكيل وزارته في أول مارس سنة ١٩٢٢م قد حرص على أن تشكل لجنة لوضع المبادئ العامة لهذا الدستور وأن تمثل

هذه اللجنة طوائف الأمة المختلفة^(١) أسند رئاستها إلى حسين رشدى ، وكان أول اجتماع لها فى ٣ أبريل سنة ١٩٢٢م ، وقد أراد عبد الخالق ثروت أن يوفر لها الصفة التمثيلية التى تفتقر إليها ، فحرص على أن تمثل لجنة الدستور هذه طوائف الأمة المختلفة كما حرص على أن يكون فيها عدد غير قليل من أعضاء الجمعية التشريعية بوصفها الهيئة التى تمثل الأمة تمثيلا رسميا فى ذلك الحين ، تلك الجمعية المؤجلة عدة مرات بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، وكان هذا الحرص كما يذكر الدكتور حسين هيكل^(٢) هو الذى جعل بين أعضاء اللجنة أشخاصا ليست لهم بالفقه الدستورى أية صلة ، فكان فيها بطريك الأقباط ممثلا للطائفة المسيحية والشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ممثلا لعلماء الدين من المسلمين ، وكان فيها صالح ملوم ممثلا للعرب - عرب البادية - الذين كانت لهم إلى يومئذ امتيازات خاصة كفلتها القوانين والعادات المرعية منذ زمن بعيد .

ويجب الإشارة فى عجالة إلى أن العرب بالقطر المصرى حتى أوائل القرن العشرين كانوا يقدرون بأكثر من مليون نسمة ، وكانت نسبة الذين يقيمون فى المدن وعلى اتصال بالحضر يقدرون بمائة ألف نسمة تقريبا والباقي منهم وهو الأغلبية الساحقة فيهم أعراب رحل منتشرون فى الصحراء الغربية والشرقية يرتحلون وراء الكأ والمرعى سعيا فى طلب الرزق ولا ملك لهم إلا القليل من الإبل والأغنام ، فكانوا بذلك يمثلون طائفة من طوائف المجتمع المصرى لها ما لها من الحقوق وعليها ما عليها من الواجبات ، ومن ثم عندما كان القرار بتشكيل لجنة لوضع المبادئ العامة لدستور سنة ١٩٢٣م ، ومن منطلق حرص المعنيين بهذا الأمر ، أنه عندما شكلت تلك اللجنة حرصت على أن تمثل كل طوائف المجتمع المصرى ، فكان لابد من أن يمثل البدو فى هذه اللجنة ، وعلى هذا كانت قضية امتياز البدو عند وضع المبادئ العامة لدستور ١٩٢٣م من القضايا التى تستحق التوقف عندها ، ومن ثم كان التفكير فى إعداد تلك الورقة البحثية ، والتى تتضمن المحاور الآتية :

المحور الأول: نبذة عن ممثل البدو فى لجنة وضع المبادئ العامة لدستور سنة ١٩٢٣م :
مثل البدو المقيمين فى مصر صالح ملوم باشا السعدى من قبيلة الفوائد وهى قبيلة

(١) سعيدة محمد حسنى ، الدور السياسى لعبد العزيز فهمى ١٩١٣م - ١٩٢٣م ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ٢٠٠٨م ، ص ٣٠ .

(٢) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الأول من سنة ١٩١٢م - ١٩٣٧م ، ملتزمة الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١م ، ص ١٣١ .

ذات مكانة اجتماعية مرموقة بين قبائل البدو في مصر، ولها فروع عديدة في مختلف المحافظات والمديريات المصرية، هذا بالإضافة إلى أنه قد تفرع من فروعها عدة بيوت، منها بيت كيشار، وهذا البيت بدوره كان يتكون من عدة عائلات منها عائلة ملوم السعدى التى ينحدر منها صالح باشا ملوم وأخوه عبد الله ملوم.

المحور الثانى: القضايا التى طرحت عند وضع المبادئ العامة ورأيهم فيها:

وتخلل عقد جلسات لجنة وضع المبادئ العامة للدستور عدة قضايا، كان لصالح ملوم ممثل البدو رأى فيها، وكان أعضاء اللجنة يأخذون برأيه أحيانا، ويرفضونه أحيانا أخرى. وتتمثل هذه القضايا فى قضية إيقاف اللجنة عن عملها حتى تتلقى بعض المقترحات من جماهير الشعب المصرى، وكان السبب فى حرص أعضاء اللجنة على الاتصال بالجماهير والوقوف على رأيه هو النفى عن أنفسهم ما كان الوفد يصفهم به من أنهم لجنة الأشقياء، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا غير منتخبين.

وكان من رأى أعضاء اللجنة العامة لوضع مشروع الدستور أن توقف عملها شهرا أو ثلاثة أسابيع على الأقل وتعلن للأمة أن أبوابها مفتوحة لقبول الآراء والملاحظات على أعمال اللجنة الفرعية، ومن وجهة نظر أعضاء اللجنة أنهم يكونون بذلك قد أدوا واجبا وأخذوا النيابة عن الأمة.

وكان من رأى معظم أعضاء لجنة إعداد مشروع الدستور هو الاتصال بالرأى العام، وكانت هذه فكرة طيبة، ولكن ليس هناك داع إلى تأجيل عمل اللجنة شهرا أو أقل وإنما يعلن على صفحات الجرائد أن اللجنة تتقبل وتبحث كل ما يرد إليها من الآراء مع استمرارها فى عملها، أما عن رأى صالح ملوم فى ذلك الأمر فقد استحسن هذا الرأى^(١).

قضية تنفيذ الأحكام فى المحاكم تكون بأمر من الملك:

وعندما بدأت اللجنة فى مناقشة السلطة القضائية التى تقوم بها المحاكم على اختلاف أنواعها وأحكامها تصدر بمقتضى القانون وتنفذ باسم الملك، وبعد مناقشة طويلة بين أعضاء اللجنة انقسم هؤلاء الأعضاء بين مؤيد ومعارض، أما رأى صالح ملوم فقد اقترح حذف هذه

(١) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، الحكومة المصرية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٤م، ص ١٠

وما بعدها.

المادة جملة لأنها لم تتعرض إلى إلغاء المحاكم الإدارية، مبررا رأيه بما ذكره عبد العزيز فهمى، من أن هذه المادة تتنافى مع وجود تلك المحاكم^(١)، وقد أخذت الآراء، فتقرر بالأغلبية بقاء هذه المادة على حالها.

قضية تعيين أعضاء فى مجلس الشيوخ

وفيما يختص بتأليف مجلس الشيوخ اقترح صالح ملوم جعل عدد أعضاء مجلس الشيوخ نصف أعضاء مجلس النواب وليس هناك داعى لتعيين أعضاء به وإنما يكونون بالانتخاب^(٢)، وطلب بأخذ الآراء على اقتراحه هذا الخاص بأن يكون أعضاء مجلس الشيوخ بالانتخاب، وبعد أخذ الآراء فى هذا الاقتراح تقرر رفضه.

قضية دور الحكومة فى تعيين رئيس لمجلس الشيوخ

أما فيما يختص بتعيين رئيس مجلس الشيوخ كان من رأى صالح ملوم أن يكون للحكومة رأى فى اختيار رئيسه على اعتبار أن مجلس الشيوخ به عدد معين من قبل الحكومة فيجب أن يكون لها رأى فى تعيين رئيسه^(٣)، وقد أخذ برأى صالح ملوم وأصبح تعيين رئيس مجلس الشيوخ من قبل الحكومة.

قضية التعليم الإلزامى للفتيات

وبعد ذلك انتقل أعضاء اللجنة إلى مناقشة التعليم الأول أن يكون إلزامى للمصريين من بنين وبنات وهو مجانى فى المعاهد الأميرية، والتعليم الابتدائى والثانوى والعالى يكون مجانيا أيضا بقدر الإمكان فى المدارس الأميرية ويصير وضع قانون لتنظيم جميع أمور التعليم العام.

اعترض صالح ملوم على ذلك، وكان من رأيه فى هذا الشأن أنه لا محل لجعل تعليم البنات إلزاميا، إلا أن أعضاء اللجنة لم يأخذو برأيه فى هذه الجزئية، وأقر الأعضاء ألا يكون التعليم إجباريا فى المدارس للبنات ويتعلمن فى بيوتهن حسب رغباتهن.

(١) المصدر السابق، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، المصدر السابق، ص ٩٤.

وعلى هذا فإن التعليم يكون إلزاميا على جميع المصريين ، ولكن ليس إجباريا للفتيات طالما أن التعليم خاضعا لرقابة الحكومة ضمانا لجريانه على الأساليب التي تقرر فى برنامج التعليم العام^(١).

قضية مدة الفترة الانتخابية

فيما يختص بمدة العضوية بمجلس النواب والتي اقترح بعض الأعضاء أن تكون خمس سنوات ، والبعض الآخر كان يرى أن تكون أربع ، فقد كان رأى صالح ملوم مؤيدا للأعضاء الذين يرون أن تكون المدة أربع سنوات بدلا من خمس كما هو فى فرنسا ، هذا بالإضافة إلى أنه كان لا يتفق مع بعض الأعضاء الذين كانوا يذكرون أن قصر مدة العضوية يؤدي إلى تكرار العملية الانتخابية وهذه العملية يترتب عليها حدوث ضغائن وأحقاد نتيجة تجديد الانتخابات فى المدة القصيرة^(٢)، وقد تقرر بالأغلبية خمس سنوات ، أى أن أعضاء اللجنة لم يأخذوا برأى صالح ملوم.

قضية عدد أعضاء مجلس الشيوخ بالنسبة إلى أعضاء مجلس النواب

كان رأى صالح ملوم فيما يختص بتأليف مجلس الشيوخ أن يكون نصف عدد أعضاء مجلس النواب وليس هناك داع للتعيين ، إلا أن أعضاء اللجنة قد رفضوا ذلك ، على اعتبار أنهم قد سبق وأشاروا إلى أن الحكومة ستعين رئيس مجلس الشيوخ^(٣). ومن خلال ما سبق من عرض لآراء ممثل البدو فى القضايا السابق الإشارة إليها ، فقد اتضح أن أعضاء اللجنة كانوا يأخذون برأيه أحيانا ويرفضونه أحيانا.

المحور الثالث: قضايا خاصة بالبدو أنفسهم وموقف أعضاء اللجنة منها:

وعلى الجانب الآخر ظهرت أثناء المناقشة قضايا تتعلق بالبدو أنفسهم مثل : قضية إعفائهم من الخدمة العسكرية.

(١) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، المصدر السابق، ص ١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٥ وما بعدها.

قضية الجمع بين عضوية مجلس النواب وأى عضوية أخرى

فيما يختص بالجمع بين عضوية مجلس الشيوخ وأى وظيفة حكومية ذات مرتب ما عدا وظيفة الوزارة، استفسر عن حكم عدم الجمع بين عضوية أحد المجلسين ووظيفة العمودية على عمد العرب، حيث إنه أشار إلى أنهم ليسوا عمد بلاد، بل رؤساء قبائل. وكان من رأى أحد الأعضاء ضرورة التفريق بين عمدة القبيلة وعمدة البلد فالثانى له مركز خاص فى بلد معين واختصاصه لا يتعدى دائرة بلده، بينما الأول رئيس للقبيلة وأفرادها تابعون له فى أى بلد أقاموا فيها^(١)، وكان الرأى لأحد الأعضاء يطلب فيه توضيح أن الحكم هنا خاص بعمد البلاد وليس عمد القبائل.

قضية الخدمة العسكرية

وعندما تعرضت لجنة وضع المبادئ العامة لدستور سنة ١٩٢٣م للواجبات المكلف بها جميع المصريين آثار صالح للموم باشا مسألة امتيازات العربان المقيمين فى مصر، هذه الامتيازات التى كانوا قد منحت لهم فى عصور سابقة، حين كانوا يقيمون فى مضاربهم وحين عهد إليهم ولاية مصر فى تلك العصور بالدفاع عن الحدود ولذلك أعفوه من الجندية، فقد رفض النص على هذه الامتيازات فى مشروع الدستور رفضا باتا لاعتبارات لم تجد من يدفعها أو يدافع عن بقائها، ذلك أن هؤلاء العربان اندمجوا فى أهل مصر وأقاموا بينهم فى المدن والقرى، ولم يبق مقيما فى مضارب البدو غير عدد قليل جدا لا يقام له حكم وأن هؤلاء العربان الذين اندمجوا فى أهل مصر قد ساووه فى الوطنية وفى الحرص على الدفاع عن بلدهم فالنص على إعفائهم من الجندية فيه من التجريح لوطنيتهم ما يرفضه العربان قبل كل مصرى آخر.

هذا إلى أن التجنيد سيكون إجباريا، يتساوى فيه الجميع ويتساوون بذلك فى الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن فلا محل لتمييز طائفة^(٢) على أخرى، ومن ثم فإنه ليس فى الدولة المصرية أى تمييز بين الطبقات بل جميع المصريين متساوون أمام القانون يتمتع كلا منهم بما يتمتع به الآخرون من الحقوق المدنية والسياسية من غير تمييز بينهم بسبب

(١) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) محمد حسين هيكل، مرجع سابق، ص ١٣٩.

الأصل أو اللغة أو الدين ، وهم ملزمون كافة بأداء الضرائب وغيرها من التكاليف العمومية. وهم وحدهم الذين يعهد إليهم بأداء الوظائف العمومية ملكية كانت أو عسكرية ، وكان رأى عبد العزيز فهمى أن المقصود من ذلك هو العرب بنوع خاص فلا يبقى لهم امتياز على سائر أهالى البلاد ، ولا يبقى من حقهم الإعفاء من الخدمة العسكرية^(١).

وقد ترتب على هذا الرأى إثارة مشاعر البدو ، مما دفع ببعض زعمائهم إلى الذهاب إلى مقر اجتماعات اللجنة وتقديم مذكرة ، وقد أخبر رئيس اللجنة الأعضاء إنه قبل انعقاد الجلسة جاءه من يقول إن بعض الأعراب يريد تقديم عريضة للجنة فأردت أن أبعث إليهم من يفهمهم أن مجيء الأشخاص لتقديم عرائض للجنة بأنفسهم لا يجوز ولكنهم فى هذه اللحظة دخلوا قاعة الجلسة بدون إذن فأفهمتهم الأمر بنفسى . وقلت لهم إن كان لهم شكوى فليبعثوا بها بطريق البوستة أو يبلغوها للحكومة ، وليس لهم دخول هذه القاعة قبل أن يؤذن لهم . فما كان من صالح للموم إلا أنه ذكر : ها هى العريضة وأنا أقدمها كاقترح منى يشاركنى فيه رؤساء القبائل فى مصر ، وعندئذ وجه الرئيس سؤالاً للأعضاء هل تريدون أن تتلى عليكم العريضة؟

فكان الرد بالموافقة على تلاوتها ، تليت وهذا نصها .

(نرفع لحضراتكم هذا راجين النظر لما جاء بالمادة نمرة ٢ من اقتراح حضرة صاحب العزة عبد العزيز فهمى بك الناصة على إلغاء امتيازات العرب وبهذا ندلى لحضراتكم بشرح وجيز عن حالة العرب حتى يتضح للجنة أحقية طلبنا):

١- كانت العرب بمصر قبل حكم المغفور له محمد على باشا وكانوا هم الناصرون له حتى تبوأ عرشها ، وقد استعان بهم فى حروبه بالسودان والشام ، ولما أبدوه من ضروب البسالة فى هذه الحروب رأى أن يجازيهم على ذلك أحسن جزاء ، فأقرهم بمصر وجعلها لهم موطناً ومنحهم امتيازاً رسمياً مهما يقضى بمعافاتهم من الخدمة العسكرية والعونة ، وكلف رؤساءهم بأعمال تتفق مع حالهم كحمايتهم لحدود مصر الغربية والشرقية وجعلهم دليلاً بالصحراء يفرغ إليهم كرديف يطلب عند الحاجة عند الحروب ، وقد أصدر بعد ذلك قانون شامل لكل امتيازات العرب ومن زمن ليس ببعيد طلب المرحوم محمود بك عبد الغفار مقترحاً بمجلس شورى القوانين بإلغاء امتيازات العرب فلم يصادف مقترحه أقل نجاح

(١) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور ، مصدر السابق ، ص ٧٥ وما بعدها.

لأن هذا التغيير يخالف بل ينافي كل أحوال العرب ، والقوانين لا توضع إلا بمقدار مراعاة الأحوال وطرق تطبيقها وتنفيذها بالنسبة إلى من وضعت لهم وعلى هذا الأساس تكون صلاحيتها لهم.

٢- لجنة الدستور تضع للبلاد قواعدا عامة غير مراعية القوانين الخاصة السارية التي يجب بقاؤها ومراعاتها كقانون امتيازات العرب الذى محص إبان وضعه تمحيصا دقيقا قبل الآن غير مرة حتى لائم أحوال العرب ملاءمة لم تتغير إزاءها تقاليدهم وقوميتهم ولم تعان الحكومة أقل صعوبة فى تنفيذ أوامرها وتطبيقها عليهم.

ولا يسعنا إزاء ما قرره لجنة الدستور بشأن عدم مراعاتها كل ذلك إلا أن نتمسك بنص يكفل بقاء امتيازاتنا كلها كما هى ، لأننا متمسكون بكامل حقوقنا لعدم ضياع جنسياتنا وتقاليدنا ونحتج بشدة على كل تغيير يضيع علينا شيئا مما أقرته القوانين الخاصة بنا . تعلمون حضراتكم أن العرب بالقطر المصرى يقدرون بأكثر من مليون نسمة يقدر الذين منهم على اتصال بالحضر بمائة ألف نسمة تقريبا والباقي منهم وهم الأغلبية الساحقة فيهم أعراب رحل منبثون فى الصحراوين الغربية والشرقية ينتجعون أقاصى الصحراوين وراء الكأ والمراعى سعيا فى طلب الرزق ولا ملك لهم إلا القليل من الإبل والأغنام ، وقوم هذا حالهم من الصعب جدا أن تطبق عليهم القوانين العسكرية ، فضلا عن أنه لا يمكن تنفيذها عليهم بأى حال من الأحوال.

فقبائل العرب والعدالة تطلبان ألا تمس هذه الحقوق ولا يمكن للعرب بأى حال من الأحوال أن يرضوا بما يضيع عليهم امتيازاتهم التى هى دعامة شرفهم وإلا فيضطرون لطلب تمثيل الأقلية الذى كانوا يودون طلبه .

هذا وقد أنبأنا حضرة صاحب السعادة صالح للموم باشا فى إسهاب ما أوجزنا بهذا التقرير . وختاما لتفضلوا بقبول مطالبنا مع فائق احتراماتنا^(١) ، وقد ذيلت تلك المذكرة بإمضاءات أو توقيع العديد من البدو^(٢) .

وقد عقب صالح للموم على ذلك بقوله ، بأنه سبق طلب بقاء امتيازات العرب كما هى من زمن قديم فلم توافق الهيئة على ذلك وها أنا اليوم أكرر الطلب ، وألتمس أن يترك الأمر للبرلمان ليقرر فيه ما يراه .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور ، ص ١٠٦ .

ثم بدأت مناقشة طويلة من جانب أعضاء اللجنة لصالح ملوم باعتباره ممثلاً للبدو في اللجنة، وقد رأيت أن المناقشة التي دارت بين أعضاء هذه اللجنة على جانب كبير من الأهمية والخطورة، لذا حرصت على أن تتضمن هذه الورقة تلك المناقشة التي تضمنتها محاضر اللجنة وهي:

– عبد الحميد بدوى بك، ليسمح لى معالى الرئيس أن أسأل سعادة ملوم باشا هل المراد تقرير امتيازات خاصة للعرب أو أن يلغى النص الذى أثار المناقشة فى امتيازات العرب؟
– صالح ملوم باشا، أريد أن تبقى الامتيازات على ما هى عليه.
– معالى الرئيس، النص الذى أوجب كل هذا هو فقرة من المادة الثانية فى باب حقوق الأفراد، ونصها هو:

(وهم المصريون ملزمون كافة بأداء الضرائب وغيرها من التكاليف العامة).

– عبد الحميد بدوى، المادة تقرر المساواة كقاعدة عامة.
– على المنزلاوى بك، إذن إنه يكفى أن يذكر فى المحضر تصريح توافق عليه الهيئة بإرجاء البت فى امتيازات العرب إلى أن يشكل البرلمان.

– عبد الحميد بدوى بك، نظام الانتخاب السياسى إلى الآن لم يحسب فيه حساب العرب فهل يريد سعادة صالح ملوم باشا سد هذا النقص مع بقاء امتياز العرب؟
– صالح ملوم باشا، العرب ينتخبون وينتخبون قبل الآن.
– عبد الحميد بدوى، انتخابهم لأنهم مصريون لهم محل إقامة معين لا لأنهم عرب لأن العرب الرحل لا موطن سياسى لهم.

– صالح ملوم، كلهم عرب وأنا أطلب بقاء الامتيازات للجميع.
– زكريا نامق بك، إذن إن سعادة ملوم باشا وحضرات مشايخ القبائل لا يعارضون فى بقاء النص على أصله، ولكن الأمر التبس عليهم وهم يريدون تفسيراً يـجـيز للحكومة أن تمنحهم المعافاة من الخدمة العسكرية، وعندما يسن البرلمان قانوناً جديداً للخدمة العسكرية يعفيهم من تلك الخدمة.

– عبد العزيز فهمى بك، ليس للبرلمان أن يعفى العرب باعتبارهم عرباً من واجب وطنى.
– عبد الحميد بدوى بك، الخدمة العسكرية ملحوظ فيها أمور خاصة وهى الإقامة والمعيشة فى جهات معينة مسألة العرب كلية وأساسية ولا تطرح باعتبار أنهم جنس

وإنما تطرح من وجهة أن العرب الرحل لا يستقرون في جهة معينة. وفي نظامنا القضائي أثمر من معاني التخصيص التي تتلازم مع صور الحياة. فعندنا الدينى وقضاء البادية فيمكننى أن أفهم أن يطلب العرب أن يتشكل واجب الخدمة العسكرية فيما يتعلق بهم بصورة تتلاءم مع حالاتهم الاجتماعية. لا أفهم أن العرب يريدون النكول أو الفرار من الخدمة العسكرية وإنما أفهم أن لهم نظرة خاصة في هذه الخدمة، فقد كانوا يقومون بحماية الحدود ولكنهم يحمونها ويدافعون عنها بطريقتهم الخاصة التي تتفق مع حالتهم الاجتماعية، لذلك كل ما يتصور فى مسألتهم أن يترك أمر النظر فيما يسمونه الآن امتيازات وفى التوفيق بين حالاتهم الخاصة والتكاليف العمومية إلى قانون مع التسليم تماما بمبدأ المساواة فى كل هذا.

المساواة بين الجميع أساس الحياة المدنية ولا يمكن لأكثرية أن ترضى بأن تمتاز عنها الأقلية وإنما متى كلف العرب بالخدمة العسكرية أو خفر النيل وهم رحل يجب أن تكيف هذه الواجبات بتكليف خاص يتفق مع حاجاتهم الاجتماعية ويمكن أن يوكل هذا بالنسبة للعرب الرحل إلى قانون يصدره البرلمان.

– عبد اللطيف المكباتى بك، على أن تكون الخدمة العسكرية واجبة على الجميع، ولكن بنظام يلائم حالة العرب الرحل.

– عبد العزيز فهمى بك، نظام الجنديّة يقرر بقانون ولذلك نص خاص فى مشروع هذا الدستور فلا محل لتفسير جديد.

– عبد الحميد مصطفى باشا، العرب قسمان مقيمون ورحل، فالعرب الرحل لا يستفيدون من نظامتنا شىء ومن العدل ألا نكلفهم أداء واجبات عامة. للعرب نظمات خاصة فنظام الضرائب بالنسبة لهم يقضى بأن يدفعوا العشور على ما يزرعون إذا نزل المطر، وأن تؤخذ على مواشيهم أموال مع أن سكان المدن والقرى من العرب وغيرهم لا يدفعون أموالا على المشية، وللعرب نظام قضائى خاص يرجع إلى أسباب طبيعية، لذلك أرى أمر تجنيد العرب الرحل يحتاج لبحث خاص.

أما العرب المقيمون فى المدن والقرى فلا يصح أن ترفع عنهم التكاليف بما فيها الخدمة العسكرية لأنهم اختلطوا بنا اختلاطا يحتم المساواة فى المعاملة، لذلك أرى بقاء النص على أن يعيد البرلمان النظر فى الموضوع ويقرر تفاصيله.

- الشيخ محمد بخيت، هذه المادة قتلت بحثا والمبدأ أن يكون المصريون جميعا متساوون في الواجبات والتكاليف الوطنية وهذا لا يناهى وجود امتيازات لبعض الطوائف كالعلماء وطلبة المدارس فإذا رأى البرلمان أن يسن قانونا بمعافاة العرب فليفعل.

- على المنزلاوى بك، إن سعادة للموم باشا يريد ألا يحرم العرب من خدمة بلادهم إنما يقول إن العرب كغيرهم لهم امتيازات ليس من العدل أن تحظروا على مجلس النواب البحث فيها وتقرير ما يرى فيه مصلحة للبلاد، لذلك أقترح تفسيراً للنص الخاص بالتكاليف العمومية أن يقال فيه:

أما الذين نالوا حقوقاً بحكم قانون القرعة العسكرية فللبرلمان أن يبحث في هذه الحقوق فيقرها أو يرفضها.

- عبد الحميد مصطفى باشا، سيشمل حتماً حالات إعفاء وهذه سيقرها البرلمان.

- عبد اللطيف المكباتى بك، كل هذا يحوم حول الخدمة العسكرية والتكاليف العمومية وهذه لا يكون فيها تمييز مطلقاً بل يجب أن تكون المساواة فيها عامة، ويترك تنظيمها للبرلمان، لذلك أقترح تقرير ما يأتى:

- أولاً: الخدمة العسكرية وباقي التكاليف الوطنية عامة لجميع المصريين.

- ثانياً: يترك للقانون تنظيم هذه الأحوال.

- إبراهيم الهلباوى بك، البدوى لم يعفى قط من الخدمة بل هو يقوم بها ولكن بكيفية خاصة تلائم حالته الاجتماعية.

- عبد الحميد بدوى بك، إذا سمح لى معالى الرئيس أعرض تفسيراً عن العبارة الواردة عن الواجبات والتكاليف العمومية فى المادة الثانية من باب حقوق الأفراد وهو: (مع أن المصريين جميعاً سواء فى الحقوق والتكاليف ومنها الخدمة العسكرية يكون المرجع فى تكييف تلك الخدمة بالنسبة للعرب الرحل وجعلها ملائمة لحالتهم المعيشية إلى قانون).

- صالح للموم باشا، هذا لا يكفى أبداً.

- على المنزلاوى بك، أقترح أن يكون التفسير هكذا (المعفون الآن من الخدمة العسكرية بقانون القرعة ينظر البرلمان فى هل يبقى هذا الإعفاء أو يلغى امتيازهم).

- عبد العزيز فهمى بك، لا أوافق على هذا.

- على ماهر بك، تفسير على المنزلاوى بك خطر جداً، لأن فيه نقضاً لمبدأ المساواة الذى تقرر، وفيه معنى بقاء قانون القرعة يقرر عدم المساواة وإذا أخذ بهذا التفسير كان

دستورا معيبا أن يأخذ بالتفسير الذى اقترحه بدوى بك، لأن أساسه الأحوال الطبيعية للعرب الرحل فإذا عاش العرب معنا جرى عليهم حكمنا وهذا هو مبدأ المساواة، فإذا كان العرب رحلا فيكون المرجع فى تكييف تلك التكاليف بالنسبة لهم وجعلها ملائمة لحالتهم إلى قانون.

وفى نهاية هذه المناقشة الطويلة أخذت الآراء، فتقرر بالأغلبية بقاء النص المدون بالمادة الثانية من باب حقوق الأفراد على أصله، وأن يؤخذ فى تفسيره بما ذكره عبد الحميد بدوى وهو (مع أن المصريين جميعا سواء فى الحقوق والتكاليف ومنه الخدمة العسكرية يكون المرجع فى تكييف تلك الخدمة بالنسبة للعرب الرحل وجعلها ملائمة لحالتهم المعيشية إلى قانون)^(١).

وعلى هذا فإن التجنيد سيكون إجباريا، يتساوى فيه الجميع ويتساوون بذلك فى الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، فلا محل لتمييز طائفة وبخاصة فى أحوال العالم التى أصبح فيها الدفاع وأصبحت فيها الحرب ميكانيكية قوامها الدبابات والخنادق وما إليها مما لا يجدى معه دفاع مقيم على الحدود، ولا مفر معه من تجنيد كل قوى الأمة لهذا الدفاع^(٢).



(١) مجموعة محاضر اللجنة العامة للدستور، مصدر سابق، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢) محمد حسين هيكل، مرجع سابق، ص ١٣٩.

الإخوان

فوزى أسعد نقيطي^(١)

اجتاحت شبه الجزيرة العربية، في الفترة من ١٩١٢م - ١٩٣٠م حركة دينية عرفت بحركة الإخوان. تشكلت نواتها بجوار آبار «الأرطاوية» التي تقع في أراضي قبيلة «مطير» على طريق القوافل بين الكويت والقصيم^(٢). كانت الحركة عند نشأتها، دينية محضة^(٣) إذ كان أعضاؤها يعبرون عن أنفسهم بأنهم: «أهل التوحيد.. إخوان من طاع (أطاع) الله»^(٤). كما أطلقوا اسم «الهجرة» على الأرطاوية أي الهجرة إلى الله^(٥) أو أنهم هجروا الحياة القديمة المكروهة إلى حياة أخرى طيبة^(٦) عاكفين على تعلم مبادئ القراءة، وحفظ شيء من القرآن الكريم والحديث^(٧) ويعرف عبد الله القصيمي الإخوان بأنهم «هم الأعراب الذين عشقوا الدين وسكنوا القرى بدلا من الخيام المتنقلة»^(٨). وكما لاحظ المستر سانت جون فيلبي، الذي أمضى في البلاد السعودية ما يربو على ٤٠ عامًا، فإن القبائل أخذت تقلد بعضها في ترك حياة البادية، الأمر الذي أدى إلى انتشار «الهجرة» بسرعة مذهلة^(٩) في قلب نجد ذاتها، وبالقرب من الحدود مع الحجاز غربًا، وفي منطقة قبائل شمر، والرولة حتى الحدود الأردنية شمالًا، وعلى حافة الربع الخالي جنوبًا، وبالقرب من إمارة قطر شرقًا^(١٠) حتى بلغ عددها ٢٢٠ هجرة^(١١).

(١) دكتوراه في التاريخ الحديث المعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

Dickson, H.R.P., Kuwait and her Neighbours, PP. 145.

(٢) أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ٥٧٤.

Izzard, Molly, The Gulf, PP. 62.

(٣) أمين الريحاني، نفس المرجع. (-) الموسوعة الميسرة.

(٤) أمين الريحاني، تاريخ نجد، ص ٢٦١.

(٥) حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٥٧٣.

(٦) نفس المرجع.

(٧) عبد الله القصيمي، الثورة الوهابية، ص ٥٥.

Philby, H.ST. J. B., Saudi Arabia, PP. 261 - 262.

Habib, John, Ibn Saud warriors of Islam, PP. 58.

Ibid.

ابن سعود وحركة الإخوان:

ليس صحيحاً ما ذكره عبد العزيز التويجى، وكيل الحرس الوطنى، من أن ابن سعود هو الذى أسس حركة الإخوان، وأنه هو الذى أطلق عليها تلك التسمية^(١) بدليل أن الكابتن «شكسبير» Shakespear الوكيل السياسى فى الكويت، الذى زار ابن سعود، فى الرياض عام ١٩١٥م، واشترك معه فى معركة «جراب» ضد ابن رشيد، لم يذكر شيئاً فى تقريره عن تلك الحركة^(٢).

كما أن المستر فيلبى، لم يذكر فى أى من مؤلفاته العديدة، أو فى تقاريره لحكومته أى دور لابن سعود فى إنشاء تلك الحركة.

أما الميجور «ديكسون» Dickson، الوكيل البريطانى السياسى فى البحرين، والذى زار ابن سعود فى الفترة من ٢٩ يناير إلى ٢٠ فبراير ١٩٢٠م، فقد كتب إلى مرجعه فى بغداد تقريراً بعنوان: «ملاحظات عن حركة الإخوان» جاء فيه: «إن ابن سعود لم يكن المؤسس الحقيقى لحركة الإخوان، وأن الزعيم الأعلى للحركة هو الشيخ عبد الكريم المغربى (أحد تلاميذ جمال الدين الأفغانى)^(٣) الذى كان رئيساً للعلماء فى عهد «فالح باشا السعدون» شيخ «المنتفق»^(٤) ثم أصبح أحد علماء «خزعل باشا» والد الشيخ إبراهيم بك السعدون إلا إنه ترك خدمة خزعل وذهب إلى نجد، حيث استقر به المقام فى قرية الأرطاوية، حيث نشأت الحركة عام ١٩١٢م».

وأشار التقرير إلى علاقة ابن سعود بحركة الإخوان بقوله: «إن ابن سعود، وقد أدرك فى أوائل عام ١٩١٦م أن اليد الطولى فى شئون نجد قد أصبحت للإخوان لم يكن أمامه سوى حلين:

(أ) إما أن يكون حاكماً زمنياً فيجابه الإخوان.

(ب) أو يحتوى الحركة، بأن يكون زعيمها الروحى، فاختر الحل الثانى خوفاً على نفسه من السقوط، على أن يقوم بتحويلها عن أهدافها الدينية لتخدم أهدافه السياسية..

(١) عبد العزيز بن عبد المحسن التويجى، لسراة الليل هتف الصباح، ص ٢٠٠.

(٢) Lacey, The Kingdom. PP. 142.

(٣) د. عبادة كحيلية، لقاء فى الجمعية التاريخية، ديسمبر ٢٠٠٩م.

(٤) اسم يطلق على القبائل العراقية التى تقيم فى القسم الجنوبى لنهر الفرات.

وعلى هذه الخلفية أصدر ابن سعود أمره الشهير بانخراط جميع القبائل، شاءت أم أبوت، فى صفوف حركة الإخوان، وأن تدفع له الزكاة بصفته الإمام الشرعى، بل إنه هدد باستخدام القوة ضد أية قبيلة تمتنع عن دفعها^(١).

وتحدث ديكسون عن طريقة ابن سعود فى استقطاب العشائر وضمهم إلى الإخوان فقال: «كان يستدعى شيخ العشيرة ليقول له صراحة بأن عشيرته لا دين لها.. وإن كل أفراد عشيرته «جهلة» ثم يأمر الشيخ بالحضور إلى مدرسة العلماء بالمسجد الكبير فى الرياض، حيث يتلقى سلسلة من الدروس الدينية، وفى ذات الوقت يكلف عددًا من العلماء المتعصبين (المطاوعة)، بالتوجه إلى عشيرة الشيخ لإلقاء الدروس الدينية على أفرادها بالمفاهيم الوهابية، بهدف إثارة التعصب الكامن فى نفوسهم، وإقناعهم بأن ابن سعود هو الإمام، والأب، والشيخ، والزعيم الروحى لهم فى آن واحد».

«وكان هؤلاء المطاوعة، الذين يفرضون لبس العمامة البيضاء على الأفراد المنضمين لحركة الإخوان، يرسخون فى أذهانهم بأنهم، هم فقط المسلمون الحقيقيون وأن المسلمين الآخرين كفار.. كما كانوا يحرصون على إفهام «الأخ» بالأى يرد السلام إلا لأخ مثله... وإذا ما رأى أحداً غير زملائه من الإخوان، فإن عليه أن يغطى وجهه بيده حتى لا يدنسه منظر الشخص الغريب».

«كما كان هؤلاء المطاوعة يحاولون إقناع أفراد العشيرة بأن الله هو كل شىء، أما محمد (ص) فليس سوى رجل نادى بكلمة الله... وأنه مات وذهب، ولم يبق له معنى إلا أن يذكر اسمه باحترام».

ويمضى ديكسون فيقول: «كان ابن سعود، من جانبه، يحاول إقناع جماعة الإخوان بأنه «محمد ثان» أو «المهدى» أو البطل الأوحى الذى يدافع عن الإسلام»^(٢) ولهذا تخلى ابن سعود عن لقب «الأمير» وسمى نفسه «إماما»^(٣).

كما حاول جاهداً إخفاء علاقاته ببريطانيا التى وقع معها فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ م اتفاقية «دارين» التى تعهد فيها بالأى يقيم علاقات مع دولة أخرى، والأى يبيع، أو يرهن

FO. 371/ 5062 – E 289/ 9/ 44.

(١)

الجزيرة العربية فى الوثائق البريطانية، المجلد الخامس، ص ١٤٥ – ١٤٩.

(٢) L/ P & S/ 10/ 391. (-) المجلد الخامس، ص ١١٧ – ١١٨.

(٣) PFO. 371/ 5062 – E 6289/ 9/ 44. (-) نفس المجلد، ص ١٥٠ – ١٥١.

شيئاً، وألا يعطى امتيازات لدولة أخرى إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية، مقابل حمايتها له، ومنحه مساعدة مالية مقدارها ٥,٠٠٠ جنيه إسترليني شهرياً^(١).

ومما قاله ديكسون في هذا الصدد: إن ابن سعود كان يتعمد مهاجمة الأجانب أمام شيوخ وزعماء الإخوان، ولقد قال في حضوري ذات مرة «إن المساعدات الشهرية التي تقدمها له الحكومة البريطانية، ومقدارها ٧٥,٠٠٠ روبية، والتي حملت قسماً منها إليه، هي جزية يدفعها له المسيحيون.. ولقد حذرني أمام الحضور من أن التدخين محرم، ومع ذلك، بعث لي في المساء علبتين من أفخر السجائر المصرية طالباً مني أن أدخنها داخل حجرتي». وبالجملة، فإن ابن سعود - والكلام على لسان ديكسون - كان يحاول قدر استطاعته إحاطة علاقاته بالإنجليز بغلاف كثيف من السرية تحاشياً لثورتهم ضده، أو فقدان تعاونهم معه على الأقل^(٢).

ويضيف المستر فيلبي إلى ما سبق، بأنه لما أراد السفر في نوفمبر ١٩١٧م إلى الرياض للقاء ابن سعود، فإنه لم يذهب إليها مباشرة، بل ذهب إلى البحرين أولاً، ثم استقل مركباً شراعياً إلى ميناء «العقير» حيث مكث بعض الوقت في قصر الأمير «عبد الله بن جلي» في الأحساء، حيث خلع ملابسه الغربية وتخلص من كل شيء يدل على أنه غريب، ثم ارتدى الملابس العربية: الثوب، والغترة الحمراء (الشماع) ثم ركب ناقته يوم ٢٢ نوفمبر واتجه إلى الرياض التي وصلها يوم ٣٠ منه^(٣).

والواقع، فإن ذلك اليوم يعد علامة فارقة في تاريخ حركة الإخوان، بل وتاريخ شبه الجزيرة العربية كلها.

وربما كان الكاتب الفرنسي «جان جاك بيربي» على حق لما قال: «إن مغامرة لورانس تعد مهزلة إزاء الدور الفريد الذي لعبه سنتت جون فيلبي على مدار ٣٨ عاماً أمضاها في رسم الخطوط العريضة للسياسة السعودية»^(٤).

(١) FO. 371/2479 (5353)، (-) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) Dickson, Ibid, P. 153, 249.

(٣) Philby, Arabian Days, PP. 146.

_____. Arabian Jubilee, PP. 54.

L/ P & S/ 10/ 390

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، المجلد الثالث، ص ٧٠٩.

(٤) جان جاك بيربي، الخليج العربي، ص ١٤٠ - ١٤١.

دور سنت جون فيليبى فى عسكرة الإخوان:

كان هدف فيليبى من سفره إلى الرياض، كما قال هو شخصياً: «حث ابن سعود على شن هجمات عسكرية ضد «حائل» بهدف إسقاط ابن الرشيد واحتلالها»^(١). وكتب تقريراً مطولاً لمرجه، الكولونيل «أرنولد ويلسون» القائم بأعمال المفوض المدنى فى العراق، بعد وصوله الرياض قال فيه: «إن الدخل السنوى لا يتعدى ١٠٠,٠٠٠ جنيه، بالإضافة إلى مساعدات الحكومة البريطانية، ومقدارها ٦٠,٠٠٠ جنيه سنوياً، وهو مبلغ لا يكفى للصرف على هجرة الإخوان، وشيوخ القبائل». وطالب فيليبى فى تقريره «بزيادة المساعدات إلى ٥٠,٠٠٠ شهرياً، وإرسال ٨ مدافع، مع ١٠٠,٠٠٠ بندقية حديثة بذخيرتها، مع مدربين للمدافع، وكذلك تزويد ابن سعود بمبلغ قدره ٢٠,٠٠٠ جنيه، كى يتمكن من شراء الدواب اللازمة لنقل الأسلحة، والذخائر والأفراد». مؤكداً على «أنه فى حالة وصول المطلوب من المال والأسلحة فإن «الجيش الوهابى» سيكون مستعداً للزحف على حائل فى شهر أبريل ١٩١٨م، وذلك طبقاً لتعهد ابن سعود نفسه»^(٢). ولأن نجاح معارك الإخوان يعتمد على إخفاء علاقة ابن سعود بالإنجليز، فلقد كتب فيليبى إلى مرجه ينصحه «بأن يكون التمثيل الدبلوماسى فى الرياض غير مرئى، وأن يكون متقطعاً، وأن يرتدى أفراد البعثة الدبلوماسية ملابس السكان المحليين، والإذعان للقيود المفروضة على الاتصالات الاجتماعية حتى وإن كانت مثيرة للإزعاج»^(٣). ولذلك، فإن فيليبى لم يرافق حملة الإخوان التى اتجهت إلى حائل يوم ٥ أغسطس ١٩١٨م، رغم إجادته اللغة العربية^(٤) وقدرته على تقمص الشخصية النجدية^(٥) واكتفى بمراقبة المعارك من أماكن مرتفعة، قريبة منها، على حد قوله^(٦).

Philby, Ibid, P. 58 – 65.

(١)

_____, P. 56 – 58.

(٢)

(-) Arabian Days, P. 153 – 154.

(-) L/ P & S/ 10/ 390.

الجزيرة العربية فى الوثائق البريطانية، المجلد الثالث، ص ٧٤٥ – ٧٤٩، ٧٦٤.

L/ P & S/ 10/ 390.

(٣)

الجزيرة العربية فى الوثائق البريطانية، المجلد الثالث، ص ٧٨٠.

(٤) رسائل بن جوربون، ترجمة الأميرة دينا عبد الحميد، ص ١٠٩.

Philby, Arabian Days, P. 157 – 162.

(٥)

_____, P. 170.

(٦)

ومما قاله في رسالة إلى زوجته «دارا» حول تلك الحملة: «من المثير للأسى ألا أكون مع حملتي الخاصة My own Campaign التي استغرق إعدادها عشرة أشهر كاملة حتى بلغت درجة عالية من الكفاءة»^(١).

وتقديرًا منه لهذا الجهد، كتب ابن سعود رسالة إلى الكولونيل ويلسون، بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩١٨م قال فيها: «إن فيلبي من أفضل الممثلين لتنفيذ سياسة ومخططات صاحب الجلالة الإمبراطور، والحكومة البريطانية وأنا جد شاكر له، ومقدر للتعب الذي تجشمه لإزالة مصاعبنا»^(٢).

وكتب رسالة للمستتر فيلبي، بنفس التاريخ جاء فيها: «بعد تقديم أطيب التحيات والاحترامات... أنت مثلنا أمام أعيننا في كل الظروف وكل الأعمال... أنت بالنسبة لنا كالروح من الجسم، ولنا كل الثقة فيك بعد الله، أنت وكيلنا الوحيد ولا نستطيع أن نعارضك مهما كانت الظروف»^(٣).

ومن جانبه، فإن فيلبي يعتبر ابن سعود «رجل القدر في الجزيرة العربية» Arabia's Man of destiny على حد تعبيره^(٤) وأن الكابتن «شكسبير» والكلام لا يزال له: «لو لم يُقتل وهو يقوم بتوجيه المدافع السعودية ضد قوات ابن الرشيد (٢٤ يناير ١٩١٥م) لكان الوجه للثورة العربية بدلًا من لورانس، وكان ابن سعود هو الذي قام بها بحافز من حكومة الهند بدلًا من الملك حسين، وأنه - فيلبي - يعتبر نفسه خليفة شكسبير»^(٥).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن نظام السيطرة الذي وضعته لندن منذ قيام الحرب العالمية الأولى كان يقضي بأن تتبع العراق، ونجد، وحائل، وعدن، حكومة الهند، أما الحجاز فيتبع وزارة الخارجية بواسطة المندوب السامي في القاهرة^(٦).

(١) Monroe, Elizabeth, Philby of Arabia, PP. 80 - 81.

(٢) FO. 371/ 4145, Dec. 1, 1918.

(٣) الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، نفس المجلد، ص ٨٢٦ - ٨٢٧.
L/ P & S/ 10/ 390.

(٤) نفس المجلد، ص ٧٦٤.

(٥) Philby, Arabian Jubilee, P. 68.

(٦) _____, Arabian Days, P. 157 - 158.

(٦) FO. 371/ 5255 - E 8470/ 44.

الجزيرة العربية في المصادر البريطانية، المجلد الخامس، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

وكانت حكومة الهند حكومة موازية لحكومة لندن، ويرأسها وزير بدرجة نائب للملك Vice Roy، وكان لديها خططها الخاصة بها لتأمين مصالحها، وكانت تعارض ما كان يجرى من مفاوضات بين الشريف حسين ومكماهون حول مستقبل البلاد العربية^(١). من ذلك احتجاجها لدى الخارجية «لأن حرية التصرف التي منحت للسفير مكماهون قد مورست دونما اعتبار لمصالح الهند»^(٢).

لهذا أخذت تعمل بكل ما وسعها الجهد لإبراز ابن سعود وإسقاط الملك حسين^(٣). وهكذا التقت مخططات حكومة الهند مع طموحات المستر فيلبي، واندفاع ابن سعود لاستعادة ما أسماه «أملاك أجداده»^(٤).

وبناءً عليه، تحولت هجر الإخوان إلى معسكرات حربية ولتشكل حركة الإخوان، في مجموعها، جيشاً دائماً وثابتاً^(٥) والكلام دائماً للمستر فيلبي. ومما ذكره الميجور ديكسون في تقرير له بتاريخ ٥ مارس ١٩٢٠م بعد زيارته لابن سعود: «إن قوة ابن سعود تقوم على الإخوان، الذين يربو عددهم على ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل، وأنه بإمكانه أن يستدعى هؤلاء المقاتلين في وقت قصير لا يصدق، خاصة إذا كانت الحرب جهاداً كما في حالة الحرب ضد الشريف» (حسين)^(٦).

دور الإخوان في إخضاع أقاليم شبه الجزيرة العربية

وصف عبد الله القصيمي الإخوان «بأنهم عفاريت مرسله.. وأنهم لو كانوا أفضل تنظيمًا لما استطاعت أية قوة، مهما بلغت من العظمة، أن تقف في سبيلهم»^(٧).

FO. 371/ 2486, Nov. 6, 1915.

(١)

نفس المجلد، ص ٥٨٨.

Ibid.

(٢)

(٣) د. محمد علي الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ج ١، ص ٩.

(٤) مجلة صوت الطليعة، عدد ديسمبر ١٩٧٣م، ص ١٥.

Philby. Arabian Jubilee, P. 28.

(٥)

بنوامينان، عبد العزيز آل سعود، ترجمة عبد الفتاح ياسين، ص ١٢٧.

FO. 371/ 5062 – E 6289/ 9/ 44.

(٦)

نفس المجلد، ص ١٥٥.

(٧) عبد الله القصيمي، نفس المرجع، ص ٥٤.

وعلى أرض الواقع ، فإن هجمات الإخوان ضد جيران إمارة نجد لم تتوقف في جميع الاتجاهات.

لقد تحولوا من الهجوم على حائل، في أغسطس ١٩١٨م، إلى الهجوم على «تربه والخرمة» غرباً في مايو ١٩١٩م^(١)، حيث قاموا بهجوم ليلي صاعق، أبادوا فيه القوات الحجازية بأكملها، ثم اتجهوا جنوباً عام ١٩٢٠م واحتلوا مرتفعات عسير^(٢) ومنها إلى حائل مرة أخرى، في أقصى الشمال، حيث تم احتلالها في نوفمبر ١٩٢١م^(٣) ثم الهجوم على منطقة الجرف، ووادي السرحان، وسكاكة، وقريات الملح، عام ١٩٢٢م^(٤). وفي أواخر هذا العام اتجهوا جنوباً حيث استولوا على إقليم عسير بأكمله^(٥) وهكذا تم حصار الحجاز من كافة الاتجاهات.

ولا يحتاج المرء إلى أية أدلة كي يدرك أن ضابط المخابرات البريطاني فيلبي^(٦) هو العقل المدبر، وهو الذي وضع خطط تلك الهجمات وهو الذي حدد مراحلها. فهو يذكر على الصفحة ٨٧ من كتابه «أيام عربية» Arabian Days أنه هو الذي طلب من ابن سعود أن يكون الهجوم على حائل قبل الحجاز، ويكاد يقول في كتابه «أربعون عاماً في الصحراء» Forty Years in the Wilderness أنه هو الذي قام بتقويض الحكم الهاشمي في الحجاز.

لقد كانت خطة الهجوم على الحجاز تتكون من ثلاثة محاور:
محور رئيسي اتجه إلى الحجاز وتشكل من ٣٠ لواء.
محور آخر اتجه إلى الحدود الأردنية.
محور ثالث اتجه إلى الحدود العراقية.
وكانت مهمة المحورين الأخيرين منع الأمير عبد الله، والملك فيصل من تقديم المساعدات لوالديهما^(٧) وذلك حسب توضيح المستر فيلبي نفسه.

(١) FO. 686/ 17 (540) May 29.1919.

(٢) Philby, Saudi Arabia, P. 280.

(٣) فؤاد حمزه، قلب جزيرة العرب، ص ٣٨٦.

(٤) _____, P. 285.

(٥) خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، ج ١، ص ٢٥١.

(٦) ناصر الدين النشاشيبي، ماذا جرى في الشرق الأوسط، ص ١٦٤.

(٧) P. 287. _____ بنوا ميشان، نفس المرجع، ص ١٧٠.

واللافت أن الحجاز كان أكثر الأقاليم تعرضاً لعنف الإخوان. فوصف أمين الريحاني، الذي كان موجوداً وقتها بحجة الوساطة بين الملك حسين وابن سعود، وصف دخول الإخوان الطائف، يوم ٧ سبتمبر ١٩٢٤م «بأنهم كانوا كالسيل الجارف.. لقد كانت ساعة الهول والفتنة»^(١). كما تحدث الرحالة «كينيث وليامز» عن «الأفعال اللاإنسانية التي ارتكبتها الإخوان، وذبحهم للنساء والشيوخ والأطفال»^(٢).

لقد سقط ١٠٧٠ شهيد، لا يزال عبد الله عبد الجبار، الكاتب السعودي البارز، يحتفظ بأسمائهم^(٣) عدا الضحايا الذين ماتوا من الجوع والعطش أثناء هروبهم في اتجاه مكة التماساً للنجاة^(٤).

ومما ضاعف حجم الكارثة أن الطائف، وقتها، كان مزدحماً بالمصطافين خاصة المكيين، فكأنما أراد فيلبي خلق حالة من الهلع والرعب في مكة نفسها حتى تسلّم بدون قتال، تفادياً لإثارة العالم الإسلامي.

وفي ذلك يقول فيلبي نفسه: «إن مذبحه الطائف على يد الإخوان جعلت من سقوط مكة أمراً مفروغاً منه، كما أن سكان جدة أخذوا يرتعدون خوفاً مما يمكن أن يحمله إليهم القدر.. ولما وصلت إلى مسامعي أنباء توقع احتلال مكة في كل لحظة تفاءلت كثيراً لأن من شأن ذلك أن يمكّن ابن سعود من دخولها والإشراف بنفسه على الأوضاع في الحجاز»^(٥). وهنا لا بد من الإشارة إلى هذه الحقيقة: وهي أن بريطانيا قد قررت زوال عرش الحسين في الحجاز بعد رفضه التوقيع على معاهدة قدمها له لورانس في صيف عام ١٩٢١م، لضمان المساعدة والحماية له مقابل الاعتراف بالانتداب على العراق، وفلسطين، وشرق الأردن^(٦). وبشهادة فيلبي نفسه، فإن الملك حسين رفض رفضاً قاطعاً الاعتراف بسياسة الوطن القومي لليهود في فلسطين وهو الأمر الذي كان الإنجليز يسعون لتحقيقه من المعاهدة^(٧) «ولما لم تجد

(١) أمين الريحاني، نفس المرجع، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) كينيث وليمز، ابن سعود، ترجمة كامل صموئيل مسيحة، ص ١٣٧.

(٣) عبد الله عبد الجبار، التيارات الأدبية الحديثة، ص ٩٩.

(٤) كينيث وليمز، نفس المرجع، ص ١٣٧.

(٥) Philby, forty years in the wilderness, PP. 111 - 112.

(٦) قدرى قلعجي، الثورة العربية الكبرى، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٧) Philby, forty years in the wilderness, P. 107 - 108.

الرشوة والتهديد في زحزحة الرجل العجوز» عن موقفه المعارض لسياستنا والكلام لا يزال للمستتر فيلبي: «فإن لورانس، وبعد أن أحس باليأس غادر جدة، بعد أن أوصى الحكومة البريطانية بقطع المساعدات عن الحجاز، والتخلي عن الحسين ليجنى ثمار تصلبه وعناده»^(١). ولم يشأ فيلبي أن يكمل باقى التوصية التى أبلغها لورانس للخارجية فى لندن، فى برقيته يوم ١١ سبتمبر ١٩٢١م والتى جاء فيها: «إن الحسين يشعر بأنه محصن فى مكة.. إنى أنصح بوقف المساعدات عنه، ومحاصرة موائى الحجاز، وإطلاق ابن سعود عليه»^(٢).

وكان ابن سعود، أو السير الشيخ عبد العزيز^(٣) المتحفز للانقضاض يكن كراهية شديدة للحجاز والحجازيين بسبب مساندتهم للحملة المصرية على نجد عام ١٨١١م - ١٨١٨م حيث دمر إبراهيم باشا، الدرعية عاصمة أجداده^(٤). ولقد نقل فيلبي عنه قوله: «إنه يفضل المسيحيين على الحجازيين والأتراك، فالمسيحيون أهل كتاب، وأقل ضللا منهم»^(٥).

ويضيف جورج كيرك إلى ذلك، أن ابن سعود كان لا يرى فى مكة والمدينة سوى مدينتين لعبادة هرطقية^(٦).

ولأن الإخوان يطيعون إمامهم طاعة عمياء^(٧) فإن ابن سعود لم يجد صعوبة فى إقناعهم بأن الحجازيين أقل استحقاقاً للرحمة من المسيحيين واليهود^(٨).

وفى هذا السياق يقول حافظ وهبه: «إن ابن سعود لما عرض على الإخوان مسألة غزو الحجاز هشوا وبشوا للمشروع لأنهم سيظهرون بيت الله من البدع وينشرون دين الله الصحيح»^(٩).

Philby, Arabian Days, P. 228.

(١)

FO. 686 /93 /103 /36, Sept. 11, 1921.

(٢)

FO. 371/ 4147, June 27, 1919.(-) FO. 371/ 1686, Aug, 1919.

(٣)

Kelly, J. B, Arabia; The Gulf and the west, PP. 229.

(٤)

Monroe, Elizabeth, Ibid, P. 60.

(٥)

Kirk, E. George, A Short History of the Middles East, PP. 160.

(٦)

Dickson, Ibid, P. 154.

(٧)

(٨) أرنولد ويلسون، الخليج العربى، ترجمة د. عبد القادر يوسف، ص ٣٢٦.

(٩) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٢٥٢.

وفى رسالته لأمين الريحاني، وصف ابن سعود الحرب بينه وبين الملك حسين بأنها حرب بين «حزب الرحمن» و«حزب الشيطان»^(١) ولهذا كانت عبارة التشجيع على القتال بين الإخوان هي: «هبت هبوب الجنة وينك (أين أنت) يا باغيها»^(٢).

وجاء فى تقرير السير «بولارد» Bullard الوزير البريطانى المفوض فى جدة، بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٢٤م: «كل الدلائل تشير إلى أن الغزاة أظهروا تعصباً دينياً شديداً فى تعاملهم مع ضحاياهم الذين كانوا فى نظرهم كفاراً أو مشركين»^(٣).

وتظهر البرقيات التى كان يبعث بها ابن سعود إلى حافظ وهبه مدى سعادته لما كان يحدث من مذابح.

ففى برقية بتاريخ ١٥ صفر ١٣٤٣هـ (سبتمبر ١٩٢٤م) قال «حالا وفد علينا بشراء الإخوان، أهل الغطط»^(٤) يبشروننا بما منّ الله به من عزهم وسلامتهم.. إلخ^(٥) وفى برقية تالية، قال: «أحوالنا جميلة.. حالا وردت علينا بشائر جندنا الذى يحاصر الطائف.. إلخ»^(٦). ولم تكن الطائف وحدها التى تعرضت لمذابح الإخوان، بل كانت هناك مذبحه أخرى شهدتها قرية «العوالى» القريبة من المدينة المنورة^(٧) كى تسلم بنفس الكيفية التى سلمت بها شقيقتها مكة.

ويكشف فيلبى عن دوره، بقوله: «إنه ذهب إلى «رابغ» حيث التقى بالأمر محمد (أبى شريين) النجل الثالث لابن سعود، وهو فى طريقه إلى المدينة، التى سلمت يوم ٥ ديسمبر ١٩٢٥م^(٨) بعد أن أطلق الإخوان بعض الطلقات على قبة المسجد النبوى طبقاً للتقرير الذى بعث به المستر «جوردان» بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٢٥م^(٩).

(١) أمين الريحاني، الرسائل المتبادلة مع الملك عبد العزيز آل سعود، ص ٦٤.

(٢) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٢٧٥.

(٣) FO. 371/ 10014 – E 8654/ 7624/ 91.

(٤) الجزيرة العربية فى الوثائق البريطانية، المجلد السابع، ص ٥٢١.

(٥) الغطط هجرة قبيلة عتيبة.

(٦) حافظ وهبه، خمسون عاماً فى جزيرة العرب، ص ٢٣٤.

(٧) نفس المرجع، ص ٢٣٩.

(٨) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٩) Philby, Arabian Jubilee, P. 76 – 77.

FO. 371/ 10809 – E 5530/ 10/ 91, Sept. 11, 1925, Jeddah Diaries, Vol. 2, P. 331.

وفى ذلك يقول ديكسون إن سقوط المدينة قد أدى إلى سقوط جدة حيث تنازل الملك «على» عن العرش^(١) وغادرها إلى بغداد يوم ١٤ ديسمبر ١٩٢٥م، بعد أن سلم البلاد للمعتد البريطاني^(٢) الذى قام بدوره بتسليمها إلى ابن سعود الذى دخل جدة يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م^(٣).

وهذا المشهد الأخير كان بالغ الدلالة، إذ كشف للإخوان بطريقة عملية ما كان يخفيه عنهم إمامهم طيلة العشر سنوات الماضية، فبينما كان يتصل بالإنجليز فى مغارات الأحساء، أو بواسطة موظفين غير نجديين، فإنه الآن، يتصل بهم مباشرة وفى العلن.

ثورة الإخوان:

يمكن القول إن حركة الإخوان قد نشأت وهى تحمل بذور معارضة للحكم السعودى، فالحركة قامت بمبادرة من جماعات الإخوان الأول، وبمعزل عن الإرادة السعودية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن السجل التاريخى لقبائل مطير، وعتبة، والعجمان حافل بالصراع ضد السعوديين منذ الإمارة السعودية الأولى، وحتى الدولة التى أسسها ابن سعود، مرورًا بالإمارة الثانية التى أسسها فيصل بن تركى.

ومن جهة ثالثة، فإنه وبالرغم من الدور العسكرى الكبير الذى قام به زعماء الإخوان، ورغم أنهم هم الذين اقتحموا أقاليم شبه الجزيرة العربية وليس ابن سعود^(٤) فإنهم حرموا من ممارسة أى دور سياسى، أو إدارى فى النظام السعودى.

كما شعر الإخوان بأن ابن سعود قد خدعهم، وأنه استغل حركتهم الدينية لتحقيق مآمعه، ولتدعيم مركزه فى شبه الجزيرة العربية^(٥) وأنه بشحنه لهم ضد سكان الأقاليم قد ورطهم مع سكانها، مما أساء إلى سمعتهم.

Dickson, Ibid, P. 285.

(١)

FO. 371/ 11442 – E 367/ 91, Vol. 2, P. 359, J. D., P. 359.

(٢)

L/ P & S/ 10/ 115 – E 363/ 11/ 115, J. D, P. 365.

(٣) أحمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة، ص ٥٥٥.

(٤) مذكرات جلوب باشا، ص ١٣١.

(٥) عبد الفتاح حسين أبو عليّة، تطور المجتمع السعودى فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود، رسالة دكتوراة

(جامعة القاهرة ١٩٧٧م) ص ١٣٠.

ومن جهة رابعة، فإن ابن سعود بإعلان نفسه ملكاً، يوم ٨ يناير ١٩٢٦م، وتخليه عن لقب الإمامة^(١) قد أثار غضب الإخوان، لأنه طالما قام بتحريضهم ضد الشريف حسين، بعد إعلان الأخير نفسه ملكاً عام ١٩١٦م، بدعوى أنه يشرك نفسه مع الله باتخاذ أحد أسمائه^(٢).

ومما يقال، في هذا الصدد، أن جماعة من الإخوان دخلوا على الملك عبد العزيز، وهم شاهرون سيوفهم، مهددين بقتله إن لم يتخل عن اللقب.. وأنه وعدهم خيراً، ولكنه بعد خروجهم، هاجم الإخوان، ووصفهم بالجهل والتخلف، واسترسل في التشنيع بهم^(٣). ومما يذكره الجنرال كلايتون، ضابط المخابرات البريطاني المعروف، والذي زار الملك وقتها، أن الإخوان عابوا على الملك فرض رسوم وضرائب على الحجاج، وتحصيله رسوم جمركية على مواد محرمة، كالسجائر وغيرها، ولكن انتقاداتهم الأكثر شدة له كانت بسبب تعامله مع الإنجليز^(٤) وخضوعه لإملاءاتهم^(٥).

وكان هؤلاء يتابعون الموقف عن كثب، إذ كتب المقيم السياسي في الخليج، «مور» J.C. More لوزير المستعمرات برقية بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٢٦م جاء فيها: «إن هناك حالة من التوتر تسود علاقات ابن سعود بزعماء الإخوان الثلاثة: فيصل الدويش (شيخ قبيلة مطير) وسلطان بن بجاد (شيخ قبيل عتيبة) وزيدان بن حثلين (شيخ قبيلة العجمان)»^(٦). واتهم فيلبي، الزعماء الثلاثة بأنهم حاولوا وضع ابن سعود في مأزق حرج أمام مسئولياته تجاه الإنجليز^(٧) وعليه، فقد قرر الملك تسريح الإخوان وتشكيل قوة أخرى لحفظ الأمن في البلاد^(٨).

FO. 371/ 11442 – E 1399/ 367/ 91.

(١)

فهد القحطاني، زلزال جهيمان في مكة، ص ٤١.

(٢) فهد القحطاني، نفس المرجع، ص ٤١.

ناصر السعيد، تاريخ آل سعود، ص ٢٥٩.

(٣) فهد القحطاني، نفس المرجع، ص ٤١.

Clayton, K. C. M. G, An Arabian Diary, PP. 265.

(٤)

Dickson, Ibid, P. 285.

(٥)

FO. 371/ 11442 – E 6298, Oct. 23, 1926.

(٦)

Philby, Saudi Arabia, P. 263.

(٧)

FO. 371/ 11442 – E 5409/ 367/ 9, Sept. 3, 1926, J. D. Vol.2, P. 403.

(٨)

وعلى هذه الخلفية عقد الإخوان مؤتمراً فى الأرتاوية فى نهاية عام ١٩٢٦م، حضره الزعماء الثلاثة^(١) كما انضم إليهم «فرحان بن مشهور» عن قبيلة الرولة^(٢) وبعثوا برسالة إلى الملك، الذى كان فى مكة. تضمنت عبارات قاسية، فوصفوه بالغرور، والأناية، وأنه خان العهد والدين.. وذكروه «بأنهم لم يحاربوا معه إلا لنصرة الدين، وفى سبيل الله العظيم لا من أجل إحلاله محل الحسين كملك عظيم»^(٣).

وأقسم الزعماء المجتمعون بالوقوف صفاً واحداً فى وجه ابن سعود^(٤). يقول الجنرال جلوب، إن الدويش، وسلطان بن بجد، وضييدان بن حثلين قد قرروا الإطاحة بابن سعود، وتنصيب أنفسهم حكاماً على نجد، والحجاز، والأحساء^(٥). وهو تقسيم منطقي يتفق وتوزيع القبائل، ومناطق نفوذ كل شيخ من الشيوخ الثلاثة^(٦). والواقع فإن الإخوان، بعد احتلالهم للحجاز، كانوا، فى أوج قوتهم، وكانوا الأكثر ديناميكية^(٧) وكانوا يستندون إلى رصيذ حربى هائل، وكانوا فى وضع يمكنهم من الوقوف فى وجه الملك وتحديه، ولأن القبائل، عموماً، تمجد القوة، فإنها كانت على استعداد للانضمام للإخوان ورفض سلطة الملك عبد العزيز^(٨) الذى وصف أحد المؤرخين، موقفه «بأنه كان أدق من الشعرة وأحد من السيف، ذلك أن روح النعمة عليه قد شملت أنحاء البلاد»^(٩). وكما يضيف ديكسون، فإن الشعور بالعداء ضده قد تعدى الإخوان، والقبائل، إلى بعض أفراد العائلة السعودية ذاتها، لقد كان هناك خطر حقيقى، خاصة بعد أن طلب فيصل الدويش، وسلطان بن بجد من ابن سعود إثبات إيمانه بالله بإعلان الجهاد ضد الإنجليز^(١٠).

Wahba, Sheikh Hafiz, Arabian Days, PP. 137. (١)

مجلة صوت الطبيعة، عدد ديسمبر ١٩٧٣م، ص ٢٣. (٢)

Armstrong, H. C, Ibn Saud, PP. 165. (٣)

Dickson, Ibid, P. 286. (٤)

Globb, War in the Desert, PP. 232. (٥)

Habib, Ibid, P. 128. (٦)

Ibid, P. 117. (٧)

مذكرات جلوب باشا، ص ١٣١. (٨)

صلاح الدين المختار، نفس المرجع، ص ٤٣٨ - ٤٣٩. (٩)

Dickson, Ibid, P. 295 - 296. (١٠)

نفس المرجع.

دور الإنجليز في تدمير حركة الإخوان:

ما أن استبدلت الحكومة البريطانية معاهدة الحماية عام ١٩١٥م بمعاهدة جدة، التي وقع عليها الملك عبد العزيز يوم ١٧ سبتمبر ١٩٢٧م^(١) حتى هاجم الإخوان مخفر «البوصية» على الحدود السعودية - العراقية يوم ٥ نوفمبر، من نفس العام، وقتلوا كل من كانوا فيه^(٢). وكان ممثل بريطانيا في جدة «استون هوربيرد» قد أخبر حكومته بمعارضة الدويش لإقامة أية مخافر عسكرية على الحدود، بمذكرة بتاريخ ١٧ أكتوبر^(٣) وكما يوضح ديكسون فإن الدويش، الذي يرفض إقامة الحدود الهندسية، شن حملة دعائية مكثفة ضد الملك، بدعوى أن وجود المخفر لهو الدليل على خضوع ابن سعود للإنجليز.. ولقد بلغ من تأثير الحملة أن القبائل أخذت تستحث بعضها للجهد ضد العراق على اعتبار أن الإنجليز هم الذين يتولون الدفاع عنه^(٤).

ومما يذكره جلوب باشا^(٥)، الذي كان مسئولاً وقتها عن مخفر البوصية «إن غارات الإخوان لم تتوقف، وقد وصلت إحدى هذه الغارات إلى موقع لا يبعد سوى ٢٥ ميلاً عن قاعدة القوات الجوية في «الشعبية» وأنه لو واصل الإخوان تقدمهم لكان في إمكانهم تدمير تلك القاعدة برمتها»^(٦).

والواقع، فإن قيام الإخوان بتلك الغزوات على نطاق واسع، كان تحدياً للإنجليز، ووضع الملك في موقف حرج، فهو إن استنكر أعمال الإخوان يكون بذلك قد ظهر بمظهر المتساهل في حقوق بلاده، وإن أيدهم يكون قد أخل بالتزاماته مع الإنجليز^(٧). إذ تنص المادة السادسة، من معاهدة جدة، على التزام بعدم التعرض للمحميات والإمارات والمشايخات التي لها ارتباطات ببريطانيا، أو كان لبريطانيا نفوذ فيها.

_____، The Arab Desert, PP. XXIV.

(١)

_____، Kuwait... P. 287

(٢)

فاسيليف، العربية السعودية، ٣٣٠ - ٣٣١.

FO. 371/ 12250 - E 4389/ 644/ 91, Oct. 17, 1927. J. D., Vol. 2, P. 473.

(٣)

Dickson, Ibid, P. 285 - 287.

(٤)

(٥) كان وقتها برتبة ميajor، وكلف بتأمين الحدود النجدية - العراقية منذ عام ١٩٢٠م.

(٦) مذكرات جلوب باشا، ص ١٣١.

(٧) مجلة صوت الطبيعة، نفس العدد، ص ٢٥.

وطبقاً لمصدر سعودي، فإن الملك بعث إلى المندوب السامي البريطاني في بغداد، والحكومة العراقية برسالة تحمل استنكاره لما حدث^(١). كما بعث برسالة أخرى، تحمل نفس المعنى، للحكومة البريطانية^(٢) التي سيطرت عليها حالة من القلق.

ودلينا على ذلك قيامها بتكليف المعتمد في جدة بتعيين جواسيس Gossips لمراقبة الإخوان^(٣) الذين تردد عنهم أنهم كانوا يخططون للانطلاق نحو فلسطين. وفي هذا الصدد يقول ديكسون: إنه لما زار ابن سعود في الرياض، بادره بقوله: إن الصعوبة هي في رعايانا العرب وقبائل الإخوان.. فبالنسبة لقضية فلسطين فإن حواسهم في عيونهم فقط، ولا يستطيعون النظر أبعد من ذلك قيد شعرة، وهم يلومونني لعدم وضوح موقفي من تلك القضية، وإطاعة أوامر الإنجليز^(٤). ومن جانبه، حذر «هربرت صموئيل» أول معتمد بريطاني في فلسطين من خطر الإخوان على فلسطين^(٥).

وفي رسالة من فلسطين، قال مراسل «الديلي ميل» البريطانية: «إن الرسميين البريطانيين يرقبون بمزيد من الاهتمام التطورات التي تجرى في جزيرة العرب»^(٦). أما وزير الخارجية «شمبرلين» فقد وجه انتقاده لابن سعود لعجزه عن السيطرة على الإخوان^(٧) وعبر عن استيائه قائلاً: «لقد وضعنا فلوسنا عند ابن سعود وها نحن الآن، كما يبدو أمام خطر داهم».

We have put our money on Bin Saud, and now we seem to be in grave danger^(٨).

(١) خير الدين الزركلي، نفس المرجع، ج ٢، ص ٤٧٦.

(٢) FO. 371/ 12242 – E 5616/ 56/ 91, Dec, 30, 1927.

(٣) FO. 371/ 13010 – E 484/ 484/ 91, Dec. 1, 1929.

(٤) Dickson, Ibid, P. 390.

(٥) Habib, Johns, Ibid, P. 109.

(٦) مركز الأهرام للتنظيم والميكرو فيلم، ملف الملك عبد العزيز آل سعود، ج ١، ص ٩٦.

(٧) FO. 371/ 12988 – E 573/ 91. Feb, 8, 1928.

in Letherdale, Clive, Britain and Saudi Arabia (1925 – 1939) PP. 101.

(٨) FO. 371/ 12241 – E 56151/ 91, Dec. 29, 1927.

ومن ثم، عقدت الحكومة البريطانية اجتماعاً يوم ١٧ فبراير ١٩٢٨م لاختيار أحد البدائل الثلاثة^(١).

الأول: فرض حصار بحرى على كل من الخليج، والبحر الأحمر، والتعامل مع الإخوان بنفس الطريقة التى اتبعها محمد على باشا مع الوهابيين فى القرن التاسع عشر.
الثانى: إقامة تحصينات على طول امتداد الحدود.

الثالث: قيام سلاح الطيران الملكى (البريطانى بقصف تجمعات الإخوان، وتدمير «الإرطاوية» ذاتها، التى حولها الدويش إلى مركز قيادة عامة لتحريك القبائل ضد الإنجليز والملك^(٢).

وما أن استقر الرأى على الحل الأخير، حتى كلف قائد سرب الطيران الرابض فى الكويت، بقصف الثوار حتى داخل نجد نفسها^(٣) الأمر الذى أدى إلى إثارة القبائل بما فيها القبائل المتحالفة مع الملك^(٤) وبكلمات حافظ وهبه لأحد الرسميين البريطانيين فى القاهرة: «فإن الملك فقد السيطرة على القبائل.. وأن الوضع جد خطير»^(٥) حتى بلغ الأمر به إلى نقل عائلته إلى الحجاز^(٦).

وقعة السبلة.. ودور فيلبى فى هزيمة الإخوان:

تظاهر الملك بميله للتصالح مع زعماء الثورة، وانطلت الحيلة على الدويش، الذى عقد صلحاً مع الملك يوم ٢٨ مارس ١٩٢٩م، ولما طلب منه الدويش التوسط لعقد صلح مماثل مع سلطان بن بجاد، مع وعد منه بتقديم عطايا ضخمة لسلطان إذا ما استسلم، فإن الدويش طلب من الملك، بواسطة مبعوثه، أن يتعهد بذلك كتابة، وبينما كان الدويش، وسلطان ابن بجاد فى انتظار الرد إذا بالملك يشن هجوماً مباغتاً فجر يوم ٢٩ مارس على السبلة (التي كانت تجتمع فيها قوات مطير، وعتيبة) أى أن الهجوم قد حدث وهما غير مستعدان

CO/ 58117/ 28: 1790/ 130, Feb. 17, 1928.

(١)

Lacey, Ibid, P. 204.

(٢)

Armstrong, Ibid, P. 269.

(٣)

Ibid.

(٤)

FO. 371/ 13010 – E 1999/ 484/ 91, March. 31, 1928. J. D., Vol. 3, P. 11 – 12.

(٥)

Ibid, P. 12.

(٦)

لمواجهته، على اعتقاد منهما بأن هناك مفاوضات سوف تستمر بين الطرفين، لعقد الصلح لبحث كافة القضايا طبقاً للشريعة الإسلامية^(١).

ومما قاله القنصل البريطاني في جدة «إن هناك شعوراً متزايداً بالعداء ضد ابن سعود بسبب لجوئه إلى الغدر في حربه ضد الدويش وابن بجاد^(٢) وبينما أصيب الأول بجراح خطيرة، فإن الثاني تمكن من الفرار، كما فقد الثوار نحو ٢٥٠ مقاتل دون قتال»^(٣). وهذه أول معركة يخسرها الإخوان منذ نشأتهم^(٤) بسبب المباغته والمفاجأة واختلال التوازن العسكري الذي مال لصالح الملك بفضل جهود فيلبى، الملقب بـ «الملك غير المتوج في الجزيرة العربية»^(٥). فهو أول من حصل على توكيل شركة «فوردر» للسيارات عقب احتلال الحجاز مباشرة، كما يذكر هو نفسه^(٦).

وبحلول عام ١٩٢٩م، كان هناك أسطول كبير من السيارات، للاستخدامات العسكرية مثل سيارات اللورى لنقل الأفراد^(٧) وسيارات ٤ × ٤ (نصف نقل) مثبت عليها مدافع رشاشة^(٨). ومما قاله ديكسون في هذا الشأن: «إن السيارات قد ضاعفت من قدرة ابن سعود على التحرك، وساعدته في نقل وتموين القوات بالسرعة المطلوبة، كما استطاع بالسيارات أن يأخذ الثوار على حين غرة قبل أن يستعدوا للقتال»^(٩). وروى المؤرخ أحمد عبد الغفور عطار كيف أن الأمير محمد بن عبد العزيز (أبو شرين) وكان عمره حينئذ لا يتجاوز ١٨ عاماً، قاد رتلاً من السيارات المسلحة فقتل كل المحاربين في دقائق معدودة^(١٠).

Kostiner, Joseph, Making of Saudi Arabia, PP. 135 – 136. (١)

Dickson Ibid, P. 303 – 304.

FO. 371/ 1372/ – E 3449, June 7, 1929. (٢)

Dickson, Ibid, P. 304. (٣)

Lacey, Ibid, P. 213. (٤)

(٥) مجلة صوت الطليعة، عدد مارس ١٩٧٤م، ص ٤٠.

أمين هويدى، كيسنجر وإدارة الصراع الدولى، ص أ.

Philby, Arabian Days, P. 258 – 266. (٦)

Izzard, Molly, Ibid, P. 67 – 68. (٧)

Lacey, Ibid, P. 213 – 214. (٨)

Dickson, Ibid, P. 329. (٩)

(١٠) أحمد عبد الغفور عطار، نفس المرجع، ص ٥٩٢ – ٥٩٣.

وفى السياق نفسه قال محمد المانع ، مترجم الملك : «كان من بين قواتنا فى معركة السبلة ، مفرزة من حملة الرشاشات ، فكانت النتيجة حاسمة ففى بضع ثوانٍ كان كل رجال الإخوان المتقدمين قد قتلوا أو جرحوا جراحًا بليغة ، ولما رأى الإخوان الذين لم يصابوا ما حدث شرعوا فى الانسحاب فوراً.. وهكذا انتهت معركة السبلة التى لم تدم أكثر من نصف ساعة»^(١).

وبشهادة الخبير الجيولوجى ، الأمريكى «تويتشيل» الذى كان يقوم بالتنقيب عن الذهب فى «مهد الذهب» فإن فيلبى قد حصل على توكيل شركة «ماركونى» لصناعة الأجهزة اللاسلكية^(٢).

وطبقاً للمصادر السعودية ، فإن تلك الأجهزة قد وضعت فى جميع المدن ، حتى يتمكن الملك من الحصول على آخر المعلومات ، وتوجيه قواته بسرعة إلى أى مكان يحتاج أن يوجهها إليه^(٣) كما مكنته من تنسيق حملاته العسكرية ، وتحقيق السيطرة الميدانية^(٤) وعن طريق تلك كانت المخابرات البريطانية تبعث بتقاريرها عن تحركات الإخوان إلى الملك^(٥) وكان هذا الأخير يقوم بإبلاغ الإنجليز عما يجرى فى الميدان^(٦) ولعل هذا ما يفسر لنا مرافقة المترجم «محمد المانع» للملك فى كل تحركاته أثناء القتال^(٧) حسبما تحدث عن نفسه .

وهو محمد المانع ، الذى أفادنا بأن الملك كان يدفع ٦ جنيهاً ذهبية لكل رئيس قبيلة ليحارب معه ، كما يدفع ٣ جنيهاً لكل فرد من رجال القبيلة ، وأن الملك قد تمكن ، بهذه الوسيلة ، من تشكيل قوة يتراوح عددها ما بين ٣٠ - ٤٠ ألف مقاتل^(٨) وهذا ما يثير تساؤلنا حول مصدر أو مصادر تلك الأموال؟

Almana, Mohammed, P. 105 – 106.

(١)

Twitchell, Ibid, P. 173.

(٢)

Almana, Mohammed, Ibid, P. 123.

(٣)

Lacey, Ibid, 217.

(٤)

Izzard, Molly, Ibid.

Lacey, Ibid.

(٥)

(٦) د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى ، ص ٩٨ .

(٧) انظر كتاب بعنوان : Mohammed Almana, Arabia Unified

Almana Mohammed, Ibid.

(٨)

ونخلص إلى القول، بأن مقاومة الإخوان للأجهزة اللاسلكية والسيارات لم تكن بسبب رفضهم للتقدم والتطور كما زعم التويجى^(١) ولكن كانت معارضتهم تنطلق من خشيتهم أن يستخدم الملك التكنولوجيا للسيطرة عليهم، خاصة بعد أن تزعزت ثقتهم به. وكما قال الميجور ديكسون فإن الهدف من الحصول على السيارات والأجهزة اللاسلكية كان من أجل السيطرة على الإخوان... راكبي الجمال^(٢).

لقد كان المشهد فى معركة السبلة فيه شىء من الدراما.. إذ نرى فيه مجموعة من البدو ليس معهم سوى جمالهم وبنادقهم العتيقة يواجهون طرفاً يمتلك معدات وأسلحة حديثة^(٣). ومن مفارقات المشهد، قيام الإمام السلفى بالتنسيق مع الإنجليز من أجل إبادة تلك الجماعة.

ولقد كشف المعتمد البريطانى عن ذلك التنسيق بقوله لوزير الخارجية: «إن ابن سعود قد أبلغه بقرار الهجوم على السبلة قبل شهر من مواعده»^(٤).

وعلى هذا المنوال سار التنسيق والتعاون أثناء ثورة الإخوان الثانية، حيث قرر الدويش الانتقام من خصمه، بسبب الغدر الذى تعرض له^(٥).

وطبقاً لمصدر سعودى، فإن قبيلة عتيبة تمكنت من فصل الحجاز عن نجد، وكادت المواصلات تنقطع بين مكة والمدينة والخليج^(٦) وما أن انضم فرحان بن مشهور، شيخ «الرولة» حتى كان شمال نجد كله من جبل شمر حتى الخليج فى أيدي الثوار.

وعلى الفور، بادرت الحكومة البريطانية بتزويد الملك بأربع طائرات من طراز D. H. 9 بطياريهما^(٧) وضعت فى جزيرة «تاروت» القريبة من القطيف^(٨) حتى لا يراها الثوار^(٩).

(١) عبد العزيز بن عبد المحسن التويجى، نفس المرجع، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

Dickson, The Arab Desert. P. XXIII. (٢)

Lacey, Ibid, P. 217. (٣)

FO. 371/ 13728 - E 3449/ 94, June 27, 1929, J. D. Vol. 3, P. 69. (٤)

Dickson, Kuwait..., P. 304. (٥)

(٦) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٢٨٥.

Philby, Saudi Arabia, P. 309. (٧)

Dickson, Ibid, P. 315. (٨)

FO. 371/ 13228 - E 6289/ 44, J. D. Vol. 3, P. 91. (٩)

كما نقلت البحرية البريطانية ١٠,٠٠٠ مقاتل من ميناء جدة إلى ميناء العقير^(١) بعد أن تعذر نقلهم برا بسبب الوضع الذي فرضته قبيلة عتيبة.

هذا فضلاً عن تزويد الملك بـ ٣,٠٠٠ بندقية حديثة مع ٣ ملايين طلقة، طلب الملك تسليمها في الميناء المذكور^(٢).

أما حكومة الهند فلم تقصر هي الأخرى، إذ تكفلت بإرسال كل ما يطلبه ابن سعود، على حد ما ذكره فيلبي^(٣).

وبالفعل فلقد أرسلت تلك الحكومة الباخرة «فولين فلز» *Fallenfels* محملة بالأسلحة والذخائر إلى ميناء العقير بعد أن أشاعت سلطات الميناء بأن الباخرة محملة ببضائع، وأنها قادمة من ألمانيا^(٤).

ولكن ما هو أكثر أهمية من ذلك، هو قرار حكومة الهند بنقل ضابط المخابرات، الميجور ديكسون من البحرين إلى الكويت، في تلك المرحلة، ليعمل وكيلاً سياسياً هناك^(٥).

ولد ديكسون عام ١٨٨٢م في القدس، حيث كان والده نائباً للقنصل البريطاني، وأمه في الرضاعة من قبيلة عنزة^(٦) نفس القبيلة التي ينتمي إليها ابن سعود.

وربما هذا ما يفسر قول ديكسون أنه لما زار ابن سعود في الهفوف عام ١٩٢٠م استقبله بهذا البيت^(٧):

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ومن جانبه، فإن ديكسون كان شديد الإعجاب بابن سعود وقد عبر عن إعجابه هذا لأمين الريحاني، لدى زيارته له في البحرين عام ١٩٢٢م بقوله: «ابن سعود رجل عظيم، وقد يكون نظري فيه نظر من يؤله الأبطال. هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم.. عنده السيف»^(٨).

FO. 371/ 13728 – E 44, J.D., P. 70. (١)

FO. Ibid. (٢)

Philby, Arabian Jubilee, P. 108. (٣)

FO. 371/ 13728 – E 4713/ 94 – 91, J. D. Vol. 3, P. 79. (٤)

(٥) عين في الكويت بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٢٩م. (Dickson, Ibid, P. 305)

Philby, Arabian Days, P. 115 – 116. (٦)

أمين الريحاني، ج ٢، ص ٢٥.

Dickson, Ibid, P. 333. (٧)

(٨) أمين الريحاني، نفس المرجع.

ومن يقرأ كتابه «الكويت وجاراتها» يجد أنه لم يترك وسيلة إلا اتبعها لإخضاع الثوار، وإرغامهم على الاستسلام للملك عبد العزيز.

ففى شهر يونيه (١٩٢٩م) عقب توليه الوكالة، بعث بتعليماته إلى الشيخ أحمد، أمير الكويت «بألا يسمح للعجمان، وغيرهم من الثوار، بالحصول على المؤن من الكويت، أو أن يأتى أحدهم إليها، وأبلغ ابن سعود بذلك، على حد قوله»^(١).

وأنه لما أرسل ابن سعود احتجاجاً، في نفس الشهر، اتهم فيه الكويت بتزويد قوات العجمان، وفرحان بن مشهور، بالمؤن والذخائر، فإنه - ديكسون - قام بإجراء تحقيقات دقيقة بنفسه، وأن الشيخ أحمد أثبت بالدليل القاطع أنه ينفذ تعليمات الحكومة البريطانية، المتعلقة بهذا الموضوع، بكل أمانة»^(٢).

وما أن دعا فيصل الدويش الشيخ أحمد للانضمام إلى الثوار، مع طلب السماح له بإقامة مخيم فى «الصبحية» وبالقدوم إلى الكويت لشرح خطته، وكذلك الحصول على مؤن، مع وعد منه بإعادة الأراضى التى اقتطعت من الكويت فى عهد الشيخ سالم، حتى تصدى له ديكسون، وأبلغ الشيخ أن يتعامل مع «مطير» كما يتعامل مع العجمان، وأن يمنع الدويش، أو أيًا من أتباعه، من عبور الحدود، وهدد ديكسون بأنهم سيتعرضون للقصف الجوى إذا ما حاولوا ذلك»^(٣).

ويمضى ديكسون فيقول: «لقد حاول الدويش مرة أخرى، فى يوم ٢٨ يونيه استمالة الشيخ أحمد على الانضمام إلى الثوار، من خلال رسائل بعث بها إليه مع كبار زعمائه الإخوان، وابنه عبد العزيز، ومع أن مضمون الرسائل قد أثر تأثيراً عميقاً فى نفس حاكم الكويت وشعبه، إلا أنه من حسن الحظ، أن الشيخ أحمد ورغم شدة الإغراء ظل أميناً على وعوده التى قطعها لى، بصفتى وكيلاً سياسياً لحكومة صاحب الجلالة».

مشيراً إلى «أن خلع ابن سعود كان أمراً مؤكداً فيما لو انضم الشيخ إلى الثوار، ووقفت الحكومة البريطانية موقف الحياد»^(٤).

Dickson, Ibid, P. 306.

(١)

Ibid.

(٢)

Dickson, Ibid, P. 307 - 308.

(٣)

Dickson, Ibid, P. 308.

(٤)

وكم كان ديكسون سعيداً لأنه «تلقى في ١٠ أغسطس رسائل مطولة من ابن سعود يشكرنا فيها على جهودنا في قطع المؤن عن الثوار»^(١).

ويستمر ديكسون في استعراض نضاله من أجل إخماد ثورة الإخوان قائلًا: «في خلال تلك الفترة أخذ اللاجئون النجديون المقيمون في العراق يتدفقون إلى الكويت في طريقهم إلى الثوار، فصدر الأمر باعتقال، أو إرجاع كل شخص يصل من العراق ويشك في أنه يرغب بالانضمام إلى جيش الثوار»^(٢).

الأمر الذي شجع الملك على أن يطلب من الحكومة البريطانية، بواسطة الوزير المفوض في جدة «أن تقوم الطائرات البريطانية بقصف الثوار داخل الكويت نفسها، كما طلب مساعدة حاكمها عسكرياً حتى يتمكن من تأمين حدود بلاده، وأن يتصدى للثوار إن حاولوا اللجوء إليها، أو الحصول منها على الأغذية والمؤن».

ولم يكتف الملك بقصف الثوار إن حاولوا دخول الأراضي الكويتية والعراقية، بل إنه كان لا يرى مانعاً من قيام الطائرات البريطانية من تعقب الثوار، وقصفهم داخل أراضي نجد نفسها^(٣).

ولأن المجال لا يتسع في هذه العجالة لذكر العمليات البريطانية - السعودية المشتركة (الجوية والبرية) ضد تجمعات الثوار، فإننا نكتفي بالقول إنه كان من المستحيل أن يستمر الثوار في نضالهم، خاصة بعد تعرضهم ونسائهم وأطفالهم وجمالهم ومواشيهم للحصار اللإنساني.

ولقد بلغ الحال بالميجور ديكسون أن هدد الدويش بقصفه من الجو لو ترك جماله تشرب من بئر «السبعية» وبئر «الطويل»، كما طلب من شيخ الكويت وضع حراسة على كافة الآبار حتى لا يتكرر ما حدث^(٤).

واللافت، أن الوزير البريطاني في جدة هو الذي أبلغ وزير الخارجية «شمبرلين» بذلك، ولم نقرأها في كتاب ديكسون ربما لأنها تثير السخرية.

Dickson, Ibid, P. 310.

(١)

Dickson, Ibid, P. 308 – 309.

(٢)

FO. 371/ 13728 – E 4134/ 94L 91, J. D, P. 74.

(٣)

FO. 371/ 13128 – E 6790/ 94/ 91, Dec. 30, 1929. J. D, Vol. 3, P. 94.

(٤)

لقد تعمد ديكسون خلق صعوبات إدارية وتموينية أمام الدويش حتى لا يقوم بمهاجمة نجد لمساندة ثوار عتيبة الذين أنزل بهم ابن سعود هزيمة ساحقة، وهذا ما يستشف من كلامه^(١).

والواقع، فإن هزيمة ثوار عتيبة كانت بمثابة ضربة قاسية للدويش «قائد التجمع القبلي الثوري»^(٢).

ومما ضاعف قسوتها أنها جاءت في أعقاب مقتل ابنه «عزيب» في معركة «أم الرضمة» مباشرة^(٣) وتعبير حافظ وهبه «فإن هاتين الضربتين قد فتت من عضد الدويش وهزته هزاً عنيفاً»^(٤).

ومما قاله ديكسون: «إن انهيار الثورة بدأ يوم مقتل عزيب، لقد صار الدويش مكتئباً، جزعاً، فاقدا للأمل، فاقدا الشهية للطعام، متردداً في اتخاذ القرارات»^(٥).

وانتهز ديكسون الفرصة، وأخذ يلح عليه بأن يسلم نفسه لسلاح الطيران، وهذا ما فعله يوم ٣٠ يناير ١٩٣٠م، هو وزميله «سهود بن لامي» بعد أن استسلم «نايف بن حثلين»^(٦) يوم ٩ يناير، ثم نقل الثلاثة إلى مدينة البصرة، ومنها إلى السفينة الحربية «لوبيين» التي كانت راسية في شط العرب^(٧).

أما باقى الثوار فقد تجمعوا في «صفوان» جنوب الكويت، حيث وضعوا تحت حراسة المصفحات البريطانية تمهيدا لتسليمهم لابن سعود^(٨).

ولم يجد ديكسون أى حرج فى اصطحاب زعماء الثورة، والسفر بهم جواً، يوم ٢٨ يناير ١٩٣٠م إلى مخيم الملك عبد العزيز فى «خبارى واضحة» وتسليمهم له^(٩) مع أنهم لاجئين سياسيين تعارف العالم على حمايتهم.

Dickson, Ibid, P. 316 – 317.

(١)

(٢) هكذا لقبه خير الدين الزركلى، نفس المرجع، ص ٤٩١.

Dickson, Ibid, P. 316.

(٣)

(٤) حافظ وهبه، نفس المرجع، ص ٢٨٥.

Ibid, The Arab Desert, P. 95.

(٥)

(٦) تولى زعامة قبيلة العجمان بعد مقتل عمه زيدان على يد فهد بن جلوى.

Ibid, Kuwait....., P. 319 – 320.

(٧)

Ibid, P. 320.

(٨)

Ibid, 323

(٩)

صحيح أن ديكسون طلب من الملك المحافظة على أرواحهم، ولكن الأخير، كما يذكر ديكسون نفسه: «قد سجن زعماء الثورة بما فيهم سلطان بن بجاد»^(١) في الدياجير التركية المظلمة، تحت الأرض في الهفوف، وانقطعت أخبارهم منذ ذلك الوقت»^(٢). معترفاً «بأن ابن سعود عامل فيصل الدويش، ونايف بن حثلين، وسلطان بن بجاد، وهم ثلاثة من أعظم زعماء الجزيرة العربية، بقسوة بالغة لا داعى لها»^(٣).

الخاتمة:

بعد هذا الاستعراض، يمكننا القول، إن الملك عبد العزيز كان مديناً إلى قوات الإخوان في النجاح الذي حققه في كل حروبه^(٤)، وأنه لولاهم لما كان مُلك آل سعود^(٥). ويمكننا القول أيضاً، إن الدور البريطاني في إخماد الثورة، والذي تبدى لنا بأشكال عدة، قد فاق دور الملك عبد العزيز نفسه، ولولاه لسقط الحكم السعودي. وقد عبر ديكسون عن ذلك بقوله: «لقد أخدمت الثورة بعد أن كلفت مبالغ طائلة من المال والعتاد، ويعود الفضل في انتشاره إلى ابن سعود من الوضع السيء الذي كان فيه إلى الحكومة البريطانية، فلولا جهودها فسي إبقاء الكويت والعراق على الحياد، ووضعها قوة كبيرة على حدود الكويت الجنوبية أجبرت الثوار على الاستسلام، لما تمكن ابن سعود من سحق الثورة ولتعرض هو والبيت السعودي لأخطر النتائج»^(٦).



(١) كان قد أُسر في معركة السبلة، ووضع في سجن المصمك بالرياض.

Ibid, P. 328.

(٢)

Ibid, P. 329.

(٣)

Philby, Saudi Arabia, P. 262 –263.

(٤)

(٥) أمين الريحاني، نفس المرجع، ص ٥٧١.

Dickson, Ibid, P. 329.

(٦)

عوامر أبو ظبى

دراسة تاريخية ميدانية لحياة البدو الاقتصادية

جمال محمود حجر^(١)

تتنوع البيئة فى دولة الإمارات بين الصحراء والجبل والبحر، ويتمركز سكان الإمارات بصفة عامة فى إقليمين رئيسيين هما: الإقليم الساحلى الشمالى حيث المدن والمراكز العمرانية الرئيسية؛ والإقليم الداخلى حيث الواحات ومناطق التجمع حول مياه الآبار. وبين هذه البيئات المختلفة توزعت القبائل فمارست أنشطة اقتصادية واجتماعية ترتبط بطبيعة المكان الذى تستوطنه. والقبائل البدوية الظببانية، التى عاشت حياتها فى مناطق الرمال الداخلية من إمارة أبوظبى، كانت أقل احتكاكا بالعالم الخارجى، وأكثر التصاقا بعالم البداوة والصحارى الداخلية، فحافظت على تقاليد البادية وراثتها، وتمتعت بحياة بدوية أصيلة لم يدخل عليها أى من المؤثرات الخارجية. وظل الحال هكذا إلى وقت قريب، حين تشكلت الدولة الحديثة وانفتحت على العالم الخارجى ككيان كبير متماسك، يلعب أفراده أدوارا متكاملة فى مجتمع حديث بقدر ما يتوافر لهم من فرص، وبقدر ما يُظهرون أنفسهم من كفاءات، وخاصة الشباب، الذى نشأ فى ظل الحداثة، وسمع الكثير من حكايات الآباء والأجداد عن ثقافة مجتمعات البادية، ولكنه لم يعيش التجربة على عمقها وروعيتها، التى تجسد تحدى الإنسان لقسوة البيئة وشح عطائها.

أما الجيلان السابقان على جيل الشباب الحالى، والذى يمثل الآباء والأجداد، فإنهما لا يزالان (٢٠٠١م) يحاولان التوفيق بنسب متفاوتة بين الأصالة التى اكتسبوها من الحياة البدوية، والمعاصرة التى يعايشونها فى الحياة الحديثة. ولا يخلو الأمر من أن يكون بين أبناء القبيلة من لا يزال يعيش حياة البادية، فيتمسك بأنشطتها وثقافتها، ويلقنها للأجيال المعاصرة، باعتبارها تراثا ثقافيا للمجتمع الجديد، يستحق أن يسان، وأن يبقى، بل وأن يمارس. هذا التناغم الثقافى والاجتماعى بين الأجيال يشكل خيوط السدى واللحمة فى

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الإسكندرية.

نسيج المجتمع الإماراتي، وتظهر ملامحه المادية في الخيام البدوية المنصوبة داخل أسوار البيوت، باعتبارها ملتقى اجتماعيا وثقافيا، بما يُمد فيها من موائد، وما يدور داخلها من سواف، إلى غير ذلك من مناخ البادية الثقافي، إنه التراث.

وقد قدر للباحث، الذي عاش في الإمارات ما يزيد على خمس سنوات، أن يكون رصيذا ثقافيا واسعاً عن التطور التاريخي لقبائل الإمارات، فلمس بوضوح من خلال لقاءاته بطلابه في الجامعة، وزياراته لعناصر من أبناء القبائل أهل الصحراء والرمال (كالعوامر في مواطنهم بالعين والمناطق القريبة منها مثل: الساد واليحر والزعلة وسويحان وزاخر ومدينة زايد، وغيرها في عام ٢٠٠١م) مدى تمسك أبناء القبيلة بعاداتها وتقاليدها البدوية الأصيلة. ورغم أن عددا كبيرا من أبناء القبيلة انفتح على الحياة العصرية في الدولة الحديثة وشغل مناصب عليا فيها، إلا أن ثقافة البداوة لا تزال تجرى في عروقهم. إنهم يشكلون ذلك الجيل الذي يحاول التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في الحياة اليومية، فتمسكوا بالتراث بكافة صورته وأشكاله، وانفتحوا في الوقت نفسه على إمكانيات الحضارة الحديثة ومقوماتها. وقد انسجم تفاعل القبيلة مع توجهات الشيخ زايد في الجمع بين الأصالة والمعاصرة تفاديا لمخاطر التحول المفاجئ الذي تحدته الطفرة الاقتصادية.

وقد نجح الشيخ زايد بهذه السياسة في توطين القبائل، والارتقاء بمستوى معيشتها، واستنفارها للمشاركة بدور حيوي وفاعل في تكوين الدولة الحديثة، وتأكيد الهوية الوطنية، وتغليب النعرة القبلية، ومعايشة العصر بكافة إمكانياته ومتطلباته، دون إفراط أو تفريط، إذ يستطيع الزائر أن يلمس في يسر المعاشة الواضحة بين الأصالة والمعاصرة؛ الأصالة متمثلة في التراث الشعبي، والمعاصرة التي تحياها الأجيال الجديدة بكافة مباحثها، دون تغليب لجانب على الآخر، تفاديا للعجز عن مسايرة العصر من ناحية، وتفاديا للوقوع في سلبات الطفرة الحضارية من الجهة الأخرى.

فالاستمرار مع الماضي أمر واقع، لأن الماضي يعيش بداخلنا ويظهر في ثقافتنا، والتواصل معه هو الشكل الطبيعي لكينونة المجتمع وثقافته عبر الزمن. وهذا الموقف يحمي دولة الإمارات من الانزلاق إلى تجارب الآخرين غير الملائمة، أو الوقوع في النتائج السلبية للطفرة. ولم يكن ذلك أبدا معوقا بأي حال لحرص الشيخ زايد على أن يكتسب أبناء الإمارات خبرات جديدة من خلال التفاعل مع الآخر، وهو بذلك يستفيد

من التجربة اليابانية التي رفعت شعار «أخلاق الشرق وعلوم وتكنولوجيا الغرب»، حفاظا على التراث والتماسا للقوة.

فى هذا الإطار الفلسفى للجمع بين الأصالة والمعاصرة، تعتبر تجربة دولة الإمارات نموذجا فى توطين القبائل. وقد تمكن الباحث من أن يلمس بوضوح الجهد الذى تبذله الدولة فى توطين القبائل وتحقيق الاستقرار والاستمرار لها.

ومن الصعب على المؤرخ أن يضبط مصادر المعرفة ذات العلاقة بهذا الموضوع، نظرا لندرة الكتابة فيه وللحاجة إلى مصادره الشفاهية، بهدف رصد التغير الاقتصادى والاجتماعى الرائع، الذى طال القبائل فى مواطنها فى قلب الصحراء. وفى مواجهة القصور فى المادة التاريخية المسجلة، فقد لجأ الباحث إلى المصادر الحية لما لديها من صور عن الحياة فى الماضى، تحتفظها الذاكرة الحية لرجال من الشيب، لا يزالون يتذكرون قسوة الماضى وروعته فى آن واحد، ولا يزالون يتدارسونه فى مجالسهم الخاصة، فى صورة روايات شفوية، استطاع الباحث أن ينهل منها لاستكمال صورة الواقع الذى غاب عن التسجيل فى الوثائق الرسمية.

ولا يجب أن ينتابنا الشك أو القلق حول طبيعة الروايات الشفوية أو مصادرها، أو النزعة التى قد تنتاب روايتها؛ ذلك أنها جميعا تخضع للمنهج العلمى فى الكتابة التاريخية، من حيث مصادرها ومحتواها، ومقارنتها ببعضها من ناحية، ومقارنتها بالمعلومات المسجلة من ناحية أخرى. ولا مفر من توظيف الروايات الشفوية فى نقل الأفكار التراثية، والصور الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، واللقطات التاريخية، فى بيئة كانت تفتقر إلى التسجيل والتوثيق. فالتسجيل والتوثيق يُعنى عادة بالمواقف الرسمية فقط، إذا توافر فى المجتمعات القبلية أصلا.

وبهذا يتأكد أن الروايات الشفوية أصبحت مطلبا ملحا فى الكتابات التاريخية المعاصرة، وبخاصة فى الجوانب التراثية والاجتماعية، التى تُعنى بالحياة اليومية للناس وبطبيعة أعمالهم، وعلاقاتهم ببعضهم البعض. بل إن توظيف الروايات الشفوية أصبح منهجا جديدا تهتم به الجامعات الحديثة فى مباحث علم التاريخ وعلم الاجتماع، وقد نشأت له فى الغرب مراكز بحثية متطورة. وإدراكا منا لقيمة الروايات الشفوية، لجأ الباحث إلى المصادر الحية حيث هى، فى مواقع معيشتها، بعضها لا يزال يعيش فى الصحراء، والبعض الآخر يعيش على هامشها، والأغلبية تستمتع بالحياة فى المدن الحديثة. وتأتى قيمة المصادر

الحية من أن معظم من التقاهم الباحث قد تجاوز الستين من العمر، وهو ما يجعلهم شهوداً على عهدين، اصطلاحاً على تسميتهما كما يلي:

الأول: عهد الشقاء، أو عهد ما قبل زايد، أى عهد ما قبل ٦ أغسطس ١٩٦٦م.

والثانى: عهد الرخاء، أو عهد زايد، أى عهد ما بعد ٦ أغسطس ١٩٦٦م.

والعهدان يشكلان مرحلتين مختلفتين تماماً، اقتصادياً واجتماعياً. وقد أثبت هؤلاء الشهود من خلال مقابلاتنا معهم قدرة رائعة على تصوير العهدين وإبراز أهم ملامحهما، وذلك من خلال معاشتهن للعهدين معايشة حقيقية، ومن خلال إدراكهم ووعيهم بالفروق الكبيرة والجوهرية بينهما، وهى الفروق التى مكنتهم من إبراز أوجه التقابل بينهما.

وقد سعى الباحث إلى هؤلاء الشبية حيث هم، فى مواطن إقامتهم، فى مناطق مختلفة من إمارة أبو ظبى. وسجل بالصوت والصورة، كما سجل كتابة لقاءاته بهم، وتداول معهم حول مختلف التفاصيل التى أوردتها المصادر والمراجع على قلبها، وتثبت من صحة ما ورد فيها، وأضاف إليها ما سقط منها. ولذلك فإن اللقاءات الشفوية التى أجراها الباحث، هى فى الواقع مجموعة من الوثائق الشفوية الحية، التى ندرك قيمتها من خلال دراساتها لتاريخ القبائل فى مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية.

* * *

وقبيلة العوامر، التى هى محل الدراسة، واحدة من القبائل دائمة الحركة، أو شبه المرتحلة، شأنها فى ذلك شأن كافة القبائل المهاجرة، فى محاولة لتكييف نفسها مع المواضع الجديدة، التى سعت للإقامة فيها أو الترحال حولها؛ فمن استقر منهم فى المناطق الجبلية من إقليم عمان الجنوبى (سلطنة عمان الآن) صار حضراً يعمل بالزراعة. ومن ارتحل منهم بين إقليم عمان الجنوبى وإقليم عمان الشمالى على حافة الربع الخالى (دولة الإمارات العربية المتحدة الآن) صار من سكان الرمال بدواً، وهم عوامر أبو ظبى فى دولة الإمارات العربية المتحدة،^(١) التى هى جزء من إقليم عمان الكبير، بمفهومه الجغرافى. وبصفة عامة

(١) محمد متولى، محمود أبو العلا، جغرافية الخليج، ص ١٦٤. ويبدو أن عوامر سلطنة عمان، أو إقليم عمان الجنوبى، هاجروا إليه قبل عوامر منطقة الوسط، أى عوامر الرمال فى دولة الإمارات العربية المتحدة، فوضع الأوائل أيديهم على مناطق خصبة فى عمان، ساعدتهم على الاستقرار والعمل بالزراعة والحرف الأخرى ذات الصلة. أما عوامر الإمارات العربية المتحدة، الذين وفدوا إلى المنطقة متأخرين، فلم يعرفوا الاستقرار إلا على عهد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وفى ظل الدولة الحديثة التى أسسها. محمد متولى، محمود أبو العلا، جغرافية الخليج، ص ١٧٠.

يمكن القول إن القبائل الإماراتية فى معظمها أفاذا من قبائل إقليم عمان. وسوف ينعكس ذلك على كافة مظاهر أوضاعها السياسية والاجتماعية، وقد ظهر ذلك بوضوح فى محاولات رسم الحدود الداخلية بين الإمارات المتصالحة وبعضها قبل إقامة دولة الإمارات العربية المتحدة فى عام ١٩٧١م، وبين دولة الإمارات وجيرانها بعد الاتحاد، فهى حدود تقوم فى الأصل على أسس قبلية. ومن ذلك تخطيط الحدود فى منطقة البورىمى، التى ظلت تُتداول أكثر من عشرين عاما فى المحافل الدولية، وقد كانت مشكلة قبلية فى المقام الأول، وإن بدت فى ظاهرها نزاعا حدوديا بين دول ثلاث، هى السعودية وأبو ظبى وعمان.

وإذا كان للجغرافية أن تفسر التاريخ؛ فإن مرتفعات عمان، وهى قلب عمان ومصدر الثراء فيه، تشد القبائل إليها. وكذلك فإن إقليم البحرين التاريخى، الذى تعتمد الحياة فيه على البحر والصحراء، يشد القبائل إليه من الجهة الأخرى. ونتج عن ذلك أن اجتذبت مرتفعات عمان بعض بطون القبائل، ومنها فرع قبيلة العوامر الحضر، الذين يقيمون فى جبل العوامر بمنطقة الشرقية بعمان.

أما فرع قبيلة العوامر فى إمارة أبوظبى فيتجولون بالقرب من واحة البورىمى، التى تقع عند سفوح مرتفعات عمان، وهى منطقة تختلط فيها القبائل. والشىء نفسه يقال عن باقى المناطق الحدودية بين عمان والإمارات، ومع ذلك فقبائل الإمارات، شأنها شأن قبائل إقليم البحرين الساحلى، قبائل عدنانية فى معظمها تعتنق المذهب السنى، بينما القبائل العمانية قحطانية فى معظمها وتعتنق المذهب الإباضى.

وواحة البورىمى التى تعتبر أشهر منطقة فى الظهير الخلفى لدولة الإمارات العربية المتحدة، كانت تعرف قديما باسم «سهل الجو»، كما تعرف كذلك باسم «توام»، وتقع فى الطرف الشمالى لمنطقة الظاهرة القريبة من سفوح جبال الحجر الغربية، التى تمتد فى عمان^(١).

وتعتبر واحة البورىمى موقعا داخليا منعزلا، يقع عند مفترق الطرق التى تصل ساحل الإمارات بداخل عمان. وكانت منطقة البورىمى تتألف من تسع قرى صغيرة، تتجمع على هيئة مثلث قاعدته نحو ستة كيلومترات وارتفاعه عشرة كيلومترات. وكانت قرية البورىمى

(١) محمد مرسى عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ص ٢٢١؛ محمد حسن العيدروس، التطورات السياسية فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ١٤٣، ١٤٤.

أكبرها جميعا، مما جعل اسمها يتغلب على بقية الأسماء. وقد قسمت هذه القرى بين عمان وأبوظبي، إذ صارت سبع منها تقع في داخل حدود إمارة أبوظبي، بينما تقع الأخرتان في داخل حدود عمان، ومنها قرية البوريمي نفسها^(١).

وقد وجدت قبائل الإمارات نفسها موزعة بين عناصر الجذب الإقليمي، أي بين إقليم عمان (الجبلي) وإقليم البحرين (الساحلي). وكانت البوريمي ملتقى القبائل جميعها. ونظرا لأنها تقع عند أطراف الحدود، فقد تبدل ولأؤها بين الحين والآخر، تبعا للظروف السياسية والاقتصادية والمذهبية، إلى أن استقر بشكل نهائي داخل الحدود السياسية التي جرى رسمها مؤخرا. ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد عانت في مرحلة ما قبل قيام دولة الاتحاد من الانقسام السياسي، إذ انضم بعضها ومنهم العوامر إلى حلف بنى ياس، الذي يتركز في واحة البوريمي وإقليم الظاهرة، ويحتفظ بصداقة سلطنة عمان، وهم هناوية. أما حلف القواسم فيضم الشارقة ورأس الخيمة وعجمان وأم القيوين ويحتفظ بعلاقات وطيدة مع الدولة السعودية، وهم غافرية.

وكما أشرنا في المقدمة يصطلح العوامر في أبوظبي على تقسيم تاريخهم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى: مرحلة الشقاء، وتمثل الفترة السابقة على وصول الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إلى الحكم، في عام ١٩٦٦م. وكانوا خلالها «عربا يرعون الإبل والغنم، في حالة تنقل دائم» سعيا وراء الكلاً، الذي يطعمون به ماشيتهم. ولا يجب التقليل من أهمية هذا النشاط، الذي يعتمد الرعي أساسا لمختلف أنشطة الحياة اليومية الأخرى؛ إذ إن الماشية التي يمتلكها البدوي في مجتمع غير مستقر هي كل رأس ماله، فهو إن دبر ماشيته طعاما جيدا، أطعمته هي بالضرورة طعاما جيدا من لحومها وألبانها، وكسأً جيدا من صوفها وأوبراها. وأكثر من ذلك إنه يستطيع أن يتاجر فيما يفيض عن حاجته، من رؤوس القطعان^(٢).

المرحلة الثانية: مرحلة الرخاء، ويقصدون بها الإشارة إلى الفترة التي تبدأ بحكم زايد في عام ١٩٦٦م، وإلى الآن. إذ إنها تشكل نقلة نوعية في حياتهم. فالعوامر أخذوا في

(١) عبد المنعم عبد الوهاب، جغرافية العلاقات السياسية، ص ٣٤٦، ٣٤٩.

(٢) لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض شيخ العوامر في منزله بالبحر يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م؛ لقاء بين الباحث ومحمد الشرقي العامري في الزعلة يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

الاستقرار بتشجيع من الشيخ زايد، الذي كان له اهتمام خاص بالزراعة، فأخذ يوزع عليهم المزارع والبيوت، التي أقامها لهم بالقرب من تلك المزارع، في منطقة العين وليوا ومدينة زايد، وغيرها^(١).

وتقطن قبيلة العوامر بصفة أساسية في إمارة أبو ظبي، في منطقتي الختم^(٢) والظفرة^(٣) حيث يشاركتها في المنطقة الأخيرة المناصير والظواهر والمزاريع، وهؤلاء جميعا هم حلفاء بني ياس الهناوية، وهم جميعا من سكان إمارة أبو ظبي. والعوامر من القبائل التي تعيش في المناطق الداخلية، كما هو الحال في واحة العين وضواحيها، في المويجعي والجيمي وفي المناطق القريبة منها، مثل: الوقن، والعقير، والغنينة، وأبوهافة، وأم الزمول، وقيسولة، وبطحة، وأبو الجريد، والسويتية، واللحمة، والحضيب، وأم البنادق، والقسييس، وابن حاير، وسليم، وفاضية، وعروق الشيبية، وموافقة (زاخر حالياً)، ودرب الحوز، والخزنة، والختم، والقرين، والنقرة، وسويحان، وبدع سلمى، والعشوش، وبدع المغنى، والهير، والزعلة، والساد، واليحر، وأبو سمرة، ورماح، وبدع العيم، وبو أرتاه^(٤). وإذا كان العوامر يقيمون في السابق في منطقة العين وضواحيها^(٥)، فإنهم اليوم يقيمون إلى

(١) لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض شيخ العوامر بالبحر يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٢) منطقة الختم على شكل (نصف دائرة مركزها العين) ويبلغ متوسط قطرها ما يزيد على مائة كيلومتر، وبها كثبان رملية، وتنمو بها أشجار الغاف والأرطى والغض، التي تقتات الحيوانات على أوراقها، وتكتسى سهولها بالحشائش عقب سقوط الأمطار، وبها عدد من الآبار العذبة، ولهذا أصبحت أراضيها ملتقى للقبائل الرحل من النعيم والمناصير وبني ياس (والعوامر) وتهجرها القبائل وقت الصيف.

(٣) الظفرة منطقة رملية حمراء (الحمرة) تنبت فيها شجيرات الأرطى والحضى، وبعض الأعشاب الفقيرة عقب سقوط الأمطار؛ وهي الديرة الرئيسية للمناصير، وشاركتها بعض جماعات بني ياس، ومنهم العوامر. محمد متولى، جغرافية الخليج، ص ١٧٤.

(٤) لقاء بين الباحث ومبارك بن عصيان في الساد في ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م؛ ولقاء بين الباحث ومحمد الشرقى في الزعلة في ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٥) يضيف محمد الشرقى أن العوامر قبل النفط والاستقرار كانوا موجودين في المناطق التالية:

المنطقة الغربية: الجسيس، اللحمة، بن حاير، سلّيم، فاضية، بوهافة، الحمرة، الرياض، عروج الشيبية، أم الزمول غرب، جيسولة، بطحة، بو الجريد، السويتية.

المنطقة الشرقية: العين، بوهرمة، القرين، النقرة، سويحان، بدع سلمى، بدع مقتى، الخصب، الهير، الختم، الزعلة، الساد، اليحر، أبو سمرة، رماح، يدع العيم، بو أرتاه.

جانبا ذلك فى مدينة بنى ياس ومدينة زايد^(١). ويسكن نفر قليل من العوامر فى إمارة دى بالقرب من الحدود مع أبوظبى وهم من الحبانين^(٢). وأصبحت المناطق التى كان العوامر يقيمون بها فى السابق، مفتوحة أمام كافة القبائل فى ظل الدولة الحديثة، لتقطن فيها فى إطار مجتمع مستقر ومتداخل. ولم يعد للعوامر مناطق محددة تخصهم كما كان الحال من قبل، إذ إنهم تداخلوا مع القبائل الأخرى فى نسيج اجتماعى جديد، حققته فلسفة زايد فى إطار دولة الاتحاد^(٣).

يقول سهيل بن مبارك العامرى: كنت وأخى حمد أسرتين فقط من العوامر، نقيم فى فصل الشتاء متنقلين بين سويحان والشط ونصاحة والرايفة والنمشلة، وخرايج بوحلف. أما فى فصل الصيف فكنا نذهب إلى الجيمى والعامرية والقطارة بالقرب من العين. وكنا الأخوين العامريين الوحيدين فى منطقة سويحان طرف بنى ياس^(٤). ويضيف سهيل إن بعض العوامر من بيت الخالص هم عوامر من فخذ آل خميس، وهم من لز، ويسكنون فى السمحة على طريق أبوظبى - دى. ويسكن الهير على طريق العين - دى عوامر من فخذ الحبانين. ويلاحظ الباحث أن العوامر يشعرون بالامتنان لبنى ياس، وخاصة آل نهيان. فهم يرددون أنهم وآل نهيان من أصل واحد، ويتفاخرون بذلك فى كل مجلس، ويدعون لزايد بالخير، لأنه شملهم بخيراته الكثيرة، وهم يدينون له بالفضل فى ما هم فيه من نعم^(٥).

يقول سالم بن رصاص العامرى: إن العوامر كانوا يقيمون فى مرحلة البداوة فى منطقة الجيمى بالقرب من العين، وفيها منطقة تسمى العامرية نظرا لإقامة العوامر فيها، وقد اصطحب سالم بن رصاص العامرى الباحث فى زيارة إلى حيث كان يقيم فى بيت من العريش. ووقف أمام أحد البيوت التى بنيت فى السبعينيات وقال فى هذا المكان كان بيتى من العريش، ثم أشار إلى موضع البئر الذى كان نساء العوامر يستخرجن منه الماء، حيث لا تزال آثاره موجودة^(٦).

(١) لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض فى البحر فى ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٢) لقاء بين الباحث ومحمد بن سالم فى زاخر فى ٤ / ١٢ / ٢٠٠١م.

(٣) لقاء بين الباحث ومحمد الشرقى فى الزعلة فى ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٤) لقاء بين الباحث وسهيل بن مبارك فى سويحان فى ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م.

(٥) لقاء بين الباحث وسهيل بن مبارك؛ لقاء بين الباحث ومحمد الشرقى فى الزعلة فى ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٦) لقاء بين الباحث وسالم بن رصاص فى ٢٩ / ١١ / ٢٠٠١م.

وإلى منطقة القطارة القريبة من العين كان بدو العوامر يلجأون ليستظلوا بنخيل واحة القطارة الكثيف من شمس الصيف الحارقة، شأنهم في ذلك شأن القبائل الرحل الأخرى، كما كانوا يلجأون إلى منطقة المسعودى القريبة من العين والغنية بأشجار الغاف والعبيل والرمث. وكان بها آبار يجرى سحب المياه منها عن طريق الثيران. وكانت كثافة الأشجار تشجع على الإقامة فيها، لولا ذلك الاعتقاد السائد بأن الحمى تنتشر فيها^(١). وكانوا يلجأون كذلك إلى مناطق شرق المربعة، والهيلى، وسيح بن عمار، وسويحان، وأبوسمرة، والهير. وهكذا كان العوامر ينتقلون شتاء في مناطق الرمال حيث المراعى الغنية فى أعقاب سقوط الأمطار، ويستقرون صيفا فى مناطق الواحات تحت الأشجار الكثيفة.

وكان عدد المقيمين فى واحة البوريمى يزداد من تسعة آلاف إلى اثنى عشر ألفا فى فصل الصيف، وتنجم هذه الزيادة عن هجرة البدو من المناطق الداخلية، وكذا هجرة سكان السواحل إليها. ويساعد على كون الواحة منطقة استقطاب أن فصل الصيف هو فصل نضوج ثمار النخيل وجمعها، مما يفتح باب فرص العمل أمام البدو، ويهيئ لهم بيئة مناسبة للهروب من حرارة الصحراء ورطوبة السواحل^(٢).

وقد اهتم الباحثون كثيرا باقتصاديات دولة الإمارات البحرية كالصيد والغوص على اللؤلؤ، ولكن اقتصادياتها البرية لم تنل ذات الاهتمام. و يحاول هذا البحث أن يسلط الضوء على حياة العوامر الاقتصادية، فى محاولة لرسم صورة متكاملة لاقتصاديات المجتمع الظبىانى حتى وقت قريب. وفى هذا السياق يتفق العوامر على أن حياتهم فى الماضى كانت تقوم على أربعة موارد أساسية:

المورد الأول: صناعة الرعى، وهو مهنة العوامر الأساسية.

المورد الثانى: صناعة الزراعة، وخاصة النخيل والحبوب كالبر والشعير والذرة والقمح.

المورد الثالث: صناعة الصيد والغوص للبحث عن اللؤلؤ عند الضرورة^(٣).

المورد الرابع: صناعة النقل (الكريات).

(١) لقاء بين الباحث وسالم بن رصاص بالعين يوم ٢٩ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٢) محمد حسن العيدروس، التطورات السياسية فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ١٦؛ عبد المنعم عبد الوهاب، جغرافية العلاقات السياسية، ص ٣٤٩.

(٣) لقاء بين الباحث ومنصور بن سالم بن نهيبة العامرى فى زاخر يوم ٤ / ١٢ / ٢٠٠١م.

والواقع إن قبائل الإمارات لم تكن تنفرد في الماضي بمراع خاصة بها، بل كانت المراعى مشاعا بين القبائل إلى درجة تكاد تقضى على مفهوم ديرة القبيلة. ولا سيما فى سهل الظاهرة والسهل الحصى، حيث كانت المراعى غنية. ومعظم مراعى القبائل كانت فى الغالب بجوار مناطق الاستقرار الزراعى. وهو ما فرض نوعا من العلاقة بين أهل البادية وأهل الواحات المستقرين. كذلك فإن المراعى وحدها لا يمكن أن تكفى لاستقطاب القبيلة، فلا بد من توافر المياه كذلك. ولذلك فإن مسألة السيطرة على الآبار، بل وادعاء ملكيتها إنما هو مسألة حيوية للقبائل. وكثيرا ما كانت تقوم المنازعات حول آبار المياه، ولكن العرف جرى على أنه فى أثناء فصول الجفاف يجرى تقنين استعمال المياه للإنسان والحيوان، ومع ذلك فلا تمنع المياه عن القبائل الأخرى، التى قد تضطرها الظروف إلى الهجرة إلى ديرة قبيلة ما^(١).

وكما هو واضح فإن حرفة العوامر الأساسية هى الرعى، التى فرضتها طبيعة حياتهم البدوية المرتحلة، ولكنهم انشغلوا منذ قدومهم إلى منطقة العين وما حولها بتربية الحيوانات، خاصة الجمال والماعز، شأنهم فى ذلك شأن قبيلتى المناصير والمزاريع والنعيم. ويختلف العوامر عن نمطين آخرين من القبائل البدوية التى كانت تقطن المنطقة المعروفة الآن بدولة الإمارات العربية المتحدة. النمط الأول هو نمط القبائل التى تنتقل تنقلا فصليا بين أعلى الجبال والسهول المجاورة مثل قبيلة الشحوح وقبيلة الحبوس. والنمط الثانى، تمثله القبائل شبه الرحل، وهى التى تجمع بين البداوة والاستقرار، ويمثلها معظم القبائل الإماراتية. وهذه القبائل كانت تسكن بالقرب من الواحات فعملت بالزراعة والرعى معا، ومن هذا النمط قبيلة العوامر وبنى قتب، وبعض فروع قبيلة النعيم من الخواطر، وبعض القبائل المنضوية سابقا تحت لواء القواسم.

ويلاحظ أنه إذا وجد المرعى والماء وجد العوامر منتشرين حول مجموعة من أنصاف الدوائر المتتالية، التى تتخذ من العين مركزا لها، إذ يتواجدون فى مراعى الختم والحمرة والرباض والظفرة، ويمتد نشاطهم إلى السهل الحصى من البورىمى إلى رأس الخيمة، وهو من أغنى المراعى فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ولذلك يعد ملتقى للقبائل الرحل، فيه

(١) معهد البحوث والدراسات العربية، دراسة مسحية شاملة، ص ٥٥٢.

يلتقى العوامر ببني قتب والغفلة^(١). وقد دفعت الحاجة لتأمين المياه لقطعان الهوش (الجمال) والبوش (الأغنام والماعز) إلى أن يحرص العوامر على علاقات طيبة مع القبائل الأخرى، وذلك بالتعاون معهم في حفر الآبار التي يجرى توزيع مياهها بين القبائل لترتوي وقطعانها. وفي سبيل البحث عن المرعى تتسقط القبيلة أخبار المراعى من الطوافين، فإذا ما تبين لها وجود مرعى جيد انتقلت إليه، وبعد أن تأخذ حاجتها من هذه المنطقة وتلتهم مراعيها تنتقل إلى أخرى. وكانت الادعاءات المتقابلة بملكية المراعى من قبل القبائل المتنافسة هي المحرك الأساسى للحروب أو الصراعات القبلية. قبل تنامى السلطة المركزية، وتكوين الدولة الحديثة. وقد كانت المناطق الأساسية التي يتجول فيها البدو في الإمارات أربع، هي: السهل الحصى الداخلى؛ ومنطقة الختم؛ ومنطقة الظفرة؛ ومنطقة بينونة.

السهل الحصى الداخلى: ويمتد من جنوبى واحة البورىمى حتى الطرف الشمالى لإمارة رأس الخيمة، وفيه أغنى مراعى الإمارات، وفيه تتجول قبائل بنى قتب، والخواطر، والغفلة، والعوامر، وخاصة المنطقة المحيطة بالعين.

منطقة الختم: وهى على شكل نصف دائرة مركزها العين، ويبلغ متوسط قطرها ما يزيد على مائة كيلومتر، وبها كثبان رملية، وتنمو بها أشجار الغاف والأرطى والغض، التى تقتات الحيوانات على أوراقها، وتكتسى سهولها بالحشائش عقب سقوط الأمطار، وبها عدد من الآبار العذبة، ولهذا أصبحت أراضيها ملتقى للقبائل الرحل من النعيم والمناصير وبنى ياس والعوامر، وتهجرها القبائل وقت الصيف.

منطقة الظفرة: رملية حمراء، ويسمىها رجال العوامر «الحمرة»، وتنبت فيها شجيرات الأرطى والحصى، وبعض الأعشاب الفقيرة عقب سقوط الأمطار؛ وهى الديرة الرئيسية للمناصير، ويشاركها فيها بعض جماعات بنى ياس، ومنهم العوامر.

منطقة بينونة: رملية حمراء كالظفرة تنمو فيها شجيرات الأرطى والمرخ والعبل، وبعض الأعشاب الفقيرة عقب سقوط الأمطار، وهى مراعى مناسبة للإبل. وهى المراعى الرئيسة لبنى ياس، وقبائل أخرى، قليل منها من العوامر^(٢).

(١) شاكر خصباك، دولة الإمارات العربية المتحدة (د. م، دن، ١٩٧٨م)؛ لقاء بين الباحث ومبارك بن عسيان

العامرى، فى قرية الساد يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م.

(٢) معهد البحوث والدراسات العربية، دراسة مسحية شاملة، ص ٥٥٣.

وفى الصحراء المترامية الأطراف ، حيث كانت قطعان القبائل تتداخل ، جرى العرف على تمييز القطعان من بعضها بعلامات الوسم (الدمغ ، أو أثر الكى الظاهر على جلد الحيوان) ، التى جرى الاتفاق عليها. ولتمييز قطعان هذه الإمارة عن تلك ، تُوسم (تُدْمَغ) الناقة على يمين الرقبة. ولتمييز قطعان القبيلة الواحدة عن الأخرى داخل نفس الإمارة ، توسم القطعان فى مكان آخر على يسار الرقبة ، وتسمى عند العوامر «الحنية والعمود» ، إضافة إلى علامة ثالثة تحت العين وتسمى «الدامع»^(١). وهناك وسم رابع يميز عشيرة عن أخرى داخل نفس القبيلة. وتأتى أهمية الوسم فى التعرف على الحيوان ، أو المطالبة بالحيوانات الشاردة أو المسروقة.

كانت قطعان البوش تقتات على نباتات صحراوية تنمو طبيعياً ، منها «الزهرة» وهى زهور صفراء اللون. ومنها «العندية» و«القصيصة» و«العنقودة» و«الخضرمة» ، وجميعها من أنواع الحشيشة ، التى تنبت فى أعقاب سقوط الأمطار. ومنها «العبله» وهى شجيرات صحراوية ورقية تتحمل العطش. ومنها «الشنانة» وهى شبيهة بالعبله. ومنها «الحاذة» أشبه بالشنانة ، وكذلك «الرمثة»^(٢). وفى أوقات الجفاف الشديد التى يسميها البدو «الدهر» وهو موسم قاس ، يلحق الضرر بالبدو وقطعانهم ، ويدفعهم إلى الحركة الدائبة بحثاً عن الكأ والماء. وفى مثل تلك الأيام القاسية ، تأكل النوق شجيرات «الهرمة» و«الغاف» و«السمر»^(٣). أما البيطرة فكانت تتم بالكى ، فإذا كانت إصابة الحيوان فى البطن مثلاً ، يكوى موضع البطن ، وإذا كانت الإصابة بالرجل يكوى موضع الرجل. وبالطبع لم يكن هناك أطباء بيطريون بالمعنى الحديث للكلمة ، وإنما كان هناك طب بيطرى شعبى ، فكل شخص فى القبيلة هو الطبيب لماشيته. صحيح أن البعض كان أكثر خبرة ومهارة من غيره ، إلا أن الجميع كان قادراً على مواجهة مشاكل البيطرة والتعامل معها ؛ فحياة البدوى قائمة على اعتماده على سلامة حياة حيواناته.

(١) لقاء بين الباحث وطبيب على سليم العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م ؛ ولقاء بين الباحث وبخيت حمد السالى العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م ؛ ولقاء بين الباحث ومبارك على طويرش العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م.

(٢) لقاء بين الباحث ومبارك على طويرش العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م.

(٣) لقاء بين الباحث وبخيت حمد السالى العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م ؛ لقاء بين الباحث ومبارك على طويرش العامرى ، بمدينة زايد ، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م.

ويتذبذب حجم القطعان طبقاً لمساحات المراعى وتذبذب المناخ، فهى تتكاثر فى الفصول ذات الأمطار الوفيرة ويتضاعف عددها. وفى سنوات المحل (الجفاف) يموت عدد من القطيع، أو يذبح. ويضطر أبناء البدو عند تناقص قطعانهم إلى ترك اقتصاديات البداوة والعمل أجراً فى القرى الزراعية، أو فى مناطق الصيد فى المدن الساحلية. أو لدى شركات النفط، أو التجار. ولكن القبيلة تظل حريصة على ديرتها، أى المنطقة الخاصة بها والتي لا يحق لغيرها من القبائل أن ترعى فيها إلا بإذن منها، وفى حالة كون طاقة المرعى كفيلاً بسد احتياجات قطعان جميع أفراد القبائل المتحالفة^(١).

ويعتمد اقتصاد القبائل البدوية على تربية الحيوانات، وتنوع الحيوانات التي تكتنيتها القبائل حسب المناطق التي ترعى فيها، فإذا كانت من القبائل التي تضرب فى أعماق الصحارى والمناطق الأكثر جفافاً، اهتمت بتربية الجمال (الهوش) وإذا كانت من القبائل التي تنتقل بين الواحات والأراضى الزراعية اهتمت بتربية الأغنام والماعز (البوش). أما الماشية فيقوم بتربيتها الزراع المستقرون. ونظراً لأن منطقة الختم والظفرة وبينونة أراض فقيرة بمياهها ونباتاتها، فقد حصر ذلك نشاط القبائل البدوية فى الرعى. ودفع القبائل، ومنهم العوامر بالطبع، إلى البحث عن عمل إضافي فى فترة الصيف^(٢).

ولذلك فمن النادر أن تكون اقتصاديات القبائل البدوية بالإمارات بدوية تماماً؛ فقد نشأت علاقات بين البدو وأهل الاستقرار لتحقيق مصالح مشتركة. كما أن أهل القرى، ملاك الأراضى، كانوا فى حاجة إلى الأيدي العاملة لاقتطاف ثمر النخيل فى فصل الصيف، وكان البدو خير معين على ذلك، إضافة إلى أن الواحات تكون فى وقت القيقظ ملجأً للبدو. وفى الموسم نفسه يكون تجار اللؤلؤ فى حاجة إلى عمال للغوص. هذا فضلاً عن وجود تبادل تجارى بين البدو وسكان القرى؛ فالبدو فى حاجة إلى التمور والحبوب وبعض المحاصيل الزراعية الأخرى، وسكان القرى فى حاجة إلى الحيوانات الحية ومنتجاتها من الأصواف والجلود. كما أنهم فى حاجة إلى الحطب الذى يجمعه البدو الفقراء، أو السخام (الفحم) الذى يصنع من الحطب. وقد ساهم العوامر فى كافة هذه الأنشطة^(٣).

(١) معهد البحوث والدراسات العربية، دراسة مسحية شاملة، ص ٥٥١.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٥٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٥٣.

ويعد التنقل الدائم بحثاً عن المراعى من أهم مظاهر حياة البداوة، فالمكوث في مكان واحد للمرعى عادة ما يكون قصيراً. وتحدد فترات سقوط الأمطار على مناطق معينة هجرة البدو إليها. وتبدأ حركة البدو الشتوية من أواخر شهر نوفمبر حتى شهر مارس. أما الحركة الصيفية فتبدأ من أوائل شهر يونيو وتنتهى في نوفمبر، حين تعود القبيلة إلى منازلها الصيفية بالقرب من الواحات والآبار^(١).

وبالرغم من الحداثة التي لفت أركان دولة الإمارات، نجد بعض العوامر لا يزال يحصر على الحفاظ على التراث التقليدى، الذى كان يحياه الآباء والأجداد، ومع كون الحياة اليوم صارت أكثر يسرا فى قلب الصحراء عما كانت عليه فى الماضى، فقد صارت ممارسة الأنشطة الاقتصادية التقليدية التي عرفها العوامر أكثر يسرا كذلك، وذلك نتيجة إدخال الوسائل الحديثة فى تربية هذه القطعان، ورعايتها بيئياً.

ويقدم محمد الشرقى شنوح العامرى، الذى يسكن أحد بيتين منزلين وسط الصحراء فى منطقة الطويسة القريبة من الساد، نموذجاً لأسلوب الحفاظ على التراث، وذلك بممارسة المهن والحرف التقليدية للبدو قبل مرحلة النفط، فلدى محمد بالقرب من هذين البيتين عزبة لتربية جمال السباق، التى يبلغ ثمن الواحد منها ما بين نصف مليون ومليونى درهم، وهو نشاط دعمه الشيخ زايد حفاظاً على التراث^(٢). ويرعى محمد الشرقى بنفسه مجموعة من الجمال والنوق، التى يمتلكها الشيخ زايد. وهو متمسك بالإقامة فى عمق الصحراء بعيداً عن طرق السيارات، لأنه يرى أن مثل هذه المناطق الصحراوية النائية أكثر من غيرها نقاءً وملاءمةً لتربية جمال السباق وتدريبها^(٣).

ورغم عزلة بيتى محمد الشرقى وأخيه حمد فى قلب الصحراء، إذ تبدو الحياة فى الظاهر قاسية للغاية، إلا أنه أكد للباحث على أن كل احتياجاته من وسائل الحياة الحديثة، كالماء والكهرباء والتلفاز والهاتف، وغيرها متوفرة للجميع، أينما حلوا، فالدولة شملت العوامر كما شملت أبناءها بالعناية والرعاية وتوفير كافة احتياجات الحياة

(١) المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٢) تدعم الدولة الجمل الواحد بنحو مائتى درهم فى السنة، ويمتد هذا الدعم ليشمل تربية الماعز، إذ تدعم الدولة كل عنزة بنحو خمسين درهماً. كما يشمل الدعم غذاء الحيوانات من الحشائش، إذ تدعم الدولة زراعة مساحات كبيرة من الحشائش والبرسيم.

(٣) لقاء بين الباحث ومحمد الشرقى، بالزحلة، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م

المعاصرة، دون أن يؤثر ذلك على طبيعة ممارسة البدو لحياتهم التقليدية السابقة في تربية الحيوانات. وامتدت تلك العناية إلى المزارع الحديثة، التى تزرع فيها الخضروات لغذاء الإنسان، والحشائش لغذاء الحيوان. وفى هذا المجال وفرت الدولة كافة المعدات لحفر آبار المياه، وزودت المزارعين بالمضخات الحديثة لرفع المياه النقية من الآبار للشرب، وسقيا الحيوان، ورى النبات^(١).

وينتهج محمد بن سالم بن عنودة العامرى، الذى يقيم فى زاخر، والذى لا يزال يعيش حياة بدوية خالصة فى كل مظاهرها، النهج نفسه الذى يمارسه محمد الشرقى، فحين قام الباحث بزيارة ابن عنودة فى ٤ ديسمبر ٢٠٠١م (شهر رمضان) وجده قد افتتح الرمال أمام منزله، حيث نصب خيمة، وجمع فيها شبيبة العوامر المقيمين فى زاخر حول النار، انتظارا لموعد الإفطار. كان الجوربيعا، وكانت البيئة بدوية فى كل تفاصيلها، عدا وقوف بضعة سيارات حديثة بالقرب من الخيمة. وراح ابن عنودة العامرى يحدث الباحث بكل فخر، فى حضور جمع من الشيب، عن أسلوب حياته كبدوى أصيل عاش فى الصحراء، وعن تربيته لقطعان الماشية^(٢). ويؤكد سهيل مسعود بن عصنة العامرى ما ذهب إليه كل من محمد الشرقى ومحمد بن عنودة من الحرص على حماية التراث البدوى، عملا بتوجيهات الشيخ زايد، ذلك البدوى، الذى أوصى بعدم التخلّى عن ثقافة حياة البداوة، برغم كل وسائل التحديث التى يقدمها للناس، «فقد جعلنا هذا نتمسك بما لدينا من قطعان الماشية ونرعها كما لو كنا لا نملك من موارد الرزق غيرها»^(٣).

ومع بداية عهد الاستقرار الذى تبنته أبو ظبى منذ بداية حكم زايد، تحول بعض العوامر عن الرعى إلى العمل بالزراعة، والحرف المساندة لها. فضلا عن أن بعضهم كان يعمل فى وظائف حكومية، كالعمل بالشرطة والأمن وقيادة السيارات لدى شركات النفط حديثة العهد بالمنطقة، وكذا أعمال الحراسة. ولم يستح أحد وقتئذ من ممارسة أى عمل طالما أن الحاجة تفرض عليه ذلك.

(١) لقاء بين الباحث ومحمد الشرقى العامرى، بالزعة، يوم ٦/١٢/٢٠٠١م؛ لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض العامرى، باليحر، يوم ٢٥/١١/٢٠٠١م.

(٢) لقاء بين الباحث ومحمد بن سالم بن عنودة العامرى، بزاجر، يوم ٤/١٢/٢٠٠١م.

(٣) لقاء بين الباحث وسهيل مسعود بن عصنة العامرى، بزاجر، يوم ٤/١٢/٢٠٠١م.

يقول سهيل بن مبارك العامري: «عملت عسكريا لمدة ثلاث سنوات في شرطة أبو ظبي أيام الشيخ شخبوط، وكانت الحاجة هي الدافع للعمل في مثل هذه الوظيفة»، وهذا يعنى أن الخروج على المألوف من نمط الحياة البدوية كان يحدث فقط عند الضرورات التي تبيح المحظورات. ويضيف سهيل: «ثم عملت مرافقا للشيخ خليفة بن زايد ولي عهد أبو ظبي (رئيس الدولة الآن). كما عملت مع الشيخ محمد بن خالد آل نهيان». وبعد ذلك «عملت حارسا في البلدية»، ثم «مراقبا للأراضي البرية في بلدية العين»^(١).

وكما عمل العوامر في أعمال غير بدوية، على نحو ما رأينا، لم يترددوا في ممارسة أعمال تتعلق بالبحر كالغوص بحثا عن اللؤلؤ، إذ كان مبارك بن دحروج (أبو سهيل) غيص برغم كونه بدوى الأصل. وهذا يعنى أن بعض العوامر بدأوا منذ فترة مبكرة يتحولون تدريجيا عن بداوتهم إلى حياة أهل البحر، وإلى حرف أخرى، ربما كانوا يرفضونها من قبل. ولا شك أن البداوة لم تحل بين العوامر وبين أن يتكيفوا مع مختلف الحرف والوظائف، فكانوا يجيدون عملية جمع الحطب وبيعه خاما في الأسواق أو تصنيعه سخاما (فحما)^(٢). وفى مجتمع الصحراء المترامية الأطراف، كانت وسائل الاتصال والنقل معدومة، إلا من الجمال التي يعرف عنها أنها «سفينة الصحراء»، إذ كان الجمل يحمل الرجل وطعامه وشرابه بما يكفى لطول رحلته. سواء أكان السفر لزيارة، أم لتجارة، أم لتبليغ رسالة. وفي مجتمع لا يعرف القراءة والكتابة، كان التواصل مباشرة بالضرورة، وكانت الرسائل شفوية. وكان نقل الرسالة الشفوية من مكان إلى آخر يستغرق وقتا طويلا، إذ تحكمه سرعة الجمل، وطبيعة الأرض التي يسير عليها، والظروف المناخية التي تتم فيها الرحلة. وفى كل الأحوال كان التنقل عبر الصحراء سفرا، ولذلك كان المسافر يزود نفسه ببندقية وذخيرة، كما يزود نفسه بالطعام والشراب. وإذا كانت أسواق العين وأبو ظبي وجزيرة دلمة هي الأسواق الرئيسية التي كان يتردد عليها أهل الصحراء لشراء احتياجاتهم الحياتية، فإنها كانت كذلك أسواقا لشراء البنادق والذخيرة^(٣).

(١) لقاء بين الباحث وسهيل بن مبارك العامري، بسويحان، يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٢) لقاء بين الباحث وسهيل بن مبارك العامري، بسويحان، يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٣) لقاء بين الباحث ومبارك على، بزاهر، يوم ٤ / ١٢ / ٢٠٠١م؛ لقاء بين الباحث وبخيت حمد السالى، بمدينة

زايد، يوم ٦ / ١٢ / ٢٠٠١م.

فى مثل تلك البيئة ، وفى ذلك الزمان ، لم يكن النقل الجماعى معروفا بالشكل الذى نألفه اليوم ، بل كانت هناك وسائل نقل بدائية ، يتوفر عليها بعض العوامر فى موسم الخروج إلى الغوص فى فصل الصيف ، وتسمى «الكريات» ؛ إذ كانوا ينقلون النساء وأطفالهن فى رحلات من منطقة أبو ظبى الساحلية إلى منطقة العين الداخلية ، حيث قرى العين والقطارة والمويجعى والجيمى والمعترض ، وذلك لحماية النساء والأطفال من أخطار قد تأتيهم من جهة البحر أثناء غياب الأزواج والشباب العاملين فى الغوص من ناحية ، ولتيسير الحياة فى أماكن أقل رطوبة وأكثر ظلا من ناحية أخرى ، وفى مزارع العين توجد أشجار النخيل واللومى والنارنج واليوسفى والمانجو والتين واللوز ، ومن ثمرات هذه الأشجار يضمن الوافدون صيفا تلبية احتياجاتهم المعيشية من ماء وغذاء . وكانت هذه رحلات منتظمة إلى حد كبير وذات مواعيد ثابتة^(١) . وكانت رحلة الذهاب من أبو ظبى إلى العين تستغرق نحو خمسة أيام على الأكثر ، لأن قسوة الجو الحار ومعاناة الأطفال والنساء من الطقس فى رحلة الذهاب كانت تدفعهم إلى الهروب بسرعة من حرارة الشمس ، نظرا لعدم وجود أشجار أو استراحات على الطريق . ويتولى العوامر من جديد أمر إعادة النساء والأطفال من العين وضواحيها إلى أبو ظبى عند انتهاء موسم الغوص وعودة الرجال . وكانوا يعدون لذلك قوافل أكبر عددا ، إذ تتكون كل قافلة من عشرة إلى عشرين ناقة . وكانت رحلة العودة تستغرق خمسة عشر يوما على الأكثر ؛ ذلك أن النساء كن يعدن محملات بالتمور وأنواع أخرى من الأغذية ، وهى أثقال تجعل حركة القافلة بطيئة ؛ فضلا عن أن رحلة العودة كانت تتم فى جو معتدل يشجع النساء والأطفال على الاستمتاع بقضاء وقت أطول فى الطريق^(٢) . وقد جعل هذا من العين أكثر المناطق الخضراء فى أبو ظبى جذبا للسكان ، بحيث يمكن القول إنها كانت العاصمة الحقيقية للإمارة ، أو هكذا كان يتمنى زايد ، إذ هى المنطقة التى يفد إليها أهل البحر وأهل الصحراء معا ، بينما لا يخرج منها سكانها ، فهى منطقة جذب لا منطقة طرد .

ومن أجل توطين البدو ، وتحقيقا للأمن والاستقرار والعيش فى إطار حدود الدولة الحديثة ، تعمل الدولة جاهدة على أن يتحول البدو إلى ممارسة الزراعة والحرف الأخرى

(١) لقاء بين الباحث و سالم بن رصاص العامرى ، بقرية الساد ، يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠ م ؛ على محمد راشد ، دولة

الإمارات العربية المتحدة فى مجلة العربى ، ص ٩١ .

(٢) لقاء مع سالم بن رصاص العامرى ، بقرية الساد ، يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠ م .

إلى جانب الرعى، فوزعت عليهم الأرض بالمجان، وحفرت لهم الآبار، أو أعانتهم على ذلك، وأمدهم بالمضخات اللازمة لرفع المياه منها، وزودتهم بالبذور والشتلات وكافة الضروريات، فضلا عن منحة مالية شهرية، تشجيعا لهم على الاستقرار. ووضعت وزارة الإسكان وتخطيط المدن، خطة توطين البدو بالاتصال المباشر مع البدو أنفسهم، وتحديد مساحات من الأرض قريبة من مصادر المياه ومن مناطق إقامتهم، حيث تبنى لكل أسرة منزلا خاصا بها مزودا بكافة المرافق الضرورية. ومع أن التجربة كانت صعبة في البداية؛ إذ لم يكن من السهولة بمكان تحويل البدو المتنقلين إلى الحياة في مجتمع مستقر، إلا إنها نجحت إلى حد كبير. وبينما حرص كبار السن على الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم في العيش على طريقتهم بالقرب من البادية، جذبت المدن الحديثة العناصر الشابة للعمل في الوظائف والخدمات الحكومية.

ومن أولى البيوت التي بناها الشيخ زايد في عام ١٩٦٨م لتوطين العوامر، تلك التي لا تزال آثارها موجودة في منطقة اليحر، الواقعة على طريق العين - أبو ظبي، سكن العوامر منها نحو عشرين بيتا، لم يبق منها اليوم سوى أساساتها وسط مساحة صحراوية خالية إلى الشمال من مصلى العيد باليحر، ويجاورها مدرستان إحدهما للطالبات والأخرى للطلبة، وهما أقدم مدرستين في قرية اليحر. وعلى هذا النحو فإن اليحر تعد من مناطق العمران الجديدة، التي استحدثها شيخ العوامر محمد بن ركاض، إذ لم يكن بها عند بداية تعميرها قبل الستينيات من القرن الماضي بيوت دائمة، عدا أربعة فقط، وصار بها الآن (٢٠٠١م) نحو سبعمائة بيت. والشيء نفسه يقال عن منطقة الوقن^(١). ويمكن القول إن عقد الستينيات كان نقطة تحول رئيسة في حياة العوامر، إذ بدأوا يعيشون حياة الاستقرار في منطقة شرق اليحر بممارسة حرفة الزراعة، فقد تأسس فيها وقتئذ أربع مزارع، ثلاثة منها أقامها العوامر، هي: مزرعة سالم بن حمد بن ركاض العامري، ومزرعة محمد بن حمد بن ركاض العامري، ومزرعة حمدان بن سعيد بن سويلم العامري. أما المزرعة الرابعة فكانت ل: هيف بن غريب الأحبابي.

وفى إطار تشجيع البدو على الاستقرار وزعت الدولة المزارع على سكان منطقة اليحر، حتى بلغ عدد المزارع فيها (٢٠٠١م) نحو ثمانين مزرعة معظمها بيد العوامر، الذين

(١) لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض شيخ العوامر، باليحر، يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

يشكلون أغلبية السكان^(١). وتعتمد هذه المزارع على ما يجرى في بعض الأودية الموسمية الصغيرة من مياه الأمطار حال سقوطها، ثم تجف في معظم أيام السنة. ومن قبل كانت وسائل استخراج المياه الجوفية تأتي عن طريق الأفلاج، ولكن هذه الوسيلة تقلصت منذ أوائل الخمسينيات، وأهمل الكثير من الأفلاج نظرا لتكاليف حفرها الباهظة. أما الوسيلة الأخرى لاستخراج المياه الجوفية فهي الآبار التي تحفر يدويا، وقد حفر سكان الواحات وبدو الصحراء مئات من هذه الآبار من أجل الشرب والزراعة. أما الوسيلة الثالثة فهي الآبار التي تحفرها الدولة آليا وقد توسعت فيها بشكل ملحوظ، باعتبارها من أساسيات التوطين والعمل بالزراعة^(٢). يقول قريع بن سالم بالروس العامري: «زايد أقرانا وأذرانا»، أى إنه بنى لنا البيوت والمزارع، وأقام لنا القرى، وبنى لنا الدكاكين، ووزعها علينا مجانا، وأمنا من خوف، كما قدم لنا دخولا منتظمة. والآن نحن ننعّم بالنعم التي جاد علينا بها زايد^(٣). كان الغوص بحثا عن اللؤلؤ العنصر الرئيس في النشاط الاقتصادي لسكان ساحل عمان الشمالى (الإمارات) حتى ظهور النفط، إذ كان يعمل بها نحو ٣٥٪ من نسبة المشاركين في هذه المهنة في المنطقة، ويعمل بها نحو ٨٥٪ من الأيدي العاملة في إمارات الساحل المتصالح^(٤). وساعد على الاهتمام بهذه المهنة قسوة البيئة على اليابس وجذب البر وشح الموارد، مما دفع الناس إلى البحر بحثا عن غذائهم، فضلا عن أن معظم مغاصات اللؤلؤ كانت تقع بالقرب من الساحل العماني في المنطقة المقابلة لإمارة أبو ظبي مباشرة^(٥).

وكان العوامر يذهبون إلى موسم الغوص بصحبة بنى ياس، وكانوا يفضلون مهنة الغوص على مهنة «السيب» (أى العمل فى جر الحبال لإخراج الغواصين من القاع) لأنهم يعتبرون عملية «السيب» مهنة وضيفة. أما من لا تتوافر لديه خبرة الغوص فيسعى إلى تعلمها بنفسه، معرضا حياته للخطر رافضا العمل فى مهنة أقل مستوى^(٦). وعند الضرورة القصوى كان بعض العوامر يعملون فى السيب، على عكس ما ورد سابقا من أنهم يرفضون هذه

(١) لقاء بين الباحث ومحمد بن ركاض شيخ العوامر، باليحر، يوم ٢٥ / ١١ / ٢٠٠١م.

(٢) معهد البحوث والدراسات العربية، دراسة مسحية شاملة، ص ٥٣٦.

(٣) لقاء بين الباحث قريع بن سالم بالروس العامري، بزاخر، يوم ٤ / ١٢ / ٢٠٠١م.

(٤) عائشة على السيار، الأصول التاريخية والتطورات المعاصرة بين إمارات الساحل العماني، ص ١٥٢.

(٥) لقاء مع سالم بن رصاص العامري فى قرية الساد يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠م.

(٦) لقاء مع سالم بن رصاص العامري فى قرية الساد يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠م.

المهنة، فالضرورات تبيح المحظورات. وكان المحصول (اللؤلؤ) يقسم بينهم وبين راعى السفينة، وهم يعملون فى هذه المهنة فى الصيف والربيع، أما موسم الشتاء فيعودون إلى البر بحثا عن الأعشاب ورعى الماشية^(١).

وإلى جانب كل من الرعى والزراعة والكريات (النقل) والغوص، مارس العوامر الصيد كحرفة مفضلة، وهذه الحرفة تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

الأول الصيد بالصقور، وينشط خلال فصل الشتاء فى الفترة من سبتمبر إلى مارس، وخلالها يصطادون بالصقور الأرناب والحبارى وغيرها، وفيها يتوجهون فى جماعات إلى مناطق الصيد على ظهور جمالهم إلى حيث الأراضى ذات العشب الطويل، التى يأوى إليها الأرناب البرية والطيور.

والثانى الصيد بالكلاب، ويمارس طوال العام، إذ يصطادون الأرناب البرية فقط، لأن الكلاب لا تصلح إلا لمثل هذا النوع من الصيد.

والثالث الصيد بالبنادق، ويمارس طول العام، فيصطادون الأرناب البرية والحبارى والكراوين وبوسولع (الوضيحي)^(٢).

وعلى الرغم من تنوع الأنشطة الاقتصادية لأبناء قبيلة العوامر على النحو الذى رأيناه، فقد أدى ظهور النفط إلى تغيير صور الحياة على أرض الإمارات تغييرا جوهريا، فتبدلت أنواع الأنشطة الاقتصادية، وبدأ الناس يتخلون تدريجيا عن المهن التقليدية الشاقة، ويتلمسون طرقا جديدة لحياة سهلة، كما بدأ شباب العوامر ينضمون إلى قوافل الوظائف الحكومية الجديدة.



(١) لقاء مع سعيد بن محسن بن بخيت العامرى فى قرية الساد يوم ٢١ / ١١ / ٢٠٠٠م.

(٢) الحبارى من أنواع الطيور البرية، بوسولع يشبه الغزلان ولونه أبيض كبير الحجم، وله قرنان طويلان. لقاء بين

الباحث وسعيد بن محسن بن بخيت العامرى فى قرية الساد يوم ٢١ / ١١ / ٢٠٠٠م.

المجتمعات الصحراوية فى المغرب: بين الأسير والباحت محاولة قراءة منهجية فى نص الخطاب الفرنسى

عبد الكرىم مدون^(١)

ارتبطت المرحلة ما قبل الاستعمارية والاستعمارية فى المغرب بظهور مجموعة من الكتابات الأجنبية حول المجتمع المغربى، وقد صنفت هذه الكتابات بعد استقلال المغرب فى خانة الكتابات الكولونىالية أى الدراسات التى حاولت قراءة المجتمعات المستهدفة من طرف الاستعمار الأوروبى. لقد اختلفت الدراسات والأبحاث التاريخية حول التأويلات المعرفية الممكنة اتجاهها بين منتقد ومنبهر، وهما منهجان ارتبطا ببعدى الهدم المعرفى والتأسيس البديل لبنية المجتمع المغربى.

إن دراسة أى مجتمع قد تبدو عادية حينما يتعلق الأمر بالمعرفة النمطية والكلاسيكية لمجتمعات الاستقرار بحيث تصبح عملية ضبط حركية مثل هذه المجتمعات مبنية على ثوابت قد تتغير عبر الزمن الطويل وفى مجال محدد، لكن الأمر يختلف حينما يغيب هذا البعد على مستوى المجال وعلى مستوى تعامل المجتمع مع تقلبات المحيط غير المستقر. إن البحث فى حركية المجتمعات المتحركة «الرحل» تقتضى محاولة وضع قراءة خاصة لهذه المجتمعات تنطلق من محاولة فهم الممارسات الاجتماعية للفرد والجماعة داخل مجتمعات الرحل، وهى الممارسات التى يمكن من خلالها فهم أى تصرف فى المكان والزمان الذى يصدر عن هذه المجتمعات، فمن المؤكد أنها تصرفات تبدو عادية إن هى قرأت لذاتها، وهى تبقى غريبة عند مقارنتها بممارسات مجتمعية نعبر عنها بالحضارية. إن مصطلح التحضر يبقى مبهما حينما نقارنه بعدم التحضر أو التوحش كما يؤكد على ذلك ابن خلدون حيث يقول:

«اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضرورى وبسيط قبل الحاجى والكمالى... فالبدو هم المقتضرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عن ما فوقه...»

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد. كلية الآداب - جامعة أغادير.

وأهل البدو هم أقرب إلى الفطر الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية... قائلون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يتقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... بئسهم قد صار لهم البأس والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفروهم صارخ... فلما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر... فصار لهم إلف وربيت فيه أجيالهم»^(١).

إن اعتماد النص الخلدوني يعتبر منطلقا لمقاربتنا للنص الأجنبي هذا النص الذي يحمل إشكالا يتمثل في طبيعة نظرة الخطاب الفرنسي بالأساس، الذي اخترناه نموذجا في هذه الدراسة لمجال الصحراء والمجتمع الصحراوي المغربي، فإذا كان اختيارنا للنص الخلدوني يحمل تبريرات الفهم الخاص لمجتمع البدو فإن اختيارنا للنص الفرنسي يرتبط بمستويين من الكتابات.

الأولى صادرة عن الأسرى لدى القبائل الصحراوية خلال القرن الثامن عشر وقد اخترنا نصين لأسيرين الأول (SAUGNIER) التاجر والمغامر الفرنسي الذي كان على متن السفينة (Les deux amis) التي غرقت في ١٧ يناير ١٧٨٤م في السواحل الأطلسية الممتدة بين رأس جبي ورأس بوجدور.

أما النص الثاني فهو لـ (BRISSON) وهو من عائلة نبيلة واشتغل في إدارة البحرية الفرنسية وقد كان على متن السفينة (La Sainte - Catherine) التي غرقت على السواحل الأطلسية في يوليو ١٧٨٥م وقد أسر لدى قبيلتي أولاد بوالسبع ثم أولاد الدليم^(٢).

المستوى الثاني من الكتابة له علاقة بالبحث الذي قد نقول إنه يكتسى صبغة علمية ويقترّب شيئا ما من الطرح الخلدوني وقد مزجنا في هذا المستوى بين البعد النظرى والتطبيقي من خلال ما كتبه روبرت مونطان (ROBERT MONTAGNE) في كتابه حضارة الصحراء وفي دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلسية.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج ٢، القاهرة نهضة مصر، ١٩٨١م، ص ٤٦٧ - ٤٨٥.

(٢) Maurice Barbier, Trois Français au Sahara occidental en 1787 - 1786, Paris, (٢)

L'harmattan, 1984, pp. 26 - 37.

إذا كان نص ابن خلدون يركز على مجموعة من الخصائص التى تميز البدوى فى الصحراء خاصة مربى الإبل والتى حددها فى التوحش والكفاف والكرم والشجاعة، فإن النص الفرنسى فى القرن الثامن عشر اعتبره نوعا من التخلف وعدم التحضر، وهو رأى مخالف لما ذهب إليه (Montagne) حينما اعتبر هذه الممارسات نوعا من التحضر يجب دراستها لذاتها بالأساس، فهو يقول:

«يجب أن نكلف أنفسنا مجهود فهم البدو الرحل، من خلال محاولة التفكير كما يفكرون، لذلك لا بد لنا أن نتخلى عن أحكامنا المسبقة وعن طريقتنا فى قياس الزمن وفى تقسيم المجال وفى استشراف المستقبل وكذا التخلي عن عاداتنا فى الحكم عن الناس والأشياء»^(١). إن هذا الخطاب، برغم كونه نابع عن باحث يشتغل مع المؤسسة الاستعمارية فى المغرب، فهو يحمل هما علميا يدخل فى إطار الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، حينما يصبح البحث العلمى الرزين أداة لفهم المجتمعات الصحراوية.

لقد تجسدت هذه الرغبة من خلال المؤتمر الذى نظمته السلطات الاستعمارية الفرنسية حول المجالات الصحراوية بمؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط فى ٣ مايو ١٩٣٠م، والذى أرادت من خلاله فهم الخريطة المجالية والاجتماعية لما كان يسمى بالصحراء الغربية.

الترحال ممارسة اجتماعية وتوازن بيئى

ترتبط كلمة الرحل NOMADE بالأصل الإغريقى NEMO أى التوزيع أو تقديم جزء من المرعى لقطيع من الماشية أو NOMAS أى أرعى، وبذلك فالسلوك الترحالى يعبر بالأساس عن نمط للعيش لا عن إثنيات وشعوب، وبذلك تصبح البداوة عبارة عن نمط فى الحياة قائم على التنقل الدائم للإنسان فى طلب للرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة فى استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعى الطبيعى الذى يمكن أن يتوفر فيها^(٢).

Robert Montagne, La civilisation du désert nomades d'orient et d'Afrique, Paris. (١) Hachette, 1947, p. 13.

(٢) محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتى الساقية الحمراء وواد الذهب، الرباط، ٢٠٠٦م، ص ٢٢.

إن الأصل في التنقل والترحال هو الإبل، فهناك اتحاد وثيق بين الإنسان والحيوان إلى درجة أنه إذا غاب الجمل فسيستقر الرحل، فحركة الترحال هي حركة استراتيجية أكثر منها اقتصادية وهو ما يجعل ثقافة الرحل مبنية على التعقيد بحيث لا يمكن فهم مجتمعات الرحل في الصحراء دون فهم للعقلية التي تؤسس هذه البنية الاجتماعية، وذلك عن طريق ضبط لأدوار الفاعلين الاجتماعيين، بحيث إن كل فاعل يؤدي دوره في إطار منظومة متكاملة متضامنة تحكمها قسوة البيئة والمجال وهو ما يجعل أفراد هذا المجتمع يمارسون ثقافة تنعت بالنهب والوحشية وتنزع عنها صفة التحضر.

إن ساكن الصحراء يتميز بممارسات فكرية وثقافية لها علاقة بالمجال من جهة وبالمعتقدات والفراغ من جهة ثانية، فالفراغ والمجال القاحل قريب منهم ودائم ويومي، وبذلك فإن تقسيم الأدوار داخل المجتمع يحتمل الدقة من خلال الأدوار الموزعة بين أفراد العائلة أو العشيرة، وبذلك تصبح الروح الأنانية للفرد محددة تحديدا اجتماعيا بحيث تعيش في إطار المقولات الذي يدين بها في تكوينه^(١).

إن هذه الممارسات تؤدي إلى اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم في المجتمع بحيث يختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لا يشارك فيها عدد أفراد المجتمع الآخرين^(٢)، كل هذه الأدوار تحمل خصوصية داخل المجالات الصحراوية فهي تؤسس لبنيات ومعتقدات حامية للنفس والجسد وهي تؤمن المجتمع والقطيع ضد المخاطر وتجعله يؤسس لنفسه طقوسا خاصة في السفر والتنقل والسكن والأكل والشرب كل هذه التوجهات تحمل تيمات بيداغوجية وقيم تدافع عن استمرارية النظام وخلقه لتوازن بين الإنسان والبيئة.

إن هذه القيم والمعتقدات قد تبدو مشتركة بين جميع المجتمعات إلا إنها تشكل استثناء في المجالات الصحراوية ومجتمعات الترحال، حيث الضعف الديموغرافي وصغر المجموعات الاجتماعية وهشاشتها، فأى تغير عميق في علاقة المجتمع مع محيطه يترجم برد فعل آنى ويومي.

(١) إلهام غالي، الأنثروبولوجيا الفكرية، دراسة في أنثروبولوجية بيبير بورديو، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٩.

(٢) الزهرة إبراهيم، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٢٤.

إن معرفة طرق ومعتقدات تفكير هذه المجتمعات كفيل بفهمها، بحيث إن تغير أو تطور المعتقدات الخاصة بهذه المجتمعات لا يمكن أن يتم إلا عند الضرورة التي تؤدي إلى خلق آليات جديدة تتناسب لضمان استمرار الحياة وتجدد المجتمع^(١).

يجب أن تنطلق أى قراءة لمثل هذه المجتمعات من مستويين، يبحث الأول فى علاقة الإنسان بالإنسان، و يبحث الثانى فى علاقة الإنسان بالوسط الذى يعيش فيه. وانطلاقاً من هذين المبحثين تصبح غاية البحث فى هذه المجتمعات متمثلة فى فهم آليات تحقيق التوازن، فالظروف القاسية للمجال هى التى تدفع الفاعل الاجتماعى إلى ممارسة طقوس محددة تدور فى فلك الحيوان الأساسى فى الصحراء الممثل فى الجمل، من أجل تأمين التوازن.

إن حياة المجتمعات الصحراوية مرتبطة بتدخل مجموعة من العناصر والظواهر التى تخرج عن مستوياتها الافتراضية القائمة فى المجال أى الطبيعية، نحو مبادرة الإنسان الذاتية الخاصة بالثقافة الخاصة المعاشة من الداخل وهى الثابتة والمستوحاة من الخارج وهى المتحركة، وتتحكم هذه الثنائية، مع وجود فوارق بينهما، بعمق فى تصرفات المجتمعات الصحراوية، وهى التصرفات التى يجب أن نفهم ونحلل من خلالها هذه المجتمعات^(٢). بعيداً عن النعوت التى أطلقت على ساكنى الصحراء من قبيل الكسل والتخلف والتعصب والخيانة والتوحش والبدائية وعدم الثقة فى الغد وغير المنظم، والمتسخ^(٣)، وكلها نعوت تختلف عن البعد الرمزي لحياة الرحل، فالدراسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعزولة عن البنية الثقافية المندمجة التى تعبر عن حركية نفسانية تميز هوية الإنسان الصحراوى فى علاقته مع محيطه المبني على حياة جماعية معقدة.

فكيف لامس الفرنسيون الأسرى هذا المجتمع خلال فترة أسرهم وكيف حللوا وقرءوا ووصفوا هذه المجتمعات؟

(١) Marceau Gast, le saharien comme concept dynamique, cadre culturel et politique. in revue de l'occident musulman, V32, N1, 1981, pp. 80 - 81

(٢) Jacque Berque, Cent - vingt ans de sociologie magrébine, annales économiques, sociétés, civilisation, V11, N3, 1956, pp. 297 - 308.

(٣) Marceau Gast, op. cit. pp. 81 - 90.

(٣)

مقاربات نص خطاب الأسير للمجتمعات الصحراوية

ننطلق للإجابة عن هذه التساؤلات من نصين كتبنا خلال فترة الأسر التي تعرض لها فرنسيين خلال القرن الثامن عشر لدى المجتمعات الصحراوية، وعملية الأسر هاته لها علاقة بتحطم وغرق العديد من السفن الأوربية في السواحل الأطلسية حيث يصبح الناجون أسرى الصدفة لدى قبائل المجتمعات الصحراوية والذين يتحولون إلى سلع تجارية يكسبون من خلالها مداخل مالية.

إن المجيء غير الاختياري منذ بداية القرن الثامن عشر للأجانب إلى سواحل الصحراء واستمرارها إلى القرن العشرين أعطى مجالاً سمحاً لهؤلاء أن يعيشوا ويتعايشوا مع هذه المجتمعات وبالتالي إمكانية وصفهم من خلال نظرة خاصة تعبر عن اعتقادات شخصية لهؤلاء الأسرى بالصدفة.

نطرح في هذه الدراسة نصين لروية كل من (Saugnier) سنة ١٧٩١م و(Brisson) سنتي ١٧٨٦ - ١٧٨٧م. وتعتبر هذه النصوص، انطلاقاً من مقارباتنا السابقة، عن أحكام غير خاصة لا تعتمد الحياد، وهي نتيجة ترتبط أساساً بنفسية الأسير أكثر من واقعية النقل المنطقي لحياة هذه المجتمعات وهو ما يؤكد (Saugnier) نفسه حين يقول:

«إننا لا نحكم على تصرفاتهم سوى من خلال خيالنا»^(١) إن هذا الخطاب سواء بالنسبة لرواية الأسير أم بالنسبة لقارئها يحمل أحكاماً قيمة وإن مناخ العصر كان يتحكم في هذه الأحكام ويوجهها، لذلك فقراءة هذه الرواية لا ترتبط بما يقدمه الرحالة والمستكشفون الأوربيون حول المجتمعات الصحراوية، والذين حددت لهم أدوارهم مسبقاً، ولكن تبقى القراءة المحتملة للأسير كموضوع وضحية وسلعة^(٢).

لقد تضاربت التقارير في تحديد عدد الأسرى في المجال الممتد بين رأس باني والرأس الأبيض حيث إن تقريرى الإنجليزى (Jackson) والإسباني (Caro Baroja) يؤكدان أن

Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in (١) Olivier Vergniet, la distance en histoire: Maroc Sahara occidental, in revue de l'occident musulman, V48, N1, 1988, p. 98.

Olivier Vergniet, De la distance en histoire. Maroc - Sahara occidental: Les captifs (٢) du hasard (XVII - XXe siècle) in revue de l'occident et de la Méditerranée, V48, N1, 1988, pp. 97 - 99.

هناك ما يعادل ٢٠٠ حالة غرق للسفن الأوربية بين سنتي ١٧٥٠م و١٨٥٠م، وبما أن كل سفينة يتكون طاقمها من ١٢ فردا فحسب هذه الإحصائيات يصل عدد الأسرى إلى ٢٤٠٠ أسير، تبقى هذه الإحصائيات بعيدة عن الصحة حيث إن مجموعة من الوثائق تؤكد أنه خلال الفترة ما بين ١٧٦٨م و١٨٩٢م حصلت ٣٢ حالة غرق تمثل ٢٨٠ حالة أسر وقد تصل الاحتمالات إلى ٦٠٠ حالة ثم أسر ٥٠٠ حالة وتمكنت الحالات المتبقية من الفرار، وتبقى الملاحظة العامة حول هذه الظاهرة متمثلة في انعدام وجود أسرى من النساء^(١).

لقد كانت الخريطة القبلية غير معروفة لدى الأوربيين والرحالة، كما أن طاقم السفن، التي تتعرض للغرق، لم تكن مهمته استكشاف مجتمعات هذه القبائل، وحتى وإن ذكرت بعض أسماء القبائل مثل أولاد دليم وأولاد أبو السبع إلا أن الكلمة الأكثر استعمالا لنتعت هذه المجتمعات هي كلمة المسلمين.

لقد كانت مجالات الأسر تنقسم إلى مجالين الأول في الشمال يمثله مجال واد نون حيث يسكن البربر نصف الرحل، ويصبح بذلك الأسير سلعة تباع بشكل آني ومباشر. أما المجال الثاني فيوجد في الجنوب بين رأس بوجدور والرأس الأبيض ويقطنه حسب تعبير هؤلاء الأسرى أنفسهم الرحل المتوحشون وهم من العرب البيضان.

إن عملية الأسر في هذا المجال تتم من طرف بعض الصيادين الذين يقدمون كل من تعرض لهذه العملية للقبائل الأكثر قوة مقابل تعويض رمزي، وبين هذه القبائل يخضع الأسير لتصنيفات ترتبط بمدى قدرته على العمل مما يجعل القادر على العمل يستمر مدة أطول من غير القادر أو المريض الذي يباع بشكل مباشر كى لا يكون عبئا على سيده، لقد كان الأسير المسيحي مطلوباً من طرف الوسطاء أو المخزن أو القناصل وذلك عكس العبد الأسود الذي لا يطلبه أحد^(٢).

لقد سمحت طول المدة، التي يقضيها الأسير المسيحي عند سيده والتي قد تفوق في بعض الحالات السنة، بإمكانية إبدائه لبعض الملاحظات حول المجتمع الذي يعيش بينه قبل بيعه، وإذا سبق لنا أن تحدثنا عن نمط العيش الذي تتميز به المجتمعات الصحراوية فإن الأسير بغض النظر عن جنسيته يصبح سلعة تدخل في حركية هذا المجتمع وإلى

Olivier Vergniot, op. cit. pp. 100 – 101.

(١)

Ibid, pp. 105 – 105.

(٢)

غاية حصول عملية البيع التي تتم غالبا عن طريق المياضة مقابل ثلاث رءوس من المعز أو جمل أو جملين، فهو فاعل في عملية التوازن داخل المجتمع الصحراوي، فكيف وصف (Saugnier) و(Brisson) مجتمعات الصحراء حيث مكثا مدة طويلة.

لقد كان مجال تحرك هذين الأسيرين جنوب واد نون في مجال الساقية الحمراء ووادي الذهب، فسوئبي يقسم هذا المجال الذي يعتبره ممتدا من بلاد البربر إلى نهر النيجر إلى ثلاثة أقسام كبرى متوازية الأولى في الشمال حيث مملكة فاس ومراكش وسوس، الثانية في الوسط حيث توجد المجموعة التي يسميها عرب بلاد الجريد وتمتد من ماسة إلى رأس بوجدور، الثالثة في الجنوب حيث يسكن العرب الرحل أو البيضان، وتمتد بين رأس بوجدور ونهرى السنغال والنيجر^(١). إذا اكتفى سونبي بذكر المجموعات الكبيرة التي تقطن في الوسط والقسم الجنوبي أي تكنة والركيبات، فإن بريسون فصل أكثر حينما ذكر أسماء بعض القبائل الكبيرة في هذا المجال فهو يؤكد في روايته أن هذا المجال تسكنه قبائل كبيرة إلى حد ما تتداخل فيما بينها، وتعيش على التنقل وتستقر حيث المراعى المتوفرة على الأكل للقطيع ويتحدث في روايته على تقسيم مجالي شمال (Rio de oro) وادي الذهب تسكنه قبائل العروسيين وأولاد تيدرارين ومجال ثان جنوب (واد الذهب) بين الرأس الأخضر وأدرار وتسكنه أولاد دليم وأولاد بوالسبع^(٢).

لقد اتفقت الروايتان على وصف هذه المجتمعات بكونها تدين بدين محمد، ومع ذلك ففي عاداتهم تذكر هاتان الروايتان بعض القوانين الطبيعية التي تعبر عن بصمة خاصة بخرافات بعيدة عن الدين الإسلامي، وبرغم هذا الحكم فقد تحدثت الروايتان عن الطريقة التي تؤدي بها الصلاة وعن عملية التيمم التي تتم بواسطة الرمال بسبب غياب الماء، وإذا كان بريسون قد تحدث عن صلاة طلوع الشمس، وعن مشاركة النساء في هذه الصلاة وصلاة العاشرة ليلا أي العشاء داخل خيامهن، فإنه لم يذكر عدد الصلوات التي تتم خلال اليوم، خلافا لسونبي الذي حددها في ثلاث صلوات، كما أكدت الروايتان أن الصلاة تتم بشكل جماعي بوجود إمام.

(١) Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in Maurice Barbier, op. cit, pp. 131 – 133.

(٢) Brisson, Histoire du naufrage et de la captivité de M. Brisson, Paris, 1789, in Maurice Barbier, op. Cit. p. 197.

إن الإشكال في عملية نقل طقوس الصلاة لا يكمن في عملية وصفها، كما سبق ولكن فيما يتبعها من ممارسات وطقوس - كما قال بريسون - تشبه ما يفعله المسيحيون في الكنيسة، فهو يقول:

«حينما تنتهى الصلاة يبقون جالسين بعض الوقت، ويرسمون بأصابعهم أشكالاً مختلفة فوق الرمال ويديرونها فوق رؤوسهم كأنهم يقومون برشها، هؤلاء المتوحشون خلال طقوسهم يمارسون نفس الاحترام الذى نشعر به فى كنائسنا، مع ذلك لا أعتقد أنه من الممكن العبث بالدين أكثر مما يفعلون بمجرد نهاية الصلاة»^(١).

إن هذا الخطاب يحمل صورة كاريكاتورية على ممارسة طقوس الصلاة لدى هذه المجتمعات فهو ينعتها بالتمرين، يمارسه شخص ويتبعه آخرون سواء على مستوى عملية التيمم أم أداء الصلاة، وأما تركيزه على ممارسات قد تبقى عادية بعد كل صلاة، على كونها تلاعب بالدين إلا تعبيراً عن عدم فهم حقيقى للمجتمع الإسلامى.

إن هذه الصورة قد كررها بريسون عندما تحدث عن تعلم الأطفال الكتابة والقراءة فقد وصف طريقة التعلم التى تتم بصوت عال برغم اختلاف الدروس من طفل إلى آخر، لكنه عبر عنه بالخليط الفظيع، كما وصف الطريقة التى كانت تكتب بها الألواح وكيف تمسح وشكل القلم الذى تتم به الكتابة^(٢)، وإذا كانت هذه هى الصورة التى وضعها بريسون حول طريقة التعلم فإن سونبى أعطاها بعداً آخر حيث أوضح لنا أهمية المعلم الفقيه فى تكوين الأطفال وتحركه الدائم لتحقيق هذا الغرض.

إن عملية التعلم حسب بريسون تبدو تراتبية حيث إن الكبار يأخذون تعليمهم من الفقيه مباشرة والصغار ممن هم أكبر منهم، كما أكد أنه فى المجالات الصحراوية تدخل هذه العملية فى إطار ثقافة وعادات المجتمعات الصحراوية والمتمثلة فى انعدام مخالفة رغبات الفرد وعدم معاقبة الأطفال، مما يؤدى إلى أن تعلمهم يعتبر نوعاً من الاستراحة من عمل آخر يدخل فى مراقبة قطع العائلة، فالطبيعة تعتبر مؤثرة فى التربية فإذا ما أحس الطفل بنوع من الملل فى التعلم فإنه يذهب لممارسة نشاط آخر يدخل فى إطار عمل الفاعل الاجتماعى الذى يؤسس للتوازن.

Ibid, p. 199.

(١)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 215.

(٢)

لقد خلص بريسون إلى أن القليل ممن يختص بالتعلم ليصبح فقيها ذا مكانة داخل المجتمع والوصول إلى هذا المستوى يكون في مرتبة متقدمة داخل مجتمعات الرحل^(١). إن مقارنة بعض المفاهيم الواردة في نصوص خطاب الأسيرين من قبيل الشجاعة والوحشية تدفعنا إلى محاولة أخرى في القراءة تنطلق من النص نفسه ونستعير جملة استعملها بريسون حينما تحدث عن التربية التي تعطيها الطبيعة للفرد، وبذلك يصبح تكوين الفرد داخل هذا المجتمع يحكمه المفهوم الخلدوني للتوحش، إذ إن الطبيعة القاسية هي التي تصبح متحكمة في هذا التكوين، فعملية الاختيار التي تترك للطفل داخل هذه المجتمعات لها دلالات خفية ترتبط من جهة، باختياراته المستقبلية وموقعه داخل المجتمع، وهي من جهة أخرى تُكون فيه الصلابة التي يحتاجها ليكون شجاعا ومتحكما في وجوده داخل العائلة والعشيرة والقبيلة.

إن تعبير التمييز للطفل ينطلق حسب هذه النصوص من سن السابعة أو الثامنة ويرتبط بطقوس تؤسس بعملية الختان وحلق الرأس مع ترك أربع أو خمس شعيرات تقطع في احتفال عائلي كلما أقدم الطفل على عملية تعبر عن شجاعته وبأسه، حيث إنه في كل مرحلة تقطع شعرة إلى أن يصل إلى مستوى الحلق الكامل للشعر، تعبيراً عن استعداده لدخول عالم الرجولة التي يستطيع الطفل تحقيقها قبل سن العشرين^(٢).

معطى آخر يدخل في هذا التكوين والمتضمن لعملية التدريب الذي يتلقاه الشاب لاستعمال الخناجر قصد القيام بقطع لحم أعدائه بأظافره، وبذلك تعتبر التربية منذ الصغر على الجريمة، حسب تعبير سونيني، أداة لعملية نبيلة يمارسها الفرد داخل مجتمعه^(٣). إن النعوت التي استعملت للحكم على هذه المجتمعات مثل الشجاعة والنهب والحرب تعتبر طبيعية إذا ما قسناها بحاجيات هذا المجتمع إلى مثل هذه الممارسات من أجل البقاء والاستمرار، فظاهرة القتل والقهر تصبح عادية لدرجة تجعل هذه المجتمعات تتباهى فيما بينها في تجمعاتها بالانتصارات التي تحققها على الأعداء^(٤).

Ibid, p. 135.

(١)

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 135.

(٢)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 202.

(٣)

Saunier et Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 132 – 198.

(٤)

إن هذه النتيجة التي تبدو طبيعية إذا ما قسناه بأبعاد ثلاثة تبدو حاضرة في تكوين الفرد داخل هذه المجتمعات تمثلها القوانين الطبيعية والاختيارات الحرة وإثبات الذات، ونعتقد أن حكم بريسون على كثرة عدم المهتمين بالتعلم يدخل في الاختيارات التي يقدمها المجتمع للفرد في أن يكون محاربا وهو ما يبرر التقسيمات الاجتماعية اللاحقة التي عملت على تقسيم هذه المجتمعات إلى قسمين، أهل السيف وأهل القلم، وبذلك يصبح التوحش نسبي وعدم التحضر بعيدا عن الدقة، حينما يتعلق الأمر بمجتمعات الرحل التي تؤسس لفاعلية اجتماعية تبنى على التوازن، هذا التوازن الذي لا يكتمل إلا بقراءة للنصف الثاني من المجتمع الذي تمثله المرأة.

تعتبر المجتمعات الصحراوية مؤسسة لمنطق افتراضى تتحكم فيه عملية الاستمرار والتكاثر وتعتبر المرأة محورية هذه الاستمرارية من حيث الأعمال التي تقوم بها وطبيعي أن يتدخل الرجل الذي يعتبر نفسه القيم والمسئول عن حفظ الاستمرارية عن طريق التخطيط والتفكير. إن الاعتقاد السائد من خلال نص خطاب الأسير حول المجتمعات الصحراوية يعطى صورة قاتمة عن المرأة فى المجتمعات الصحراوية، فقد نعتها هذا النص بكل تعبيرات الإذلال والتحقير سواء فى مستوى مؤسسة الزواج أم الطلاق أم فى مستوى الأشغال الشاقة التي تمارسها، تهيئة الأكل وضمان التكاثر (٥ إلى ٦) أبناء فى المتوسط، أو على مستوى حلب النوق أو المعز أو تهيئة الزيد أو نسج غطاء الخيمة وبنائها عند الإقامة أو جمعها عند الرحيل، فالمرأة تأتي دائما فى المرتبة الثانية بعد الرجل وبعد الأبناء من الذكور.

لقد أكدت هذه النصوص على التمييز الذى يحصل عند ولادة الزوجة لفتاة أو ولد فالاحتفال يختلف ويقول بريسون: «كل امرأة أنجبت ولدا تقوم بطلاء وجهها بالأسود لمدة ٤٠ يوما أما إذا كانت أنجبت بنتا فلا تقوم بطلاء سوى نصف وجهها ولنصف المدة أى ٢٠ يوما»^(١) أى إن مدة طقوس التطهير تختلف باختلاف جنس المولود وإن كان هذا يعبر عن طقس عربى قديم فهو يعبر عن التمييز الذى يطرحه هذا المجتمع فى علاقته مع جنس المولود.

مستوى آخر، فى هذه النصوص، يدخل فى إطار العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ويتعلق الأمر بقضية تعدد الزوجات والطلاق والإرث، فىرى سونيبى أن تعدد

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p 212.

(١)

الزوجات قليل في هذه المجتمعات كما أن الطلاق لا يحصل إذا كان للزوجة أولاد، ويؤكد سونبي ذلك بقوله :

«في حالة الخلاف بين الزوجين وانسحاب الزوجة نحو أهلها ورفضها العودة إلى زوجها الذى يطلبها، فلها أن تتزوج بمن تريد، أما إذا كان لديها أولاد وغابت عن خيمتها لمدة تزيد على ثمانية أيام فتستحق العقوبة التى قد تصل إلى القتل»^(١).

فصلت هذه النصوص كذلك فى مستويات العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مستويين يحمل الأول نوعا من الغرابة حينما يؤكد سونبي أن التعبير عن الحب يمارس عن طريق الضرب^(٢) كما أن للمرأة طقوسا فى التعبير عن علاقتها بزوجها خاصة أثناء سفره حينما تقوم بدفن حجرة دق أوتاد الخيمة فى الرمال معلنة عدم نقل خيمتها أثناء غيابه وهى تتمنى له بصيغة أخرى سفرا موفقا^(٣).

والنوع الثانى له علاقة بالإرث وهو الذى لا يمكن فهمه إلا فى إطار خصوصية هذا المجتمع الذى تفرض عليه قوانينه الطبيعية وعقلية ثقافته ممارسات خاصة على مستوى التفضيل فى الإرث بين الولد والفتاة ويقول سونبي فى هذا الصدد :

«حينما يموت رب الأسرة فإن جميع ممتلكاته الموجودة بالخيمة تصبح بيد أول الأبناء الموجودين أثناء وفاته، فكل المجوهرات والأموال والحلى تختفى ولا يستفيد منها باقى الأبناء، ولا يمكن لهم أن يقتسموا سوى الحيوانات والعييد، الفتيات لا يشاركن فى القسمة، وينسحبن عند أخيهن الكبير. إذا ترك المتوفى أطفالا صغار السن، فإن الزوجة تنسحب نحو أختها إذا كانت متزوجة، أو عند أمها. فى هذه الحالة فإن ممتلكات المتوفى لا تضيع ويتكلف رئيس العشيرة بضمانها إلى أن يوزعها على مالكيها بشكل متساو حينما يكونون قادرين على حمايتها. إذا مات العربى دون أن يترك أولادا ذكورا فإن الزوجة تنسحب عند والديها، ويرثه أخوه»^(٤).

إن تأملنا لهذه القسمة فى الإرث تؤكد ما ذهبنا إليه سابقا حينما ناقشنا الدور الذكورى فى هذه المجتمعات من جهة وأهمية تملك الأبناء من الذكور للقطيع خاصة من

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 149 – 150.

(١)

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 150.

(٢)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. 212.

(٣)

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 148.

(٤)

الإبل والعييد من جهة فما عدا ذلك لا يهم، فالتمييز مرتبط بعدد الأطفال من الذكور الذي يعنى التكاثر الجالب للقوة، وتملك أكبر عدد من الإبل يعنى تملك السلطة والقيادة، وتبقى بذلك القراءة المباشرة لهذه النصوص كما قد تفهم من أول وهلة وكما يصورها أصحابها مرتبطة بنظرة دونية للمرأة داخل هذه المجتمعات وهو تصور خاطئ لأن المرأة فى مجتمعات الرحل تسهم فى احترام هذه القوانين الطبيعية، وإذا كان نص خطاب الأسرى قد تحدث عن تناول المرأة للطعام بعد الرجل فهذا يعتبر فى نظرنا نوعا من الاحترام لأنها تمارسه مع طفلها حينما يبدأ فى المشى، وتبقى المرأة فى هذه المجتمعات رمزا للتكاثر. أما الإبل فهى رمز للحياة وأداة للتنقل فهى توفر الحليب حوالى أربعة لترات ونصف تصنع منها الزبد ويمثلان إلى جانب الشعير المادة الغذائية الأساسية بالنسبة لهذه المجتمعات.

إن التمييز داخل رجالات هذه المجتمعات يرتبط بالعائلات الكبيرة التى يختار منها رؤساء العشائر فرئيس العشيرة (تتكون العشيرة من حوالى ١٢٣ عائلة) يكون الأغنى والغنى له علاقة بعدد الإبل التى يمتلكها فهو سيد يتميز من خلال كبر خيمته التى تتوسط المخيم ومن خلال أحكامه التى يصدها والتى لا تقبل الاستئناف، يتميز كذلك بكونه المستضيف للغريب فهو صاحب الخيمة الكبيرة والمقرر لتاريخ وزمن التنقل، وهو الذى يقتسم المجال حسب حاجيات القبيلة من المرعى وهو من يقرر تقسيم العشيرة إلى أقسام تتكون من ٧ إلى ٨ خيم إذا لم يكن المرعى كافيا للجميع^(١).

إن ظاهرة الكرم فى المجتمعات الصحراوية ترتبط بمستويين مستوى قد نعبر عنه بالتضامن مع المتنقل عبر هذا المجال ومستوى آخر له علاقة بالمعلومة التى يمكن أن ينقلها هذا المسافر الغريب وهو ما يؤكد نص خطاب بريسون فهو يقول:

«يسأل المسافر عن الجهة التى جاء منها وإذا ما وجد فى طريقه العديد من المراعى وبعد إجابته عن هذه الأسئلة يسأل عن انتمائه القبلى»^(٢).

إن بنية مكونات هذا المجتمع من خلال هذه النصوص تكتمل من خلال حديثها عن الصناعات (المعلمين) وقد تحدث بريسون عن وجود صانعين مثل النجار والحداد لكنه أغفل صناعات أخرى تقوم بها المرأة من نسج الصوف وصناعة القرب التى تحمل الحليب، وقد

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 142.

(١)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 203.

(٢)

تعامل بريسون حين حديثه عن هؤلاء الصانع بنوع من الاستهزاء والسخرية معللا تدخله فى العديد من المرات لتصحيح ما يقومون بصناعته ، هذا بالإضافة إلى أنه أثناء حوار مع هذه المجتمعات نعتهم بالأنانية وبالتميز عن باقى الشعوب وأنه لا توجد أرض غير التى يوجدون فيها. كما تحدث على نوع من التميز بين القبائل الكبيرة والصغيرة التى تعيش تحت حماية القبائل الكبيرة وأكد على التباعد الذى يحصل بينهم فى عملية الانتجاع وفى المخيمات^(١).

لقد كان عرضنا لنص الخطاب الفرنسى المنبثق عن الأسر انتقائيا بالأساس ركزنا فيه على نظرة الأسير المنتمى إلى فئة التاجر (Saugnier) والمنتمى إلى فئة العائلة النبيلة (Brisson) الأول استطاع الاندماج مع من سجنوه والثانى لم يستطع تحقيق ذلك. إن عملية الانتقاء شملت بالأساس منظور الأوروبى عامة والفرنسى على وجه الخصوص للمجتمعات الصحراوية فى المغرب وإذا كان (Maurice Barbier) الذى أصدر هذه النصوص سنة ١٩٨٤م ، لتبيان معاناتهم من جهة ولتقديم وصفهم لمجتمعات الرحل حيث كانوا عبيدا لدى أسيادهم ، فقد كان هدفه كذلك هو تأكيد عزلة هذه المجالات عن السلطة المغربية.

لقد ركزنا فى عملية الانتقاء التى عرضناها معتمدين منهجا تحليليا يعتمد قراءة أخرى اعتمدت بالأساس على النص الخلدونى وما أسميناه بالتوازن البيئى الذى يفرض على مجتمعات هذه المجالات أن تعيش مجبرة بطرق خاصة بها تتلائم ومحيطها ، لقد ركزنا فى انتقائنا على أربع قضايا أساسية فى هذه الخطابات ، ويتعلق الأمر بأطروحات ثنائية تتضمن الشجاعة والتوحش ، والقيادة والتميز واستراتيجية التدبير ، والمرأة والقطيع وسر الاستمرارية والتكاثر ، وأخيرا الطقوس والممارسات الدينية. لقد حاولنا فهم هذه الثنائيات وتحليلها فى ضوء الخطاب الخلدونى الذى يركز على هذه القضايا الثنائية ، فهو يؤكد على أن اختلاف المجتمعات مرتبط بنحلتهم فى المعاش بحيث تغلب عليهم صفة التعاون من أجل الاستمرار ، فعزلة هذه المجتمعات تقتضى التوحش من أجل توفير الحماية التى لا يمكن إلا أن تكون ذاتية ، وهو ما يفسر طبيعة تكوين الأطفال كما عرضته النصوص الفرنسية أى التربية على الشجاعة التى تعتبر فعلا ضروريا لتحقيق الحماية ، كل هذا تجسده ثقافة عبر عنها ابن خلدون بقوله : «... بعلاقة معاشهم على الإبل ورعايتها

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 204 – 206.

(١)

ونتاجها... وربيت فيه أجيالهم»^(١) وإن كان ابن خلدون لم يسرح في هذه المقولة بدور المرأة في هذه المجتمعات فمساهمتتها في تربية الأجيال وتحويل نتاج الإبل إلى الغذاء الأساسي لهذه المجتمعات يدخل ضمن ما أسميناه بالمقاربة الثنائية «المرأة والقطيع والاستمرارية والتكاثر» إن منهجنا في مقارنة هذه النصوص لم يهتم بمسألة النقد لهذه النصوص ولكن ذهب أبعد من ذلك من خلال قراءتها في ذاتها ومحيطها.

المقاربة العلمية: أهمية المجال واستراتيجية المراقبة

إن الدراسات الفرنسية الصادرة خلال مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي تدخل ضمن البحث العملي وهو توجه برز لدى المؤسسة الاستعمارية الفرنسية للتحكم من جهة في مجال أمامي للسيطرة الفرنسية تمثله كل من الجزائر منذ ١٨٣٠م والسنغال منذ ١٧٧٩م وموريتانيا منذ ١٩٠٣م، ومن جهة أخرى، فهو محاولة لحماية هذا المجال من تطلعات الدول الأوروبية المنافسة التي تمثلها إسبانيا وإنجلترا، هذه المعطيات جعلت فرنسا تهتم أكثر بصحراء جنوب المغرب، وهو ما عبرت عنه في المؤتمر الذي نظمته مؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط في الثالث من مايو سنة ١٩٣٠م، والذي أكد من خلاله مدير الدراسات الجغرافية (M. J CELERIER) أهمية الاهتمام العلمي بالصحراء، فهو يقول:

«من الضروري الاهتمام بعلم الصحراء، لاعتبارات تتمثل في أن الصحراء تشكل عالما مميزا وله بصمة خاصة ومختلفة تماما، حيث لا يمكن أن نطبق فيه نفس السياسة التي نمارسها على عالم المستقرين في الأطلس»^(٢).

إن الهدف الأساسي من هذا الكلام وفي هذا المؤتمر هو توفير المعلومة العلمية حول الصحراء خاصة وأن الحقيقة حسب سيليربي تبقى دائما إضافة إيجابية. فلا يمكن فهم حقيقة المغرب دون مصادفة مشاكل علاقاته مع الصحراء سواء عبر التاريخ منذ عهد المرابطين إلى حركة الهبة مرورا بوصول قوات المنصور إلى تمبوكتو، وهو ما يؤكد نوعا من التداخل الاجتماعي والمجتمعي والثقافي بين قبائل شمال جبل باني وجنوبه.

(١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٤٨٥.

(٢) M. J. Célérier, L'intérêt du Sahara occidental pour l'étude du Maroc, Acte du VII congrès de l'institut des hautes études Marocain, in Hespéris, Vol. XI, 1930, p. 3.

لقد كان الهدف من هذا المؤتمر بالنسبة لفرنسا هو تحقيق نتيجتين الأولى استراتيجية تتمثل في ضبط هذا المجال والثانية تدخل في محاولة لرسم الخريطة الاجتماعية للحركات الثقافية والاجتماعية، وقد اخترنا لقراءة هذه الثنائية المعرفية ما كتبه الباحث الفرنسي (Robert Montagne) الضابط في البحرية الفرنسية والذي انتقل إلى المغرب بعد الحرب العالمية الأولى ليثير انتباه اليوطى ويصبح مستشاره الخاص وقد قام بالعديد من الأبحاث الاجتماعية والاثنولوجية حول المغرب وأصبح أستاذا محاضرا في مؤسسة الدراسات العليا المغربية في الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٢٤م و١٩٣٠م قبل أن يناقش أطروحته التي خص بها دراسته حول البربر والمخزن في الجنوب المغربي وقد تقلد العديد من المهام الإدارية والعلمية إلى وفاته في حدود سنة ١٩٥٤م.

نستعمل نصين لمقاربة تصوره حول مجال ومجتمع الصحراء، النص الأول اعتبره نظريا مستخرجا من كتابه الصادر في باريس سنة ١٩٤٧م تحت عنوان «حضارة الصحراء: رحل المشرق وإفريقيا»، أما النص الثاني فهو عبارة عن دراسة عرضها في مؤتمر الرباط سنة ١٩٣٠م والتي عنوانها ب حدود المغرب والصحراء الأطلنطية.

إن كتاب مونطان حول حضارة الصحراء يعتبر نتاجا لتجربة مشاكل الرحل تم جمعها خلال خمس وعشرين سنة من الرحلات في إفريقيا والمشرق فهو يحمل نظرة شاملة لسؤال معقد والذي تعتبر عناصره في بعض الأحيان مشتتة ويصعب الحصول عليها، ففي هذا الكتاب يتحدث مونطان عن الحياة المادية والتنظيمات الاجتماعية والمعتقدات والتشريعات^(١)، وما يهمننا في هذه الدراسة نظريته المنهجية لمقاربة مثل هذه المجتمعات، فهو يؤكد أن دراسة مجتمعات الرحل تحمل صعوبة حقيقية حيث يرى أنه ليس من السهولة معرفة ومتابعة تنظيم داخلي لمجموعة مشكلة من خيم مشتتة في مجال غير محدد ومتنقل، حيث إن التمييز في مثل هذه الحالات يبقى غير ثابت، فهو يقول:

«العرب والبربر لا تتمثل لديهم العلاقات السياسية سوى عن طريق رابطة الدم أو الانتماء، وببدو صعبا التمييز بين الانتماء الأبوي والانتماء الاجتماعي، فحينما يتعلق الأمر بكنفدرالية كبيرة فلا يمكن أن نفسر عملية الانتماء بنفس الطريقة، حيث توجد عناصر

Monteil Vincent, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, in (١) Politique étrangère, V13, N3, 1948, p. 264.

مختلفة تحدد أسباب دخول مكونات هذه الكنفدرالية وحتى إن استطعنا وضع جدول لهذه التجمعات الكبيرة فهو يحتاج دائما إلى تحسينات»^(١).

إن هذه المقاربة هي التي حاول مونطان الإجابة عنها من خلال النص الثاني الذى عمل من خلاله على تجاوز الإشكال الذى تطرحه دراسة هذه المجتمعات، وبرغم كون نتيجة هذه الدراسة ترتبط بما ذهبنا إليه سابقا، والمتمثلة فى استراتيجية استعمارية بالأساس، إلا إنها تحمل منهجية علمية حاولت فهم المكونات الممكنة لهذه المجتمعات، وبرغم أن البعد اللسانى والاجتماعى كان حاضرا ضمن تحديد أوسع تمثله الجغرافية البشرية، فإن هذه القراءة التى وضعها مونطان فى هذه الدراسة تفسر سبب اهتمام فرنسا بمجال ما بعد واد نون وبانى أى مجال كونفدرالية تكنة، ولماذا يبدو الأمر أصعب بالنسبة لها فى مجال أعمق خاص بمجال الركيبات؟

إن السؤال المحورى الذى وضعه مونطان فى دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنطية يتمثل فى: هل توجد حدود تفصل بين الصحراء الأطلنطية وجنوب المغرب، حدود جغرافية وطبيعية ترسم فى نفس الوقت تحولات فى الحياة المادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع؟ هل توجد خطوط فاصلة بين عالم الاستقرار والترحال؟ هل نمر بمرحلة انتقالية بين الجهة الجنوبية للأطلس الصغير إلى السهوب ما قبل الصحراوية فى درعة، بشكل يؤكد لنا أننا نتجه نحو الصحراء حيث توجد الرمال؟

لقد حاول مونطان من خلال دراسته تتبع التحولات الممكنة لمجتمعات هذه المجالات مركزا على حركية سكان الجبال وعلاقتهم بالزراعة قرب الأنهار فى درعة ونون، وعرضه كذلك للحاجز الطبيعى الذى يمثله جبل باني بين شمال يسكنه مجتمع ناطق بالأمازيغية وآخر نحو الجنوب ناطق باللسان العربى الذى تمثله سلطة بنى معقل منذ خمسة قرون.

إن الإطار الذى يهمننا فى هذه المقاربة، التى تؤسس للبنية المعقدة للمجتمعات الصحراوية فى الجنوب المغربى كما عرضها مونطان فى مستوياتها النظرية، تكمن فى أن الحدود الطبيعية الفاصلة بين المجالين هي فى نفس الوقت تتضمن مستويين من التنظيم السياسى والاجتماعى. ففى الأطلس الصغير كما هو الحال فى مجالات سوس فإن البنية السياسية

Robert Montagne, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, Paris, (١) Hachette, 1947, p. 49.

تعتمد بالأساس تقسيمات القبائل إلى مجموعات تستقر في مجال يمتد بين ٤٠ و ٥٠ كيلو مترا مربعا ويتكون من ساكنة تتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ كانون^(١)، وتشكل هذه المجموعات جمهوريات صغيرة تسيير من طرف الأمغار وهي ظاهرة تنتشر بشكل كبير في الجهة الشمالية للأطلس الصغير^(٢). إن أهمية هذه المجموعات الصغيرة تبرز في تشكيل التحالفات في حالة الحرب كما هو الحال بالنسبة للفي تحكّات وتأكوؤلت، لقد كانت مؤسسة اللفوف، برغم قدمها، ضرورية في هذه المجتمعات لتحقيق التوازن بين مجموعات بشرية كبيرة الانتشار تعيش طليقة ولا تخضع لحكم مركزي يضمن التوازن^(٣).

أما على مستوى الجهة الجنوبية لواد نون فإن المجموعات الاجتماعية تظهر لنا ببنيات مختلفة، فهي، يؤكد مونطان، عبارة عن تجمعات صغيرة مكونة من ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ كانون يصعب تحديدها، هذا بالإضافة إلى أنها، حسب مونطان، لا تتوفر على مجلس للوجهاء وتجمعاتها تتم بالصدفة لمناقشة مستويين حالة الحرب والنقاش حول المراعى. إن هذه الوضعية تجعل كل رئيس خيمة رئيسا عن نفسه، وفي هذه الحالة تتحول الوحدة إلى كونفدرالية تضم آلاف الكوانين مثل ما هو الحال بالنسبة لكونفدرالية تكنة، وهو ما ينطبق على إد بلا وإد الجمل.

إن الاختلاف داخل هذه المجموعة مقارنة مع لفوف الشمال يكمن في الحرية التامة في اختيارها الجهة التي تريد الانتماء إليها، وتقدم خدمة الحرب لمن تريد ودون تقديم أى تبرير^(٤).

إن هذا التوجه الذى يحمل بعدا اجتماعيا مرتبط أساسا بطبيعة المجال الذى يتحكم في ظروف التموقع داخل التحالفات حفاظا على آليات البقاء والاستمرار، وهو ما يفسر ظاهرة الانتماء التى تتجاوز علاقة الدم نحو علاقة أكثر عمقا وهى التى تشكل القراءة الثانية لمواطن التحول الاجتماعى نحو المناطق الصحراوية التى حددها بأيت يوسى التى تعتبر آخر شكل للتحول قصد المرور من الترحال الصغير نحو الترحال الكبير الذى تمثله قبائل الركييات المميزين بدوابهم وتنقلاتهم الواسعة.

(١) الكانون يعنى الأسرة التى تتشكل من ٥ إلى ٦ أفراد.

(٢) Robert Montagne, La limite du Maroc et du Sahara atlantique, in Hepéris, Vol XI, (٢) 1930, p. 115.

(٣) على صدقى أزابكو، تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة، الرباط، مركز طارق بن زياد، ٢٠٠٢م، ص ١٥٢.

(٤) Robert Montagne, la limite du Maroc et du Sahara atlantique, op. cit. p. 116.

التمييز الاجتماعي الثاني يحدده مونطان في مؤسسة ذات طابع سياسى معروفة «بالديحة» وهي مؤسسة غير موجودة شمال نون وبانى وهي عبارة عن اتفاق حماية تجمع مجموعة اجتماعية أو قبيلة مع غريب جاء للاستقرار فى مجالها أو للعبور، هذه الحماية تكون مضمونة ليس من طرف كل المجموعة، ولكن من خلال أحد وجهاء القبيلة الذى يتميز بغناه الرمزي الذى تمثله ملكيته لقطيع من الإبل، والذى يتحول شيئا فشيئا نحو سلطة عن طريق مساعدة القبائل التى تعيش فوضى والتى تعتبر بالنسبة إليه خزانة للقوة يمكن استعمالها ما دامت مصادره تسمح بذلك.

إن هذا الحاجز الطبيعى والاجتماعى واللسانى الذى ناقشه مونطان من خلال نصه يعتبر افتراضيا بحيث تم تجاوزه عبر التاريخ فى الاتجاهين معا حيث إن كل من تجاوزه يغير عاداته وتقاليده الاجتماعية لدرجة أن نفس مجموعة الانتماء قد تختلف جذريا حسب موقعها فى مجالى الترحال أو التنقل، وهو ما يؤسس لشكل من الازدواجية يحكمها من جهة الفطام مع المرجعية الأصلية، والتكامل فى إطار الحراك الاجتماعى،^(١) الذى يؤكد على وجود نوع من التداخل الثقافى بين المجتمعات المستقرة فى واد نون ورحل مجتمعات البيضان التى كانت تتجه نحو الشمال حينما تضيق وتنعدم مراعى الجنوب.

الخلاصات المنهجية والأهمية التاريخية

بين الأسير والباحث مسافة على مستوى الزمن القرن الثامن عشر بالنسبة للأول والقرن العشرون بالنسبة للثانى، هو انتقال من معانات الأسير مع الأسر ولكن كانت الكتابة أداة للتنبيه والوصف، وتنبيه المجتمعات الأوربية لخطورة المجال وصعوبته، هذه الصعوبة التى حاول البحث فهمها لتحليلها استراتيجيا واجتماعيا خدمة لمصلحة استعمارية بالأساس، ولكنه فى ذات الوقت أداة لتبرير الاختيارات الفرنسية فى تحديد مجالات استعمارها للمغرب فى واد نون.

لم ننطلق فى مقارنة النصين من الهدم المعرفى نحو التأسيس المعرفى البديل ولكن قرأنا ارتبطت بالنص وحاولت فهمه لذاته وظروفه وحيثياته، لقد اعتمدنا فى التحليل

Henry Marchat, La frontière Saharienne du Maroc, in politique étrangère, Vol. 22, (١) N. 6, 1957, p. 640.

على المقاربة التي انطلقت من الطرح الخلدوني الذي حاول فهم مجتمع البدو انطلاقا من نمط العيش المفروض عليه والذي أسس لبنية اجتماعية لا تعتمد التراتبية وإنما تنطلق من معطيات الفاعل الاجتماعي ، وهو اتجاه نتفق من خلاله مع الطرح العلمي الذي حدده مؤنطان فى مستواه النظرى والذى سمح لنا باستنباط فرضيات لفهم المجتمعات الصحراوية فى المغرب والمبنيّة أساسا على خلق التوازن داخل بيئة صعبة تقتضى بنية بيداغوجية خاصة وهى النتيجة التى تضى الأهمية التاريخية لمثل هذه النصوص.



فهرس المحتويات

الصفحة

٥	تصدير: عادل غنيم
٧	تقديم: أبو أدهم
٩	عن مفهوم البداوة عند ابن خلدون - مصطفى لبيب عبد الغنى
١٨	الهكسوس بين الحضارة والبداوة - فايز على
٤٢	طبائع البدو آداب الإسلام - محمود عرفة محمود
٥٨	البدو وقافلة الحج المصرية خلال العصر العثماني - حسام عبد المعطى
	هجمات البدو وآثارها الاقتصادية والاجتماعية فى ريف الدلتا فى العصر العثماني -
٨٣	جمال كمال محمود
١٢١	بدو وادى النظرون والسلطة السياسية فى القرن التاسع عشر - ماجد عزت إسرائيل
	حركات الرفض والاحتجاج عند البدو فى عهد محمد على وخلفائه - بكر يحيى
١٥٠	محمد سليمان
	الشرع يحكم فى البادية، دراسة لعملية أسلمة القضاء البدوى بين قبائل أولاد على -
١٧٠	سعيد المصرى
٢١٤	بدو مصر فى ثورة ١٩١٩م - أحمد الشربيني
٢٢٧	البدو ودستور سنة ١٩٢٣م - سعيده محمد حبنى
٢٤٢	الإخوان - فوزى أسعد نقيطى
	عوامر أبو ظبى، دراسة تاريخية ميدانية لحياة البدو الاقتصادية - جمال محمود
٢٦٧	حجر
	المجتمعات الصحراوية فى المغرب: بين الأسير والباحث، محاولة قراءة منهجية فى
٢٨٧	نص الخطاب الفرنسى - عبد الكريم مدون